مِيزان الحَق

The Balance of Truth

لا تحريف في التوراة والانجيل

There is no corruption
in the Torah or the Bible

الجزء الأول

الدكتــور فــاندر
Dr. Carl Pfander
(Arabic)

www.muhammadanism.org
November 30, 2011
Arabic

مقدّمة

الحمد لله أننا نعيش في عصر العلم والتنوّر، الذي لا مكان فيه للمتعصب والمتدين والناموسي. إن أوساط الدنيا مفتوحة للبحث الموضوعي والتفاهم المبني على أسس الحقيقة، فإن كنت من الذين يفتشون عن الحق فندعوك للدراسة الخالية من العواطف لتجد جوهر الوحي وتلبس قوة العلي.

الحمد لله مرة أخرى لأن الخبير الدكتور فاندر ألف منذ أكثر من مائة سنة هذا الكتاب الشهير ميزان الحق ولم نجد حاجة للتغيير فيه لأن مقارناته متينة ومبنية على احترام وفهم وعدل، فيسرنا أن ننشر كتابه مرة أخرى عسى أن بعض الشباب يغادرون جو القرون الوسطى وينطلقون إلى حرية الفكر والحياة المبنية على الواقع والمنطق والمحبة.

وبما أن القارئ العادي يقرأ وينسى ويضع الكتاب في رفوفه . نقدم هذا الكتاب كسلسلة دروس بالمراسلة لتستطيع التعمق في المواضيع المختلفة . وبزيادة على هذه المعرفة نقدم لكل ناجح في الدروس كتبا أخرى مجانا هدية للتعمق الأكثر ، لأن المجتهد يستحق معرفة أكثر وقوة اليقين في فرح المحبة والاحترام .

الناشرون

الباب الأول

في بيان أن العهد القديم والجديد (أي التوراة والانجيل)
هما كلام الله ولم يُحرّفا ولم يُنسخا

— * —

الفصل الأول

في شهادة القرآن للتوراة والانجيل

لا يخفى أن العلماء قد قسموا البرهان إلى نوعين : عقلي ونقلي. فالعقلي يحتوي على الدليلين الخارجي والداخلي. ولو كنا نؤلف تأليف لإقناع الكفار والملحدين وعبدة الأصنام، لكان يجب علينا أولاً أن نأتي بالدليل الخارجي بأن التوراة والإنجيل هما قديمان وغير محرَّفين، ونبيّن وجوب الاعتماد عليهما لأنهما وحي من الله تعالى ثم علينا أن نذكر تاريخ كل سفر من أسفارهما - بقدر إمكاننا - لنبيّن كيفية جمع الأسفار، وهل يحق لنا بعد وزن الدليل الخارجي أن ننسب الأسفار للأنبياء الذين كُتبت أسماؤهم عليها أم لا؟ وأخيراً نبحث في حقيقة الدليل الداخلي المأخوذ من نفس الأسفار ونبيّن نتيجة بحثنا.

أما المسيحيون فإنهم كرروا ذلك، لأن الملحدين وغيرهم

أثاروا حرباً عواناً ضد الكتب المنزلة. ولإقناعهم فحص المسيحيون وحققوا جميع الأدلة، سواء كانت لهم أو عليهم لكونهم شديدي التمسك بالوصية المقدسة القائلة "امْتَحِنُوا كُلَّ شَيْءٍ. تَمَسَّكُوا بِالْحَسَنِ" (١تس ٥ :٢١) فإطاعة تلك الوصية مطلوبة منا بأمر من الله تعالى الذي وهبنا عقل لأجل هداية خطواتنا في سبيل تمجيد اسمه الأقدس. وحيث أن الحق من أخص صفات الله فهو لن يبيد ولن يتلاشى، بل يجب أن يبقى أبدياً. والذي يريد البحث عن الحق الإلهي والسير في مسالكه حسب إرادة الله المقدسة لا يخوفه ولا يصده عن أدق تنقيب حول أسس إيمانه شيء ما، وبعد إتمام ذلك التنقيب والبحث لا يثبت على صخرة الحق وحده فقط، بل هو قادر أيضاً على إعانة آخرين مثل اللا أدرية وغيرهم من المترددين والمذبذبين في الشك، فإيمانه حينئذ يستحق أن يطلق عليه اسم إيمان إذ ليس هو كتقليد الجاهلين ولا كتمسُّك المتعصبين.

أما الأدلة العقلية على صحة الديانة المسيحية فمكاتب العلماء المسيحيين مملوءة بالكتب في موضوعها، وليس هنا محلٌّ لإيرادها.لأن غرض هذا التأليف ليس إقناع الكفرة، بل مساعدة إخواننا

المسلمين الذين يقبلون القرآن كآخر إعلان من الله تعالى لهم، ويؤمنون أنه يحتوي على كلام الله نفسه، فأهم من كل شيء عند المسلم اعتقاد صدق ما قاله القرآن الشريف لأن بعض المسلمين الجاهلين يعتقدون بعكس ما قاله القرآن في ذلك وما سببه إلا سوء الفهم(١) ولا يستغرب اذا قلنا أن أكثرهم يعتقد في الكتاب المقدس غير ما يشهد القرآن له. فيجدر بكل مسلم أن يشترك معنا في البحث عن شهادات القرآن للتوراة والإنجيل، لنستفيد جميعاً فائدة تُذكر فتُشكر.

يعلم الجميع أن المصحف يشهد أنه وُجد في جزيرة العرب زمن صاحب القرآن أمتان مختلفتان في الدين، قال في سورة البقرة ٢ :١١٣ "وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النصارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النصارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِم" ، وملخص ما قاله البيضاوي في تفسيره لهذه الآية إنها نزلت عند قدوم وفد نجران على صاحب القرآن، حيث تناظروا مع أحبار اليهود وتقاولوا بذلك، ليست على شيء أي على أمر يصح ويعتد به والحال

(١) يجدر بالقارئ الكريم أن يقتني نسخة من كتاب خلاصة الأدلة السنية على صدق الديانة المسيحية المطبوع في بيروت سنة ١٨٧٧

إنهم من أهل العلم والكتاب، ومثل قولهم قال الذين لا يعلمون كعبدة الأصنام والمعطلة. لكنهما وإن اختلفا ديناً فقد اتحدا بتسمية كل منهما أهل الكتاب؛ ألا وهما المسيحيون واليهود. قال في سورة آل عمران ٣ :٦٩-٧١ "وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ, يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ, يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ" وفي آل عمران ١٢٠ "وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ" وفيها أيضاً آية ١٩٩" وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِم" وفي سورة النساء ٤ :١٥٣"يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِنَ السَّمَاءِ" وفيها آية ١٥٧ "وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ" وفي سورة العنكبوت آية ٤٦ و ٤٧ "وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُون".

إن القرآن يشهد أن الكتاب الذي انتمى إليه هذان الشعبان لم يزل

موجوداً بصحته إلى زمنه. قال في سورة البقرة ٢ :١٠٥ و١٠٩ "مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ... وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ..."

وفي سورة آل عمران ٣ :٢٠ و٢٣ "وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِيينَ ... أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ".

قال البيضاوي : ما ملخصه الداعي محمد، وكتاب الله القرآن والتوراة.

وفيها أيضاً آية ٦٤ "قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الخ" وآية ٦٥ "يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ الخ" وآية ٦٩ "وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ" وآية ٧٠ "يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ" وآية ٧١ "يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ الخ" وآية ٧٢ "وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ الخ" وآية ٧٥ "وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ الخ" إلى آيات كثيرة يسمي القرآن اليهود والنصارى بأهل الكتاب ، ولا شك أنه هو الذي كان وقتئذ موجوداً بأيديهم. قال في سورة المائدة آية ٤٧ "وَكَيْفَ يَحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللهِ الخ" (وآية ٤٨) "إِنَّا

أَنْزَلْنَا التوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ يَحْكُمُ بهَا النبيُّونَ الخ" وآية ٧٢ "قُلْ يَا أَهْلَ الْكتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ الخ" وفي سورة الأعراف يصرح بأن اليهود تلقوا الكتاب - التوراة - بالتوارث عن آبائهم حيث يقول في آية ١٦٨ "فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكتَابَ الخ" حتى أن القرآن يأمر محمداً أن يسأل أهل الكتاب إن حصل عنده شك في القرآن ليتثبَّت به. قال في سورة يونس ١٠ :٩٤ "فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكتَابَ مِنْ قَبْلِكَ الخ" .

وحتى أنه يشهد شهادات مفصلة ومبينة لأجزائه الثلاثة أي التوراة والزبور والإنجيل. قال في سورة آل عمران ٣ :٣ و٤ "وَأَنْزَلَ التوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدىً لِلنَّاسِ الخ" . وفي سورة الأنعام ٦ :٩١ "قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدىً لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا الخ" وآية ٩٢ "وَهَذَا كِتَابٌ - أي القرآن - أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ الخ" . قال البيضاوي : يعني التوراة أو الكتب التي قبله. وفي آية ١٥٤ "ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكتَابَ تَمَاماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلَ الكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُون" وفي آية ١٥٦ "أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكتَابُ

عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا الخ" قال البيضاوي أي اليهود والنصارى. وقال في سورة هود آية ١١٢ "وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ الخ" . وفي سورة المائدة يصف حالة اليهود في آية ٤٦ "وَكَيْفَ يَحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللهِ الخ" . وآية ٤٧ "إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النبِيُّونَ إلى أن قال فيها وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكافِرُون" وقال في المسيح والإنجيل آية ٤٩ "وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقا لمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقا لمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُون" وقال في القرآن آية ٥١ "وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ - أي القرآن - بِالْحَقِّ مُصَدِّقا لمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ - أي من جنس الكتب المنزلة - وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ" أي رقيباً على جميع الكتب يحفظها عن التغيير ويشهد لها بالصحة والثبات هكذا قال البيضاوي .

وقال بخصوص المسيح والإنجيل وأتباعه كما في سورة الحديد ٥٧ :٢٧ "ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا

الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُون"َ.

وقال بخصوص زبور داود - المزامير - كما في سورة الإسراء ١٧ :٥٥ "وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النبيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورا". وقال في سورة الأنبياء ٢١ :١٠٥ "وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصالِحُون"َ.

لقد شهد القرآن في عدة آيات أن التوراة والزبور والإنجيل منزلة من عند الله ، وأنه جاء مصدقاً ومهيمناً أي مراقباً وحافظاً ومثبتا لها، كما تقدم، وكما في سورة الملائكة آية ٣١ "وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقا لمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللهَ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا الخ" .

وفضلا عن ذلك يخبرنا القرآن أن من لا يقبل هذه الكتب ولا يؤمن بها سوف يُعاقب في الآخرة عقاباً شديداً كما في سورة غافر٤٠ :٥٣ و٧٠ "وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ هُدىً وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ... الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النارِ يُسْجَرُونَ" ,

ثم نجد القرآن يقول بموافقة تعليم التوراة لتعليم الانجيل الذي

جاء به سيدنا عيسى المسيح كما جاء في سورة المائدة آية ٤٩ "وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقا لمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التوْرَاةِ الخ" وحيث أن القرآن يقول كل ذلك عن الكتاب المقدس فالحاجة لا تمس إلى إظهار الأدلة على صحة ذلك الكتاب كما يكون لو كنا نكتب لإفادة كافر مثلا.

ورب معترض يقول (اولا) إنكم يا جماعة المسيحيين لا يسعكم الاستشهاد من القرآن لأنه غير مقبول لديكم ككتاب منزل من عند الله تعالى (وثانيا) ان الأسفار الموجودة الآن بأيدي المسيحيين باسم العهدين القديم والجديد ليست هي الكتب الأصلية المشار إليها في القرآن، أو إنها تحرفَّت. وإن لم تُحرَّف فهي على كل حال منسوخة. فرداً على ذلك نسلم بأن الاعتراض الأول كان في محله لو كان البرهان على المسيحيين، وحيث أنه أُقيم على المسلمين المعتقدين بإنزال القرآن من عند الله، فالاستشهاد منه يكون برهاناً قاطعاً، لأنه مسلَّم عند الخصم، وإلا فنحن المسيحيين لا نحتاج إلى إثبات صحة الكتاب المقدس بالاستشهاد من القرآن . وأما الاعتراض الثاني فإنه يعارض نصوص القرآن على خط مستقيم، إذ يقول بعدم تغيير كلمات الله. قال في سورة (الأنعام ٦ :٣٤)"وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَأِ

الْمُرْسَلِينَ" وفي سورة يونس ١٠ :٦٤ "لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ" وفي سورة الكهف ١٨ :٢٧ "وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِه"، كما ستراه في بقية فصول هذا الباب . والآن نكتفي قبل الشروع في ذلك بإيراد بعض نصوص القرآن الذي يشهد فيها للكتاب المقدس ثم نكشف عن أقوال أشهر المفسرين لكي نكون على بينة من معنى الآيات التي نستشهد بها .

جلي من القرآن أن الكتاب كان موجوداً بين أهله في زمن محمد. ولم يكن كما يزعم اسما بلا مسمى . ولأجل إثبات ذاك نكتفي بقليل من كثير. ففي سورة المائدة آية ٧١ "قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصابِئُونَ وَالنصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُون" وسبب نزول هذه الآية ما جاء عن ابن عباس. قال : جاء رافع وسلام ابن مشكم ومالك ابن الصيف فقالوا : يا محمد ألست تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه وتؤمن بما عندنا. قال : بلى. ولكنكم أحدثتم وجحدتم

بما فيها وكتمتم ما أُمرتم أن تبينوه للناس. قالوا : نأخذ بما في أيدينا فإنا على الهدى والحق (أسباب النزول)

فمن هذا يظهر أن محمداً أعلن قبوله للكتب المتداولة بين اليهود. ولو أنه رفض البدع والأحداث التي قال إنهم قد أدخلوها في رسوم ديانتهم الظاهرية، ومن هذا القبيل يوافق قول محمد لقول سيدنا المسيح لليهود في زمنه كما في بشارة متى ٢٣ :١٦-٢٤ "وَيْلٌ لَكُمْ أَيُّهَا الْقَادَةُ الْعُمْيَانُ الْقَائِلُونَ : مَنْ حَلَفَ بِالْهَيْكَلِ فَلَيْسَ بِشَيْءٍ. وَلكِنْ مَنْ حَلَفَ بِذَهَبِ الْهَيْكَلِ يَلْتَزِمُ! أَيُّهَا الْجُهَّالُ وَالْعُمْيَانُ، أَيُّهُمَا أَعْظَمُ : أَلذَّهَبُ أَمِ الْهَيْكَلُ الَّذِي يُقَدِّسُ الذهَبَ؟ الخ .

ولكن المهم هنا هو أن هذه الآيةَ ورواية ابن عباس لسبب نزولها تثبتان أن التوراة والإنجيل كانا موجودين عند اليهود والمسيحيين ، وإلا فلا معنى لأمرهم بإقامة الأوامر والنواهي الموجودة بتلك الكتب إن كانت أُعدمت أو تحرَّفت، ففي الحالة الأولى تكون طاعة الأمر غير ممكنة بل مستحيلة. وأما في الثانية فطاعة المحرَّف تُضلهم عن سواء السبيل.

وفي سورة البقرة ٢ :١١٣ "وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكتَاب"

ومعنى صيغة قوله (يتلون) إنهم كانوا في ذلك الوقت يتلون التوراة والإنجيل، وهما موجودان بين أيديهم، وإلا كان الواجب استعمال صيغة الماضي دلالة على أنهم تلوه في الماضي فقط. تأمل

وفي سورة يونس ١٠ :٩٤ "فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ الخ" وملخص ما حكاه جل المفسرين أن المخاطَب محمد، والمراد أمته وكل سامع وآمر بسؤال أهل الكتاب لأنه محقق عندهم، ثابت في كتبهم على نحو ما ألقينا إليك ، والمراد تحقيق ذلك والاستشهاد بما في الكتب المتقدمة فإن القرآن مصدق لما فيها، أو وصف أهل الكتاب بالرسوخ في العلم بصحة ما أُنزل إليه، أو تهييج الرسول وزيادة تثبيته كما في البيضاوي وخلافه. فألفاظ هذه الآية تؤكد أن الكتاب المقدس كان موجوداً في زمن مجيء القرآن، وأنه يعترف بصحته، ويثق به وبقرَّائه من اليهود والنصارى. وإلا لما جاز له أن يطلب من محمد أو أمته أو كل سامع أن يسألهم ليتثبَّت الإيمان في قلوبهم ويزول عنهم الشك بشهادة هؤلاء الثقات وكتابهم الموجود الذي لم يُغيَّر ولم يُحرَّف. ولا ريب أنه لم يبق عند القارئ شك بسلامة الكتاب من كل شين إن كان يعتقد بصدق قرآنه المبين .

وقال في سورة الأعراف آية ١٥٨مادحاً اليهود "وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ" وقال البيضاوي على هذه الآية ما ملخصه "ومن بني إسرائيل طائفة يهدون الناس محقين، أو بكلمة الحق وبالحق يعدلون بينهم في الحك"م. والمراد بها : الثابتون على الإيمان القائمون بالحق من أهل زمانه، وقيل هم مؤمنو أهل الكتاب.

هذه الآية تشهد أن الكتاب المقدس كان موجوداً بصحته وسلامته من كل تغيير في زمن إتيان القرآن، وكانت أمة موجودة عاملة بأوامره ونواهيه.

وفي سورة آل عمران ٣ :٢٣ "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ" وملخص ما قاله البيضاوي أن سبب نزول هذه الآية أن محمداً دخل مدراس اليهود. فقال له نعيم بن عمرو والحرث بن زيد : على أي دين أنت؟ فقال : على دين إبراهيم. فقال له : إبراهيم كان يهودياً. فقال : هلموا إلى التوراة فإنها بيننا وبينكم. فأبيا. فنزلت. وقال - الكتاب - أي التوراة أو جنس الكتب السماوية - يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم - الداعي محمد وكتاب الله التوراة.

فهذه الآية تبين جلياً أن التوراة كانت في زمن صاحب القرآن، ولثقته بها سماها كتاب الله ، وطلب من خصومه أن تكون حكماً بينهم.

وفي السورة أيضاً آية ٩٣ مع ملخص ما قاله البيضاوي "كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلا لبَنِي إِسْرَائِيلَ - أي حلال لهم- إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ- يعقوب- عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التوْرَاةُ- أي قبل إنزالها- قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِين" أمر بمحاجتهم وتبكيتهم.

ومع محاولة البيضاوي ومحايدته فالآية تفيد أن التوراة كانت موجودة في زمن محمد بأيدي اليهود. وقوله عقب هذه الآية فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك من بعد ما لزمتهم الحجة "فأولئك هم الظالمون" الذين لا ينصفون من أنفسهم ويكابرون الحق بعد ما وضح لهم. وقول البيضاوي أن التوراة كانت عند المدّعي ثقة وحقاً من الله. تأمل

وفي سورة المائدة آية ٤٦ و ٤٧ مع ملخص تفسير البيضاوي "وَكَيْفَ يَحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللهِ" تعجب من تحكيمهم من لا يؤمنون به. والحال أن الحكم منصوص عليه في الكتاب الذي هو عندهم (إلى أن قال) وفيها حكم الله حال من التوراة "وما أولئك بالمؤمنين" بكتابهم لإعراضهم عنه وعما يوافقه أو بك وبه "إنا أنزلنا

التوراة فيها هدى" يهدي إلى الحق "ونور" يكشف ما اشتبه من الأحكام "يحكم بها النبيون" من بني إسرائيل أو موسى ومن بعده "الذين أسلموا" صفة مدح للنبيين الذين هادوا والربانيون والأحبار زهّادهم وعلماؤهم السالكون طريقة أنبيائهم عطف على (النبيون) "بما استحفظوا من كتاب الله" بسبب أمر الله إياهم أن يحفظوا كتابه من التضييع والتحريف "وكانوا عليه شهداء" رقباء لا يتركون أن يغيروا أو شهداء يبينون ما خفي منه.

وملخص مفهوم هاتين الآيتين أنه يتعجب من تحكيم اليهود لصاحب القرآن مع أنهم لا يؤمنون به. والحال أن التوراة التي فيها حكم الله هي عندهم وليسوا بمؤمنين به لإعراضهم عن تحكيمها بينهم. والله أنزل التوراة تهدي إلى الحق، وهي نور يكشف ما اشتبه من الأحكام. تحكم بها الأنبياء المسلمون أنفسهم لرباني اليهود، وتحكم بها أيضاً ربانيوهم وأحبارهم بسبب أمر الله لهم أن يحفظوا كتابه من التضييع والتحريف. فلذا هم عليه رقباء، لم يمكّنوا أحداً من تحريفه أو تغييره، فهل هذه الآيات تسمع دعوى التحريف والتغيير للتوراة!؟

ومن الأدلة الشاهدة على وجود الكتاب المقدس أي العهدين الجديد

والقديم بسلامته حين مجيء القرآن ، الاقتباسات الموجودة فيه المصرحة بأنها مقتبسة منهما كما في سورة المائدة آية ٤٩ "وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا -أي في التوراة- أَنَّ النفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالأَنْفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاص".

فهذه الآية منقولة من سفر الخروج ٢١ :٢٣-٢٥ ونصه "وَإِنْ حَصَلَتْ أَذِيَّةٌ تُعْطِي نَفْساً بِنَفْسٍ، وَعَيْناً بِعَيْنٍ، وَسِنّاً بِسِنٍّ، وَيَداً بِيَدٍ، وَرِجْلاً بِرِجْلٍ الخ".

وفي سورة الأنبياء ٢١ :١٠٥ قوله "وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ -كتاب داود- مِنْ بَعْدِ الذكْرِ -أي التوراة- أَنَّ الْأَرْضَ -أرض الجنة أو الأرض المقدسة- يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصالِحُونَ - عامة المؤمنين" ملخصاً من البيضاوي. فهذه الآية مقتبسة من مزمور ٣٧ :٢٩ ونصه "الصدِّيقُونَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ وَيَسْكُنُونَهَا إِلَى الْأَبَدِ".

وفي سورة الأعراف آية ٣٩ قال "إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ" فهذه الآية مقتبسة من الإنجيل كما في بشارة متى ١٩ :٢٤ قال "وَأَقُولُ لَكُمْ أَيْضاً : إِنَّ مُرُورَ جَمَلٍ مِنْ ثَقْبِ إِبْرَةٍ أَيْسَرُ مِنْ أَنْ يَدْخُلَ غَنِيٌّ إِلَى مَلَكُوتِ ال"لهِ وفي بشارة مرقس

٢٥:١٠ لفظ العدد بعينه وفي بشارة لوقا ١٨ :٢٥ قال "لِأَنَّ دُخُولَ جَمَلٍ" إلى آخر العدد بلفظه.

فهذه الاقتباسات الثلاثة، أحدها من التوراة، وثانيها من الزبور، وثالثها من الإنجيل هي برهان جلي بأن الكتب المنزَلة التي كانت بأيدي اليهود والنصارى هي التي بأيدينا الآن، وتُسمى بالأسماء التي كانت بعينها. ومثال ذلك إذا ما اقتبسنا أبياتاً من مثنوي جلال الدين الرومي أو من الديوان المنسوب لعلي ابن أبي طالب أو من كتاب آخر مشهور، فمن أول نظرة من القارئ الخبير يحكم حكماً قطعياً بأن هذه المصنفات موجودة في وقتنا الحاضر. كذلك كان ينبغي لعلماء القرآن المنصفين أن يحكموا بأن الآيات التي اقتبسها من الكتاب المقدس تدل على أنه كان موجوداً في زمن محمد، بل الآيتان المقتبستان من التوراة والزبور في قوله وكتبنا لهم فيها أي التوراة وقوله ولقد كتبنا في الزبور فيهما برهان صريح أن هذين السفرين كانا موجودين حينئذ كما هما الآن.

عدا ذلك أن كثيراً من القصص الواردة في القرآن وردت في الكتاب المقدس. ومن أمثال ذلك قصة يوسف -سورة يوسف- وقد تكون في القرآن مغيرة عن الأصل تغييراً يطابق التقاليد اليهودية

المتأخرة أكثر من آيات التوراة المتقدمة، كما شرحنا ذلك في كتاب تنوير الأفهام في مصادر الإسلام وكذلك يشتمل القرآن على مقتبسات كثيرة جداً من أسفار الكتاب المقدس لا يمكن تعليلها ولا فهمها إلا بمراجعة الأصل، فنقتصر على ذكر واحدة منها. ورد في سورة آل عمران ٣ :٩٣ اسم إسرائيل بدل يعقوب وأنه حرم على نفسه طعاماً، فمن المستحيل أننا نقدر أن نفهم لماذا أبدل اسم يعقوب بإسرائيل، وما هو نوع الطعام الذي حرمه على نفسه إلا بمراجعة التوراة. أُنظر سفر التكوين ٣٢ :٢٢-٣١ حيث تجد ذلك مشروحاً شرحاً وافياً.

وورد في الأحاديث المحمدية فقرات منقولة عن الكتاب المقدس. من أمثال ذلك ما ورد في كتاب - مشكاة المصابيح ص٤٨٧ من طبعة سنة ١٢٩٧هـ الباب الأول والفصل الأول في كلامه عن وصف الجنة وأهلها - قال رسول الله قال الله تعالى أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فلا يشك أحد أن هذا الحديث منقول من الرسالة الأولى لبولس الرسول إلى أهل كورنثوس ٢ :٩. ومما هو جدير بالملاحظة هنا أنه بينما يقرر محمد أن هذا الوصف من كلام الله ينكر

كثيرون من علماء الإسلام أن بولس رسولٌ، وأن رسائله موحى بها من الله.

ينقسم الكتاب المقدس في الغالب إلى قسمين العهد القديم ويتضمن الأسفار المقدسة القانونية عند الأمة اليهودية، وكُتبت في الأصل باللغة العبرانية، ما عدا القليل منها فإنه كتب باللغة الآرامية. والعهد الجديد وقد كُتب باللغة اليونانية، أما اليهود فلا يؤمنون إلا بواحد منهما أما نحن المسيحيين فنؤمن بالعهدين كليهما. ولكن القرآن يشير إلى الأسفار المقدسة جميعها بكتاب واحد هو الكتاب المقدس مع أنه يذكر له ثلاثة أقسام وهي التوراة والزبور والإنجيل.

ويقسم اليهود أسفارهم أو كتبهم إلى ثلاثة أقسام وهي الناموس والأنبياء والمزامير، كما يظهر من بشارة لوقا إصحاح ٢٤ :٤٤. وهذا التقسيم يرجع عهده إلى سنة ١٣٠ قبل المسيح (١) وفي الوقت الحاضر يسمي اليهود القسم الثالث الصحف، ولأنها تبتدئ بالمزامير يدعوها القرآن والإنجيل "الزبور" ويدعو القرآن القسم الأول توراة

(١) انظر مقدمة يشوع بن سيراخ لمجموعة امثال جده

هي معدولة من الكلمة العبرانية مع تغيير طفيف في اللفظ. وقد يطلق المسلمون هذا الاسم على الكتاب المقدس كله لأنه يبتدئ بالتوراة. وكثيراً ما يشير القرآن إلى أنبياء العهد القديم ويعلق على الإيمان بهم أهمية عظيمة، ومن ذلك قوله في سورة البقرة ٢ :١٣٦ "قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ" وجاء مثل ذلك في سورة آل عمران ٣ :٨٤. من هنا يظهر جلياً أن القرآن يتفق مع الإنجيل في الشهادة بأن كل أسفار الكتاب في تلك الأقسام الثلاثة موحى بها.

وقد يطلق أيضاً المسيحيون اسم الإنجيل على كل أسفار العهد الجديد كما يطلقه عليها القرآن، ومن أسباب ذلك أن العهد الجديد يبتدئ بالبشائر الأربع، ومنها أن الإنجيل معناه خبر سار أو بشارة، وهذا الخبر السار خلاصة العهد الجديد من أوله إلى آخره، فسُمي به، وذلك واضح من بشارة مرقس ١٣ :١٠ حيث يقول "وَيَنْبَغِي أَنْ يُكْرَزَ أَوَّلاً بِالإِنْجِيلِ فِي جَمِيعِ الأُمَمِ" ومن مواضع أخرى كثيرة. وكان العهد الجديد -أي الإنجيل- منتشراً في عصر

محمد في قسم عظيم من العالم بين الشعوب المسيحية، لذلك لم يقتبس منه القرآن فقط آية موجودة في ثلاثة من أقسامه -بشائره- أي بشارة متى ١٩ :٢٤ وبشارة مرقس ٢٥:١٠وبشارة لوقا ١٨ :٢٥ كما ورد في سورة الأعراف آية ٣٩ بل اقتبس منه أيضاً محمد نفسه كما تقدم ذكره. وعلى هذا ينبغي لكل ذي عقل سليم خال من التعصب الذميم أن يعترف بأن القرآن يشير إلى الكتاب المقدس بأنه كتاب منتشر في عصره وموحى به من الله تعالى.

وعدا ما تقدم لا يفتأ القرآن يذكر الكتاب المقدس بالاحترام والتعظيم ويلقّبه بأعظم الألقاب، مثل قوله كلام الله - سورة البقرة ٢ :٧٥ ويسميه بها "الفرقان" آية ٥٣" وضياء وذكرى للمتقين" - سورة الأنبياء ٢١ :٤٨ – "وكتاب الله" - سورة البقرة ٢ :١٠١. وفي البيضاوي وكتاب أسباب النزول يشير إلى مقام الكتاب المقدس في تفسير آية ٢٣ من سورة آل عمران بأن محمداً طلب من اليهود التوراة لتكون حكماً بينه وبينهم. وفوق ذلك يفيد القرآن أن نوع الوحي الذي أُوحي به إلى محمد كالذي أوحي به إلى الأنبياء المتقدمين، كما يدل على ذلك قوله "قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُم" - سورة آل عمران ٣ :٧٣ - وقوله "إِنَّا أَوْحَيْنَا

إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنبيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ" - سورة النساء ٤ :١٦٢ - وقوله "كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيم" - سورة الشورى ٤٢ :٣. مما ذكر نعلم أن التنزيل المنسوب إلى القرآن يجب أن ينسب إلى الأسفار المتقدمة عليه حيث أن من أول البديهيات المسلم بها في علم أصول الهندسة هو أنه إذا ساوى شيئان ثالثاً فهما متساويان لبعضهم لا محالة فأسفار العهدين منزلة من عند الله بنفس التنزيل الذي ينسبه القرآن لنفسه، وعليه فالقرآن يأمر أتباعه أن يعترفوا بالأسفار المتقدمة عليه كما يعترفون به بلا أقل تمييز، وهم مأمورون أيضاً أن يعتقدوا بأن القرآن نزل مصدِّقا لكتاب اليهود والنصارى، ومن أمثال ذلك ما ورد في سورة آل عمران ٣ :٣ "نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالحَقِّ مُصَدِّقا لمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدىً لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ" ولزيادة التوكيد على أن التوراة والإنجيل موحى بهما جاء في القرآن تهديد صارم لمن يكفر بهما أو يظن بهما الظنون، ومن ذلك قوله "الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ إِذِ الْأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاَسِلُ يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النارِ يُسْجَرُونَ"- سورة المؤمن آية ٧٠. والبيضاوي في تفسيره لهذه الآية يفسر قوله الكتاب بالقرآن أو الكتب السماوية على

العموم ويفسر قوله وما أرسلنا به رسلنا بسائر الكتب أو الوحي والشرائع وبمقتضى هذا التفسير على افتراض أن المقصود هنا بالكتاب ليس الكتاب المستعمل في قوله يا أهل الكتاب بل هو القرآن، تكون الكتب السماوية الأخرى هي أسفار العهد القديم والجديد لا محالة.

ويشهد القرآن أن أسفار العهد القديم تتفق مع أسفار العهد الجديد في المسائل العمومية، ومن ذلك قوله "وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ" - سورة المائدة ٤٩ .

والخلاصة لما تقدم حيث أننا انتهينا من هذا الفصل نلحقه بالمواد الآتية :

(أولا) ان أسفار العهد القديم والجديد، أي التوراة والزبور وأسفار الأنبياء، والإنجيل ورسائل رسل المسيح كانت جميعها منتشرة في عصر صاحب القرآن بين اليهود والنصارى (ثانيا) يقرر القرآن أن هذه الأسفار موحى بها من الله، أي منزلة من عنده تعالى (ثالثا) بينما يعظّم القرآن نفسه إلى أعلى درجات التعظيم، فإنه يساوي بين نفسه وبين

الأسفار المقدسة المتقدمة عليه(رابعا) يسمّي القرآن الكتاب المقدس "كتاب الله وكلام الله والفرقان والذكر ونوراً وهدى ورحمة الخ" (خامسا) يأمر القرآن محمداً أو المسلمين أن يرجعوا إلى الكتاب المقدس في تحقيق ما يرتابون فيه من أصول دينهم ويحرضون النصارى واليهود أن يفعلوا مثل ذلك (سادسا) يشير القرآن على اليهود أن يتخذوا التوراة حكَمَاً فيما هم فيه يختلفون (سابعا) يأمر القرآن المسلمين أن يشهدوا أنهم مؤمنون بالكتاب المقدس كما هم مؤمنون بقرآنهم (ثامنا) إن الذين لا يؤمنون بالكتاب المقدس لهم عذاب عظيم في الآخرة كما لو لم يؤمنوا بالقرآن .

الفصل الثاني

الكتاب المقدس لم يُنسَخ ولا يمكن أن يُنسخ لا في حقائقه
ولا في عقائده ولا في مبادئه الأدبية

تبيّن من البراهين التي قدمناها في الفصل السابق أنه ينبغي للمسلمين الخاضعين لأوامر القرآن أن يدرسوا كتاب الله أي أسفار العهدين القديم والجديد ويحترموه ويطيعوه.

غير أن بعضهم لا يسلم معنا بهذه النتيجة استناداً على دعواهم :

(١) إن الكتاب المقدس نُسخ (٢) أن الأسفار المقدسة المتداولة اليوم ليست هي الأسفار التي ذكرها القرآن وشهد لها (٣) وبعضهم يقول ربما تكون هي بعينها، إلا أنه اعتراها التحريف والتبديل ولعبت بها يد الأغراض حتى لم تعد تستحق الكرامة ولا العناية المعطاة لها في القرآن. فغرضنا من الفصول الآتية البحث في هذه الاعتراضات لنرى صحتها من عدمه، ولنبدأ في هذا الفصل بالبحث عما إذا كان الكتاب المقدس نُسخ حقيقةً كما يزعمون أم لا. نقول إن كانت هذه الاعتراضات في محلها تسقط حجتنا التي قدمناها في الفصل الأول، غير أنه بهذا يضعف نفوذ القرآن كما لا يخفى على اللبيب.

ولنسلم هنا أن بعض علماء الإسلام يحاولون أن يثبتوا صحة وقوع النسخ على الكتاب المقدس، كالبيضاوي مثلاً، فإنه يقول في تفسيره على قوله "وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَق" - سورة التوبة ٣٠ - أي الدين الذي ينسخ سائر الأديان ويبطل مفعولها اعتقاداً وعملاً. ثم ورد في كتاب عيون أخبار الرضا فصل ٣٦ قوله : كل نبي كان في أيام موسى وبعده كان على منهاج موسى وشريعته وتابعا لكتابه إلى زمن عيسى، وكل نبي كان في أيام عيسى وبعده كان على منهاج عيسى

وشريعته وتابعا لكتابه، إلى زمن نبينا محمد وشريعة محمد لا تُنسخ إلى يوم القيامة.

وورد في كتاب هداية الطالبين إلى أصول الدين للمولوي محمد تقي الكاشاني الفارسي ما ترجمته إلى العربية إن علماء الإسلام قرروا أن محمداً نبي هذا الزمان، ودينه ناسخ لأديان الأنبياء السابقين - ص ١٦٦.

ورداً على ذلك نقول إن مسألة النسخ وإن كانت مقبولة عند العامة وكثيرين من الخاصة، غير أنه يجب أن نلاحظ أن القرآن لم يشر إليها بكلمة واحدة، ولا أشار إليها الحديث عند السنيين ولا الشيعيين. وبالإجمال أن هذه المسألة تشوِّش تعليم القرآن وتقلبه رأساً على عقب.

إن نسخ بمعنى أُزيل أو أُبطل لم يرد في القرآن إلا في موضعين اثنين: الأول سورة البقرة ٢ :١٠٦ وهو قوله "مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهاَ"، والثاني سورة الحج ٢٢ :٥٢ وهو قوله "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ". فلا توجد في الموضع الأول ولا الموضع الثاني أقل إشارة تدل على أن القرآن ناسخ للكتاب المقدس، بل هو ناسخ لنفسه في بعض أجزائه، حتى أن بعضهم عدد

الآيات المنسوخة من القرآن فبلغت مائتين وخمساً وعشرين آية.

ويخبرنا البيضاوي بأنه توجد قراءات مختلفة لآية سورة البقرة ١٠٦، لكن لدى التأمل نجد أن تلك القراءات واحدة في المعنى، ولا يمكن أن يطلق عليها معنى النسخ الذي هو الإزالة أو الإبطال، فالإشارة إذاً إلى نسخ القرآن نفسه في بعض أجزائه.

وإليك مثالاً مشهوراً ذكره البيضاوي في تفسيره النَّسخ المشار إليه في سورة الحج، حيث يبيّن كيف نسخ الله بعض الكلمات من سورة النجم، وهي قوله تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لتُرتجى. وملخص الخبر أنه بينما كان محمد يتلقى الوحي من جبريل ألقى الشيطان على لسانه تلك الكلمات ليستهويه إلى عبادة اللات والعزى ومناة، فقالها كأنه موحى بها من الله، ثم بعد ذلك نسخها الله. وروى هذه القصة يحيى وجلال الدين في تفسيرهما على النَّسخ الوارد في سورة الحج، ورواها ابن هشام عن ابن اسحق في سيرته، وقد ذكرت أيضاً في المواهب اللدنية وذكرها الطبري. وفي هذا القدر كفاية لإقامة الدليل على أن النسخ المعبَّر عنه بقوله فينسخ الله الوارد في سورة الحج هو ما تكلمنا عنه. ومع أن الدعوى بأن الزبور ناسخ للتوراة

والإنجيل ناسخ للزبور دعوى باطلة ليس لها أساس في القرآن ولا في الحديث البتة، وقد راجت بين عوام المسلمين رواجاً عظيماً، ولا بأس أن نورد شهادة بعض العلماء المعتبرين في هذا الصدد:

قال الحاج رحمة الله الهندي في كتابه إظهار الحق إن القول بنسخ التوراة بنزول الزبور ونسخ الزبور بظهور الإنجيل بهتان لا أثر له في القرآن ولا في التفاسير، بل لا أثر له في كتاب من الكتب المعتبرة لأهل الإسلام - والزبور عندنا ليس بناسخ للتوراة ولا بمنسوخ من الإنجيل، وكان داود عليه السلام على شريعة موسى عليه السلام، وكان الزبور أدعية. فهذا العالِم ينكر النسخ على هذه الكيفية. وقد صدق في ما قال لأنه لا يقول بالنسخ أحد إلا إذا كان جاهلا للقرآن وللكتاب المقدس كما سنبينه. اقرأ الكتاب المقدس بتأمل وخشوع حتى تقف على مشتملاته الجوهرية، وحينئذ ترى بمزيد من الوضوح أن تعليم أسفار العهدين القديم والجديد واحد، وأنها سائرة على نظام واحد، ووجهتها واحدة مستدرجة في إعلان مقاصد الله الأزلية لبني الإنسان.

ففي أسفار العهد القديم نتعلم كيف خلق الله الإنسان، ثم كيف دخلت الخطية إلى العالم، ويتلو ذلك الوعد الإلهي بأن نسل المرأة

يسحق رأس الحية، وبعد ذلك بمئات السنين نجد أن العالم القديم قد ضل عن عبادة الله ووقع في عبادة الأوثان والرذيلة، وفي ذلك الوقت دعا الله إبراهيم من وسط قومه وأوثق معه ميثاقاً بأن المخلّص من موت الخطية الذي وعد به الجنس البشري يكون من ذرية ابنه الشرعي إسحاق. ثم نجد بعد ذلك أن الله يجدد الميثاق المشار إليه مع إسحاق، فيعقوب، وينبّئهم بأنهم سينزلون إلى مصر، ثم ينجلون عنها إلى أرض كنعان للغاية التي دعاهم إليها.

ثم نزلت التوراة على موسى وقد شملت على هذه المواعيد وزادت عليها مواعيد جديدة تستحق الاعتبار، ثم توالى الأنبياء جيلاً بعد جيل وأتوا بأقوال لا تخرج عن المعاني التي أتى بها موسى، بل غاية ما في الأمر زادتها وضوحاً وبياناً من جهة أن الإنسان خاطئ ولا بد له من مخلّص، ثم أخذوا من وقت إلى آخر يبسطون كلامهم عن ذلك المخلص، فأنبأوا عن أعماله العجيبة، والبلدة التي يولد فيها، وعن آلامه وموته. أما الإنجيل فيخبرنا عن بعض وقائع المخلّص وأعماله التي جاءت موضحة ومتممة لنبوات التوراة والمزامير وكل أسفار العهد القديم.

ثم يخبرنا كيف بعث ذلك المخلّص رسله إلى العالم أجمع وأمرهم أن يكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها، وبعد ذلك كيف ينتظرونه حتى

يأتي مرة ثانية على سحاب السماء كما وعدهم ليدين الأحياء والأموات، ويعتق الأرض من عبودية الفساد، ويملك إلى الأبد.

وأما أسفار أعمال الرسل ورسائلهم - وهي الأجزاء المتممة لأسفار العهد الجديد فتشرح لنا كيف ابتدأ الرسل بالكرازة بالمسيح. وسفر الرؤيا - خاتمة أسفار العهد الجديد - ينبئنا عن الضيقة العظيمة التي سيقع فيها المؤمنون بالمسيح، ثم النصر العظيم الذي يتبعها.

هذه بالاختصار سلسلة حقائق العهدين من ابتداء سفر التكوين إلى نهاية سفر الرؤيا، فكأن الكتاب المقدس والحالة هذه يشبه عمارة عجيبة، أساسها التوراة والإنجيل ختامها، وكل منهما يظهر حكمة الله وعدالته ومحبته ورحمته الفائقة وأنه خالق كل الأشياء.

ففي توراة موسى يظهر قصد الله من حيث نعمته بكل وضوح، حتى أن الذين عرفوه حسبما هو مبيَّن فيها مالوا إليه وأحبوه وعبدوه وآمنوا به ووجدوا فيه ما يشبع أشواق نفوسهم الخالدة من السلام والسعادة الحقيقية. وفي أسفار الأنبياء والمزامير تعلو هذه الأخبار إلى درجة أرفع من تلك لأنها تشرح لنا أن الله من البدء اختار بني إسرائيل وهذَّبهم شيئاً فشيئاً صابراً على غلاظة قلوبهم وشر أفعالهم وفشلهم في تأدية ما كلفهم به. وتشرح لنا مسألة أخرى هي من

الأهمية بمكان وذلك أن بعض الرسوم الدينية ومناسك العبادة الخارجية ليست مقصودة في حد ذاتها، ولكنها خصّت ببني إسرائيل ليستعملوها مؤقتاً توصُّلاً إلى قصد معلوم وهو (أولا) إيجاد فاصل مميز بين اليهود والأمم إلى أن يأتي المخلّص الموعود به (ثانيا) لتعليمهم بأن تلك الطقوس وإن كانت مؤيَّدة بأوامر إلهية، فليست إلا رموز لحقائق روحية، لأن العبادة المقبولة عند الله لا تقوم بشكلها الظاهر فقط، بل بالحالة التي يكون عليها قلب العابد حيث قال المسيح : "اَللهُ رُوحٌ. وَالَّذِينَ يَسْجُدُونَ لَهُ فَبِالرُّوحِ وَالْحَقِّ يَنْبَغِي أَنْ يَسْجُدُوا" - يوحنا ٤ :٢٤ ومما يدل على أن تلك الطقوس ليست مقصودة لذاتها ما قاله صموئيل النبي "هَلْ مَسَرَّةُ الرَّبِّ بِالْمُحْرَقَاتِ وَالذبَائِحِ كَمَا بِاسْتِمَاعِ صَوْتِ الرَّبِّ؟ هُوَذَا الاِسْتِمَاعُ أَفْضَلُ مِنَ الذبِيحَةِ وَالإِصْغَاءُ أَفْضَلُ مِنْ شَحْمِ الْكِبَاشِ" - ١ صموئيل ١٥ :٢٢. وورد في سفر ميخا النبي أن ملكاً يُسمى بالاق سأل : "بِمَ أَتَقَدَّمُ إِلَى الرَّبِّ وَأَنْحَنِي لِلإِلَهِ الْعَلِيِّ؟ هَلْ أَتَقَدَّمُ بِمُحْرَقَاتٍ؟ بِعُجُولٍ أَبْنَاءِ سَنَةٍ؟ هَلْ يُسَرُّ الرَّبُّ بِأُلُوفِ الْكِبَاشِ؟ بِرِبَوَاتِ أَنْهَارِ زَيْتٍ؟ هَلْ أُعْطِي بِكْرِي عَنْ مَعْصِيَتِي؟ ثَمَرَةَ جَسَدِي عَنْ خَطِيَّةِ نَفْسِي؟ فجاءه الجواب من قبل النبي مصرحاً بعدم فائدة الشعائر التي عدَّدها في سؤاله ما لم تكن مقرونة

بتكريس الحياة والقلب لله وهاك نص الجواب : "قَدْ أَخْبَرَكَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا هُوَ صَالِحٌ وَمَاذَا يَطْلُبُهُ مِنْكَ الرَّبُّ، إِلَّا أَنْ تَصْنَعَ الْحَقَّ وَتُحِبَّ الرَّحْمَةَ وَتَسْلُكَ مُتَوَاضِعاً مَعَ إِلَهِكَ" - ميخا ٦ :٦-٨.

والسيد المسيح يوافق على هذا التعليم كل الموافقة بأن صرح بأقوال مشابهة، وهاك ما قاله : "تَأْتِي سَاعَةٌ وَهِيَ الْآنَ حِينَ السَّاجِدُونَ الْحَقِيقِيُّونَ يَسْجُدُونَ لِلْآبِ بِالرُّوحِ وَالْحَقِّ، لِأَنَّ الْآبَ طَالِبٌ مِثْلَ هؤُلَاءِ السَّاجِدِينَ لَهُ. اَللهُ رُوحٌ. وَالَّذِينَ يَسْجُدُونَ لَهُ فَبِالرُّوحِ وَالْحَقِّ يَنْبَغِي أَنْ يَسْجُدُوا" - يوحنا ٤ :٢٣ و٢٤. ولما أعلنت هذه الأسرار الروحية والتعاليم الراقية وقدمت الكفارة عن خطايا العالم أجمع -انظر١ يوحنا ٢ :٢- ودرّب المسيح الحواريين وأرسلهم ليكرزوا ويبشروا بالإنجيل في كل أقطار المسكونة ويعرضوا على بني آدم هبة الله المجانية وهي الحياة الأبدية - انظر رومية ٦ :٢٣- معطياً لهم قدرة ومعونة حتى يقيموهم من قبور خطاياهم إلى حياة البر والفضيلة ويملأوا الأرض من معرفة الرب كما تغطي المياه البحر -إشعياء ١١ :٩. ولما تم كل هذا آن الآوان الذي ينبغي فيه حل رموز تلك العبادة القائمة بالذبائح والبخور والغسل إلى غير ذلك مما هو مذكور بالتفصيل في التوراة

بالعبادة الروحية التي كانت ترمز إليها تلك الرسوم الظاهرة. ولولا العبادة الروحية لكانت تلك الرسوم خالية من الفائدة. وإذا جاء الصريح استُغني عن الرمز كما يُستغنى عن القشرة بعد نضوج الحبة. وإلى هذا المعنى أشار إرميا النبي فقال "هَا أَيَّامٌ تَأْتِي يَقُولُ الرَّبُّ وَأَقْطَعُ مَعَ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ وَمَعَ بَيْتِ يَهُوذَا عَهْداً جَدِيداً. لَيْسَ كَالْعَهْدِ الَّذِي قَطَعْتُهُ مَعَ آبَائِهِمْ يَوْمَ أَمْسَكْتُهُمْ بِيَدِهِمْ لِأُخْرِجَهُمْ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ، حِينَ نَقَضُوا عَهْدِي فَرَفَضْتُهُمْ يَقُولُ الرَّبُّ. بَلْ هذَا هُوَ الْعَهْدُ الَّذِي أَقْطَعُهُ مَعَ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ بَعْدَ تِلْكَ الْأَيَّام يَقُولُ الرَّبُّ : أَجْعَلُ شَرِيعَتِي فِي دَاخِلِهِمْ وَأَكْتُبُهَا عَلَى قُلُوبِهِمْ، وَأَكُونُ لَهُمْ إِلهاً وَهُمْ يَكُونُونَ لِي شَعْباً" -إرميا ٣١ :٣١-٣٣. ومن هذه الآيات أخذنا كلمة - العهد الجديد- وجعلناها اسما للإنجيل، وهو الجزء الثاني من الكتاب المقدس. ولاحظ كيف تتفق هذه الآيات مع قول المسيح الذي أشرنا إليه آنفاً في بشارة يوحنا ٤ :٢٣ و٢٤. فإنه يتبين أن كل الطقوس والشعائر اليهودية الوقتية - أو كما يسميها بعضهم الشريعة الطقسية -قد تمت تماماً في ملء روحانية العهد الجديد الذي نوى المسيح أن يعقده مع كل من يؤمن به من أية أمة كانت على الأرض. ومن أجل ذلك قال المسيح بهذا الصدد لامرأة من

السامرة "يَا امْرَأَةُ صَدِّقِينِي أَنَّهُ تَأْتِي سَاعَةٌ لاَ فِي هذَا الْجَبَلِ وَلاَ فِي أُورُشَلِيمَ تَسْجُدُونَ لِلآبِ. أَنْتُمْ تَسْجُدُونَ لِمَا لَسْتُمْ تَعْلَمُونَ، أَمَّا نَحْنُ فَنَسْجُدُ لِمَا نَعْلَمُ - لِأَنَّ الْخَلاَصَ هُوَ مِنَ الْيَهُودِ. وَلكِنْ تَأْتِي سَاعَةٌ وَهِيَ الآنَ، حِينَ السَّاجِدُونَ الْحَقِيقِيُّونَ يَسْجُدُونَ لِلآبِ بِالرُّوحِ وَالْحَقِّ، لِأَنَّ الآبَ طَالِبٌ مِثْلَ هؤُلاَءِ السَّاجِدِينَ لَهُ. اَللهُ رُوحٌ. وَالَّذِينَ يَسْجُدُونَ لَهُ فَبِالرُّوحِ وَالْحَقِّ يَنْبَغِي أَنْ يَسْجُدُوا" - يوحنا ٤ :٢١-٢٤.

ثم أن الجواب الذي أجابت به تلك المرأة المسيح يدل على أن مسألة إتمام العهد القديم بالعهد الجديد، أو بعبارة أخرى إيضاح العبادة الطقسية بالعبادة الروحية، كان معروفاً ومنتظر ليس فقط عند اليهود الأتقياء -انظر بشارة لوقا ٢ :٢٩- بل وعند المحققين من السامريين -انظر بشارة يوحنا ٤ :٢١-٢٣. واقتبس أحد الحواريين مقالة إرميا التي ذكرناها آنفاً في هذا الصدد، وبيّن أن ذكر العهد الجديد الذي بشر به إرميا يدل على أن يهود عصره كانوا يعتقدون بأن الطقس الموسوي شاخ وهرم وقارب على الاضمحلال واحتاج الحال إلى العهد الجديد -انظر رسالة العبرانيين ٨ :١٣- لا يبطل التوراة بل يكشف الحجاب عن حقائقها - انظر إنجيل متى ٥ :١٧ و١٨- واعلم أن الحق بحسب جوهره ثابت ودائم غير قابل للتبديل أو النسخ، فالحقائق التي وردت في العهد القديم يجب أن تبقى حقاً إلى

ما لا نهاية. ولا يُقال إن العهد الجديد نسخها، بل يُقال إنه شرحها وأبرزها في شكلها الروحي الذي يلائم الناس في كل زمان ومكان.

العهد القديم كان بين الله وبني إسرائيل فقط، ومدته انتهت بمجيء المسيح وتأسيس ملكوته. أما العهد الجديد الذي تنبأ به إرميا النبي فعهد بين الله والمؤمنين بالمسيح سواء كانوا من بني إسرائيل أو من الأمم فهذا العهد الأخير أعم وأهم من الأول، لأن الأول كان قائماً على فرائض وطقوس ورسوم تدرِّب بني إسرائيل فقط على إدراك الحقائق الروحية تدريجياً استعداداً لأن يكونوا تلاميذ للمسيح وأساتذة العالم أجمع. فالعهد الأول والحالة هذه يشبه بذرة محصورة في دائرة ضيقة، وأما العهد الجديد فيشبه شجرة متأصلة نامية شاغلة مكاناً متسعاً. فكأن بذرة العهد القديم أنبتت شجرة العهد الجديد، والاثنان واحد جوهراً وإن اختلفا ظاهراً.

وحيث كان الأمر كذلك فمن الخطأ المعيب أن يُقال أن العهد القديم منسوخ والعهد الجديد ناسخ، ولعل الذين قالوا هذا القول لاحظوا الطقوس والفرائض التي خصّت ببني إسرائيل وأُهملت من جانب المسيحيين فنجيب عن ذلك أن تلك الطقوس الإسرائيلية هي بذاتها أنتجت العبادات الروحية للمسيحيين. كما تنتج البذرة شجرة

تُرى كأنها شيء جديد، والحقيقة هي أنها البذرة بعينها إنما أخذت شكلاً آخر تبع الناموس للنمو والارتقاء، فلا يصحّ أن يُقال إن الشجرة نسخت البذرة ومحت أثرها من صحيفة الوجود، بل أتمتها وأظهرت قوتها وإنتاجها بشكل محسوس.

ولا يبرح من ذهنك أن وصايا التوراة نوعان : طقسية وأدبية؛ والأولى كانت خاصة ببني إسرائيل، والكثير منها لم يكن مشروعاً إلا عندما أُوحي إلى موسى بالتوراة على جبل سيناء. ومن أجل ذلك لم يكن إبراهيم مكلفاً منها إلا بالختان. وهذه ملاحظة جديرة بالالتفات، لأنها تدل على أن نفوذ الوصايا الطقسية محصور ووقتي حتى أنه لم يشمل إبراهيم وإسحاق ويعقوب والأسباط وذريتهم إلى زمن موسى. فالغرض إذاً من هذه الوصايا الطقسية هو كما أسلفنا بيانه أمران : الأول، لأجل أن يعزل اليهود عن الأمم عزلة تامة صوناً لهم من السقوط في الوثنية التي كان لها السلطان الأعظم في تلك العصور المظلمة، واستدامت هذه العزلة إلى مجيء المسيح وتأسيس كنيسته على الأرض. والثاني، حتى يتعلّموا عملياً أن العبادات الظاهرة القائمة في المناسك وإن كانت موحى بها من الله ليست مقصودة لذاتها ولا تروي النفس المتعطشة إلى الله، بل غاية ما هنالك يرمز بها إلى حقائق روحية هي المقصودة

بالذات كما شرحناها في غير هذا الموضع -قارن مزمور ٥١ :١٦ و١٧- وبين ما تممه المسيح. فلم تكن تلك الوصايا مفروضة على الأمم، وقد ضعف تأثيرها على بني إسرائيل أنفسهم منذ قيامة المسيح من الأموات.

أما الوصايا الأدبية فهي أزلية أبدية، والناس ملتزمون بها في كل زمان ومكان، وإن كان أُوحي بها إلى موسى، إلا أن الالتزام بها من بدء الخليقة إلى منتهاها. فمن الوصايا الأدبية : لا تزن، لا تسرق، لا تقتل، لا تعبد الأصنام. فهذه الوصايا متعلقة بذات الله تعالى وطبيعته القدوسة؟ من أجل ذلك ينبغي أن تكون من الأزل إلى الأبد، ولا معنى للناسخ والمنسوخ في هذا المقام. فمن يزعم أن الإنجيل ينسخ التوراة هو على خطأ مبين وجهل مطبق وما الإنجيل بناسخ للتوراة بل مصدق وشارح لمعانيه ومرق لرسومه من الجسديات إلى الروحيات. ولهذا السبب ورد في الإنجيل أقوالٌ تفوق الحصر من التوراة في مواضيع مختلفة، مشروحة شرحاً وافياً ومدققاً. ولقد صدق القرآن حيث أفاد في وصفه الإنجيل بكونه مصدقا للتوراة كما جاء في سورة المائدة ٤٩ "وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقا لمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقا لمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التوْرَاةِ

وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِين". وليس بناسخ كما يزعم بعضهم .

ولنكرر القول هنا إن الوصايا الواردة في التوراة ولم يلتزم بها المسيحيون ما هي إلا وصايا طقسية، على أن الإنجيل لم ينسخها ولم يبطلها بل قد أكملها وبلغها إلى درجة رضوان الله الكامل. ومن أمثلة ذلك ما ورد في التوراة أن الله فرض على بني إسرائيل تقديم الذبائح الذي كان مستعملاً من بدء الخليقة عند كل الشعوب، وأمرهم أن يقدموها في أوقات معلومة ولغايات مختلفة، منها التكفير عن الخطايا. ولا يُعقل بداهة أن تقديم ذبائح الحيوانات يرفع خطايا البشر، وقد لاحظ ذلك داود النبي فقال "لِأَنَّكَ لَا تُسَرُّ بِذَبِيحَةٍ وَإِلَّا فَكُنْتُ أُقَدِّمُهَا. بِمُحْرَقَةٍ لَا تَرْضَى" -مزمور ٥١ :١٦- وقد كمل الإنجيل التوراة في هذا الموضوع حيث يقول :

"لِأَنَّ النامُوسَ، إِذْ لَهُ ظِلُّ الْخَيْرَاتِ الْعَتِيدَةِ لَا نَفْسُ صُورَةِ الْأَشْيَاءِ لَا يَقْدِرُ أَبَداً بِنَفْسِ الذبَائِحِ كُلَّ سَنَةٍ التي يُقَدِّمُونَهَا عَلَى الدَّوَامِ أَنْ يُكَمِّلَ الَّذِينَ يَتَقَدَّمُونَ. وَإِلَّا، فَمَا زَالَتْ تُقَدَّمُ مِنْ أَجْلِ أَنَّ الْخَادِمِينَ، وَهُمْ مُطَهَّرُونَ مَرَّةً، لَا يَكُونُ لَهُمْ أَيْضاً ضَمِيرُ خَطَايَا. لكِنْ فِيهَا كُلَّ سَنَةٍ ذِكْرُ خَطَايَا. لِأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنَّ دَمَ ثِيرَانٍ وَتُيُوسٍ يَرْفَعُ خَطَايَا. لِذلِكَ عِنْدَ دُخُولِهِ إِلَى الْعَالَمِ يَقُولُ : ذَبِيحَةً وَقُرْبَاناً لَمْ تُرِدْ، وَلكِنْ

هَيَّأْتَ لِي جَسَداً. بِمُحْرَقَاتٍ وَذَبَائِحَ لِلْخَطِيَّةِ لَمْ تُسَرَّ. ثُمَّ قُلْتُ : هَئَنَذَا أَجِيءُ. فِي دَرْجِ الْكِتَابِ مَكْتُوبٌ عَنِّي، لِأَفْعَلَ مَشِيئَتَكَ يَا اَللّٰهُ . إِذْ يَقُولُ آنِفاً : إِنَّكَ ذَبِيحَةً وَقُرْبَاناً وَمُحْرَقَاتٍ وَذَبَائِحَ لِلْخَطِيَّةِ لَمْ تُرِدْ وَلاَ سُرِرْتَ بِهَا . التي تُقَدَّمُ حَسَبَ النامُوسِ. ثُمَّ قَالَ : هَئَنَذَا أَجِيءُ لِأَفْعَلَ مَشِيئَتَكَ يَا أَللّٰهُ . يَنْزِعُ الْأَوَّلَ لِكَيْ يُثَبِّتَ الثَّانِيَ. فَبِهذِهِ الْمَشِيئَةِ نَحْنُ مُقَدَّسُونَ بِتَقْدِيمِ جَسَدِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ مَرَّةً وَاحِدَةً" -عبرانيين ١٠ :١-١٠.

وان اشعياء النبي كشف لنا سلفاً عن المقصود من تلك الذبائح الحيوانية في إنبائه عن حمل الله - إشعياء ٥٣ - الذي كان ناوياً على تقديمه من بدء الخليقة - رؤيا ١٣ :٨.

وحيث أن هذا الذبح العظيم الذي كانت تشير إليه الذبائح الحيوانية قد تم تقديمه، فلا لزوم لتلك الذبائح الحيوانية بعده. أما المسيحيون فلا يقدمونها اكتفاء بذبيحة المسيح، ولا يقدمها اليهود لأنهم أُمروا في التوراة أن لا يقدموا ذبيحة إلا في أروشليم داخل أسوار هيكل سليمان، ومن المعلوم أن الهيكل خرب وزال من الوجود، وبُني على آثاره جامع عمر وهو باق إلى اليوم. ومع أن المسيحيين لا يقدمون ذبائح حيوانية لكنهم لا يزالون يقدمون ذبائح ذات

شأن عظيم عند الله، وهي ذبائح نفوسهم، أي يضحّون بأجسادهم وأرواحهم ونفوسهم ليكونوا ذبائح حية مقدسة مرضية عند الله الحي الأزلي، وبهذا يتممون المعنى الروحي المقصود من المحرقات المفروضة في شريعة موسى. وأشار إلى هذه الذبائح الرسول بولس بقوله : "فَأَطْلُبُ إِلَيْكُمْ أَيُّهَا الْإِخْوَةُ بِرَأْفَةِ اللهِ أَنْ تُقَدِّمُوا أَجْسَادَكُمْ ذَبِيحَةً حَيَّةً مُقَدَّسَةً مَرْضِيَّةً عِنْدَ اللهِ، عِبَادَتَكُمُ الْعَقْلِيَّةَ. وَلَا تُشَاكِلُوا هذَا الدَّهْرَ، بَلْ تَغَيَّرُوا عَنْ شَكْلِكُمْ بِتَجْدِيدِ أَذْهَانِكُمْ، لِتَخْتَبِرُوا مَا هِيَ إِرَادَةُ اللهِ الصالِحَةُ الْمَرْضِيَّةُ الْكَامِلَةُ" - رومية ١٢ :١ و٢. ويشير إليها أيضاً بطرس الرسول بقوله "كُونُوا أَنْتُمْ أَيْضاً مَبْنِيِّينَ كَحِجَارَةٍ حَيَّةٍ، بَيْتاً رُوحِيّاً، كَهَنُوتاً مُقَدَّساً، لِتَقْدِيمِ ذَبَائِحَ رُوحِيَّةٍ مَقْبُولَةٍ عِنْدَ اللهِ بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ" - ١ بطرس ٢ :٥.

ثم مشروع في التوراة فريضة غسل الجسد، ولا شك أن الغرض من هذا هو (أولا) تنظيف الجسد، فالله يحب أن تكون أجسادنا نظيفة وبصحة معتدلة حسب الحالة التي فُطرنا عليها، لأنه من المحتمل أن وساخة الجسد تدنس الروح (ثانيا) حتى يتعلم الإنسان بالاختبار أن تنظيف الجسد وغسله مراراً وتكرار لا يطهر القلب من الأهواء الفاسدة، ولا يخلي الذهن من الأفكار الدنسة، ولا يمنح النفس مغفرة عن خطاياها السالفة. وعليه تحتاج نفوسنا إلى القداسة التي بدونها لا يعاين أحد الرب وقد ثبت أن الغسل اليهودي عديم التأثير وبعبارة

أخرى لا يمكن أن يقدس النفس، وما هو إلا ظل ورمز إلى غسل أجلّ وأسمى وهو الغسل الروحي السماوي الذي يمكن الحصول عليه بدم المسيح فقط الذي بالإيمان به نطهر من كل خطية. من أجل ذلك ينبغي للمسيحيين الحقيقيين أن يمتثلوا أمر الرسول الصادر في هذا الشأن حيث يقول "لِنُطَهِّرْ ذَوَاتِنَا مِنْ كُلِّ دَنَسِ الْجَسَدِ وَالرُّوحِ، مُكَمِّلِينَ الْقَدَاسَةَ فِي خَوْفِ اللهِ" -٢ كورنثوس ٧ :١. فتطهير الجسد والروح لازم لهما ولكن يجب أن نحاذر من أن نجعل تطهير الجسد علة لتطهير الروح.

ومشروع أيضا في التوراة أن الذبائح يجب أن تُقدَّم في مكان معلوم -انظر التثنية ١٢ :١٣- وهو المكان الذي يختاره الرب ليجعل عليه اسمه، وفي ذلك معنى رمزي يشير إلى مسكنه - انظر التثنية ١٢ :٥ - والمكان الأول الذي اختاره الرب لهذه الغاية كان شيلوه - انظر يشوع ١٨ :١ - ثم اختار أورشليم مع أن الملك سليمان صرح بأن الهيكل الذي بناه مسكنا للرب في أورشليم ليس بالحقيقة مسكن اله بل رمزاً وعلامة محسوسة على وجوده تعالى بين شعبه، ويدل على ذلك قوله "لِأَنَّهُ هَلْ يَسْكُنُ اللهُ حَقّاً عَلَى الْأَرْضِ هُوَذَا السَّمَاوَاتُ وَسَمَاءُ السَّمَاوَاتِ لَا تَسَعُكَ، فَكَمْ بِالأَقَلِّ هذَا الْبَيْتُ الَّذِي بَنَيْتُ" -١ ملوك

٨ :٢٧. وأيَّد النبي إشعياء كلام سليمان في هذه المسألة في قوله "لِأَنَّهُ هَكَذَا قَالَ الْعَلِيُّ الْمُرْتَفِعُ، سَاكِنُ الأَبَدِ، الْقُدُّوسُ اسْمُهُ : فِي الْمَوْضِعِ الْمُرْتَفِعِ الْمُقَدَّسِ أَسْكُنُ، وَمَعَ الْمُنْسَحِقِ وَالْمُتَوَاضِعِ الرُّوحِ، لِأُحْيِيَ رُوحَ الْمُتَوَاضِعِينَ وَلِأُحْيِيَ قَلْبَ الْمُنْسَحِقِينَ" - إشعياء ٥٧ :١٥. ثم صادق المسيح على هذا الفكر وأيده بأقوال كثيرة بما معناه لا ينبغي أن يُسجَد لله في مكان خاص، وأن العبادة الخالصة مقبولة عن الله بدون اعتبار المكان - يوحنا ٤ :٢١-٢٤ - وزاد هذا الاعتقاد تمكناً ورسوخاً بعد أن قدم المسيح نفسه ذبيحة خارج أسوار أورشليم مرة واحدة أغنتنا عن ألوف الذبائح والمحرقات. ومن ذلك الوقت فصاعداً لم يبق وجهٌ معقول لتخصيص بقعة من الأرض للعبادة ولنسبة القداسة والبركة إليها بنوع خصوصي.

فترى من هنا أن العهد الجديد ليس محصوراً بين أمة ولا في إقليم دون آخر، بل هو متسع لقبول من يؤمن بالمسيح من أية أمة وبلاد على وجه الأرض بحيث تمنح له حصته من بركات الله ومزايا الإيمان.

قد رأينا كفاية لعدم لزوم تخصيص مكان للعبادة أو تقديم الذبائح كما كان الحال في شيلوه وهيكل سليمان، ولكن الله خصص شخصاً حياً هيكلاً روحياً ليس بنياناً من طوب وطين، وفيه وحده

تقبل العبادة وتقدم الذبائح الروحية التي أشرنا إليها آنفاً، وهذا الشخص هو يسوع المسيح، فعلى المسيحي الحقيقي أن يقدم نفسه لله ذبيحة حية مقدسة لا في مكان مخصص بل في شخص المسيح لكي يحوز باستحقاقه القبول والرضا عند الله. نرى مما تقدم أن شريعة الذبائح المفروضة في التوراة تمت في العهد الجديد، وارتفعت إلى اعتبار أكرم ومعنى أسمى وتم ذلك في الساعة التي استغنى فيها الحال عن حرفية هذه الشريعة ووضحت روحانيتها.

ثم فُرض في التوراة ثلاثة أعياد لليهود، وأُمر ذكورهم أن يصعدوا في كل عيد إلى المكان الذي اختاره الرب ليظهروا أمامه - خروج ٢٣ :١٤ و١٧ وتثنية ١٦ :١٦. غير أن اليهود على مرّ السنين والأزمان غالوا في الاعتبار الخارجي لهذه الأعياد وتجاوزوا الحد وظنوا أنهم بذلك يحرزون رضا الله والتقرُّب إليه وإن كانوا يهملون التقوى الحقيقية فلهم في حفظ هذه الأعياد ما يكفر ذنوبهم. فغضب الله عليهم وكره أعيادهم وأرسل إليهم أنبياءه ببلاغ مخصوص في هذا المعنى. ومن ذلك قوله "رُؤُوسُ شُهُورِكُمْ وَأَعْيَادُكُمْ بَغَضَتْهَا نَفْسِي. صَارَتْ عَلَيَّ ثِقْلاً. مَلِلْتُ حِمْلَهَا. فَحِينَ تَبْسُطُونَ أَيْدِيكُمْ أَسْتُرُ عَيْنَيَّ عَنْكُمْ، وَإِنْ كَثَّرْتُمُ الصلاَةَ لاَ أَسْمَعُ. أَيْدِيكُمْ مَلآنَةٌ دَماً اِغْتَسِلُوا تَنَقُّوا

اعْزِلُوا شَرَّ أَفْعَالِكُمْ مِنْ أَمَامِ عَيْنَيَّ. كُفُّوا عَنْ فِعْلِ الشَّرِّ. تَعَلَّمُوا فِعْلَ الْخَيْرِ الخ" -إشعياء ١ :١٤-١٧ وعاموس ٥ :٢١. من هنا نرى أنه لا يحوز القبول لدى الله إلا للذين يتقدمون إليه بالروح والحق. وهذا ممكن في العهد الجديد بالإيمان الحي بكفارة المسيح. ويدل على ذلك قوله "وَأَنْتُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ قَبْلاً أَجْنَبِيِّينَ وَأَعْدَاءً فِي الْفِكْرِ، فِي الأَعْمَالِ الشِّرِّيرَةِ قَدْ صَالَحَكُمُ -المسيح- الآنَ فِي جِسْمِ بَشَرِيَّتِهِ بِالمَوْتِ لِيُحْضِرَكُمْ قِدِّيسِينَ وَبِلاَ لَوْمٍ وَلاَ شَكْوَى أَمَامَهُ" -كولوسي ١ :٢٢. وقوله "فَإِذْ لَنَا أَيُّهَا الإِخْوَةُ ثِقَةٌ بِالدُّخُولِ إِلَى الأَقْدَاسِ بِدَمِ يَسُوعَ، طَرِيقاً كَرَّسَهُ لَنَا حَدِيثاً حَيّاً، بِالحِجَابِ، أَيْ جَسَدِهِ، وَكَاهِنٌ عَظِيمٌ عَلَى بَيْتِ الله لِنَتَقَدَّمْ بِقَلْبٍ صَادِقٍ فِي يَقِينِ الإِيمَانِ مَرْشُوشَةً قُلُوبُنَا مِنْ ضَمِيرٍ شِرِّيرٍ، وَمُغْتَسِلَةً أَجْسَادُنَا بِمَاءٍ نَقِيٍّ" -عبرانيين ١٠ :١٩-٢٢.

وفُرض في التوراة الختان وجُعل علامة للعهد المأخوذ بين الله وهو الطرف الأول وبين إبراهيم ونسله وهو الطرف الثاني، ولكنه مشروط على الذين يتَّسمون بهذه العلامة أن يؤمنوا بوعد الله - أنه يتناسل من إبراهيم وإسحاق ويعقوب نسل تتبارك به جميع قبائل الأرض - تكوين ٢٧ :١٠-١٤ و١٨ :١٨ و٢٢ :١٨

و٢٦ :٤. وكرر الله شريعة الختان على يد موسى النبي - لاويين ١٢ :٣ - على أن الغاية المقصودة منه هي تمييز اليهود عن الأمم، ولم يكن تحقيقها في ذلك الوقت لأن كثيراً من الأمم كانوا مختتنين، فلا بد أن يكون القصد منه والحالة هذه أن يتعلم اليهود أن يختتنوا قلوبهم من الشهوات الحيوانية. والتوراة نفسها تؤيد هذا التأويل ومن ذلك قوله "فَاخْتِنُوا غُرْلَةَ قُلُوبِكُمْ" - تثنية ١٠ :١٦. وفي مواضع أخرى يفسر ختن القلب بالحب الخالص لله حيث يقول "وَيَخْتِنُ الرَّبُّ إِلهُكَ قَلْبَكَ وَقَلْبَ نَسْلِكَ لِكَيْ تُحِبَّ الرَّبَّ إِلهَكَ مِنْ كُلِّ قَلْبِكَ وَمِنْ كُلِّ نَفْسِكَ لِتَحْيَا" - تثنية ٣٠ :٦. وكذلك أسفار العهد الجديد تنسج على هذا المنوال - رومية ٢ :٢٥ و٢٨ و٢٩.

ولما أكمل العهد القديم بالعهد الجديد عيَّن الله لهذا علامةً بدل الختان وهي فريضة المعمودية ويوسم بها من يؤمن بالمسيح من أية أمة كانت على وجه الأرض -بشارة متى ٢٨ :١٩- وهذه العلامة الجديدة مناسبة للرجال والنساء والكبار والصغار، وأنها كالختان تعلّم نقاوة القلب. وحلَّ العماد محل الختان للتمييز بين المؤمنين بالمسيح وبين اليهود والأمم الذين يمارس كثير منهم الختان. وأما ما يشير إليه الختان وهو طهارة القلب والنية فتشير إليه المعمودية من باب

أولى - كولوسي ٣ :٥-١٧.

وفي العهد القديم فرائض أخرى كثيرة ضربنا عنها صفحاً مكتفين بالذي عددناه والمراد منها توجيه القلب إلى حقائق روحية واستيعابها، ومتى أدركناها لم تبق حاجة إلى ممارسة فرائضها المنظورة، بل تكون مضرَّة إذ يُخشى على الذين يستعملونها أن يتمسكوا بالعرض دون الجوهر كما فعل اليهود الذين تمسكوا بطقوس ورسوم تشير إلى المسيح ورفضوا المسيح نفسه وظنوا أنهم ناجحون بفضل هذا التمسك الباطل.

فمع هذا البيان الوافي لا ينبغي لذي فهم أن يرتاب في فساد دعوى نسخ الانجيل للتوراة. إذاً لم ينسخ الإنجيل التوراة بل أثبتها ورفع درجة طقوسها ورسومها من الشبح الذي لا يغني شيئا عن روحانية العبادة. وهذا ما عناه السيد المسيح بقوله : "لَا تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لِأَنْقُضَ النَامُوسَ أَوِ الْأَنْبِيَاءَ. مَا جِئْتُ لِأَنْقُضَ بَلْ لِأُكَمِّلَ. فَإِنِّي الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ : إِلَى أَنْ تَزُولَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ لَا يَزُولُ حَرْفٌ وَاحِدٌ أَوْ نُقْطَةٌ وَاحِدَةٌ مِنَ النَامُوسِ حَتَّى يَكُونَ الْكُلُّ" - بشارة متى ٥:١٧ و١٨. هذه هي علاقة الإنجيل بالتوراة.

أما من جهة الوصايا الأخلاقية فقد ذكرنا أنها موافقة لإرادة الله

وصفاته، فلا تقبل التغيير ولا النسخ، بل تبقى ثابتة إلى ما لا نهاية كما أن صفات الله ثابتة, فهي في العهد القديم عينها في العهد الجديد، إلا أنها مشروحة في الأخير شرحاً مدققاً وبالغة حد الكمال. ومن أمثلة ذلك أن القتل محرَّم في التوراة - خروج ٢٠ :٣٠ وتثنية ٥ :١٧ - أما المسيح فقد شرح القتل في الإنجيل بإحساسات الغضب التي إن لم تُخمَد أدَّت إلى القتل المريع - بشارة متى ٥ :٢١ و٢٢. ثم أن الزنا محرم في التوراة - خروج ٢٠ :١٤ وتثنية ٥ :١٨ - أما المسيح فيعتبر كل نظرة إلى النساء بشهوة هو زنا - بشارة متى ٥ :٢٧ و٢٨ - وقال شارحاً الزنى ما معناه وإن كان موسى أباح الطلاق لليهود لقساوة قلوبهم، فهو يحرمه إلا لعلة الزنى، ويعتبر الطلاق بغير هذه العلة زنى وتسهيلا للغير عليه أيضا - بشارة متى ٥ :٣١ و٣٢.

وقد حرمت التوراة القَسَم بغير الله، وكذا حرمت النطق به كذباً أو باطلاً - خروج ٢٠ :٧ ولاويين ١٩ :١٢ وتثنية ٦ :١١ - فلما جاء المسيح وجد اليهود يستعملون الأقسام في كلامهم العادي، فنهاهم عن ذلك وأمرهم بترك القسم قطعياً من غير ضرورة، وأن يتكلموا بالصدق إيجاباً وسلباً : نعم نعم لا لا - بشارة متى ٥ :٢٣-٣٧.

وأمرت التوراة بني إسرائيل أن يحب كل منهم قريبه كنفسه - اللاويين ١٩ :١٨ - وفسر علماؤهم القريب المذكور هنا بمن كان من أمتهم، وأما الغريب فيعتبر خارجٌ حدود هذه الوصية. ولهذا جرى لسانهم في اقتباسها بهذا المعنى أن يحبوا أمتهم ويبغضوا الأجانب. أما المسيح ففي شرحه هذه الوصية أوجب المحبة للقريب والغريب والعدو والصديق - بشارة متى ٥ :٤٣-٤٨ - وكان بنو إسرائيل في زمن موسى يصعب حتى على خيارهم أن يخمدوا ثورة غضبهم ويتحاشوا جريمة القتل مخافة من الله، كما وأنه كان يصعب عليهم حفظ الوصايا الأخرى الناهية عن السرقة والطمع والزنى. أما في زمن المسيح لعلهم كانوا أحسن حالاً وأطيب قلباً لطول عهدهم بالأنبياء والرسل وتأثير الروح القدس، حتى لم يعد يصعب عليهم حفظ هذه الوصايا وأمثالها، إلا مَن كان متوغلاً في الشر منهم. ولهذا كان عليهم أن يرتقوا في معارج الفضيلة ويُكلَّفون بوصايا أخلاقية في منتهى الصلاح والكمال لم يحلم بها أفاضل أسلافهم. وفي ذلك الوقت جاء المسيح وفسر لهم الوصايا الأخلاقية الواردة في شريعة موسى بغاية الدقة حتى بلغت الكمال، ثم قرن تعليمه بالعمل في كل أيام حياته، وصار ممكناً بفضل قدرته المباركة ونعمة الله ومعونة

الروح القدس أن يبلغ المؤمن بالمسيح حتى المحتقرون منهم إلى أعلى طبقات البر والصلاح ويسبقوا خيار بني إسرائيل في هذا المضمار.

فنهت شريعة موسى عن كل عمل شرير، وأما شريعة المسيح فلم تقف عند هذا الحد فقط بل تجاوزته إلى النهي عن الأفكار الشريرة. جاءت شريعة موسى بعبارة سلبية تعدّد ما نهى عنه الله، أما شريعة المسيح فأحاطت بالسلب والإيجاب، فكما نهت عن فعل الشر أمرت بفعل الخير. من أجل ذلك كان يقع تحت طائلة العقاب بموجب شريعة موسى كل من يعمل الشر، وأما بموجب شريعة المسيح فيقع تحت طائلة العقاب كل من لم يفعل الخير وإن كان بريئاً من فعل الشر. ومن أقوال المسيح في هذا المعنى مثل مشهور هو مثل السامري الصالح أوجب فيه المسيح دينونة كاهن ولاوي لم يسعفا رجلاً جريحاً بل تركاه ومضيا - لوقا ١٠ :٣٠-٣٧ - ومنها مثل العبد الذي أخذ من سيده وزنة ولم يتاجر بها، بل صرّها في منديل وحفظها عنده، فأوجب عليه العقوبة مع أنه لم يختلس من المال درهماً واحداً، لكنه لم يربح فوقه، وذلك كناية عن عدم فعل الخير - لوقا ١٩ :٢٠-٢٤.

نهت شريعة موسى بني إسرائيل عن أن يخالطوا الأمم حذراً من أن ينقادوا إلى عبادتهم الوثنية وفعلهم المنكر، وأما شريعة المسيح

فلا تقف معنا عند حد السلامة من دين الوثنيين وأفعالهم، بل توجب علينا أن نبشرهم بالمسيح ونعلمهم معرفة الإله الحقيقي حتى نربحهم ونضمهم إلى صفوفنا. إلا أنه من بعض الوجوه يوجد فرق ضروري بين العهد القديم والجديد. الأول، علَّم الناس أنهم خطاة وذوي طبيعة خاطئة في نظر الله القدوس وأمرهم أن يلقوا رجاءهم على مخلّص آتٍ يولد من عذراء في بيت لحم ويقدم نفسه كفارة عن خطاياهم. وأما الفرق الثاني، فهو يبشر بأن المخلّص الموعود به قد جاء وقدَّم نفسه كفارة، ليس عن خطايا اليهود فقط بل عن خطايا العالم كله، ولم يبق عليهم إلا أن يؤمنوا به فيخلصون. ولكن هذا الفرق وحده هو تتميم في الزمان الثاني لما سبق به الوعد في الزمن الأول.

ربما يظهر للبعض أنه لمناسبة تقدم العالم في المدنية والحضارة فالدين الذي كان ملائما للناس في زمن موسى لم يلائمهم في زمن المسيح إذ أنه عتق وشاخ. ومثل ذلك الدين الذي وضعه المسيح إذ مرَّ عليه ستمائة سنة خلق وقدم أيضاً ولم يعد يلائم العالم في عصر محمد، فولى الأدبار أيضاً وقام مقامه الإسلام.

فرداً على ذلك نقول (أولا) بما أن الطقوس والرسوم الدينية هي رموز تشبيهية، فيجوز أن تهرم وتشيخ متى أتى المرموز إليه

وعوضاً عما كانت مفيدة في زمن الرمز بها لا تكون مفيدة في العصور الأخرى بل ربما أضرّت. أما المبادئ الجوهرية للدين الحق فلا تقبل التغيير، ولا يؤثر عليها مرور القرون واختلاف العصور كالشريعة الأخلاقية، فإنها إن كانت حقاً وواجبة في زمن تبقى كذلك في كل الأزمان. فمبادئ شريعة موسى الأخلاقية كانت حقاً في زمن آدم وإبراهيم والمسيح، وهي حقٌّ في هذا الزمان، وتبقى حقاً إلى يوم القيامة بل إلى ما لا نهاية، لأن جوهر الدين الحق لا يقبل التغيير ولا يعجز عن التأثير (ثانيا) نقول إن كان العالم قد تقدم في المدنية والعلم يقتضي تقدمه في الدين أيضاً. ولو سلمنا جدلاً أن عصر محمد وجزيرة العرب مسقط رأسه كانا أكثر حضارة وأرقى مدنيّة من بلاد فلسطين ومن الأمة اليهودية في عصر المسيح، واقتضى تنزيل دين الإسلام مشايعا لهذه المدنية الباهرة ، لكان من اللازم أن يكون الاسلام راقياً كرقي الديانة المسيحية على الأقل من حيث المبادئ الأخلاقية وروحانية العبادة والعتق من نير الطقوس اليهودية المتراكمة، فهل الإسلام راقٍ هذا الرقي من هذه الحيثيات؟ أم يرجع القهقرى إلى زمن موسى؟ إننا نتركُ الحكم لأهل الإنصاف والخبرة بالتوراة والإنجيل والقرآن (ثالثا) نقول إن الطبيعة البشرية واحدة في كل العصور من

حيث احتياجاتها وميولها والفساد المتسلط عليها، لذلك يحتاج البشر أجمعون إلى روح الله القدوس ليطهر قلوبهم من زمن مضى أو حاضر أو مستقبل. إلا أن ابن آدم يميل للخطية ويحتاج إلى يد تنتشله وتقرّبه إلى الله على الرغم من ميوله الطبيعية، وهذه اليد الناشلة لا يمكن الوصول إليها إلا إذا تفضل الله علينا وأحبنا أولاً فيكون هو البادئ بالصلح. نعم هذا هو الإنجيل بعينه، لأنه إعلان محبة الله للعالم الأثيم. قال الرسول يوحنا أحد الحواريين الاثني عشر نحبّه لأنه أحبنا أولاً - ١ يوحنا ٤ :١٩ - فهذه الطريقة هي أرقى وأنجح وأفضل طريقة معقولة لاجتذاب الإنسان إلى الله ومصالحته مع خالقه ولا يقدر العقل البشري أن يتصوّر وسيلة دينية تحمل الإنسان على إنكار نفسه، والارتفاع في درجات الصلاح والتعبد لله مثل الإيمان بأن الله أحبنا أولاً وبذل ابنه من أجلنا.

ونزيد قائلين إن دعواهم بأن التوراة منسوخة دعوى منقوضة بأقوال الأنبياء والرسل الصريحة الدلالة بل بأقوال المسيح نفسه التي وردت ضمن أسفارهم. ومن ذلك قول إشعياء النبي مشيراً إلى أسفار العهد القديم "طبعاً يَبِسَ الْعُشْبُ، ذَبُلَ الزهْرُ. وَأَمَّا كَلِمَةُ إِلَهِنَا فَتَثْبُتُ إِلَى الأَبَدِ" - إشعياء ٤٠ :٨. ويؤيد المسيح هذه الحقيقة داحضاً

وقوع النسخ على أسفار العهد القديم، ومثبتاً بقاء كلماتها إلى الأبد، أو على الأقل مدة وجود العالم ومن ذلك قوله : "اَلسَّمَاءُ وَالْأَرْضُ تَزُولَانِ وَلكنَّ كَلَامِي لَا يَزُول" - بشارة متى ٢٤ :٣٥ ومرقس ١٣ :٣١ ولوقا ٢١ :٣٣.

ولعل معترضاً يقول إن المسيح قصد بقاء كلامه في تلك المواضع إلى زمن حصار أورشليم بواسطة جيش تيطس أي سنة ٧٠ للميلاد. فنجيب أن من يطالع هذه الإصحاحات الثلاثة ويلاحظ سياق الكلام فيها، يحكم لأول وهلة أن إشارة المسيح ليس إلى حصار أو خراب أورشليم، بل إلى منتهى العالم إلى يوم القيامة حين يأتي ثانية ليدين الأحياء والأموات - بشارة متى ٢٤ :٣٠ و٣١ ومرقس ١٣ :٢٦ و٢٧ ولوقا ٢١ :٢٧ و٢٨ - لأنه لما أشار إلى الضيقات الهائلة التي ستحيق بالعالم في آخر الزمان وتغيُّر وجه الأرض كان من المناسب أن يطمئن المؤمنين به بأن كلامه يبقى ثابتاً (١) لا يتغير ولا يزول حتى يتمسكوا به في أوقات الشدائد.

ومما يدل على أن كلام المسيح باقيا الى القيامة قوله "مَنْ

---

(١) وكذلك القرآن يثبت ان لا تغيير لكلمات الله (انظر سورة الأنعام آية ٣٤ و١١٥ وسورة يونس آية ٦٤ وسورة الكهف آية ٢٧)

رَذَلَنِي وَلَمْ يَقْبَلْ كَلاَمِي فَلَهُ مَنْ يَدِينُهُ. اَلْكَلاَمُ الَّذِي تَكَلَّمْتُ بِهِ هُوَ يَدِينُهُ فِي الْيَوْمِ الأَخِيرِ" - يوحنا ١٢ :٤٨. وهذا الدليل من الصراحة بمكان بحيث لا يجهلَه أحد، لأنه إن كنا سنُدان في اليوم الأخير بموجب إنجيل المسيح فيقتضي أن يبقى بدون تبديل الى يوم الدين. وعدا ذلك أمرنا في الانجيل أمرا صريحا أنه إن جاءنا أعظم عظيم ولو ملاك من السماء وبشرنا بخلاف ما ورد في الانجيل وادعى بأنه مرسل من الله يكون ملعونا – رسالة بولس الرسول الى غلاطية ١:٨ ولهذه الأسباب ابتعد المسيحيون الحقيقيون عن ضلالات الأنبياء الكذبة الذين ظهروا بعد المسيح وادعوا بأنهم هم المشار اليهم في الانجيل بالفارقليط مثل ماني الفارسي وغيره وكذلك لم يتوقعوا وحيا جديدا غير المتضمن في العهد الجديد .

ولا يبرح من بالك أن قصد المسيح من دوام كلامه وبقاء كل لفظة من ألفاظ العهد القديم والجديد على وضعها الأصلي شيئان مختلفان لأن قصد المسيح من دوام كلامه وكلام العهدين بقاء معانيهما لا ألفاظهما. فلا يجهل عالِم بأصول اللغة أن المعنى هو المراد لا الألفاظ التي هي آلة للتعبير. إذ قد توجد قراءات مختلفة لنسخ العهدين، كما توجد قراءات في القرآن وكل الكتب القديمة لكنها

لا تغيّر المعنى، ولم تمس مبدأً من مبادئ الدين في العهدين.

ولقائل أن يقول يُؤخذ من كلام المسيح من حيث بقاء كلمة الله في العهد القديم والجديد بدون تبديل أنه لا يجوز تبديل الطقوس والرسوم الخارجية الواردة في التوراة، ولكنها تبدَّلت بالإنجيل. فنقول إننا أجبنا على هذا الاعتراض في ما تقدم بما فيه الكفاية، ولا بأس من تكرار الجواب بأن الطقوس والرسوم الخارجية الواردة في التوراة لم تبدّل بالحقيقة، بل تقدَّمت وتكمَّلت كما علّم المسيح نفسه - بشارة متى ٥ :١٧ - ومن أمثلة ذلك أن المسيح أصلح كيفية الصيام مع أن أنبياء العهد القديم لم يأمروا به ولا نهوا عنه، بل غاية ما في الأمر أنه كان محترماً عند اليهود - بشارة متى ٦ :١٦-١٨.

وقول بعضهم إن أمر المسيح الوارد في الإنجيل - بشارة متى ١٠:٥ - وتصريحه في بشارة متى ١٥ :٢٤ للبشارة المذكورة منسوخان كلاهما بأمره الوارد في ختام هذه البشارة. فنجيب قائلين : إن الأوامر الوقتية يجب أن تكون وقتية، فمتى نُفِّذت تماماً انتهت. فلا يُقال إنها نُسخت، ولا أُبطلت. وإثبات ذلك ظاهر من معنى كلام السيد المسيح أنه لم يقصد حصر التلاميذ في بلاد فلسطين دائماً أبداً، لأنه له المجد هو نفسه لم يتجاوز حدود فلسطين إلا هذه المرة التي

استدعته إلى القول المشار إليه، فلا يُعتبر عدم سفره نهياً صريحا للتلاميذ عن السفر دائماً، ولا أن رسالتهم مختصة في بني إسرائيل فقط.

ولنرجع الآن إلى الحقائق المذكورة في التوراة فنقول إنها أيضا لا تقبل النسخ. وإثبات ذلك سهل جداً، لأنه من البديهي لكل ذي فهم أن الحقيقة الواردة في الكتاب كواقعة حال يجب أن تكون صدقاً أو كذباً. أما كونها كذباً فلم يدَّعِ هذه الدعوى أحدُ من المسلمين، وأما كونها صدقاً فيستحيل نسخها كما هو مستحيل لأي حادث أن يُمحى من بطون التاريخ، ويُمحى أثره من صحيفة الوجود وفي هذا كفاية.

والآن وقد أتينا في هذا الفصل بمزيد الوضوح والجلاء بأن كل تعاليم العهد القديم والجديد الجوهرية لا تقبل التغيير ولا النسخ، لأنها تمثل للناس إرادة الله وصفاته وهي منزَّهة عن التغيير والتبديل في كل العصور والأزمان. وعليه فطريق الخلاص واحدة في كل الأجيال، وسيُدان الناس في اليوم الآخِر بموجب تعليم المسيح الذي رأى إبراهيم يومه بعين الإيمان وفرح به، وبالإيمان باسمه يخلُص كل إنسان، حتى الأنبياء والمرسلين.

الفصل الثالث

في أن أسفار العهد القديم والجديد المتداولة اليوم هي بعينها التي كانت
بأيدي النصارى واليهود في عصر محمد ولها قد شهد القرآن

في هذا الفصل والذي يليه بحثان في غاية الأهمية (الأولى) هل أسفار العهدين المنتشرة اليوم هي بذاتها التي كانت في عصر محمد (والثاني) إن كانت هي بذاتها فهل اعتراها تحريف أو تبديل كثير أو قليل؟

وقبل البحث في هذا وذاك لنفرض أن الكتاب المقدس المتداول اليوم لم يكن هو بذاته الذي كان في عصر محمد، أو على الأقل اعتراه التحريف بحيث أصبح لا يوثق به، كما يزعم جهّال المسلمين. فإن كان الأمر هكذا فما أشقى بني آدم وما أنكد حظهم وأنحس طالعهم، لأن كلام الله الذي لا يقبل التغيير على حسب فهمنا، ونطقت به الأنبياء والرسل كما يصرح القرآن ويحتم على المسلمين أن يقروا ويعترفوا به قد تلاشى من الوجود أو تشوه بالباطل، فسقطت قيمته وما أشقى الجنس البشري بهذا المصاب العظيم! حتى القرآن طاش سهمه وخاب مسعاه، لأن الله أنزله مهيمناً (١) على

(١) انظر سورة المائدة (آية ٥١) يقول "وانزلنا اليك الكتاب بالحق

الكتاب المقدس ليحفظه سالماً من أيدي الأغراض ولم يحفظه، إن هذا ليهدم ركنا عظيما من أركان الثقة بالقرآن . كيف لا وقد وكل الله إليه مأمورية فأهملها شر إهمال.

لكن هذه الدعوى باطلة والشكر لله، فإن كلمته التي في العهدين لم تتلاشَ ولا تحرَّفت، بل بقيت محفوظة بعنايته الضابطة لكل شيء كما يعترف القرآن ويهدي أتباعه إلى صراط مستقيم من هذه الحيثية..

ومن الغريب أننا نحن المسيحيين بواسطة تمسكنا بشهادة القرآن في حق الكتاب المقدس بالصحة والنزاهة ندافع عن القرآن نفسه من هجمات أغبياء المسلمين، الذين لو دروا أن الطعن في الكتاب المقدس طعن في قلب القرآن، لم يطعنوا.

ومن الشواهد على ذلك قول الشيخ رحمة الله الهندي في كتابه إظهار الحق الذي طبعه سنة ١٢٨٤ هجرية أن أحد علماء دلهي من أعمال الهند أفتى قائلاً إن هذا المجموع المشتهر الآن

مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه الخ" ويفسر البيضاوي قوله "ومهيمنا عليه" رقيبا على سائر الكتب ليحفظها من التغيير ويشهد لها بالصحة والثبات وقرئ على صيغة المفعول أي هُومِنَ عليه أو حوفظ من التحريف والحافظ له هو الله أو الحفظ في كل عصر شهيدا عليه أي على الكتب كلها

بالعهد الجديد ليس بمسلم عندنا، وليس هذا هو الإنجيل الذي جاء ذكره في القرآن بل هو عندنا عبارة عن الكلام الذي أُنزل على عيسى - ص ١٤٤ و١٤٥ - وقد وقع رحمة الله في مثل هذا الخطأ الفاحش من شدة تعصبه، فقال ما معناه إن التوراة والإنجيل الأصليين فُقدا قبل رسالة محمد، والأسفار الموجودة اليوم لا مقام لها عندنا أكثر من كتب أقاصيص ملفقة من باطل وحق وإننا لا نعتبر أن الكتاب وُجد بحالة من الصحة والنقاوة حتى زمن الإسلام ثم دهمته مصيبة التحريف فأُتلف، بل نقول إنه فُقد كله قبل ذلك بزمن طويل.

ورداً على ذلك نقول إن رحمة الله لا يعني بالتوراة والإنجيل الأصليين ونفس الصورتين اللتين كتبهما موسى ورسل عيسى بأيديهم، لأنه إن كان يقصد ذلك يورط نفسه من جهة القرآن، لأن نسخته الأصلية ضاعت أيضاً. بل قصد الإنجيل والتوراة اللذين هما طبق الأصل. ودعواه بأنهما ضاعا باطلة، كما هو مسلَّم عند علماء الإسلام المحققين في كل العالم، وهذه من أفحش الغلطات التي سقط فيها رحمة الله، وإن مثله لا يُلتمس له عذر كما كان يُلتمس لأهل العصور المظلمة. أما وهو من أبناء هذا العصر الذي سطع فيه نور العلم والعرفان فيُؤاخذ بغلطته كل المؤاخذة. يبذل هذا الشيخ مجهوداً ليوهم بسطاء

المسلمين أن التوراة الأصلية فُقدت عندما سبى بختنصر الملك أورشليم وهدم هيكل سليمان سنة ٥٨٧ قبل المسيح، ويقيم الدليل على ذلك من سفر مزمور يدعوه بعضهم سيدراس الثاني ويدعوه بعضهم الرابع، ويحاول أن يقنع المسلمين بأن سيدراس هذا إنما هو عزرا المسمى في القرآن عُزير، وأنه قد ألف كتاباً وادعى أنه هو التوراة الحقيقية الأصلية التي نزلت على موسى النبي. إلا أننا بمراجعة ذلك السفر الذي يشير إليه لا نجد ما يدل على صحة دعواه مطلقاً، بل ما يدحضها ويزيفها، فورد في أصحاح ١٤ :٢١ و٢٢ بأن عزرا استدعى الكتبة إلى كتابة كل ما عُمل في العالم من البدء، كما هو مكتوب في أسفار الشريعة. فإذا صحَّ هذا السند فإنه يدل على أن عزرا كان من حَفَظة أسفار الوحي، فأملاها على الكتبة فكتبوها ودّونوها. فلا يُقال عن عزرا والحالة هذه إنه ألف كتاباً من عند نفسه وادعى بأنه التوراة. وجاء في تفسير البيضاوي لسورة التوبة ٩ :٣٠ ما ينقض زعم رحمة الله ويؤيد بياننا. قال ما معناه عندما سبى بختنصر اليهود لم يبق أحد من حفظة الوحي، فبعث الله عزيراً من الأموات وقد مر عليه مئة سنة ميتاً، فأملى التوراة وجاءت طبق الأصل حتى تعجب منه اليهود. إن كانت هذه الرواية صحيحة فلا غرو أن يتعجب منها اليهود. إنما العجب كل العجب أن

يوجد بين العقلاء من يصدق خرافة كهذه، فإنه لا سفر سيدراس الثاني ولا الرابع ذكر هذه السخريات، ومع ذلك يؤخذ من هذه المزاعم التي رواها البيضاوي في تفسيره ورحمة الله في إظهار الحق أن عزرا كان حافظ الأسفار الوحي لا مزوراً. ثم نقول مرة ثانية. إن كانت الرواية الواردة في سفر سيدراس الثاني صحيحة فلا يؤخذ منها أن التوراة انعدمت من الوجود بسبب حرق كل نسخها، كما أنه لا ينعدم القرآن إذا أُحرق، لأنه كان يوجد حفظة للتوراة كما يوجد حفظة للقرآن الذين في إمكانهم أن يدونوه في الكتب. ويحسن أن نقول عن سفر سيدراس إنه لا يوجد أحد من علماء اليهود أو المسيحيين اعتمده ونسبه إلى عزرا. ويظهر من مطالعة الجزء الأول منه أنه كُتب ما بين ٨١ و٨٦ ميلادية. ومن المعلوم أن عزرا كان قبل الميلاد بنحو خمسمائة سنة - انظر سفر سيدراس الثاني أصحاح ٢ :٤٧ و٧ :٢٨ و٢٩ إلخ - وعليه تكون نسبة هذا السفر إلى عزرا منتحلة، وبالنتيجة يكون السفر مزوراً وأن اليهود الأولين لم يعدوه بين أسفارهم القانونية. إلا أنه في القرن الثالث للميلاد قبله بعضهم من الذين يجهلون اللغة العبرانية المكتوب بها، وإلا لما كانوا يقبلونه.

وإذ قد انتهينا من كلمتنا عن هذا السفر، وأقمنا الدليل بأن التوراة

والأسفار الأخرى المقدسة التي أوحي بها إلى الأمة اليهودية لم تتلاش قط من الوجود، فنقول إن ثبت وجودها في حياة عزرا - أي بعد خراب الهيكل بأكثر من مائة عام - ثبت وجودها في زمن بختنصر. أما إنها كانت موجودة في زمن عزرا فالدليل عليه من نفس سفر عزرا المقبول لدى اليهود والنصارى أجمعين، فلقد ورد فيه قوله عزرا هذا صعد من بابل وهو كاتب ماهر في شريعة موسى التي أعطاها الرب إله إسرائيل - توراة سفر عزرا ٧ :٦ - . قارن بين هذا وبين ما ورد في سفر نحميا ص ٨ - . ثم جاء أيضاً في سفر عزرا أن شريعة الرب - أي التوراة - كانت في يده وقت صعوده من بابل إلى أورشليم، وعلى ذلك قول الملك أرتحشتا له "مِنْ أَجْلِ أَنَّكَ مُرْسَلٌ مِنْ قِبَلِ الْمَلِكِ وَمُشِيرِيهِ السَّبْعَةِ لأَجْلِ السُّؤَالِ عَنْ يَهُوذَا وَأُورُشَلِيمَ حَسَبَ شَرِيعَةِ إِلهِكَ التي بِيَدِكَ" - عزرا ٧ :١٤ - . ومن هنا يظهر بمزيد الوضوح أن التوراة لم تتلاش في زمن بختنصر، وعندنا دليل آخر ورد في كتاب عبري يُدعى برقي أبهوث كُتب في القرن الثاني للميلاد ما معناه نزلت التوراة على موسى في جبل سيناء، واستودعها موسى إلى يشوع، وهذا سلمها إلى شيوخ إسرائيل، وهؤلاء سلموها إلى الأنبياء، وسلمها الأنبياء إلى السنهدريم "مجمع

اليهود" الأعظم . ويُروى أن هذا المجمع كان مؤلفاً من علماء اليهود وبدأ بتأسيسه عزرا، وكان الغرض منه المحافظة على التوراة وتعليمها للشعب. وورد في التلمود - كتاب تقليد اليهود - أنه بعد السبي البابلي الذي نحن في صدده أعاد المجمع العظيم التوراة إلى مجدها وجلالها القديم، وأشار إلى ذلك كتاب برقي أبهوث بما معناه أن ذلك المجمع وضع ثلاثة وصايا كشعائر مقدسة الأولى - احترس في القضاء - الثانية علّم كثيرين - الثالثة كن حصناً منيعا للتوراة. وهذه الوصية الأخيرة أوجبت على اليهود أن يبذلوا قصارى جهدهم في صيانة التوراة سالمة من كل ما يعرض لها، وقد قاموا بهذا المهمة خير قيام. وما من أمة بالغت في العناية بكتابها المقدس كما بالغت الأمة اليهودية بتوراتها، فقد أحصوا عدد كلماتها وحروفها. وأذكر هنا قولاً مأثوراً قاله أحد أكابر هذا المجمع يدل على مبلغ عنايتهم بالتوراة، وإلى أي حد رفعوا مقامها. ورد في برقي أبهوث قوله إن سمعان العادل - أحد خلفاء المجمع - كان يقول : العالم قائم على ثلاثة أعمدة التوراة والعبادة والعمل الصالح . بمثل هذا الاهتمام والتدقيق تداولت التوراة بين اليهود من السلف إلى الخلف جيلاً بعد جيل في لغتها الأصلية وهي العبرية والآرامية بكل اعتناء وتدقيق. ومن الأدلة المعتبرة على ما نحن بصدده

تعدد قراءات التوراة، أي وجود اختلافات لفظية مع وحدة المعنى. أليس هذا برهاناً على أنه لم يكتبها شخص واحد، ولا كُتبت في عصر واحد. ثم أنه يوجد فيها ما يشبه التناقض في أخبار بعض الوقائع والمسائل التي ليس لها مساس في الجوهر، وهو بالحقيقة ليس بتناقض. فوجود شيء من هذا القبيل في أسفار التوراة مع سكوت اليهود عنه وعدم تجاسرهم على تسويته، لدليل قوي على تمسكهم بالمتون الأصلية واستحفاظهم عليها، مهما يكن من أمرها. وتظهر قوة هذا الدليل بأكثر وضوح من المثال الآتي نقلاً عن القرآن. ورد في سورة آل عمران ٣ :٥٥ قوله "إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيّ" وورد في سورة النساء ٤ :١٥٧ قوله "وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ" قد ارتاب بعضهم في كون الضمير الأخير عائد إلى المسيح، ولكن لا يمكن أن يرتاب في تصريح القرآن بموت المسيح الوارد في سورة مريم ١٩ :٣٣ "وَالسَّلاَمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ ويَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّا" فهذا كله يظهر أنه منقوض بما ورد في سورة النساء ٤ :١٥٧ "وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُم" لأنه في المواضع الأولى يثبت موته وفي الموضع الأخير ينفيه. فوجود التناقض الظاهري في متن القرآن دليل معتبر على أن المسلمين لم يمسوه بسوء وإلا لكانوا

من باب أولى أزالوا شبه التناقض هذا وخصوصاً في آية "وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ" إذ قُرئت قبل موتهم وهذه القراءة يزول معها الالتباس، فما كان أيسر عليهم أن يثبتوا القراءة الثانية محل الأولى لكنهم لم يفعلوا حرصاً على الأصل. هكذا يدل وجود شبه التناقض الواقع في أسفار التوراة على أمانة أهلها.

قد كتب بعض المؤلفين المسلمين جدولاً طويلاً من المناقضات الواردة في الكتاب المقدس وزعموا أنها مناقضات حقيقية، وهي تناقضات ظاهرية فقط كمثل التي نقلناها هنا عن القرآن، وقد وفق بين كثير منها العلماء المحققون والتي لم يهتدوا إلى التوفيق بينها فصعوبتها قائمة على عدم معرفتهم كل ظروفها. ووجود هذه الاختلافات في أسفار التوراة دليل على عظمة اعتناء اليهود بالمحافظة على الأصل لأنهم لم يتخذوا وسيلة لإزالة هذا الخلاف ويكفوا نفوسهم مؤونة احتجاجات المعارضين الذين لا يفتأون ينقبون في الكتاب، لا توصل المعرفة الله، بل ليظفروا باحتجاج جديد، ويُظهروا براعتهم للناس ومن جدَّ وجد في الخير كان أو في الشر وإن أغمض الرجل عينيه لا يُعدم نصيبا من التدهور في الهوة والشمس طالعة .ولنتأمل الآن باختصار فيما إذا كانت أسفار العهد القديم أولاً وأسفار العهد الجديد ثانياً، المتداولة

اليوم، هي بذاتها التي كانت في زمن محمد، وإليها أشار القرآن فنقول :

إنه يوجد لدينا جملة جداول محصاة فيها أسفار العهد القديم يرجع تاريخها إلى ما قبل محمد، وهي موافقة لتوراة العصر الحاضر تمام الموافقة. قال يوسيفوس المؤرخ اليهودي في تاريخه الذي كتبه سنة ٩٠ ميلادية لا يوجد بيننا معشر اليهود عشرات الألوف من الكتب المتناقضة، بل يوجد اثنان وعشرون سفراً نؤمن أنها موحى بها من الله محتوية على تاريخ كل العصور، منها خمسة أسفار(١) لموسى وتشتمل على شريعة الله وتاريخ الجنس البشري من ابتداء العالم إلى موته، أي نحو ثلاثة آلاف سنة تقريباً. ومن ذلك الوقت إلى حكم الملك أرتزركسيس الذي خلف زركسيس مدون في ثلاثة(٢) عشر سفراً والأربعة(٣) الأسفار الباقية - المزامير والأمثال. والجامعة ونشيد الأنشاد - لتسبيح الله وتهذيب الأخلاق . وقدَّم لنا مجمع جامنيه الذي عُقد سنة ٩٠ ميلادية قائمة هذه الأسفار بعينها، وقرر مجمع لادوكية أنها اثنين

---

(١) سفر التكرين والخروج واللاويين والعدد والتثنية

(٢) سفر يشوع . والقضاة مع راعوث . وصموئيل . والملوك . وأخبار الأيام وعزرا مع نحميا . واستير . وايوب . والاثنا عشر سفرا للأنبياء الصغار واشعياء وارمياء مع مراثيه . وحزقيال . ودانيال

(٣) المزامير . والأمثال . والجامعة . ونشيد الانشاد .

وعشرين سفراً، ثم في القرون المتأخرة جزأوا بعض هذه الأسفار لسهولة المراجعة. ويمكننا أن نقدّر ونعين تاريخ التجزئة بالضبط. مثلاً في نسخة بطرسبرج التي كُتبت باللغة العبرية سنة ٩١٦ م لا تزال فيها الأسفار الصغار للأنبياء الاثني عشر(١) متضمنة في كتاب كل سفر كان يعتبر أصحاحاً، محصية فيه أعداد الآيات. أما تقسيم كل من سفر صموئيل والملوك والأخبار إلى جزئين وفصل عزرا عن نحميا فقد تم لأول مرة في طبعة العهد القديم العبرية في البندقية سنة ١٥١٦ و١٥١٧ ميلادية. يقول يوسيفوس المؤرخ إن الكتب الأخرى التي لا يساوون بينها وبين الاثنين والعشرين سفراً القانونية في الوثوق بأقوالها وقد ترجموا الكل إلى اليونانية، ومع أن هذه الأسفار الغير القانونية كُتبت وتُرجمت من قبل المسيح بكل اعتناء وتدقيق، لم ينزلوها منزلة الأسفار القانونية ولا عدّوها معها. وتمت هذه الترجمة بين سنة ٢٤٧ و٢٨٥ قبل المسيح في مصر بناء على طلب بطليموس الثاني الملقب فيلادلفيوس . ويظن البعض أنها بين سنة ٢٠٠ و٢٥٠ قبل المسيح ويرجحون الرأي الثاني، وليس هذا ذا بال. وتُدعى هذه الترجمة بالسبعينية نسبة إلى عدد الذين

---

(١) هوشع ويوئيل وعاموس وعوبديا. ويونان. وميخا. وناحوم وحبقوق وصفنيا. وحجي وزكريا. وملاخي

ترجموها، فإنهم كانوا سبعين عالماً من علماء اليهود، وهي أقوم ترجمة للتوراة في الوجود.

ولنذكر بعد ذلك الترجمات الأخرى للعهد القديم لزيادة التأكيد بأن التوراة التي بأيدينا اليوم هي التي كانت في عصر محمد وقبله بقرون كثيرة، لأنه إن لم تكن موجودة حينئذ فمن أين أتت تلك الترجمات وعلى الخصوص الترجمة السبعينية ، هذا ظاهر لأبسط الناس وعامتهم.

ثم الترجمة اليونانية التي تُرجمت بواسطة أكويلا التي تممها سنة ١٣٠ ميلادية وترجمها مرة أخرى رجل سامري اسمه سيماش، وفرغ منها سنة ٢١٨ ميلادية، ثم تُرجمت الى اللاتينية القديمة في القرن الثاني للميلاد نقلا عن الترجمة السبعينية. ثم ترجمها جيروم عن اللغة العبرية الى الطليانية وتسمى الترجمة اللاتينية وفرغ منها سنة ٤٠٥ م والترجمة السريانية لبشستا والمظنون أنها تُرجمت في آخر القرن الأول.

يقول يعقوب من أودسا إن التوراة تُرجمت أيضاً في حياة المسيح بناء على طلب ملك أودسا ابجار، ويظنون أن أول من أشار إلى الترجمة السريانية هو مليتس من أهالي ساردس في القرن الثاني، وينسبها آخرون إلى القرن الثالث. والترجمة السريانية الفيلكسية أتمها بوليكاربوس نحو سنة ٥٠٨ وهذبها وأصلحها توماس هرقل ٦١٦ م. وعليه كل

الترجمات السريانية كانت موجودة من قبل عصر محمد، والترجمة الأخيرة من هذه اللغة بوشرت في نفس أيامه.

ولما احتمى أصحاب محمد ببلاد الحبشة قبل الهجرة رأوا أهل تلك البلاد يقرأون التوراة والإنجيل في لغتهم الحبشية. وبسبب قِدم تلك الترجمة كان من الصعب على الأحباش فهمها، والمظنون أنها تُرجمت في القرن الرابع للميلاد. وكذلك لما فتح عمرو مصر وجد الدين الغالب فيها النصرانية، ووجد الكتاب المقدس مترجماً إلى اللغة القبطية في اصطلاحات البلاد الثلاثة الصعيدي والبحيري والبشموري. وقد تُرجمت عن الترجمة السبعينية، ويظن بعضهم أنها تُرجمت في ما بين القرن الثالث والرابع، ويقول بعضهم بل قبل ذلك.

وتُرجم بعض أجزاء التوراة عن اللغة السريانية إلى الآرامية سنة ٤١١ م وعن الترجمة السبعينية سنة ٤٣٦ م. وبعد ذلك بنحو قرن تمت الترجمة المشهورة بترجمة القديس جاورجيوس، وكانت مع قرب عهدها قبل الهجرة بسنين كثيرة.

وترجم التوراة أسقف غوثية إلى لغة أهل بلاده سنة ٣٦٠م

وأكثر هذه التراجم تممها قوم مسيحيون ما عدا الترجمة السبعينية والأكويلية طبعاً. كثيراً ما ترجم اليهود بعض أسفار

التوراة إلى الآرامية حيثما ابتدأ أكثرهم يهملون التكلم بالعبرية، ومن بين هذه التراجم ترجمة أنكلوس التي تمت ما بين سنة ١٥٠ و٢٠٠ م. وترجم يوناثان ابن عزيل أسفار الأنبياء سنة ٣٢٠م وعدا عن كل هذه الترجمات كان يوجد كتاب الترجوم الأورشليمي، وهو عبارة عن ترجمة أسفار العهد القديم وشروحها إلى اللغة الآرامية، وقد تم في القرن السادس أي قبل الهجرة. ومن المعلوم أنه كان في سالف الزمان بغض شديد بين السامريين واليهود، ومن أجل ذلك لم يعتمد السامريون من التوراة سوى أسفار موسى الخمسة واعتبروها كما هي موحى بها من الله. ولم نعلم بالتأكيد متى حصلوا على نسخة الأسفار الخمسة، فيظن البعض أنه كان في سنة ٦٠٦ ق م. أي حينما ابتدأت سنو السبي السبعون، ويظن البعض أن منسى حفيد ألياشيب الكاهن العظيم - وهو الذي قد تزوج بابنة سنبلط كما جاء ذلك في سفر نحميا أصحاح ١٣ :٢٨ - أحضر هذه الأسفار إلى السامرة حينما نفاه نحميا من أورشليم وأسس هناك هيكلاً على جبل جرزيم نحو سنة ٤٠٩ ق م.

ولا يزال بين أيدي المسيحيين بعض النسخ من توراة السامريين - أي أسفار موسى الخمسة - باللغة العبرانية الأصلية، لكن بحروف مختلفة عن التي يستعملها اليهود.

وبمراجعة هذه الأدلة والتراجم المتعددة لأسفار العهد القديم عند اليهود والنصارى نجزم ونحتم أن توراة اليوم هي بذاتها التي كانت في عصر محمد، وشهد لها القرآن في آيات كثيرة. وأن القراءات المتعددة للتوراة لا تطعن في سلامتها ولا تشوش نقاوتها لأنها لا تمس جوهر تعليمها واختلاف القراءات مسألة لا بد منها لكل كتاب قديم عظيم كاختلافات قراءات القرآن.

ولنتكلم الآن في نسخ العهد الجديد المتداول اليوم في العالم المسيحي ونبحث هل هي الإنجيل الحقيقي الذي يشهد له القرآن، وهل هو الذي كان موجوداً في عصر محمد أم لا ،

أما رجال العلم والتحقيق في كل العالم فلا يخالج قلوبهم أقل شك في صحة هذه الدعوى، لأن الأبحاث العصرية المتأخرة أثبتت قطعيا أنه حتى في عصر المسيح كتب تلاميذه - الحواريون - مذكرات بأقواله وتعاليمه وأعماله، وكثير منها وارد في بشارة مرقس على نوع أخص، وفي بشارتي متى ولوقا أيضاً على نوع ما. إلا أن واقعة صلب المسيح وموته ودفنه وقيامته وصعوده لم يدون منها التلاميذ شيئاً إلا من بعد صعوده طبعاً، ثم أنهم لم يروا ضرورة تدفعهم إلى كتابة الإنجيل لقوم يعلمونه بمشاهدة العيان، إذ كانوا معاصرين ليسوع ورأوه وجها لوجه

وكلموه شفاهياً وكانوا معه وحوله كل يوم يسمعون وعظه ويرون معجزاته - ١ كورنثوس ١٥ :٦ وأعمال ١ :٢١ و٢٢ - ولأن المسيح لم يأمرهم أن يكتبوا الإنجيل - الأخبار السارة - بل يكرزوا به، ليوضع الأساس على شهادة قوم أحياء معاصرين له شهادة شفاهية مشفوعة بدلائل الصدق والإخلاص. وأما كتابة الإنجيل فابتدأت على هذا المنوال. اعلم أن هذا الإنجيل معناه الخبر السار أو البشارة السارة . فقد كتبها قبل الكل بولس الرسول ضمن رسالتين متواليتين بعث بهما إلى أهل تسالونيكي، ويرجع تاريخهما إلى ما بين سنة ٢٢ و٢٣ بعد صعود المسيح، ومثل هاتين الرسالتين بقية رسائل بولس في وحدة التعليم في كل المبادئ التي نتمسك بها إلى اليوم.

لكن لما مضى الجيل المعاصر للمسيح أو كاد، مسَّت الحاجة إلى تدوين الإنجيل في الأسفار لصون حقائقه من الطوارئ، وإفادة الأجيال الآتية، فألهم روح الله القدوس من اختار لتنفيذ هذه المهمة من رسل المسيح ورفقائهم القريبين منهم، فكتب أولاً القديس مرقس بشارته قبل خراب أورشليم سنة ٧٠ للميلاد. وظن بعضهم أنه ما بين سنة ٦٥ و٦٦ في مدينة رومية. وكان مرقس رفيقا لرسل المسيح وأحد تلامذته الأولين وكان مشهوراً في الكنائس الأولى ومعروفاً عنه بأنه

تلميذ بطرس، فكتب بشارته بناءً على معلوماته الشخصية ومعلومات بطرس، غير أن روح الله القدوس عصمه من الخطأ وذكّره بما عساه يكون نسيه، وألهمه ما يكتب في تلك الأخبار وما لا يكتب.

وكتب متى رسول المسيح بشارته قبل سنة ٧٠ للميلاد. وكتبها لوقا ما بين سنة ٦٠ و٧٠، وكتبها يوحنا ما بين سنة ٩٠ و١٠٠ أي حينما بلغ من العمر سن الشيخوخة والحاصل أن بين أيدينا بشارتين لرسل المسيح، وهما بشارتا متى ويوحنا، وبشارتين لرفقائهما وهما بشارة مرقس - ومن المحتمل أن تكون من إملاء بطرس - وبشارة لوقا رفيق بولس الرسول. وهذا الأخير يقول في فاتحة كتابه إنه فحص واستعلم بالتدقيق عن كل ما كتب من شهود العين. ومما لا شك فيه أن الأصحاحين الأولين من بشارته كتبهما حسب شهادة العذراء مريم.

وربما يقول معترض إن هذا كله لا يدل على أن هذه الكتب موحى بها من الله، فأجيب : نعم، ليست موحى بها كالوحي الذي يتصوره المسلمون ويروونه عن القرآن من أنه كان مكتوباً في اللوح المحفوظ من قبل خلق العالم ونزل إلى سماء الدنيا في ليلة القدر، ثم أملاه جبريل على محمد مفرَّقاً حسب الوقائع والأحوال. إن وحياً كهذا يظهر لنا معاشر المسحيين أنه ليس بالجيد فضلاً عن أنه لم يقم دليل على أن

القرآن موحى به مثل هذا الوحي - كما هو مثبوت في كتاب مصادر الإسلام - . ويقول وعلماء النقد والتفكير إن فرضنا أن كتاباً مقدساً كُتب في السماء ونزل إلى الأرض على هذه الكيفية فلا يمكننا أن نقيم الدليل على أن ذلك الكتاب كُتب في السماء ولا أن له صلة بها. وأما الوحي التوراتي والإنجيلي فهو أن الله إذا أراد أن يعلن لعباده أمراً من الأمور على يد أنبيائه لا يتخذهم كآلات صماء، بل يستخدم عقولهم وأذهانهم وذاكرتهم وذكاءهم وأرواحهم في ما يكتبونه، فيكون وحياً - يوحنا ١٦ :١٣ - .

ولنشرح هنا بعض المسائل التي تشوش على أذهان إخواننا المسلمين في فهم حقيقة الإنجيل. يقول بعضهم إن الإنجيل الذي بين أيدي المسيحيين اليوم ليس هو الإنجيل الحقيقي الذي أُنزل على المسيح لأننا نرى عندهم أربعة أناجيل لم تُكتب إلا بعد صعود المسيح بمدة طويلة. فنقول إن كتابة الإنجيل بعد صعود المسيح بمدة طويلة لا يطعن في صحته كما لا يطعن في صحة، القرآن كونه جمع بعد حياة محمد - كما ورد في مشكاة المصابيح صحيفة ١٩٣ والمؤلفات المعتبرة - . وأما كون عندنا أربعة أناجيل فهو ليس بحق، فإن عندنا إنجيلاً واحد الأن كلمة إنجيل وإن كانت استُعملت اسما لبعض أسفار العهد

الجديد فمعناها خبر سار أو بشارة مفرحة، لأنها معدولة عن كلمة يونانية مجانسة لها لفظاً وتفيد هذا المعنى بالضبط. لكن إخواننا المسلمين قلما يفطنون لهذا المعنى.

ولما كانت خلاصة أسفار العهد الجديد وزبدتها إعلان محبة الله للبشر، بحيث أنه أرسل لهم يسوع المسيح ليخلّصهم من خطاياهم، وهذا خبر سار جداً، فدُعي به العهد الجديد أو بالعبارة اليونانية المعربة إنجيل . وبهذا الاعتبار لا تكون أناجيل كثيرة، بل إنجيل واحد كرز به متى ومرقس ولوقا ويوحنا وبولس وبطرس الخ. فالكارزون هم المتعددون، وأما الإنجيل فهو واحد غير متعدد. وبمراجعة الأصل اليوناني نجد البشائر الاربع التي في صدر أسفار العهد الجديد مسماة بكيفية تطابق الشرح الذي قدمناه، فبشارة متى مسماة إنجيل المسيح كما كتبه متي والبشارة الثانية مسماة إنجيل المسيح كما كتبه مرقس وهكذا. وإنما حباً بالاختصار اتفقوا على تسميتها بحسب الأسماء الحاضرة. وبعد البشائر الأربع سفر الأعمال - أي أعمال الرسل - وخلاصته أن الرسل كرزوا بالإنجيل في أقاليم كثيرة من العالم بين اليهود والأمم، وبدأوا بالكرازة بعد صعود المسيح بأيام قليلة لا تتجاوز عدد الأصابع. والكارز الأول بالإنجيل هو نفس المسيح - مرقس ١ :١٥

و١٣ :١٠ ولوقا ٢٠ :١ - وبهذا الاعتبار يكون الإنجيل نزل على المسيح، وقد شهد عن نفسه بأنه تلقى رسالته أي الإنجيل عن الله، وعلى ذلك قوله "وَأَنَا أَعْلَمُ أَنَّ وَصِيَّتَهُ هِيَ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ. فَمَا أَتَكَلَّمُ أَنَا بِهِ، فَكَمَا قَالَ لِي الآبُ هكَذَا أَتَكَلَّمُ" - يوحنا ١٢ :٥٠ وقارن يوحنا ٨ :٢٨ و١٢ :٤٩ .

وأما بقية أسفار العهد الجديد فلم تُقبل ضمن دائرة الوحي إلا بعد الاستفسار والتحري الدقيق والأسانيد الكافية، خشية أن ينطوي معها سهواً مصنفات أخرى. واستغرقت هذه المهمة زمناً طويلاً مراعاة للظروف الصعبة التي أحاطت بتلك الأسفار، مثل أن البعض منها كان رسائل خصوصية لأفراد معينين، كرسالة بولس الرسول الأولى والثانية إلى تيموثاوس وإلى تيطس وفليمون، ورسالة يوحنا الثانية والثالثة. والبعض الآخر بُعث أولاً كرسائل إلى كنائس معينة، إلا أننا علمنا من مؤلفات المسيحيين الأولين أن البشائر الأربع عُرفت وصار اعتمادها أنها وحي من الله ما بين سنة ٧٠ إلى سنة ١٣٠ م. وقد تم من بعض الوجوه إحصاء أسفار العهد الجديد في سنة ١٧٠ م وسُمي هذا الإحصاء بالقانون الموراتوري، وقد اشتمل على كل أسفار العهد الجديد المتداولة اليوم ما عدا رسالة يعقوب الرسول، والرسالة الثانية

لبطرس الرسول والرسالة إلى العبرانيين. وبعد التحري أبطلوا هذا القانون وعملوا إحصاءً جديداً تحروا فيه الضبط بأكثر تدقيق. يتضمن هذه الرسائل أيضاً مع الإشارة بأن الرسالة الثانية لبطرس كانت مشكوكاً في وجودها ضمن الاحصاءات الأولى .

ومن الجدير بالملاحظة أن كتابة الكتب والحصول عليها في تلك القرون الغابرة كان محفوفاً بالمصاعب والنفقات الثقيلة، وعدا ذلك لو أُحصيت أسفار العهدين المكتوبة بخط اليد بالحرف اليوناني الكبير المستعمل حينئذ لما بلغت مجلداً كبيراً فقط بل مجلدات كثيرة. ومع كل هذه المصاعب كانت توجد أسفار الكتاب المقدس مجموعة بين يدي كثيرين من المسيحيين في جهات مختلفة من العالم. وفي مجمع لاودكية الذي عُقد سنة ٣٦٣ م الذي ذكرنا أنه أحصى أسفار العهد القديم ضمن اثنين وعشرين سفراً قد أحصى أيضاً أسفار العهد الجديد على الحالة التي هي عليها الآن ما عدا سفر الرؤيا، لأن بعض الكنائس قبلته وبعضها لم تقبله - يومئذ - . وفي مجمع قرطجنة الذي اجتمع سنة ٣٩٧ م أقروا كل الأسفار المتداولة اليوم مشفوعة بهذا البيان قبِلْنا من آبائنا بأن هذه الأسفار ينبغي أن تُقرأ في الكنائس .

وعدا الاحصاءات المجمعية لأسفار العهد الجديد كما مر فقد

أحصاها مشاهير الكتاب المسيحيين منذ القرون الأولى للميلاد، متحرّين أبحاثهم الخصوصية، منهم أوريجانوس الذي مات سنة ٢٥٣ م وأثناسيوس الذي مات سنة ٣٧٣ وأيسيبوس وكان معاصرا له. وكلهم أجمعوا في أبحاثهم الخصوصية على قانونية أسفار العهد الجديد كما قررتها المجامع. ويعقّب إيسيبوس على إحصائه بهذه الملاحظة : إن بعض المسيحيين لم يقرروا رسالة يعقوب ولا رسالة يهوذا ولا الرسالة الثانية لبطرس ولا رسالتي يوحنا الثانية والثالثة ولا سفر الرؤيا، لكن بعد التحري الدقيق اقتنعنا بأن هذه الأسفار قانونية ويجب قبولها ضمن أسفار العهد الجديد بعد التأكد القوي أنها وحي الله .

وعلى ما تقدم لم تمض الأربعة القرون الأولى للميلاد حتى تقرر نهائياً اعتماد أسفار العهد الجديد على حالته الراهنة في فلسطين وسورية وقبرص وآسيا الصغرى وإيطاليا وشمال أفريقيا. ومن هنا لا ينبغي لذي عقل سليم أن يرتاب بأن الكتاب المقدس المتداول اليوم كان موجوداً بتمامه وعلى شكله الحاضر في عصر محمد بين المسيحيين المستوطنين في جزيرة العرب وسوريا ومصر والحبشة وغيرها من الأقاليم التي تعارف محمد بشعوبها.

ولقائل يقول ربما انقرض الكتاب المقدس بعد عصر محمد

وصنف المسيحيون كتاباً آخر دعوه باسم الكتاب الأول الخ . فنجيب أن هذه الدعوى بمثابة من يدّعي أن القرآن بعدما ملأت نسخه الدنيا قد انقرض وكتب المسلمون كتاباً آخر وسموه باسمه، فهذه الدعوى لا يدعيها إلا كل جاهل. ومع ذلك نجيب عليها أنه من البراهين القاطعة على وجود وحدة الكتاب المقدس قبل محمد وبعده النسخ القديمة المخطوطة باليد في اللغة اليونانية، وهي اللغة الأصلية لأكثر أسفار العهد الجديد، واللغة التي تُرجمت إليها هي أقدم ترجمة للعهد القديم أي الترجمة السبعينية.

وأقدم متن عبراني موجود اليوم هي النسخة التي وُجدت في مصر وتشتمل على الوصايا العشر والقانون العبراني الوارد في - خروج ٢٠ :٢-١٧ وتثنية ٦ :٤-٩ - وقد كتبت ما بين ٢٢٠ و٢٥٠ للميلاد أي قبل الهجرة بقرون. وأكبر نسخة للعهد القديم وأقدمها عندنا اليوم هي النسخة الشرقية نمرة ٤٤٤٥ محفوظة في المتحف البريطاني، وكُتبت ما بين سنة ٨٢٠ و٨٥٠. ويليها في الأقدمية نسخة سان بطرسبرج وهي مؤرخة سنة ٩١٦. وهاتان النسختان منقولتان عن نسخ أقدم منهما بكثير، وذكر الناسخ اسم اثنتين منها وهما نسخة حليل ونسخة موخا وروى زكوت

المؤرخ اليهودي أن نسخة حليل كُتبت سنة ٥٩٧ م. وأنه رأى جزئين منها يشتملان على هذه الأسفار يشوع، قضاة، صموئيل الأول والثاني، ملوك الأول والثاني، إشعيا، إرميا، حزقيال، هوشع، يوئيل، عاموس، عوبديا، يونان، ميخا، ناحوم، حبقوق، صفنيا، حجي، زكريا وملاخي. وأما نسخة موخا فليست أقل أقدمية من النسخة الأخرى، ولا بد على الأقل أن إحدى هاتين النسختين كانت موجودة في عصر محمد. ومن تعليقات اليهود عليهما نعلم أنهما كانتا موافقتين لنسخة العهد القديم التي بين أيدينا، وعندنا نسخ كثيرة منقولة عن نسخ عبرانية أقدم منها.

وإن قيل ماذا جرى للنسخ العبرانية القديمة. نجيب بما يجيب به اليهود : وهو أنه عندما كانت تبلى النسخة من كثرة الاستعمال تحفظ في الخزانة حتى إذا مات رباني مشهور دفنوها معه. وبعض الأحيان يخشون عليها أن تُهمل مع طول الزمان وتُداس بأقدام أو يلحقها عارض يدنس ورقها وهذا حرام عندهم، فيُجهِزون عليها بالحريق.

وأما نسخ العهد القديم في الترجمة اليونانية الشهيرة بالترجمة السبعينية الذي يدل وجودها على وجود الأصل العبراني من قبلها

فعندنا منها كثير، وقد كُتبت كلها قبل الهجرة بسنين عديدة وهاك أشهرها:

(١) النسخة السينائية كُتبت في القرن الرابع أو في بداية القرن الخامس

(٢) النسخة الفاتيكانية كتبت في القرن الرابع وربما في بدايته

(٣) النسخة الإسكندارنية كتبت فيما بين نصف القرن الخامس ونهايته

(٤) النسخة القطونية كتبت في القرن الخامس أو السادس

(٥) النسخة الأمبروسانية كتبت في نصف القرن الخامس

وكل هذه النسخ وجدت من قبل عصر محمد وفي عصره، وإذا أراد الباحث أن يتحرى هل إذا كانت هذه النسخ تضاهي النسخ المتداولة فما عليه إلا أن يزور مكاتب أوروبا الشهيرة ويقارن هذه بتلك.

وإن نسخة العهد القديم اليونانية المستعملة اليوم طبعت عن هذه النسخ القديمة المذكورة، وبمراجعتها مع الأصل العبراني لم يوجد فرق ولا في تعليم واحد إلا اختلاف في القراءات بسيط جداً، مثل أن المترجمين أخطأوا في ترجمة كلمة صعبة على الفهم. وبمراجعة النسخ الحاضرة على الترجمة السبعينية لا يوجد فرق إلا في أعمار بعض الآباء

الأولين المذكورين في أصحاحي ٥ و١٠ من سفر التكوين. ولكن الاختلافات في القراءة لا تمس جوهر الكتاب في أدنى شيء.

وأما نسخ العهد الجديد اليونانية المتداولة فتعززها النسخ اليونانية الأصلية. وقد كتبت على رقوق لا على ورق. ولا محل لاعتراض رحمة الله الهندي من هذه الحيثية إذ يقال إن بقاء القرطاس والحروف إلى ألف وأربعماية سنة أو أزيد مستبعد عادة إلا أنه وُجد في مصر كتابات على ورق البردي يرجع تاريخها إلى ألف وثمانماية سنة كما هو معلوم عند رجال الآثار.

ولنرجع إلى ما نحن فيه، فنقول إن كثيراً من النسخ المتضمنة للترجمة اليونانية لأسفار العهد القديم تتضمن أيضاً أسفار العهد الجديد بالأصل اليوناني - أولاً - النسخة السينائية المذكورة سابقاً، وتوجد في المتحف الأمبراطوري بمدينة سان بطرسبرج - ثانياً - النسخة الفاتيكانية المحفوظة في مكتبة بابا رومية - الفاتيكان - ثالثاً - النسخة الإسكندرانية وهي في متحف لندن، وقد ذكرنا تواريخها فراجعها في مواضعها - رابعاً - أنه في سنة ١٩٠٧ اكتشفوا في دير قديم بقرب سوهاج إحدى مدائن صعيد مصر على أربعة أجزاء من النسخ القديمة التي يرجع تاريخها إلى القرن الرابع من باب الاحتمال أو القرن السادس

بالتأكيد يشتمل واحد منها على سفر التثنية ويشوع وآخر على سفر المزامير. ويشتمل الثالث على البشائر الأربع والأخير على قطع من رسائل بولس الرسول - خامسا - النسخة البيزانية وكانت محفوظة في جامعة كمبردج بانكلترة وكتبت في بداية القرن السادس - سادساً - النسخة الأفرايمية وقد كتبت في أوائل القرن الخامس، وهي اليوم في المتحف الأهلي بباريس.

وعدا هذه النسخ الكبيرة توجد نسخ صغيرة تشتمل على أجزاء متفرقة من أسفار العهد الجديد بالأصل اليوناني، ومن أقدمها عهداً نسخة مخطوطة على شقة واحدة من البردي اكتُشفت حديثاً في أطلال البهنسا، وهي تشتمل على الأصحاح الأول والأصحاح العشرين من إنجيل يوحنا وكُتبت ما بين سنة ٢٠٠ و٣٠٠ ميلادية أو بعبارة أخرى قبل محمد بأكثر من ٢٧٠ سنة. وهذا الاكتشاف الحديث بالقطر المصري له اعتبار ممتاز من حيث وجهتنا الخصوصية التي نرمي إليها في هذا الموقف، بمعنى أن هاتين النسختين اللتين اكتُشفتا بسوهاج والبهنسا قد دُفنتا في صحاري مصر التي صارت فيما بعد بلاداً إسلامية قبل الهجرة بمئات من السنين، وبقيتا تحت التراب إلى هذه الأيام حتى عثروا عليهما. لا يقدر أحد يدعي مهما بلغت درجة تعصبه إنهما

مزورتان بعد نزول القرآن أو محرفتان في أيام محمد أو بعده.

ويبلغ عدد النسخ القديمة للعهد الجديد بالأصل اليوناني ما بين جامعة لها وكلها، ولجزء منها، ٣٨٩٩ نسخة، فُحصت كلها فحصاً دقيقاً ونمروها لتسهيل معرفة مواضعها على طلبة علم اللاهوت. وتوجد نسخ أخرى غير منمرة لا تقل عن ألفي نسخة.

وبما أننا تكلمنا على نسخ العهد الجديد بالأصل اليوناني يحسن بنا أن نتكلم أيضاً عن نسخه المترجمة، لا سيما وأن بعضها مترجم من قبل الهجرة بزمان طويل، منها ما هو منقول عن باشيطا السريانية ويبلغ على الأقل عشر نسخ مؤرخة في القرن الخامس، ونقل عنها ثلاثون نسخة مؤرخة في القرن السادس. وفي كلامنا عن العهد القديم أشرنا إلى ترجمات باللغات القديمة التي ليس على وجه الأرض من يحسن التكلم بها كلغته الأصلية، وكذلك ترجمات العهد الجديد. والكل محفوظ في متاحف الآثار، ويرجع تاريخها إلى ما قبل عصر محمد بمئات السنين إلا ترجمة واحدة كتبت في عصره ولكن قبل هجرته وسيأتي ذكرها.

ولتفصيل ذلك نقول إنه يوجد اليوم نسخ كثيرة من الترجمات القديمة للعهد الجديد إلى اللغة السريانية أشهرها - باشيطا - ترجمت ما بين

القرن الثاني والثالث للميلاد، ونسخة فيلكس السريانية تمت سنة ٥٠٨ م ونقحها توما الهرقلي سنة ٦١٦. ووجد عدا هذه ترجمات أخرى سريانية بقي منها نسختان أصليتان وهما نسخة الكارتونية والسينائية السريانية، ومما يدل على وجود هذه الترجمات السريانية للعهد الجديد قديماً هو أن طاطيان المولود سنة ١١٠ م صنّف اتفاق البشيرين الأربعة وعندنا ترجمته باللغة الأرمنية واللاتينية مع اختلاف طفيف. وعن السريانية ترجم ابن الطبيب المتوفي سنة ١٠٤٣ نسخة عربية تُسمى دياطسرون ومعنى ذلك - اتفاق البشيرين - . واكتشفوا حديثاً قطعاً من ترجمة العهد الجديد من اليوناني إلى سريانية فلسطين التي كانت في عهد المسيح، وكتبت هذه الترجمة في القرن الرابع إن لم يكن قبله، ثم نسخة سنة ٦٠٠ م وتُسمى نسخة كليماكوس وتشتمل على أجزاء من البشائر الأربع وسفر أعمال الرسل ورسائل بولس الرسول.

وتُرجم العهد الجديد إلى اللاتينية قديماً كما يقرر ذلك أغسطينوس وجيروم. قال الأخير : وُجدت ترجمات في بعض الأحيان لم تبلغ حدها في الصحة وذلك من جهل المترجمين. وأضبطها كلها الترجمة اللاتينية القديمة ويرجع تاريخها إلى القرن الثاني للميلاد، ومع ذلك رأى وجوب

إيجاد ترجمة تكون أكثر ضبطاً من تلك لسد حاجة الشعب، فترجم العهد الجديد إلى اللاتينية ما بين سنة ٣٨٣ و٣٨٥ م وتُسمى الترجمة العامية وتوجد على الأقل ثمانية آلاف نسخة مخطوطة عن الترجمة العامية المذكورة، بعضها مؤرخ في القرن الرابع وبعضها في الخامس إلى السادس. وهذا كله تم قبل زمان محمد. فتأمل

وقد ذكرنا في ما مضى أن العهد القديم تُرجم إلى اللغة القبطية في اصطلاحاتها الثلاثة، وهنا نقول إن العهد الجديد تُرجم كذلك، فالترجمة البحيرية تمت ما بين القرن الثالث والرابع، والترجمة الصعيدية تمت في ذلك التاريخ. وأما اللهجة البشمورية فكانت انقسمت إلى ثلاثة لهجات الفيومية والأخميمية والأقاليم الوسطى، وإلى كل واحدة من هذه ترجم بعض أسفار العهد الجديد أو كلها وأقدمها جميعاً الترجمة القبطية الصعيدية، ونسخها الأصلية ترجع إلى القرن الرابع والخامس.

والترجمة القوطية ترجمت نحو سنة ٣٦٠ م وأقدمها نسخة أصلية لها كتبت إما في القرن الخامس أو السادس.

وهنا نتخذ وسائل أخرى لإقامة حجتنا عدا النسخ الأصلية والترجمات القديمة لأسفار العهد القديم والجديد التي فصلناها. فنقول إن كتابنا المقدس في العصر الحاضر هو عين

الكتاب الذي كان قبل محمد، وذلك من الاقتباسات التي نُقلت عنه في مؤلفات المسيحيين القدماء في لغات مختلفة يوناني ولاتيني وسرياني وقبطي. ففي هذه المؤلفات وردت آيات كتابية كثيرة جداً، بحيث لو ضاع الكتاب من العالم يُجمع ثانية من هذه الاقتباسات. واعتبر هذا الدليل قياساً على القرآن. ألم تر في مؤلفات المسلمين آيات كثيرة منه ،ولسنا مبالغين إن قلنا إنه ضاع القرآن اليوم، يُعاد من الاقتباسات الواردة في التفاسير والمؤلفات الإسلامية وصدور الحفظة الكثيرين. ومثل هذا إن لم نقل أكثر منه يوجد في مؤلفات المسيحيين. وأغرب من ذلك أن في مؤلفات الوثنيين القدماء أقوال ليست بقليلة مقتبسة من الكتاب المقدس، مثل كتابَي سلسوس فورفيري وجوليان الكافر. وعدا الاقتباسات الصريحة الواردة في مؤلفات المسيحيين القدماء يؤخذ من مضامينها ما يطابق تمام المطابقة حقائق الكتاب المعروف الآن، مثل أعمال المسيح وموته وقيامته وصعوده إلى السماء، ومثل الفداء إلى غير ذلك مما هو مشروح في محلاته.

وعندنا أدلة أخرى عدا هذه وتلك تثبت ما نحن بصدده يمكننا تسميتها بالأدلة الأثرية، ففي مدينة روما اكتُشفت قبور كثيرين من مسيحيي القرون الأولى للمسيح في سراديب تحت الأرض منقوش

عليها كتابات وصور يؤخذ منها إن هؤلاء المسيحيين يؤمنون بالعقائد التي يعلمنا إياها الإنجيل الآن. وأظن في هذا القدر كفاية لإقناع كل معاند ومكابر بأن أسفار العهد الجديد والقديم محفوظة بتمامها ونقاوتها من قبل عصر محمد الذي منها يقتبس ولها يشهد وإياها يحترم. وأن هذه الأسفار مُحصاة في جداول بين أيدي اليهود والمسيحيين تبيّن أنها أسفار موحى بها من الله، وكلها نص واحد قديمها وجديدها بمتونها الأصلية وترجماتها، لا يوجد بينها إلا اختلاف في القراءات كما أشرنا إلى ذلك في موضعه.

من أجل ذلك عندما يأمر القرآن محمداً أن يسأل أهل الكتاب عما جاء فيه من التعاليم يجب على المسلمين أن يفهموا ويتأكدوا أنه يقصد الكتاب الذي بين أيدينا الآن، لأنه هو الأسفار المقدسة الموجودة بين أيدي اليهود والمسيحيين في كل العالم لا غير. وقد رأينا في الفصل الأول أن القرآن يذكر في مواضع كثيرة الأقسام الرئيسية لهذا الكتاب، وهي التوراة والزبور والأنبياء والإنجيل، ويرفعها إلى أعلى مراتب الكرامة، فيسميها تارة كلام الله وكتاب الله وتارة الفرقان والذِّكر ويهدد بأشد أنواع العذاب الذين كذبوا بها - سورة المؤمن ٤٠ :٧٠ - ويقول القرآن إنه نزل ليكون مهيمناً عليه

(سورة المائدة ٥ :٥١) ويأمر المسلمين أن يؤمنوا بها كإيمانهم بنفس القرآن - سورة البقرة ٢ :١٣٦ وسورة آل عمران ٣ :٨٤ .

وبما أنه قد ثبت بالأدلة القاطعة إن كتابنا المقدس هو كتاب الله فيجب عليكم حتماً أن تطالعوه باحترام ودعاء عسى أن يفتح الله الرحمن الرحيم أذهانكم لفهمه حتى تروه كما وصفه القرآن هدى وذكرى لأولي الألباب .

الفصل الرابع

في أن أسفار العهد القديم والجديد لم يعتريها تحريف لا قبل محمد ولا بعده

رأينا في الفصل الماضي أن الكتاب المقدس معدود في القرآن كلام الله ورأينا في أكثر من موضع من القرآن أيضاً أن كلام الله غير قابل للتبديل والتغيير, فإذا كانت هاتان المقدمتان صحيحتين كانت النتيجة ضرورة هي عدم تحريف الكتاب المقدس لا قبل محمد ولا بعده.

إلا أن هاتين المقدمتين تؤديان بنا إلى تصفُّح القرآن لنرى ماذا يقول في هذا الصدد وكيف فسر أقواله المفسرون المعتبرون مع العلم بأنهم لم يتفقوا على رأي واحد في هذه المسألة وإنما لا يؤيدون الرأي العام الذي وُضع عند جهال المسلمين.

ورد في سورة الكهف ١٨ :٢٧ "وَا تْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ" لا شك أن كلمة كتاب تشير إلى القرآن ولكن قوله - لكلماته - تشمل الكتاب المقدس لأنه كلام الله, وبناءً عليه لا يكون مبدل لكلمات الكتاب المقدس, وهاك تفسير البيضاوي قال :

"لا مبدل لكلماته" (لا أحد يقدر على تبديلها أو تغييرها غيره)اهـ

وورد في سورة يونس ١٠ :٦٤ "لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ" قال البيضاوي أي لا تغيير لأقواله ولا اخلاف لمواعيده , وورد في سورة الأنعام ٦ :٣٤ العبارة عينها - لا مبدل لكلمات الله - وجاءت مرة أخرى في آية ١١٥. نعم قد ذكر البيضاوي على الآية الأخيرة أن الكتاب المقدس محرف ولكن لم يقصد التحريف الذي يقوله عامة المسلمين كما سترى في ما بعد.

لما فحص علماء المسلمين في الهند هذه المسألة اقتنعوا في الوقت الحاضر بأن أسفار العهدين ليست بمبدلة ولا بمغيرة ولا محرفة حسب فهم العامة, ولعلهم بنو آراءهم على تفسير الإمام فخر الدين الرازي لأنه في تفسيره آل عمران ٣ :٧٨ يجيب معترضاً يسأل كيف يمكن إدخال التحريف في التوراة مع شهرتها العظيمة بين الناس فيجب أن

نتأمل في الجواب جيدا حيث يقول أولاً على سبيل التخمين : لعله صدر هذا العمل عن نفر قليل يجوز عليهم التواطؤ على التحريف؟ ثم أنهم عرضوا ذلك المحرف على بعض العوام, وعلى هذا التقدير يكون التحريف ممكناً , فنجيب أولاً أن هذا ليس رأي المفسر بل يفرضه فرضاً, وأما رأيه فهو هكذا إن الآيات الدالة على نبوة محمد كان يحتاج فيها إلى تدقيق النظر وتأمل القلب والقوم كانوا يوردون عليها الأسئلة المشوشة والاعتراضات المظلمة فكانت تصير تلك الدلائل مشتبهة على السامعين, واليهود كانوا يقولون مراد الله من هذه الآيات ما ذكرناه لا ما ذكرتم فكان هذا هو المراد بالتحريف وبليّ الألسنة - الرازي المجلد ٢ - وانظر تفسيره على سورة النساء ٤ :٤٥ مجلد ٣ - حيث يعيد هذين الرأيين ويضيف عليها رأياً آخر خلاصته أن قوماً من اليهود اعتادوا أن يدخلوا على الرسول يسألونه المسألة فيجيبهم عليها ومتى خرجوا من عنده يحرفون كلامه, وبناء على هذا الرأي لا يكون اليهود حرفوا كتابهم بل حرفوا جواب محمد على سؤالهم, وعلى كل حال عني الرازي بالتحريف الواقع من اليهود تحريف الشروح بالآيات الكتابية لا الآيات نفسها وهو التحريف المعنوي لا اللفظي.
وحكى الرازي في تفسيره على سورة المائدة ٥ :١٦ قصة مآلها

أن اليهود فيما هم يقرأون التوراة - تث ٢٢:٢٣-٢٤ لووا ألسنتهم وبدَّلوا معنى الرجم بالجلد ولم يمسوا لفظ الآية المكتوبة بأقل تحريف, وحكى البيضاوي في تفسيره سورة المائدة آية ٤٥ هذه القصة عينها للدلالة على أن معنى التحريف المشار إليه في الآية التحريف المعنوي وهو المقصود بليّ الألسنة وفسر قوله يحرفون الكلام من بعد مواضعه أي يميلونه عن مواضعه التي وضعه الله فيها, إما لفظاً بإهماله وتغيير وضعه وإما معنى بحمله على غير المراد وإجرائه في غير مورده.

فإن أردت أن تعرف أي الرأيين هو الرأي الصحيح فما عليك إلا أن تراجع سفر التثنية ٢٢ :٢٣ و٢٤ في الأصل العبري أو في أية ترجمة حديثة أو قديمة فتجد أية الرجم التي نسبوا إليها التحريف باقية على أصلها كما بينها القرآن والحديث في عصر محمد، وبذلك نعلم أن اليهود لم يحذفوا شيئاً من الآية ولا أمالوها عن موضعها, بقي الرأي الآخر وهو التحريف المعنوي الذي توصلوا إليه بتغيير المعنى. ومن العجب أن آية الرجم التي قالوا إن اليهود حرفوها كانت في القرآن كما نعلم من الحديث، ثم لا نرى لها الآن أثراً.

جاء في مشكاة المصابيح أن عمر قال أن الله بعث محمداً بالحق وأنزل عليه الكتاب فكان مما أنزل الله تعالى آية الرجم، رجم رسول

الله ورجمنا بعده، والرجم في كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن من الرجال والنساء، إذا قامت البينة أو كان الحبل أو الاعتراف متفق عليه ا هـ من الفصل الأول من كتاب الحدود، ولكن لما جمع زيد بن ثابت القرآن حذفت هذه الآية لئلا يُقال عن عمر إنه زاد على القرآن, فإن صدق عمر في ما رواه يكون تحريف الكلام عن مواضعه المنوه عنه في القرآن في سورة المائدة ٥ :٤٥ واقعاً في القرآن لا في التوراة، ويكون المحرفون هم المسلمين لا اليهود!! فتأمل

اتهم القرآن اليهود بكتمان الحق وهم يعلمون به، وبليّ ألسنتهم في الإجابة عن تعليم توراتهم في هذا الموضوع، واتهمهم بنبذ كتاب الله وراء ظهورهم وبالتحريف, وجاءت التهمة الأخيرة في أربعة مواضع منه - سورة البقرة ٢ :٧٥ وسورة النساء ٤ :٤٥ وسورة المائدة ٥ :١٤ و٤٤ - ولنا أن نلاحظ أن هذه الدعاوى مهما يكن من أمرها فإنها موجهة إلى اليهود فقط لا إلى المسيحيين، وعليه تكون أسفار العهد الجديد سالمة من مظنة هذه التهم، سواء قبل محمد أو بعده, بقي علينا أن نتساءل في تفسير ما عناه القرآن باتهامه اليهود بهذه التهم. وقد مر عليك تفسير الرازي والبيضاوي لثلاثة من الأربعة مواضع المذكورة سابقاً, ونتكلم الآن على الرابع وهو سورة البقرة ٢ :٧٠ اتفق المفسران

أي البيضاوي والرازي أن المراد بالتحريف **المذكور** هنا تشويه التفسير وكتمان الحق - راجع سورة الأنعام ٦ :٩١ حيث عزي إلى اليهود أنهم جعلوا الكتاب قراطيس أبدوا منه ما أبدوا وأخفوا ما أخفوا - وإن يكن هذا العمل ممقوتاً إلا أنه بمعزل عن تبديل آيات الكتاب لأن إخفاء القرطاس يختلف عن تبديل ما ورد فيه, فتأمل

ثم إن سألنا متى حرف اليهود توراتهم أجاب البيضاوي : حرفه أسلاف اليهود المعاصرين لمحمد, وأجاب الرازي : حرفه معاصرو محمد بالذات, على أن ذينك الإمامين أجابا بالجوابين المتقدمين رداً على من تصور أن التحريف لفظي ووقع كتابة، وهما يتبرآن من هذه الدعوى, ولهذه المناسبة قال الرازي في مجلد ٣ في كيفية التحريف وجوه (أحدها) أنهم كانوا يبدلون اللفظ بلفظ آخر، مثل تحريفهم اسم ربعة عن موضعه في التوراة بوضعهم آدم طويل مكانه، ونحو تحريفهم الرجم بوضعهم الحد بدله ونظيره قوله تعالى فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله, فإن قيل : كيف يمكن هذا في الكتاب الذي بلغت آحاد حروفه وكلماته مبلغ التواتر المشهور في الشرق والغرب, قلنا : لعله يُقال القوم كانوا قليلين والعلماء بالكتاب كانوا في غاية القلة فقدروا على هذا التحريف, ثم أن الرازي دحض هذا

الجواب بقوله (والثاني) أن المراد بالتحريف إلقاء الشبه الباطلة والتأويلات الفاسدة وصرف اللفظ عن معناه الحق إلى معنى باطل بوجوه الحيل اللفظية كما يفعله أهل البدعة في زماننا هذا بالآيات المخالفة لمذاهبهم وهذا هو الأصح (الثالث) أنهم كانوا يدخلون على النبي ويسألونه عن أمر فيخبرهم ليأخذوا به فإذا خرجوا من عنده حرفوا كلامه . انتهى

هذا رأيه الذي يقول به ونتيجته أنه برأ اليهود من تهمة تبديل آيات التوراة, وعليه لما قال أن القرآن يؤكد وقوع التحريف بالتوراة ينبغي أن نفهم مقصوده الحقيقي لا الدعوى الباطلة التي يدّعيها جهلاء المتأخرين.

ومما تقدم نجاوب على كل من يدّعي أن الكتاب المقدس محرف في نصوصه وأن الكتاب الصحيح غير موجود اليوم إذ لم يكن صحيحا في زمن محمد يكون مكذباً ومخالفا لآيات القرآن الصريحة التي تشهد أنه حق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه لأن من أهم أغراض القرآن أنه جاء ليكون مصدقا للكتاب المقدس, فكيف يصح أن يشهد له أنه صحيح وحق وموحى به من الله وهدى للناس، ثم يعود فينسب إليه التغيير وضياع الثقة منه وعدم

التعويل عليه، لأنه إن صحَّ هذا يكون القرآن قد ناقض بعضه بعضاً.

ليس أحد يؤمن بالإله الحق يقدر أن ينسب إليه تعالى أنه أنزل القرآن مصدقا للكتاب مبدَّل ومغيَّر ومشوش التعاليم في العقائد الدينية, وقد فطن لهذه النظرية الإمامان البيضاوي والرازي اللذان اقتبسنا تفسيرهما وجزما بأنه لم يقع في الكتاب المقدس تغيير قط لا قبل العصر المحمدي ولا بعده. بقي للمعترض أن يقول : وقع التغيير في الكتاب المقدس في ذات عصر محمد، والرد على اعتراض كهذا لا يكلفنا مشقة ولا عناء. لأننا نجيب قائلين إن الأسفار المقدسة التي أشرنا إليها في مقدمة كلامنا كُتبت قبل عصر محمد بزمان طويل. والكتاب المتداول اليوم منسوخ عن ذلك الأصل،وعليه لا يتصور عاقل إجماع اليهود والنصارى على تغيير أسفارهم وقد انتشرت في كل العالم.

وعلى كل حال لنسمع ما قيل بإزاء هذه الدعوة فإن عامة المسلمين وبعض علمائهم العديمي الخبرة بالموضوع لا يزالون يتصورون أن الكتاب المقدس بحالته الحاضرة مغيَّر, وإن سألتهم : متى وقع ذلك التغيير لا يتفقون على جواب واحد فيقول البعض : قبل عصر محمد وآخرون : بعده, ويقول قائل منهم : قبله وبعده! وحتى يُثبتوا مزاعمهم عكفوا على كتب الكفرة والملحدين بكل دين يلتقطون منها كل

اعتراض سخيف وافتراء بارد ويحاربون بها الكتاب المقدس استظهارا لزعمهم بالتغيير وجهلوا أو تجاهلوا أن هذه الاعتراضات التي تسلّحوا بها دُحضت منذ زمن طويل ولم تعُد مقبولة بين العلماء الغربيين ونرجو أن علماء المسلمين المحققين إن انخدعوا بها اليوم لا ينخدعون بها غداً,

حُكي أن بعض المسيحيين من أهل القرون الأولى بعد المسيح اتهموا اليهود بتهمة تغيير النصوص الإلهية كما يتهم المسلمون لأنهم وجدوا فروقاً في أعمار الآباء المذكورين في أصحاح ٥ و١٠ من سفر التكوين ما بين النسخة العبرية والترجمة السبعينية فعللوا هذه الفروق بعلة التغيير, ولكن الذين ادعوا هذه الدعوى هم جهلاء المسيحيين لا علماؤهم, وأما الآن وقد مضى نحو ألف وأربعمائة سنة على الموضوع وقد درس الكتاب جيدا لم يبق بين علماء الغرب من يدعي بأن اليهود غيروا توراتهم لا في الموضع المشار إليه ولا في سواه, ثم أن بعض كتاب المسلمين اعترضوا على اختلاف القراءات التي يُقرأ بها الكتاب واستدلوا بها على إفساد نصوصه, إلا أن هذه النظرية باطلة لأنه توجد نسخ أصلية كثيرة ما بين عبري ويوناني ولغات أخرى إن قارنتها بعضها على بعض لا تخلو بطبيعة الحال من اختلاف القراءات كما هي الحال في جميع الكتب القديمة, ويا ترى ما جنس تلك القراءات المختلفة، إن

أكثرها يرجع إلى اختلاف في الهجاء، مثل كلمة صلاة العربية تارة تكتب بالواو وتارة بالألف، ومثل كلمة قيامة تارة تكتب بالألف وتارة بدونها, ويرجع بعضها إلى اختلاف في تصريف الأفعال كاختلاف القراءات القرآنية التي أشار إليها المفسرون وأثبتوا أنواعها في تفاسيرهم ومن ذلك قراءات هذه الآية ما ننسخ من آية أو ننسها - البقرة ٢ :١٠٦

مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا	قراءة حفص
مَا نُنْسِخْ الخ	قراءة ابن عامر
نَنْسأهَا	قراءة ابن كثير وأبو عمرو
مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنَسِّهَا	قراءة آخرين
تَنْسَهَا	قراءة آخرين
تُنْسَهَا	قراءة آخرين
نُنْسِكِهَا	قراءة آخرين
مَا نُنْسِكَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسَخْهَا	قراءة عبد الله

وفي سورة البقرة ٢ :٢٨٥ أشار البيضاوي إلى قراءات مختلفة :

وَكُتُبِهِ	قراءة حفص
وَكِتَابِهِ	قراءة حمزة وصاحب الكشاف
لَا نُفَرِّقُ	قراءة حفص
لَا يُفَرِّقُ	قراءة يعقوب
لَا يُفَرِّقُونَ	قراءة آخرين

ويقبل علماء السنيين قراءات أخرى على ما تقدمت الإشارة إليه من ذلك سورة الأنعام ٦ :٩١ وسورة مريم ١٩ :٣٥ وسورة القصص ٢٨ :٤٨ وسورة الاحزاب ٣٣ :٦ وسورة سبأ ٣٤ :١٨ وسورة ص ٣٨ :٢٢ فهذه القراءات مهما تكن لا تغير معاني القرآن تغييراً يستحق الذكر ولا تؤثر أقل تأثير في عقائده, فإن قام كاتب مسيحي واحتج باختلافات القراءات على وقوع التغيير في متن القرآن ألا يستجهله المسلمون أو يرمونه بالتعصب الذميم، فمثل هذا الحكم يجب أن يُحكم به على الذين يتخذون قراءات كتابنا حجة على تغييرها, إن آدابنا لا تسمح لنا أن ندعي بدعاوٍ كهذه على مناظرينا.

ثم أن اختلاف القراءات في الكتاب المقدس يوجد أكثر مما في القرآن ، ولذلك جملة أسباب (١) لأن حجمه أربعة أضعاف القرآن (٢) إنه أقدم من القرآن بكثير, (٣) إنه كُتب في ثلاث لغات العبرية واليونانية والآرامية وكتب القرآن بلغة واحدة وهي العربية (٤) إحصاء القراءات في التراجم القديمة كلها ولو قد ثبت أن كثيراً منها غلطات وقعت من المترجمين ولم ينتج عنها اختلال جوهري، (٥) أُحصيت القراءات بعناية عظيمة وتدقيق كلي أكثر بكثير من العناية التي بُذلت في إحصاء القراءات القرآنية، (٦) وأهم من الكل أن الكتاب

المقدس لم يصلحه ولا راجعه أحد قبل النشر كما عمل عثمان ثالث خلفاء محمد بالقرآن. فقام على النسخ القديمة وأحرقها، ولم يُبقِ على نسخة إلا نسخة حفصة، ثم ألحقها مروان على ما قيل بأخواتها فأحرقها, ومع كل ذلك إن عرضنا على ميزان الاعتبار والفحص كل القراءات المختلفة الواقعة في الكتاب المقدس لا نجد شيئاً منها يمس جوهره.

وقد اتفق أن المفسرين المسيحيين لما عسر عليهم فهم كلمة أو آية من الكتاب تصوروا أنها وقعت خطأ من الناسخ واعتبروها مصحفة , ولما اطلع علماء الإسلام على شيء من ذلك ترجموا عن غير علم كلمة مصحف بمغيَّر أو محرَّف مثل الشيخ رحمة الله الهندي، فإنه بناءً على ذلك ادّعى أن علماء النصارى يسلّمون بوقوع التغيير في كتابهم, مع أن المسألة بسيطة جداً. لأن الكلمة التي لم يفهمها المفسرون وظنوا أنها مصحفة كانوا يشيرون إليها لأجل مراجعتها وتصليحها.

ومن أمثلة ذلك كلمة وردت في دانيال ٣ :٢ و٣ بالآرامية وهي - تفتايي - ولم توجد قط في كتاب آخر ولم يعرف معناها بالتدقيق ولا المادة المشتقة منها. فظن بعض المفسرين أن هذه الكلمة مصحفة أي خطأ من الناسخ. ولكن منذ سنين قليلة اكتشفوا كتابات آرامية قديمة في الآثار المصرية وردت فيها الكلمة المذكورة. وعرفوا معناها

بالتدقيق وأصل اشتقاقها ومن هنا نعلم كيف حُفظت الأسفار بالصحة والضبط حتى في مثل هذه الكلمة,

وحدثت مثل هذه الكلمة في الكتاب المقدس على المنوال الذي به حدثت نظائرها في القرآن، من ضمنها قوله "إن هذان" - سورة طه ٢٠ :٦٦ - فكان من المحتمل أن بعض المفسرين يرتابون في صحة هذه العبارة ويقودهم ريبهم إلى اتخاذ الوسيلة لتصحيحها، كما أنهم صححوا بالفعل كلمة يفرق بكلمة يفرقون جرياً على سياق الكلام - سورة البقرة ٢ :٢٨٥ قراءة يعقوب - وظنها بعضهم مصحفة عن كلمة نفرق في - قراءة حفص - وأشار إلى ذلك البيضاوي.

ليس من مقصدنا هنا إيراد القراءات المختلفة التي جاءت في القرآن بل نضرب لكم مثلا لإزالة ما عساه يكون قد علق بأذهانكم من الشبهة في ما يقابل هذه القراءات في الكتاب المقدس, وأما القراءات في كتابنا فتنقسم باعتبار أهميتها إلى ثلاثة أقسام : (١) القراءات الناتجة عن إهمال الناسخ أو جهله (٢) وتلك التي اقتضاها بعض النقص في الأصول المنسوخة (٣) وتلك التي وضعت لتصحيح عبارة ظنها الكاتب الأخير خطأ من الكاتب الأول وهي ليست بخطأ. ولا يسوغ عقل أن أحداً من المسيحيين قصد أن يتلف كتابه الذي يدين

به ويهتدي بنوره, نعم إن بعض الهراطقة ليبرهنوا عقيدة عندهم أتوا بآيات ليس لها وجود إلا في نسخهم الخاصة من العهد الجديد, كما ادّعوا بأن الآيات التي تنقض تعليمهم لم تكن موجودة في النسخ الأصلية، ولو أن هؤلاء الهراطقة بلغوا لهذه الدرجة فإنهم لم يقصدوا أن يتلفوا كتابهم. وغاية ما في الأمر أنهم انخدعوا ببعض الأضاليل, غير أن المسيحيين على العموم ميزوا في كل وقت وفي كل حال الخطأ المدخل في نسخ الكتاب بمقابلتها على النسخ القديمة.

ثم نقول لو فرضنا أن فريقاً من اليهود أو النصارى غلت مراجل الحقد والتعصب في قلوبهم ضد الإسلام فتواطأوا معاً واجتمعت كلمتهم أن يحذفوا من التوراة والإنجيل كل ما يتعلق بمحمد، وقد فعلوا, فماذا يكون رأيك في بقية المسيحيين واليهود المتفرقين في كل أنحاء المعمورة؟ فإنهم بدون شك يرفضون أعمال تلك الجمعية الشيطانية ويرفضون الكتاب المزور خوفاً من أن يشتركوا في جريمتهم العظيمة, ومالنا ولهذا الفرض ، ففي وقائع التاريخ ما يغنينا عنه, لقد حدث قبل محمد بزمن طويل أن الهراطقة سعوا كثيراً، لكنهم عجزوا أخيراً عن أن يحرفوا العهد الجديد على وفق مبادئهم، وهذا يدل على عدم إمكانية هذا المشروع, وحاول رجل من أهل العصور الأولى اسمه ماكرون

أن يحذف الأصحاحين الأولين من بشارة لوقا فلم يفلح،لا بين الجمهور، ولا بين فريق قليل منهم.

ثم نقول لو أن ملكاً أو صاحب سلطة سياسية قام بعد وفاة موسى بقليل وجمع كل نسخ التوراة أو أصحاحات منها وأحرقها، واستنسخ توراة جديدة من محفوظات بعض اليهود، ومن السطور المكتوبة على العظام وشقق الأخشاب ونشرها بأمر سلطاني، وألزم رعاياه في كل مكان بالاعتماد على هذه النسخة الجديدة، لما كانت تبلغ قراءاتها المختلفة إلى المقدار الذي بلغت إليه بدون هذا الفرض, إلا أننا كنا نقع في ورطة أدهى وأمر بكثير من اختلاف القراءات، هي ضياع الثقة من التوراة بالمرة، لأنه لا يبقى دليل على أن النسخة الجديدة طبق الأصل، وتكثر الظنون في البواعث التي حركت ذلك الملك أن يفعل تلك الفعلة المنكرة.

وكذلك تكون النتيجة لو وقع مثل هذا الفرض لأسفار العهد الجديد في ختام القرن الأول للمسيح، لأنه كان يتعذر علينا اليوم الإتيان بدليل شاف أن النسخة الجديدة موافقة للأسفار التي أُحرقت وتلاشت من الوجود، وتبقى الأذهان مرتبكة ومرتابة في صحتها إلى يوم يبعثون! ولكن لله الحمد، فإن مثل هذا لم يقع في كتابنا لا في أسفار العهد

القديم ولا في أسفار العهد الجديد, والحمد لله الذي لم يسمح أن يكون بيننا عثمان ولا بين اليهود الحجاج.

قد حدث أن بعض أباطرة الرومان الوثنيين شرعوا أن يحرقوا نسخ الكتاب المقدس على أمل أن يلاشوه من الوجود، لا ليستنسخوا كتاباً جديداً على هواهم، فدافع المسيحيون عن كتابهم وفدوه بدمائهم, وكثيراً ما شرع مضطهِدوهم بمثل هذا الشروع فلم يفلحوا.

ولو فرضنا أن كل كتبنا أُحرقت عن آخرها بحيث لم يبق كتاب واحد، لكان المحروق هو الورق فقط، ولكانت كلمة الله هي الباقية, جاء في هذا المعنى "يَبِسَ الْعُشْبُ ذَبُلَ الزهْرُ. وَأَمَّا كَلِمَةُ إِلَهِنَا فَتَثْبُتُ إِلَى الأَبَدِ" - إشعياء ٤٠ :٨ , وكيف تبقى كلمة الله إن أحرقت الكتب ؟ تبقى بوسائط كثيرة، منها أن كثيرين من المسيحيين في كل عصر شغفوا بالكتاب المقدس حتى استظهروا أهم اجزائه، سيما المزامير وأسفار العهد الجديد, وعليه لا يمكن أن نتصور ملاشاة الكتاب من الأرض والمسيحيون على ظهرها.

لما حدث الاضطهاد العظيم في فرنسا في القرن السادس عشر أقبل قسوس كنائس الإصلاح إلى الكتاب المقدس يحفظونه غيباًحتى

إذا سُلب من بين أيديهم يكون مدخراً في صدورهم ليستقوا من ينبوع الحياة رأساً ويرووا الآخرين, وقد أصبح معلوما لدى جميع الذين لهم قسط من الفطنة ما بذلته اليهود والنصارى من منتهى الجهد والحذر في الاحتفاظ على أسفارهم الإلهية نظير أرواحهم، وأصبحت الدعوى عليهم بأنهم بدلوا وغيروا أسفارهم قبل أو بعد الهجرة دعوى باطلة لا تصدر إلا من جاهل أو متعصب!

ولزيادة الشرح نقول : ما الفائدة التي كانت ترجوها اليهود والنصارى من وراء هذه الفعلة المحرمة وكلٌّ يعلم بحكم العقل والنقل عظم جريمة تحريف الكتب الإلهية، وقد ورد في ختام العهد الجديد ذكر دينونة هائلة تحيق بمن يحذف أو يزيد شيئاً على ما هو مكتوب في الكتاب وورد مثل ذلك في العهد القديم - تثنية ٤ :٢ ورؤيا ٢٢ :١٨ و١٩ - وفضلاً عن كونهم لا يستفيدون شيئاً بل يخسرون رجاءهم فإنهم يعلمون أنهم بتحريفهم كتابهم لا يضرون أنفسهم فقط بل يضرون أولادهم وأحفادهم وهلم جراً.

وعدا ذلك نقول إن محمدا لم يلبث زمناً طويلاً حتى بات ذا سلطان عريض وجنود وبيت مال، وكان الأقرب إلى العقل أن

النصارى واليهود الذين في بلاد العرب على الأقل لو كان في كتابهم أخبار عنه أو خبر لكانوا أسرعوا به إليه والنسخة في أيديهم تزلّفاً إليه إن لم يكن حباً في الدين فحباً في الدنيا, ولكان محمد وأتباعه يحرصون الحرص كله على كل تلك النسخ العزيزة التي شهدت له وشهد لها عوضاً عن أن يحذفوا من كتابهم تلك الأخبار، ويعرّضون أنفسهم بغير داعٍ لحرب لا قِبل لهم بها، ويدفعون الجزية عن يدٍ وهم صاغرون - سورة التوبة ٩ :٣٠ - وينحدرون من مقام الحرية والمساواة إلى مقام الذمي الوضيع، ويبيتون هدفاً من آونة إلى أخرى للمذابح والفظائع كالتي جرت حتى في القرن العشرين في أطنة وما جاورها.

وكم من المشاهد المؤلمة تمثلت على مسارح الإسلام جيلاً بعد جيل بتحريض سورة التوبة على ألسنة حكام السوء وجمهور العوام.

لو كان اليهود والنصارى آمنوا بمحمد ورحبوا برسالته على العين والرأس لما نجوا فقط من هذه الرزايا بل كانوا شاركوا المسلمين في حظوظهم وامتيازاتهم الدنيوية, لكن أبت نفوسهم أن ترد هذا المنهل واعتصموا بإيمان آبائهم ولم يعيروا جانباً من الالتفات لخطبة الجمعة المذيلة بدعاء التهديد والإرهاب ينادى بها على المنابر في سائر أطراف مملكة آل عثمان، كقول الخطيب على منبره : اللهم رمِّل نساءهم

ويتِّم أطفالهم، وخرِّب كنائسهم، وكسر صلبانهم، واجعلهم وأموالهم غنيمة للمسلمين الخ , أليس من البيّن والجلي أنه إذا وُجد يهودي أو مسيحي كائن من كان جزءاً في كتابه يأمره بانتظار نبي من جزيرة العرب اسمه أحمد لكان بكل سرور اندمج في سلك الصحابة والتابعين ويفوز بسعادة الدارين. ولست بمبالغ إن قلت إن الترغيبات التي اقترنت بالإسلام من نعيم الدنيا ومجدها لجدير بها لولا عناية الله ومخافته أن تغري أهل الكتاب لا أن يحذفوا منه خبر محمد بل يختلقوه فيه ويحشروه في كل فصل من فصوله, فعدم إدخال اليهود والمسيحيين خبر محمد في أسفارهم وقد بلغ محمد وخلفاؤه ما بلغوا من السلطان أعظم دليل عند من وهبهم الله العدل والإنصاف على أمانة أهل الكتاب في حفظهم كتابهم على أصله بدون زيادة ولا نقصان.

ولو فرضنا أن طائفة من طوائف النصارى أو اليهود أضمرت السوء لمحمد حسداً وحقداً وحذفت خبره من الكتاب، لا لدفع غُرم ولا لجلب غُنم، بل على سبيل المكيدة، لظهرت مكيدتهم للطوائف الأخرى وبادروا إلى إصلاح التحريف وردّوا الكتاب إلى أصله, وغني عن البيان ما بين النصارى واليهود من العداوة القديمة وما بين طوائف النصارى من الاختلاف المذهبي في دقائق الدين مما لا يتصور

معه جمع كلمتهم والتأليف بين آرائهم على تغيير كتابهم, ولو فرضنا أنه أمكن ذلك بين يهود ونصارى جزيرة العرب فلا يمكن تعميمه في كل جهات العالم. وكانت تقع تلك الفئة الباغية تحت سخط وزجر الجمهور في كل مكان.

وعدا ذلك فإنه نبغ في العالم مؤرخون عظماء بين النصارى واليهود والمسلمين في عصر محمد وقبله وبعده وسجلوا في مؤلفاتهم حوادث الزمان, وباطلاعنا على تواريخهم لم نر أثراً في تاريخ أحد منهم يدل على تواطؤ النصارى واليهود على حذف شيء من الأسفار المقدسة يتعلق بمحمد ولا بغير محمد.

وإن فرضنا أنه وُجد بين النصارى أو اليهود طائفة انتزعت مخافة الله من قلوبهم والحياء من الناس، بحيث لم يعودوا يبالون بعذاب الله ولا بملام الناس، وشرعوا يحذفون خبر محمد من التوراة والإنجيل، فإنهم يجدون ذلك ضرباً من المحال بسبب أن الديانة المسيحية وكتبها قبل الهجرة كانت قد انتشرت انتشاراً عظيماً، حتى أن سكان آسيا الصغرى وسوريا واليونان ومصر والحبشة وشمالي أفريقيا وإيطاليا قد اعترفت بالمسيح, بل وأكثر من ذلك فإن كثيرين في جزيرة العرب وبلاد فارس والأرمن والقوقاز والهند وفرنسا

وأسبانيا والبرتغال وانكلترا وألمانيا قد قبلوا المسيحية أيضاً، ولهذه البلاد لغات مختلفة تُرجم الكتاب إلى كثير منها، فتُرجم إلى الطليانية والأرمنية والأشورية والقبطية والكوشية والقوطية والقوقازية, وعدا هذه كانت التوراة موجودة في الأصل العبراني والعهد الجديد موجوداً في الأصل اليوناني، وتُرجمت التوراة كلها إلى اليونانية، وسُميت الترجمة السبعينية، وتُرجم كثير منها إلى الآرامية من قبل ميلاد المسيح.

ولا يخفى على أحد أن اليهود متفرقون في أنحاء العالم وبالأكثر في الجهات المشار إليها، وهم منقسمون إلى طوائف مختلفة, وكذلك المسيحيون منقسمون إلى طوائف كثيرة متضادة، فلا تقدر إحدى طوائف اليهود أو النصارى أن تُقدم على هذا المشروع خشية من تشهير الطوائف الأخرى بها, وتنادي عليها بالويلات بدون رحمة . وعلى ما تقدم مهما يكن المرء أحمق أو مختل العقل فلا يبلغ منه الحمق والخلل حداً يتصور له معه إمكانية اتفاق اليهود والنصارى هؤلاء مع اختلاف طوائفهم وأولئك مع اختلاف طوائفهم وتوحيد رأيهم على تغيير أسفارهم الإلهية, وإن فرضنا المستحيل وقلنا بل اتفقوا كلهم وغيروا كتابهم وجردوا صحائفه من

السيرة المحمدية، فماذا عسانا نقول عن النسخ التي اكتُشفت بعد عصر محمد ويرجع تاريخها إلى ما قبله. فمن يا ترى غيَّر هذه أيضاً وهي تحت الأرض مخفية مع الآثار القديمة, هل انضمت جماعة الجن إلى حزب المتواطئين؟ ثم أن للمسيحيين مؤلفات دينية تفوق الحصر تشتمل على اقتباسات في مواضيع مختلفة من الكتاب المقدس. فهل راجع المتواطئون هذه المؤلفات أيضاً ونقحوها من سيرة النبي العربي.

والأغرب من ذلك كله أنه بينما يزعم المسلمون أننا غيَّرنا كتابنا وحذفنا منه البراهين على رسالة نبيهم، يحاول علماؤهم الراسخون أن يثبتوا وجود هذه البراهين في كتابنا اليوم, فإن صدق علماؤكم وكان في الكتاب براهين على ذكر محمد فلماذا إذاً تتهموننا بأننا حذفناها؟ أليس من عزم الأمور أن تستقروا على رأي واحد؟

ومن أمثلة براهينهم التي يوردونها في الكتاب على البشارة بنبيهم ما وعد به المسيح تلاميذه من إرسال الفارقليط كما جاء في بشارة يوحنا ١٦ :٧ لا يسلم المسيحيون أن الفارقليط هو محمد، إلا أن إبقاء هذه الآية في قلب الإنجيل لليوم دليل على أنها لم تُحذف منه, ثم نقول لو كان المسيحيون يريدون أن يحذفوا الآيات الدالة على نبوة محمد من كتابهم لكان الأولى بهم أن يحذفوا هذه الآية لأنها هي الآية الوحيدة

التي نبه إليها القرآن وعينها بالحصر وقال إنها تشير إلى نبوة محمد، حيث يقول "وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَد" - سورة الصف ٦١ :٦ - , وكما أن محمداً ادعى أنه الفارقليط الذي وعد به المسيح بإرساله، ادّعى من قبله هذه الدعوى عينها ماني الفارسي - كما يعلم ذوو الاطلاع - وبنى دعواه على آية المسيح المشار إليها. وتبعه بعض المسيحيين, ولما اتضح على توالي الأيام أنه دجال واضمحلت شيعته، لم يحذف المسيحيون هذه الآية التي استعان بها على ضلالته, وهاك هي موجودة في الإنجيل إلى اليوم.

ثم أن اليهود اطلعوا على آيات كثيرة في توراتهم تدل على المسيح دلالة واضحة، واحتج بها المسيحيون عليهم احتجاجا لم يجدوا معه سبيلاً إلى التخلص من الالتزام بالحق, وعداوتهم للمسيح أشهر من نار على علم. ولكم لم يحملهم هذا كله على تحريف آية واحدة من الآيات الدالة على المسيح مع كونها تلصق بهم أعظم جريمة وتقضي عليهم قضاء مريعاً, فلو كان اليهود حرفوا التوراة في شأن محمد ، لكان الأولى بهم أن يحرفوها في شأن المسيح ويحذفوا منها هذه البينات الراهنات - تكوين ٤٩ :١٠ وتثنية ١٨ : ١٥ و١٨ ومزامير ٢٢ :١٤-١٨ وإشعياء

١٤ :٧ و٩ :٦ و٧ و١١ :١-١٠ و٥٢ :١٣ الخ وص ٥٣ كله ودانيال ٨ :١٣ و١٤ و٩ :٢٤-٢٧ وميخا ٥ :٢ وزكريا ١٢ :١٠ - قابل هذه النصوص الجلية بما ورد في الإنجيل - لوقا ٢٤ :٢٥-٢٧.

وفي التوراة آيات تتعلق بمسألة أخرى يود اليهود لو لم تكن موجودة فيها، وهي تلك التي تشهر بفظائعهم وجرائمهم المتناهية في القبح, فلو كانوا حرفوا توراتهم بخصوص محمد فما كان أجدر بهم أن يحذفوا كل ما يشين سمعتهم ويلصق بهم شر الفعال!

أمرهم الله أن يحافظوا على شريعة التوراة - يشوع ١ :٧ - وأن لا ينقصوا منها ولا يزيدوا عليها - تثنية ٤ :٢ و١٢ :٣٢ - فعملاً بالوصية حافظ اليهود على توراتهم، وخوفاً من أن تسقط منها كلمة أو حرف أحصوا كلمات كل سفر من أسفارها، بل أحصوها حروفاً وقيدوا الاحصاءات في كتبهم الدينية ليرجعوا إليها عند اللزوم, وليكن معلوماً أن نسخة التوراة المتداولة بين اليهود هي عين النسخة المتداولة بين النصارى، وكلتاهما تُطبعان في مطبعة واحدة.

ولئلا يظن بعضهم أنه ربما غيَّر اليهود توراتهم قبل المسيح. ونحن أخذناها عنهم مغيَّرة فصارت نسختهم ونسختنا واحدة. أقول إن القرآن كفانا مؤونة هذا الاعتراض، لأنه يشهد بأن المسيح جاء مصدقا

لما معهم من التوراة, ثم أنه لا المسيح ولا رسله اتهموا اليهود بتهمة التحريف. وهاكم صحائف الإنجيل راجعوها تجدوها بيضاء نقية من هذه التهمة، في حين أنها شهرت بخطاياهم في غير هذه المسألة، بل يشهد الإنجيل للتوراة بأنها موحى بها من الله، وأنها باقية على أصلها، ويحرض المسيحيين على قرائتها والعمل بها, ومن ذلك الآيات الآتية في الإنجيل - بشارة متى ٥ :١٧ و١٨ و٢٢ :٣١ و٣٢ ومرقس ٧ :٦-١٠ ولوقا ١١ :٢٩-٣٢ و٢٤ :٢٥-٢٧ ويوحنا ٥ :٣٩ و٤٥-٤٧ و٢ تيموثاوس ٣ :١٦ - , من هذه الآيات البينة يتضح أنه في عصر المسيح ورسله قبلت التوراة لديهم كتاباً موحى به من الله ليس بها مساس من مظنة التحريف والتغيير، لأنه لو حرفها اليهود لكان المسيح وبَّخهم علانية على هذا الشر العظيم، ولأشار بلا شك إلى مواضع التحريف وأصلحها لتبقى صالحة للاستعمال في كنيسته.

وهذه النظرية ذاتها تثبت عدم ضياع التوراة وعدم تحريفها عند خراب أورشليم في زمن بختنصر والأسر البابلي, ولو حدث شيء لكان المسيح بيَّن الحقيقة.

إن بعض كتاب المسلمين يدعون أنه في وسعهم أن يثبتوا وقوع التحريف عمداً في التوراة، ويعينوا الآيات المحرفة، ومنها على

ما يدّعون الآية الواردة في سفر التثنية ٢٧ :٤ ففي النسخة السامرية مكتوب جبل جرزيم وفي العبرانية جبل عيبال ولكن الحقيقة هي أنه ليست النسخة العبرانية وحدها المكتوب فيها جبل عيبال بل في كل التراجم القديمة كالترجمة السبعينية واللاتينية الدارجة والسريانية والباشطا والأرمنية والحبشية.

وعليه فالعبارة الأصلية جبل عيبال كما في الأصل العبري لا جبل جرزيم كما في النسخة السامرية التي حرفها السامريون لرغبتهم الخصوصية في الجبل الذي سموه بهذا الاسم, ومع كونهم حرفوا نسختهم في هذه الكلمة انحصر التحريف فيها ولم يتعدَّ إلى النسخ الأخرى المعتمدة عند طوائف اليهود وطوائف النصارى, وهناك احتمال آخر في هذه المسألة. فربما ظنَّ الناسخ الذي نقل النسخة السامرية عن العبرانية أن الكاتب الأول كتب جبل عيبال سهواً عوض جبل جرزيم لمناسبة ما ورد في عدد ١٢ من ذلك الأصحاح، ما مؤداه أن بعضاً من الأسباط الاثني عشر يقفون على جبل جرزيم ويباركون الشعب والبعض الآخر يقفون على جبل عيبال وينطقون باللعنات على من يرتكب تلك المعاصي المذكورة هناك. ويقول الشعب آمين , فمن المحتمل أن كاتب النسخة السامرية ظن المقصود جبل البركات لا جبل اللعنات

وعلى كل حال فإن السامريين لم يقدروا أن يعمموا هذا الخطأ أو التحريف إلا في دائرتهم الخصوصية - إن صح أنه تحريف!

ولو كان اليهود هم الذين حرفوا نسختهم لا السامريون لكان الأولى بهم أن يحرفوا عدد ١٢ لا عدد ٤.

ثم إننا كنا قد أشرنا في ما تقدم إلى الخلاف الموجود بين النسخة السامرية والنسخة العبرانية والترجمة السبعينية من حيثية أعمار بعض الآباء الأولين في أصحاحي ٥ و١٠ من سفر التكوين. وفي الغالب يجب أن يُحمل هذا الخلاف على محمل الخطأ، لأن الأرقام قابلة الخطأ حيث يسهل أن يحل بعضها محل الآخر, ومن الواضح أن اختلاف النسخ في هذه الأرقام لا يمس جوهر الكتاب في شيء.

وحاول بعض كتاب المسلمين أن يثبتوا وجود اختلاف كثير بين أسفار الكتاب المقدس، وزعموا أن هذا الاختلاف دليل على تحريفه, غير أن الكتّاب المطلعين ذوي العقول الراجحة والأفكار النيرة يسلّمون أنه إن كتب كاتبان أو أكثر عن واقعة حال، وكتب كلٌّ منهم بمعزل عن الآخر، تأتي كتاباتهم مختلفة اختلافاً ظاهرياً، ولكن إن اتفقت اتفاقاً تاماً يستدل من اتفاقهم على أنهم متواطئون.

أما البسطاء فيشتبه عليهم ظاهر الاختلاف بين سفر وآخر

ويعثرون في صحة الأسفار, أما المطلعون فيعلمون أصله ويحلونه حلاً جميلاً, والاختلاف الظاهري بين أسفار الكتاب المقدس أعظم دليل على أمانة أهله، وإلا لكانوا أزالوه منه لكي لا يبقى عرضة لانتقاد المنتقدين, ومن أمثلة والاختلاف الظاهري ما ورد عن نسب المسيح في بشارة متى ص ١ وبشارة لوقا ص ٣ وما ورد عن موت يهوذا في بشارة متى ٢٧ :٥ وسفر الأعمال ١ :١٨ و١٩ فلو كان استباح أهل الكتاب التحريف لكانوا وفّقوا بين هذه المواضع من كتابهم.

ويزعم قوم من المسلمين أن الإنجيل محرف لقول بعض النصارى إن الآيات الآتية غير موجودة في النسخ القديمة وهي بشارة مرقس ١٦:٩ إلى ٢٠ وبشارة يوحنا ٥:٣ و٤ و٧ :٥٣-٨ :١١ ورسالة يوحنا الأولى ٥ :٧ - ولو أن هذه الآيات لم تكن موجودة في المتن في النسخ الأكثر أقدمية إلا أنها موجودة على الهامش، فظنها الناسخ من الأصل فأدمجها فيه بسلامة نية, وسواء أصاب في ظنه أو أخطأ، فإن وجود هذه الآيات وعدمه لا يؤثران في جوهر الكتاب ولا في عقيدة من عقائد الكنيسة لأن الحقائق الأساسية التي تضمّنها مستوفاة بأكثر تفصيل في مواضع أخرى من كتابهم.

وبالنسبة لهذه المسألة يوجد فرق عظيم بين الكتاب والقرآن

فإن المطلعين من المسلمين يعلمون أن فريقاً من الشيعة أثبتوا أن عمر بن الخطاب الخليفة الثاني وعثمان بن عفان الخليفة الثالث غيَّرا جملة آيات من القرآن بسوء النية والقصد ليخفيا عن المسلمين حقيقتين هما من الأهمية بمكان : الأولى، هي يجب أن يكون عليٌّ صاحب الخلافة بعد محمد. والحقيقة الثانية يجب أن تحصر الإمامة في ذريته, ويدّعي فريق آخر أنه أسقط من القرآن سورة بجملتها يقال لها سورة النورين للغاية المشار إليها, أما نحن فلا يهمنا التحري عما إذا كانت هذه الدعوى صحيحة أو مُختلقة ، ولكن تهمّ أهل السنة من المسلمين, لأنه إن كانت سورة النورين من القرآن حقيقة يكون ما أشقاهم واسوأ حظهم، لأنها تنذرهم بسوء العاقبة كما في قوله إن لهم في جهنم مقاماً عنه لا يعدلون وكتب ميرزا محسن بكشمير في كتاب له سنة ١٢٩٢ هجرية يسمى - داستاني مذاهب سورة النورين - وذكر أن بعض الشيعيين يؤكدون بأن عثمان عندما أحرق المصاحف القديمة وأمِن على نفسه مناقشة الحساب، عمد إلى النسخة التي كانت بين يديه وشطب منها كل ما كان من مصلحة علي ابن أبي طالب وذريته من السيادة والإمامة، وقال أن بعض العلويين ينكرون القرآن المتداول اليوم، ولا يسلمون بأنه هو الذي نزل من الله على محمد، كما يعتقد المسلمون. بل يقولون إنه

اختلقه أبو بكر وعمر وعثمان. نعم إن لدى العلماء المحققين من الأدلة ما يكفي لدحض هذه الدعاوي الباطلة، غير أنهم لا يسعهم إلا التسليم بأن هذه التهم الشائنة صوبها نفس المسلمين إلى القرآن, والذي يهمنا من المسألة أن هذه التهم في اعتبارهم مخلة بجوهر الخلاص لكل فرد من المسلمين، إن كان في الإسلام خلاص، في حين أن الدعاوى المزعومة على كتابنا المقدس محصورة في آيات قليلة، وهي التي سبقت الإشارة إليها إن حذفت من الكتاب أو زيدت عليه لا تخل بشيء من عقائد الدين والخلاص على الإطلاق - لأنها عرضية لا جوهرية.

ويدّعي بعض المسلمين عدا ما تقدم ذكره أنه قد ضاع من بين دفتي الكتاب المقدس أسفار كانت معدودة منه يوماً ما كسفر ياشر - كما في سفر يشوع ١٠ :١٣ - وكتاب حروب الرب - كما في سفر العدد ٢١ :١٤ - فنقول دحضا لهذا الاعتراض إن السفرين المذكورين لم يندرجا قط في سلسلة أسفار التوراة، وإن كانت أشارت إليهما التوراة, وحكمهما حكم الأسفار التي أشار إليها القرآن وهي ليست منه كصحف إبراهيم مثلاً.

واعترض بعضهم بأن الكتاب المقدس عند الكنيسة الرومانية يتضمن أسفاراً معدومة عند كنيسة البروتستانت, ورداً على هذا

نقول : إن أسفار العهد الجديد موجودة بذاتها عند عموم المسيحيين من بروتستانت وكاثوليك وأرثوذكس, وأما أسفار العهد القديم فقد زادت عليها الكنيسة الكاثوليكية أسفارا لم تكن مدرجة من ضمن التوراة عند المسيحيين الأولين ولا عند اليهود فضلاً عن كونها لا توجد في الأصل العبراني, نحن معاشر البروتستانت نعتمد أسفار العهد القديم حسبما هي مدرجة في قانون اليهود وتثبَّتت لنا من المسيح ورسله, ولكن إن فرضنا أن هذه الأسفار المزيدة موحى بها فإنها بجملتهاالا تؤثر على أية عقيدة من عقائد الديانة المسيحية, وأما الفروق المذهبية بين كنيسة البروتستانت وغيرها فلم تنتج عن زيادة هذه الأسفار على العهد القديم، ولا عن اختلاف في الكتب، كما أن مذاهب الإسلام لم تنتج عن اختلاف في القرآن بين مذهب وآخر.

قد تكلمنا عن نسخ أسفار العهد القديم والجديد في اللغات الأصلية. وتكلمنا عن التراجم القديمة في جملة اللغات التي لم تبق إلى اليوم, ونتكلم هنا بالإيجاز عن الأدلة التي أقامها لنا كتبة المسيحيين الأولين على الموضوع الذي نحن بصدده, فنقول إن بين أيدينا مؤلفات مسيحية كثيرة يختلف تاريخها من القرن الأول للميلاد إلى ما بعد الهجرة في

لغات مختلفة يونانية ولاتينية وسريانية وقبطية وأرمنية، أقدمها رسالة اكلميندس إلى كورنثوس سنة ٩٣ إلى ٩٥ ورسائل أغناطيوس السبع سنة ١٠٩ إلى ١١٦ ورسالة بوليكاربوس سنة ١١٠ تقريباً ورسالة نُسبت خطأ إلى برنابا سنة ١٠٠ إلى ١٣٠ كتبت جميع هذه باليونانية. ثم قام كُتَّاب كثيرون بعد هؤلاء وكتبوا ما عنَّ لهم في لغات مختلفة. وأولئك أجمعون كأنهم اليوم أحياء بين ظهرانينا يشهدون بأن إيماننا اليوم كإيمان الكنيسة في عصورهم الأولى, وعدا ذلك اقتبسوا آيات كثيرة من أسفار العهد القديم والعهد الجديد منها ما هو بالمعنى ومنها ما هو باللفظ, وجميع ما اقتبسوه مطابق لكتابنا المقدس المتداول اليوم. وهذا دليل قوي على أن الكتاب المقدس لم يُحرف لا قبل الهجرة ولا بعدها, ولو فرضنا أنه قامت جمعية في عصر محمد أو بعده وضمت بين أحضانها أخبث من على وجه الأرض وتعاونوا على تحريف الكتاب المقدس فستمنعها جبال من الصعوبات لا يستطيعون تذليلها إذ عليهم أولاً أن يجوبوا أقطار الأرض المنتشرة فيها المسيحية واليهودية من قارة آسيا وأوروبا وأفريقيا، ويزوروا كل مجمع لليهود، وكل كنيسة ومكتبة وبيت يهودي ومسيحي. ويجمعوا كل النسخ في كل اللغات ما بين عبرانية ويونانية ولا تينية وقبطية وأرمنية وحبشية وعربية

وغيرها. وعليهم أن يحتالوا على السامريين ويستكشفوا خبايا أسفارهم المتوغلة في القدم وتراجمها المتأخرة في لغتهم الخاصة، ويسلبوها منهم, وعليهم أيضاً أن يحرفوا الترجوم الآرامي اليهودي, وبعدما ينتهون من جمع نسخ الكتاب المقدس من كل العالم عليهم أن يتفقوا على ما هم شارعون في حذفه ويحذفوه, ويبقى عليهم بعد ذلك كله أن يجمعوا مؤلفات اليهود والنصارى الدينية في كل اللغات من كل أقطار الأرض ليخفوا الاقتباسات المتضمنة فيها لئلا تنكشف حيلتهم ويذهب تعبهم باطلاً, وعليهم في ختام مشروعهم أن يكون لهم سلطان فائق الطبيعة حتى يمحوا من ذاكرة المسيحيين واليهود الذين على وجه الأرض ما حفظوه غيباً من توراتهم وإنجيلهم الأصليين لكي لا يفطنوا إلى التوراة والإنجيل المحرفين, أظن ما من عاقل يتصور جواز هذه المستحيلات، فمن باب أولى لا يتصورها إخواننا الراسخون في العلم، مع أن القرآن صرح في سورة آل عمران بقوله "مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُون" - سورة آل عمران ٣ :١١٣ فمن ذلك نستنتج ثلاثة أمور (١) أنه كان يوجد بعض الأتقياء الذين لم تسمح لهم ذمتهم بتحريف الكتاب (٢) أن الكتاب كان موجوداً بين أيديهم (٣) أنه كان معروفاً عندهم وهم يتلونه.

ولايمكن لذي عقل أن يتصور إمكانية اتفاق اليهود والمسيحيين على ارتكاب هذا الإثم الفظيع الموجب للمذمة في الدنيا وغضب الله في الآخرة، لأنه لا يوجد سبب يدعو إلى هذا الاتفاق.

ولنفرض أن جماعة أقوياء من المسلمين في وقتنا أو قبل ظهور مطابع الحروف والحجر عزموا أن يحرّفوا القرآن وكل الكتب الإسلامية ألا يهزأ بهذا الكفر حال كون القرآن لم يترجم إلى لغات متعددة كالكتاب المقدس في عصر محمد؟

ولنفرض أنه لو تيسر لهم أن يجمعوا نسخ القرآن المنتشرة في أقطار العالم ويحرفوها، فليسوا هم بقادرين على جمع الكتب الدينية الإسلامية ولا التفاسير الكثيرة للقرآن, ولو فرضنا أنهم قدروا على ذلك أيضاً، ألا يظهر تحريفهم من الكتب التاريخية كابن هشام والواقدي والغازي وفتوح مصر وفتوح العجم أو على الأقل الطبري وابن الأثير؟ لا يمكن لأي عاقل أن يتصور إمكانية ذلك، حتى لو كانت كل هذه الكتب في لغة واحدة.

فبالأحرى لا يمكن تحريف الكتاب المقدس في عصر محمد أو بعده لانتشار الاقتباسات الكثيرة ولتعدد تراجمه,

ولو سلمنا جدلاً بإمكان تحريف الكتاب المقدس بغضّ النظر

عن كل هذه الصعوبات، أفما كان يظهر هذا التحريف من الكتب التي اكتُشفت حديثاً وقد كنا نعرف أسماءها ولم نر مسمياتها وهي في اللغات اليونانية والقبطية والأرمنية والسريانية منها - ١ - قانون الرسل - سنة ١٣١- سنة ١٦٠ ب م - ٢ - كتاب محاربة أرستيدس - سنة ١٣٨- سنة ١٤٧ ب م - كتاب اتفاق البشيرين لستاتيانوس - سنة ١٦٠- سنة ١٧٠ ب م - وهذه الكتب قد ضاعت من قبل محمد بمدة طويلة، واكتُشفت في هذه الأيام الأخيرة, فلا يمكن تحريفها في حياته أو بعد موته، وهي تشهد بوحدة الإيمان المسيحي في العصور الأولى وفي هذا العصر، كما هو مثبت في الكتاب المقدس المنتشر اليوم في كل العالم, فترى من هذه الأدلة الساطعة والحجج الدامغة أن التوراة باقية على حالها كما كانت في زمن المسيح، والإنجيل باق على حاله كما كان في زمن رسله الأطهار – الحواريين.

ومن الحقائق التي تدحض الرأي الشائع بين المسلمين بتحريف الكتاب المقدس، هو أنه لما فتح عمرو بن العاص مصر، وفتح أبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد الشام، وسعد بن أبي وقاص العراق، وقعت بين أيديهم أشهر مكاتب العالم في ذلك العصر. وأخصّ بالذكر مكتبة اسكندرية وقيصرية, وكان في هذه المكتبات عدد وفير من نسخ

الكتـاب المقـدس والمؤلفـات المسـيحية القديمـة, ومـا كـان أيسـر علـيهم أن يحفظوا هذه المكتبات أو على الأقل الكتب المقدسة التي جاء القرآن مهيمنـاً عليهـا، وتكـون لهـم فـي مستقبل الايـام حَكَمـاً يحكمـون بهـا عمـا إذا كـان مـا يستحدث من النسخ محرفاً أو هي طبق الأصل, ولكنهم أحرقوهـا. أحرقوا التوراة والزبور والإنجيل التي قال القرآن إنها كلام الله وخبر إحراق هذه المكاتب ورد في تاريخ أبي الفرج وكشف الظنون.

لو حفظ المسلمون نسخ الكتاب التي وقعت بين أيديهم لأمكنهم منـع ا حتمال تحريفه فـي العصـور الأخيرة لكنهم لـم يبـالوا بوصـية قـرآنهم ولا قضوا حق هيمنته, أما المسيحيون فقد استحفظوا على ما وقع في أيديهم من هذه الكتب المقدسة القديمة التي كتبت قبل الهجرة بقرون عديدة وسلمت من أيـدي المسـلمين فـي الاسـكندرية وغيرهـا, وهـاكم هـي اليـوم محفوظـة فـي مكتبـة رومـا وبطرسـبرج وبـاريس ولنـدن وغيرهـا مـن مكتبـات أوروبـا. ويمكـن لسـياح المسـلمين ونـزلائهم فـي أوروبـا أن يـزوروا هـذه المكتبـات ويتحروا حقيقة دعوانا. وقد أخذت صورة بعض النسخ القديمة بواسطة آلـة التصـوير الشمسـي ونشـرت بـين النـاس لكـي يراهـا مـن لـيس فـي وسـعه أن يزور

هذه المكتبات من أهل الأقاليم القاصية الذين يهمهم الاطلاع عليها, ومن مقارنة هذه النسخ الأصلية القديمة بعضها على بعض حصلنا على النسخة اليونانية الأصلية للعهد الجديد والنسخة العبرانية للعهد القديم وهما مطابقتان للنسخ القديمة المتفرقة في العالم. ومن النسختين الأصليتين ترجمنا الكتاب المقدس إلى أكثر من أربعمائة لغة أي أكثر لغات العالم التي تصلح للترجمة.

ومما سبق أقمنا الأدلة القاطعة الدالة على عدم تحريف الكتاب المقدس على الاطلاق لا قبل عصر محمد ولا بعده. وأن العلماء المحققين من المسلمين السالفين والمتأخرين يوافقون على عدم التحريف. وقد أثبتنا أيضاً بطلان وقوع نسخ في الكتاب المقدس لا في أخباره التي رواها ولا في مبادئه الأخلاقية ولا عقائده الدينية, وقد بيّنا أن الكتاب المقدس اليوم هو بعينه كتاب العصور الأولى المتقدمة على زمن محمد بمئات من السنين، وشهد له القرآن بأنه كلام الله وكتابه في أكثر من مائة وعشرين موضعاً إلى أن قال إنه جاء مهيمناً عليه.

وعلى ما تقدم يجب على كل مسلم مؤمن بالقرآن إيماناً حقيقياً

أن لا يدع روح التعصب الذميم يحول بينه وبين الاعتقاد بصحة الكتاب المقدس، واتخاذه لنفسه نوراً وهدى في سبيل الحياة - انظر سورة غافر ٤٠ :٥٦ ، وحتى تتوفق إلى الهداية به يجب أن تقرأه بانتباه طالباً من الله بإخلاص واشتياق أن ينير ذهنك ويفتح قلبك لتفهم تعليمه وتهتدي إلى الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين - آمين

ميزانُ الحَق

كيفَ تخلُصُ
أيُّها الإنسانْ ؟

O Man, How can you be saved?

الجزء الثاني

الدكتــور فــاندر
Dr. Carl Pfander
(Arabic)

الباب الثاني

الغرض من هذا الباب أن نبين تعاليم الكتاب المقدس الأساسية
وأن نبين أيضا أن هذه التعاليم توافق الشروط الضرورية للوحي الحقيقي
كما بينا ذلك في مقدمتنا

ـ * ـ

الفصل الأول

بيان مختصر لمشتملات التوراة

يتألف الكتاب المقدس من قسمين : أسفار العهد القديم وأسفار العهد الجديد.ويُطلق على القسم الأول اسم التوراة والأخير اسم الإنجيل، لأن القسم الأول يبتدئ بشريعة موسى، والثاني يبتدئ بالأناجيل أي البشائر الأربع.

وكنا قد بينا فيما تقدم أن اليهود قسموا أسفار العهد القديم إلى ثلاثة أقسام رئيسية: التوراة -الشريعة- والأنبياء، والصحف وتُسمى الأخيرة بالمزامير لأنه يبتدئ بها، وكُتبت أسفار العهد القديم جميعها باللغة العبرانية، ماعدا إصحاحات قليلة كُتبت بالآرامية، أما أسفار العهد الجديد فلغتها الأصلية اليونانية. وحفظ اليهود توراتها باللغة

الأصلية بكل دقة وعناية إلى الوقت الحاضر وأخذها عنهم النصارى من بدء تاريخ الديانة المسيحية بأمر المسيح نفسه - بشارة متى ٥ :١٧ و٢١ :٤٢ و٢٦ :٥٤ ومرقس ١٢ :٢٤ ولوقا ٢٤ :٢٧ و٤٥ ويوحنا ٥ :٣٩ الخ -ولهذا فأسفار التوراة التي نستعملها اليوم هي ذات الأسفار التي كانت بأيدي اليهود في بلاد فلسطين في عصر المسيح وفي كل مكان وزمان.

يتضمن العهد القديم الوحي الإلهي الذي كتبه الأنبياء والمرسلون إلى زمن المسيح وأكثر الأسفار متوَّجة بأسماء الذين كتبوها ما عدا القليل منها حيث يُعرف كاتبوها من التقاليد القديمة. ومع ذلك فإن شهادة المسيح لها وتصديقه عليها كما صرح القرآن لا يدع سبيلاً للارتياب فيها. وقد قسم العهد القديم في العصور السالفة إلى اثنين وعشرين سفراً على عدد حروف الهجاء العبرانية، وتقسم في الوقت الحاضر إلى أربعة وعشرين سفراً بفصل راعوث عن سفر القضاة وفصل مراثي ارميا عن سفر نبوته واعتبارهما سفرين كلّ على حدة. وقد جرت عادة أكثرهم أن يقسموا الأسفار إلى سفرين أول وثان،وهي صموئيل والملوك وأخبار الأيام. ويقسم سفر الأنبياء الإثني عشر إلى اثني عشر سفراً صغيراً، فبلغت الأسفار بموجب هذا التقسيم الأخير تسعة وثلاثين سفراً، وهو التقسيم الذي اعتمد عليه المسيحيون. وأظن أن

مسألة التقسيم لا يعلق أحد عليها أهمية كبيرة مثل تلك التي يكون لها مساس بالمتن الأصلي.

فتوراة موسى أو أسفار شريعة موسى الخمسة - التكوين والخروج واللاويين والعدد والتثنية-يسجل الوحي تاريخ خلق العالم والإنسان، وكيف عصى آدم ربه وسقط في الخطية وجلب الموت على نفسه،وكيف أن الله الكلي الرحمة والجود وعد أن يرسل مخلّصاً إلى العالم يولد من نسل المرأة - سفر التكوين ٣ :١٥- ولما توغل العالم في المعاصي والفجور أهلك الله بني آدم أجمعين ما عدا نوح وأهل بيته، إلا أنه من بعد الطوفان عادت ذرية نوح إلى فعل الشر وسقطت في عبادة الأوثان بالتدريج، إلى أن لم يبق بينهم من يعبد الإله الحق إلا إبراهيم،فاختاره الله واتخذه خليلاً لأنه آمن به. وعند ذلك وعده بأن المخلّص سيأتي من نسل ابنه إسحاق، وكان لإسحاق ابنان اصطفى الله منهما يعقوب وسمّاه إسرائيل وجدّد معه عهده ووعده الذي وعد به إبراهيم، وهو أن بنسله تتبارك جميع قبائل الأرض. وفي سبيل إنجاز ذلك الوعد الكريم أرسل الله الأنبياء من ذريته دون الشعوب الأخرى كما يعترف بذلك القرآن "وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّة" - سورة الجاثية ٤٥ :١٥ وذلك حتى

تكون نبواتهم فصل الخطاب في تعريف المخلّص الآتي وتقديمه للعالم.

كانت الحالة تقتضي قبل إنجاز الوعد أن يتدرب بنو إسرائيل على الشؤون الدينية ويتخرجوا فيها حتى يصلحوا أن يكونوا فيما بعد أساتذة المسكونة، وكذا قضت التدبيرات الإلهية وكانت الخطوة الأولى أن ينزل الأسباط إلى مصر وهم نفر قليل، ولم يمض عليهم أربعمائة سنة حتى صاروا شعباً عظيماً يعد بمئات الألوف. فخشي فراعنة مصر عاقبة نموهم السريع، واتّخذوا الوسائل لإبادتهم، وسخروهم في الأعمال الصعبة المضنية للجسم، فأخرجهم الله على يد موسى سنة ١٣٢٠ ق. م. أو سنة ١٣١٤ بموجب الحساب اليهودي وأظهر لهم الله مجده على جبل سيناء، وأعطاهم الوصايا العشر وغيرها مما هو مدون في التوراة. ومن ضمن غايات شريعة موسى إنارة أذهان الشعب ليفقهوا موضوعاً غاية في الأهمية كان مجهولاً في ذلك العصر ولا يزال مجهولاً إلى وقتنا الحاضر عند الجانب الأعظم من سكان العالم، ولا يعرفه إلا اليهود والنصارى، ألا وهو قداسة الله. ومن غايات الشريعة أيضاً فرز اليهود عن الأمم واعتزالهم عنهم في كل شؤون الدين والدنيا، وكانت الحكمة في ذلك حفظ الإعلانات الإلهية من أن يشوبها شيء من رجاسات الأمم وعاداتهم فيختلط الحق بالباطل، فاقتضت الحكمة الإلهية اعتزال

أمة إسرائيل لتبقى شرائعهم على حالها إلى أن يأتي المسيح الذي هو روح النبوة والشرع وخلاصة الوعود والعهود، لن تكون هناك ضرورة لبقاء الحجاب الفاصل بين اليهود والأمم، بل يجب إزالته لأنه يكون قد جاء المسيح مشتهى كل الأمم الذي له تخضع شعوب الأرض.

وبعد أن انقضت أربعون سنة على بني إسرائيل بين حط وترحال في برية سيناء المعروفة بأرض التيه، أدخلهم الله أرض كنعان أو أرض الميعاد، وفي القرآن الأرض المقدسة التي كتبها الله لهم، وفي سفر يشوع ذكر فتح بني إسرائيل لأرض كنعان وإبادة كثير من شعوبها الوثنية جزاء لهم على توغلهم في كل معصية، مثل تقديم أطفالهم ذبائح لأوثانهم، وانغماسهم في الفسق والفجور تكريماً لمعبوداتهم المشهورة بتلك القبائح. أما شعب إسرائيل فقد ملكوا الأرض إنجازاً لوعده تعالى إلى خليله إبراهيم.

وفي سفر القضاة وراعوث وسفري صموئيل والملوك وأخبار الأيام نجد تاريخ الوقائع الرئيسية التي وقعت لشعب إسرائيل من ذلك الحين إلى السبي البابلي. وحدث مراراً كثيرة في غضون المدة التي أقاموها في أرض كنعان أنهم سقطوا في وثنية بقايا الشعوب الأصليين، فجازى الله شعبه بأن سلط عليهم الوثنيين فقهروهم وكدروا صفو حياتهم

إلا أنه كلما تابوا إليه ورجعوا إلى عبادته تعالى نصرهم على أعدائهم نصراً باهراً على أيدي أفراد اصطفاهم من بينهم.

وبعد انتهاء حكم ملكهم الأول المدعو شاول، وفي القرآن طالوت، (سورة البقرة ٢ :٢٤٨) مسح الله داود ملكاً عليهم، وكان ذلك حوالي سنة ١٠٢٠ ق.م. وخلفه ابنه سليمان وحكم من سنة ٩٨٠ إلى سنة ٩٣٨ ق.م. وبعد نهاية حكمه ثار عشرة أسباط على خلفه رحبعام وخرجوا عن طاعته وشيدوا لهم مملكة هي مملكة إسرائيل، وملّكوا عليهم يربعام بن نباط، وبقي السبطان على ولائهم لبيت يهوذا وشيدوا مملكة أخرى هي مملكة يهوذا، ولم تلبث مملكة إسرائيل حتى سقطت في العبادة الوثنية، وبعد قليل اقتفت آثارها يهوذا، فدفعهم الله إلى أيدي أعدائهم وعاقبهم هذه المرة عقاباً أشد صرامة من العقوبات التي ألفوها وبدأ بقصاص مملكة إسرائيل ليعطي يهوذا فرصة للاعتبار والتوبة، فسلط عليها الآشوريين فغزوها وأسروها في فارس ومديان سنة ٧٣٠ ق.م. وهنا انقرضت مملكة إسرائيل، أما مملكة يهوذا فلم تتعظ مما حدث مع إسرائيل، بل سارت على نهجها إلى أن خضعت لملوك بابل سنة ٦٠٦ ق،م وظلت تحت نيرهم سبعين سنة أي إلى سنة ٥٣٦ ق.م. وفي سنة ٥٨٧ هدم بختنصر ملك بابل هيكل سليمان وأسر رؤساءهم إلى بابل.

وفي سفر عزرا تفصيل لرجوع اليهود إلى أرضهم وذلك أنه لما انقضت عليهم سبعون سنة العبودية التي تنبأ عنها ارميا النبي أنقذهم الله بأن حول قلب كورش ملك فارس بعدما انضمت بابل وكثير من الأراضي تحت سلطانه إلى العطف عليهم ومؤاساتهم،فسمح لهم أن يرجعوا إلى بلادهم، وتتلو ذلك قصة تجديد الهيكل وترميم أورشليم كما هي مشروحة في سفري عزرا ونحميا.

ولكن لما رفض اليهود المخلّص الذي وعدهم الله به تنبأ عليهم المسيح بعقاب هائل لم يروا مثله في تاريخهم السالف، وهو قلب مدينتهم المحبوبة وهيكلهم العظيم رأساً على عقب، وإتماماً لهذه النبوة ونبوات موسى خرَّب الرومان مدينتهم وهيكلهم سنة ٧٠ م. ومن ذلك الوقت إلى الآن تفرقوا في الأرض طولاً وعرضاً بلا بلاد أو ملك، وكابدوا من الضيقات ولا زالوا يكابدون ما ليس له مثيل.

وعلى ما تقدم يمكننا أن نلخص من التوراة أن مقصد الله في معاملته بني إسرائيل هذه المعاملة وتسجيل وقائعهم وتواريخهم الهامة بين أسفار الوحي في ثلاثة أشياء (أولا) أن يُظهر لهم ولأهل العصور المقبلة أن القلب البشري يميل إلى العصيان والتمرد بالرغم عن نعم الله

وبركاته وهدايته المتوالية بواسطة إرسال الرسل والأنبياء جيلاً بعد جيل، معلّمين ومنذرين، وكل ذلك لم يمنع الإنسان من الابتعاد عن عبادة الله الحي وليّ نعمته وخالقه إلى عبادة الأصنام (ثانيا) لكي يعلّم بني إسرائيل أن العتق من نير الخطية وسلطان الشهوات الجسدية لا يمكن أن ينتج عفواً من مجرد معرفة وصايا الله، ولا من حفظ الرسوم والطقوس الدينية، بل لا بد من عامل قوي عسى أن تتولد فيهم مشاعر الشوق إلى المخلص الموعودين به في توراة موسى وأسفار الأنبياء بالتدريج، ويشعرون بشديد الحاجة إليه (ثالثا) حتى يُطلع الأمم جيلاً فجيلاً على معاملة الله لبني إسرائيل وإعلاناته السامية لهم عن قداسته وعدله ورحمته، أما عدله فبواسطة ما أوقعه عليهم من القصاص الصارم على خطاياهم، وأما رحمته فبواسطة ما أحسن إليهم به وبارك فيهم وغفره لهم إلى غير ذلك لكي يتخذوا لأنفسهم عبرة من ذلك ويعلموا أن أصنامهم لا شيء، وأن إله إسرائيل هو الإله الحق خالق السموات والأرض ويعبدونه ويخدمونه ويستنيرون بنور إنجيل الخلاص بيسوع المسيح مخلص العالم الذي أخبرت عنه التوراة إلى أن حصرت نسبه في ذرية داود وعينت مولده في بيت لحم بأرض يهوذا.

وعدا الأسفار التي ذكرناها في بيان تاريخ إسرائيل حسبما تقدم

يوجد أسفار أخرى تشتمل على تعليمات في تمييز ما هو مقبول عند الله، كما تشتمل على صلوات وتسابيح وشكر لله العلي العظيم، ونبوات عن حوادث المستقبل تم منها إلى اليوم عدد كبير. ومن هذه الأسفار سفر أيوب والمزامير والأمثال وأشعياء وارميا وحزقيال ودانيال والأسفار الاثني عشر الصغيرة، وكلٌّ هؤلاء الأنبياء، ولو أنه كتب سفره لأهل عصره من بني إسرائيل محذراً ومعلّماً، إلا أنه من الجهة الأخرى قصد إعداد العصور المستقبلة لقبول مخلص العالم الذي نبّه الله عن مجيئه بواسطة إبراهيمَ خليله وإسحاق ويعقوب وموسى.

فمن هذه الأسفار كان من الممكن لخائفي الله وأتقيائه من بني إسرائيل أن يعرفوا النقط الرئيسية في وصف المخلّص، مثل أن يعرفوا وقت مجيئه، والبلدة التي يولد فيها، ونسبه وسبطه، وأخلاقه، ولاهوته، وأعمال رحمته وإحسانه، والآلام التي كانت تنتظره في سبيل خلاص العالم من اتضاع وهوان وآلام وصلب وموت وقبر، وأنه سيقوم بدون أن يلحق جسده فساد، وأن يعرفوا طبيعة ذلك الخلاص العظيم الذي جاء ليهبه للعالم.

هذا واعلم أن الأسفار المقدسة من أولها إلى آخرها وحدانية الله، وجوهر إيمان اليهود قائم على هذه الآية الذهبية "إِسْمَعْ يَا إِسْرَائِيلُ

الـرَّبُّ إِلهُنَـا رَبٌّ وَاحِـد" (تثنيـة ٦ :٤) وأيـد المسـيح هـذا الإيمـان وأنزلـه المنزلـةَ الأولـى (مـرقس ١٢ :٢٩) إلا أنـه لأجـل اسـتثمار هـذه العقيـدة الجوهريـة وتشخيصـها فـي أعمالنـا وسيرتنا اليوميـة اقتضـت الضـرورة أن يعلن الله نفسه للجنس البشري بحالة يمكن معها أن يكون معروفاً ومحبوباً. وإلا فمجرد معرفـة وحدانيـة الله لا تقدم ولا تـؤخر فـي حيـاة الفضـيلة، ولا تختلـف عـن عقائـد بعضـهم بوحـدة الوجـود، وكمـا أن إبلـيس يعـرف أن الله واحـد - وهـو أخبـث مـن بنـي آدم – وهـو يوحـده لكـن لا يحبـه (يعقـوب ٢ :١٩).

وعلى ما تقدم وتحقيقاً لنبوات الكتاب عندما آن الأوان جاء من هو وحده كلمة الله (يوحنا ١ :١) ليعلن الله لنا ويهب حياة أبدية لكل من يؤمن به إيماناً حقيقياً على وفق نطقه الكريم (يوحنا ١٧ :٣).

غير أن جمهور اليهود عثروا فـي المسيح عند مجيئـه لأنهم كـانوا قومـاً عـالميين فـي أذهـانهم وميـولهم، فلـم تكـن تهمهـم مسـألة الخـلاص مـن الخطية، بل حصروا اهتمامهم وهوى قلوبهم في مخلّص يخلصـهم مـن نيـر السلطة الرومانيـة. ولم يهمهم أن يكونوا أغنيـاء فـي الإيمـان وسـلام الله، بـل أن يكونوا حكاماً وولاة يسودون على البلاد والعباد ويغنمون

الغنائم ويملأون الخزائن ذهباً وفضة أسوة بدولة الرومان والفرس. ومن كانت هذه مطامعهم وآمالهم فلا عجب أن تغمض أبصارهم وتعمى قلوبهم عن نبوات الأنبياء الصريحة المشيرة إلى المسيح كمخلّص من الخطية، يأتي إلى الأرض مجرداً من زخارف العالم، خالياً من أبهة الملك وجلال السلطان، محتقراً مخذولاً من الناس، ولا يصيح ولا يسمع أحد في الشوارع صوته، ولكنه يعصب القلوب المنكسرة ويعتق أسرى إبليس والخطية.

فلم يمنع الناس في الماضي والحاضر عن قبول المسيح عدم الدليل ولا غموض النبوات عن الإشارة إليه، بل تمنعهم محبة العالم وخلوهم من محبة الله والديانة الروحية، أما ذوو العقول الروحية بين اليهود فقد عرفوا وآمنوا به وتبعوه، وبعد صعوده إلى السماء تفرقوا في أطراف المسكونة يذيعون بين الأمم أخبار مخلّصهم المحبوب كما أمرهم.

وكتب الإنجيل رسل المسيح (الحورايون) وتلاميذهم بإلهام الروح القدس الذي وعد المسيح أن يرسله بعد صعوده. ويتضمن الإنجيل أخباراً عن تعليم المسيح ومعجزاته تحقيقاً لنبوات العهد القديم بشأن المسيا المنتظر، ويتضمن شرح طريق الخلاص بما مضمونه أن المسيح مات على الصليب ليقدم

نفسه كفارة عن خطايا العالم، وأنه قام في اليوم الثالث ومكث على الأرض بعد قيامته أربعين يوماً يتردد في غضونها على تلاميذه يعلّمهم ويشرح لهم الكتب، ويمكّنهم من مشاهدته ولمسه ليشهدوا للعالم عنه شهادة عين. وفي ختام المدة أعطاهم مهمة الرسالة التبشيرية إلى كل الخليقة في كل الأرض، وأمرهم قبل الشروع في الخدمة أن يمكثوا في أورشليم حتى يلبسوا قوة من الأعالي، بمعنى أن يحل عليهم الروح القدس ليقويهم ويذكرهم ويلهب قلوبهم شوقاً وغيرة ليشهدوا عنه إلى أقصى الأرض. ثم صعد إلى السماء أمام عيونهم تاركاً لهم الوعد برجوعه ثانية، وظلوا يودعونه بأبصارهم حتى حجبه عنهم سحاب السماء، وعند ذلك ظهر لهم ملاكان من السماء أخبراهم أنه سيأتي هكذا كما رأوه منطلقاً إلى السماء، بحسب ما سبق ووعدهم به (يوحنا ١٤ :٣) وأعمال (١ :٩-١١).

واعلم أن كثيراً من أقوال المسيح وأعماله في زمن حياته على الأرض، ولما صعد إلى السماء أخذوا يبشرون بالإنجيل شفاهياً ثم كتبوه فيما بعد في أربع بشائر معنونة هكذا إنجيل المسيح كما كتبه متى وكما كتبه مرقس ولوقا ويوحنا. وتمت كتابة هذه البشائر قبل ختام القرن الأول للميلاد، ومن بين البشيرين الأربعة رسولان هما متى ويوحنا أما

مرقس فهو تلميذ بطرس الرسول، وكتب إنجيل المسيح كما أخذه عن معلمه وعن آخرين، ونجد في بشارته فصولاً يجب أن تكون قد كُتبت قبل صعود المسيح، وأما لوقا فهو زميل وتلميذ بولس الرسول، كتب في بشارته الأمور المتيقنة، لا عند واحد بل عند كثيرين من الذين عاينوا الوقائع والأخبار التي كتبها (لوقا ١ :١-٤).

ولنا في رسالتي بطرس ورسالة يعقوب ويهوذا الحقائق التي دونها التلاميذ عن المسيح، وكذا كتب يوحنا أعز صديق وأحب تلميذ للمسيح ثلاث رسائل، وكتب بولس جملة رسائل منها رسالتي تسالونيكي كتبهما أولاً حوالي السنة الثانية والثالثة والعشرين بعد الصعود يشرح فيهما طريق الخلاص بيسوع المسيح وماذا يترتب على الدعوة المقدسة من واجبات لله، وورد في الرسالة الأولى لأهل كورنثوس ١٥ :٣ و٤ ما اقتبسه المسيحيون الأولون في أقدم صيغة من قانون إيمانهم "أَنَّ المَسِيحَ مَاتَ مِنْ أَجْلِ خَطَايَانَا حَسَبَ الكُتُبِ، وَأَنَّهُ دُفِنَ،وَأَنَّهُ قَامَ فِي اليَوْمِ الثَّالِثِ حَسَبَ الكُتُبِ" ومن هنا يتبين لنا أن أقدم المسيحيين اعتقدوا أن جوهر الكتب، أي أسفار العهد القديم والجديد، إنما هي الكفارة التي قدمها المسيح عن خطايانا

بموته على الصليب، وقبول تلك الكفارة عند الله بدليل أنه أقامه من الأموات. ومن جملة أسفار العهد الجديد سفر أعمال الرسل، وفيه خبر حلول الروح القدس وهو (الباراكليت) بعد الصعود بعشرة أيام وكيفية شروع الرسل في تبشير الأمم. وفي الرسالة إلى العبرانيين شرح للعلاقة بين شريعة موسى وإنجيل المسيح. وسفر الرؤيا ويتضمن نبوة الجهاد الذي سيقع بين الكنيسة والعالم وانتصار الكنيسة أخيراً. وفي أصحاح ٩ منه مسائل يهم المسلمين الاطلاع عليها، ويشرح هذا السفر لنا كثيراً من الوسائل التي يتخذها الشيطان لتجريب المسيحيين وتعذيبهم بهدف أن يفصلهم عن مخلّصهم. وأهم هذه الوسائل ظهور المسيح الدجال الذي يبذل عنايته في مقاومة الخلاص الذي بالنعمة، أما المسيحيون الحقيقيون فيخرجون من أتون التجارب كالذهب الممحص، وآخر الكل يأتي المسيح على سحاب السماء بقوة ومجد عظيم ليؤسس في الأرض الجديدة والسماء الجديدة ملكوته الدائم "وَلَنْ يَدْخُلَهَا شَيْءٌ دَنِسٌ وَلاَ مَا يَصْنَعُ رَجِساً وَكَذِباً،إِلَّا المَكْتُوبِينَ فِي سِفْرِ حَيَاةِ الحَمَلِ" (رؤيا ٢١ :٢٧).

وبالإجمال تتفق أسفار العهد الجديد مع أسفار العهد القديم في تعيين طريق الخلاص الذي به تتبارك كل الأمم (تكوين ٢٨ :١٤) ألا

وهو الإيمان بنسل المرأة الموعود به (تكوين ٣ :١٥) الذي وُلد من العذراء مريم (لوقا ١ :٧ و ١٦) وانظر القرآن سورة الأنبياء ٢١ :٩١ وسورة التحريم ٦٦ :١٢ ليخلّص شعبه من خطاياهم (بشارة متى ١ :٢١) الذي بذل حياته فدية عن كثيرين (أشعياء ٥٣ :١٠ و١١ ومتى ٢٠ :٢٨) وقام لأجل تبريرنا (مزامير ١٦ :٩-١١ وأعمال ٢ :٢٢-٣٦ ورومية ٤ :٢٥) والذي به وحده يقدر الإنسان أن يبلغ إلى معرفة الله الحقيقية (يوحنا ١٤ :٦) وينال الخلاص الأبدي (أعمال ٤ :١٢).

ومن هذا نعلم أن الوعد الذي وعد به الله منذ ألوف السنين آدم وابراهيم واسحق ويعقوب وداود قد أنجزه وصار ممكنا للإنسان أن يعتق من عبودية الخطية والشيطان وتعتق الأرض وتتغير حالتها إلى حالة السعادة والكمال أعظم بكثير مما كان قبل سقوط آدم في الخطية.

فأسفار العهد القديم والجديد معاً إنما هي إعلان واحد من لدن الله، أما العهد القديم فيشرح لنا كيف دخلت الخطية إلى العالم وكيف وعد الله بالخلاص منها. وأما العهد الجديد فيشرح كيف أكمل الله ذلك الوعد وكيف قدم المسيح حياته كفارة عن خطايا العالم (الرسالة الأولى

ليوحنا ٢:٢) "ليهب الخلاص لكل من يُقبل إليه إقبالاً حقيقياً" (بشارة متى ١١ :٢٨ ويوحنا ٦ :٣٧).

أما من جهة الأنبياء والرسل فنؤمن أنهم مفوضون من عند الله لتعليم وتبشير العالم، فليسوا هم ملوكاً ولا ولاة، بل منذرين ينذرون الناس أن يتوبوا عن خطاياهم ويرجعوا إلى الله الحي، كما أنهم ليسوا بمعصومين من الخطية، وأنه لم يعش أحد معصوماً من الخطية سوى المسيح، ولنا الأدلة الكافية على عصمته منها شهادات الأنبياء (أشعياء ٥٣ :٩ وقارن يوحنا ٨ :٤٦) وشهادات تلاميذه (١ بطرس ٢ :٢٢ و١يوحنا ٣ :٥ وعبرانيين ٤ :١٥) ويشهد له نفس الذين صلبوه (لوقا ٢٣ :٤ و١٤ و٤٧).

والقرآن مع نسبته الخطايا للأنبياء الآخرين لم ينسب واحدة ليسوع، بل يشهد له بأنه مطهَّر عنها. قال في سورة مريم ١٩ :١٨ على لسان الملاك الذي بشَّر أمه به قَالَ "إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلاَماً زَكِيّا" قال البيضاوي وغيره أي طاهراً من الذنوب أو نامياً على الخير أي مترقياً من سن إلى سن على الخير والصلاح، وقد روى البخاري ومسلم وغيرهما هذا الحديث المتفق عليه وهو قوله كل بني آدم يطعن الشيطان في جنبيه بإصبعيه حين يولد، غير

عيسى ابن مريم، ذهب يطعن فطعن في الحجاب أي المشيمة (انظر مشكاة المصابيح باب بدء الخلق).

مع أن محمداً في قرآنه وحديثه ينسب خطايا كثيرة لغير المسيح من الأنبياء والرسل (انظر سورة طه ٢٠ :١٢١ والبقرة ٢ :٣٥ و٣٦ والمعارج ٧٠ :١٩ والأنعام ٦ :٧٦ الخ وإبراهيم ١٤ :٤١ والقصص ٢٨ :١٥ و١٦ والشعراء ٢٦ :١٩-٢١ والأعراف ٧ :١٥٠ ويوسف ١٢ :٢٤ وص ٣٨ :٢٤ و٢٥ و٣٤ و٣٥ والصافات٣٧ :١٣٩-١٤٤ والفتح ٤٨ :٢ وهود ١١ :٤٤-٤٧ والانشراح ٩٤ :٢ و٣ والأحزاب٣٣ :١ والزمر ٣٩ :٦٥ والمائدة ٥ :١٧ وعبس ٨٠ :١-٦ والأنعام ٦ :٥٢ والنساء ٤ :١٠٦ ومحمد ٤٧ :٢١ وغيرها من الآيات القرآنية) وفي الحديث كثير من ذلك الحديث الصحيح قوله كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون وفي البخاري ومسلم حديث يرويه أبو هريرة أن رسول الله قال لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات، اثنتين منهم في ذات الله الخ، وقد قال محمد أحاديث متعددة تفيد استغفاره وتوبته من ذنوبه منها قوله "إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم سبعين مرة" وقوله "توبوا إلى ربكم، فوالله أني لأتوب إلى الله عز وجل مائة مرة في اليوم"، وقال قتادة إنه قال عقب نزول قوله "لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً

قَلِيلا" "اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين" إلى آخر الأحاديث.

وإننا لا نؤمن بعصمة الأنبياء والرسل في أعمالهم العمومية، لكننا نؤمن أنهم معصومون في تبليغ رسالة الله من أن يزيدوا عليها أو ينقصوا منها أو يلحقوا بها أقل تحريف، والعاصم لهم هو الروح القدس (بشارة متى ١٠ :٢٠ ومرقس ١٣ :١١ ويوحنا ١٤ :٢٦ و٢ تيموثاوس ٣ :١٦ و٢بطرس ١ :٢١).

ونحن المسيحيين وإن كنا نؤمن بأن الروح القدس ألهم الأنبياء والرسل أن يكتبوا ما كتبوا في أسفار العهد القديم والجديد، فإننا لا نؤمن بأن تلك الأسفار كانت مكتوبة في اللوح المحفوظ من قبل خلق العالم ثم أملاها الروح القدس على الرسل والأنبياء حين كتبوها، فإن الله يتنزه عن أن يستخدم النبي كآلة صماء فاقدة الحس والعقل والإرادة والمعرفة إلى غير ذلك، بل يستخدم معرفته واختباره وعلمه وعقله وقلبه وروحه وجسمه، فيتكلم بالوحي وكأنه يتكلم من نفسه، وعليه نجد في الكتاب المقدس العنصر الإنساني كما نجد العنصر الإلهي (مواهب الإنسان مع الوحي).

وفي الكتاب المقدس أسرار تفوق مداركنا البشرية، استنتج بعضهم منها أنها مخالفة للعقل، والحقيقة ليست كذلك، بل لما كانت عقولنا هبة

من الله فلا يمكن أن يكون وحيه الإلهي مخالفاً لها، بل بما أن عقولنا محدودة والله غير محدود، فمن الضروري أن نعجز عن إدراك ذات الله. فإن أتانا رجل بكتاب وادّعى أنه رسول الله يحمل إلينا كتاباً منه تعالى، ورأينا أن هذا الكتاب يعلن الله بحيث يحيط به العقل لعلمنا أن دعواه باطلة، فلا تبرح هذه الحقيقة من بالنا، وها إننا نزيدها عندما نبحث في الفصل التالي ما أوحاه الله لنا عن ذاته وصفاته.

الفصل الثاني

في صفات الله كما هي معلنة في الكتاب المقدس

يعلّمنا الكتاب المقدس بقسميه أن الخليقة تدل على وجود خالقها. وأن ضمير الإنسان وعقله يشهدان بوجوده تعالى. مزامير ١٩ :١-٤ وأعمال ١٧ :٢٤-٢٩. وأما كون الله واجب الوجود فدلَّ عليه الكتاب حينما ينسب إلى الذين ينكرونه الجهل الاختياري والسفه التعمدي (مزامير ١٤ :١ و٥٣ :١ ورومية ١ :١٩-٢٣) وفي الكتاب نرى أن الله واحد (تثنية ٤ :٣٥ و٣٩ و٦ :٤ وأشعياء ٤٤ :٨ و٤٥ :٥ و٤٦ :٩ ومرقس ١٢ :٢٩ ويوحنا ١٧ :٣ و١كرونثوس ٨ :٤ وأفسس ٤ :٦) وأنه روح (يوحنا ٤ :٢٤. وغير

منظور. يوحنا ١ :١٨ و١ تيموثاوس ٦ :١٥ و١٦) وغير محدود أزلي غير متغير (مزامير ٩٠ :٢ و١٠٢ :٢٤-٢٧ ويعقوب ١ :١٧) ومحيط بكل مكان وبكل علم (سفر المزامير ١٣٩ :١-١٢ وارميا ٢٣ :٢٣ و٢٤ وأعمال الرسل ١٧ :٢٧ و٢٨) وكلي القدرة والحكمة (سفر التكوين ١٧ :١ وأيوب ١٢ :٧-١٠ و١٣ ومزامير ١٠٤ :٢٤ وأشعياء ٤٠ :١٢-١٨ والرسالة الأولى ليوحنا ٣ :٢٠).

وكما أن الله موصوف في الكتاب بالأوصاف المتقدمة فهو موصوف بالقداسة (رؤيا ١٩ :٢ و٢١ :٨ و١ صموئيل ٢ :٢ ومزامير ٢٢ :٣ و٤٥ :١٧ وأشعياء ٦ :٣ ورؤيا ٤ :٨). وأنه بار وعادل (عدد٢٣ :١٩ والتثنية ٣٢ :٤ ومزامير ٣٣ :٤ و٥ وأشعياء ٢٦ :٧ و٤٥ :٢١ ورومية ٢ :٥-١١ و١ يوحنا ١ :٩ والرؤيا ١٥ :٣ و١٦ :٥-٧) ورؤوف رحيم طويل الأناة (خروج ٣٤ :٦ ومزامير ٩ :٨-١٠ ومراثي ارميا ٣ :٢٢ و٢٣ وحزقيال ٣٣ :١١ ومتى ٥ :٤٥ ويوحنا ٣ :١٦ و١ يوحنا ٤ :١٦) وخالق وضابط كل شيء (تكوين ١ :١ و١صموئيل ٢ :٦ و٧ ومزامير ٣٣ و٣٧ :٢٣-٢٥ و١٠٤

ومتى ٦ :٣١ و٣٢ و١٠ :٢٩-٣١ ورومية ١١ :٣٦ ورؤيا ٤ :١١).

هذه بعض الصفات المجيدة التي ينسبها الكتاب إلى الإله الحقيقي وأما بقية صفاته فمجموعة في وصفه بالكامل في طبيعته ومعرفته وهدايته وسائر أعماله (تثنية ٣٢ :٤ و٢ صموئيل ٢٢ :٣١ وأيوب ٣٦ :٤ و٣٧ :١٦ ومزامير ١٨ :٣٠ و١٩ :٧ وبشارة متى ٥ :٤٨).

فمن اطلع على هذه الصفات وحكم عقله يسلم أنها جديرة بالله الخالق الرحيم، ويجزم أن مجرد العلم والعقل لا يبلغان بصاحبهما إلى إنشائها بمعزل عن الإلهام الإلهي بدليل أن الفلاسفة القدماء كأرسطو وأفلاطون الذين استنفدوا العقل والعمل في البحث عن الله تعالى لم يهتدوا إلى معرفته حسب الأوصاف المنسوبة إليه في الكتاب المقدس التي سبق ذكرها. فما أدركوا حقيقة وحدانيته إدراكاً جلياً ولا ذاتيته ولا قداسته وعلى الخصوص الصفة الأخيرة أي القداسة، فإنها وردت في الكتاب المقدس بحالة لا مثال لها في كتب الأديان جميعها قديمها وجديدها.

إن الأتقياء المخلصين المجدّين في معرفة الله تعالى وعمل مرضاته إذا قرءوا الكتاب المقدس فهموه ووصلت كلمته إلى قلوبهم

وتضـئ بصـائرهم بنـور روحـي (مزاميـر ١١٩ :١٠٥ و١٣٥)، هـؤلاء يقـدرون أن يجـدوا الله (تثنيـة ٤ :٢٩ وارميـا ٢٩ :١٣ ويوحنـا ٧ :١٧) ويعرفـون إرادتـه وتنسكب فـي قلـوبهم مخافتـه ومحبتـه بروحـه القـدوس (رومية ٥ :٥) ويقبلون نعمة الله التـي تقدّرهم علـى طاعتـه وتجدد قلـوبهم ويولدون ميلاداً ثانياً روحياً (يوحنـا ١ :١٢ و١٣ و٣ :٥ و٦) ويصـيرون بواسطة إيمانهم بيسوع المسيح خليقة جديدة (٢كورنثوس ٥ :١٧) يحبون البر ويبغضون الإثم ويهربون من الشر ويلتصقون بـالخير. ولأن الكتـاب المقدس يصف الله بالقداسة والعدل، فهو يعاقب الذين يقسّون قلـوبهم كمـا قسّى فرعون قلبه. وهو إله عادل شديد العقاب، ولكنـه يعامل الذي يتوبـون إليه ويرجعون عن خطاياهم ويخدمونه في جِدَّة الحياة كـآب رؤوف رحيم كثير الوفاء والإحسان. نرى مما تقدم أن طالب الحقيقـة، إذا راجع الآيـات التـي أشرنا إليها فـي هذا الفصل ودرسها مستعيناً بالصـلاة، تبـين لـه أن شروط الوحي متوفرة في الكتـاب المقدس وإن شـاء الله سنبين ذلك بـأكثر جلاء في الفصول الآتية.

وسيظهر مـن أسـفار العهد الجديد أن معرفـة الله الحقيقيـة يحصـل عليها الإنسان بتعليم روح الله القدوس المستعد على الدوام أن يعيننا

ويرشدنا، وأن الله مُعلَن تمام الإعلان في المسيح يسوع وعلى ذلك قوله: "اَلَّذِي رَآنِي فَقَدْ رَأَى الآبَ" (يوحنا ١٤ :٩) بل مُعلَن فيه دون سواه لأنه "كلمة الله".

الفصل الثالث

في حالة الإنسان الأصلية وحالته بعد السقوط واحتياجه إلى
الخلاص من الخطية والموت الأبدي

من رام الاطلاع على حالته الحقيقية كما هي في اعتبار الله القدوس يطلع عليها جزئياً على صفحة ضميره، ولكنه يعرفها تمام المعرفة من الكتاب المقدس لأنه كلام من هو بكل شيء عليم "لَيْسَتْ خَلِيقَةٌ غَيْرَ ظَاهِرَةٍ قُدَّامَهُ، بَلْ كُلُّ شَيْءٍ عُرْيَانٌ وَمَكْشُوفٌ" (عبرانيين ٤ :١٣)، ولا يعلم الله ما عملناه فقط بل وما سنعمله وما يخطر على بالنا كل أيام حياتنا، وهو الذي يقدر أن يخبرنا عن غايته التي قصدها من خلقه إيانا وحفظه لنا على قيد الحياة وعلى أي شيء تتوقف سعادتنا في المستقبل، إن الفلاسفة كتبوا في الإلهيات أفكارهم وخواطرهم عن هذه المواضيع، ولكن العقل السليم يجزم بأنه إن كان الله قد أعلن إرادته لنا بواسطة الرسل والأنبياء يكون إعلانه أجدر بثقتنا من الآراء

الفلسفية والمقاييس البشرية المحدودة والغير المعصومة، فمن أراد أن يعرف غاية خَلْقنا الله وكيف سقطنا إلى حالة الخطية والتعاسة، يجب أن يرجع إلى كلام الله حتى يقف على الحقيقة، وهنا نتوسل بكل لطف واحترام إلى القارئ المسلم العزيز أن يلقي التشيع والتحامل جانباً أثناء اطلاعه على الكتاب المقدس أي التوراة والزبور والإنجيل، التي يشهد لها القرآن أعظم شهادة تليق بكلام الله، اقرأ في الكتاب بما يليق بمقام صاحبه من التوقير والاحترام بنيّة خالصة، داعياً الله أن يمنحك فهماً وهدى روحيين حتى يتيسر لك أن تفهم ما تقرأه، وتنفتح بصيرة قلبك وتشاهد حالة نفسك الداخلية، تلك الحالة التعيسة الشقية، عند ذلك تنال الخلاص الدائم والحياة الأبدية والبركة والسعادة اللانهائية، في سفر التكوين ١ :٢٦-٢ :٢٥ ، وسفر الجامعة ٧ :٢٩ نجد أن الله خلق الإنسان في حالة الاستقامة والقداسة والسعادة، وهذا يبيّن أن الله خلق الإنسان على صورته وشبهه، أي أن عقل ذلك الإنسان المخلوق المحدود وخصوصاً روحه كانت قبل سقوطه تشابه الخالق الغير المحدود بطريقة ما، وبها جعل الله نفسه معروفاً لدى الإنسان ، وكان الإنسان حينئذ معصوماً من الخطية بل من خطور الأفكار الشريرة على قلبه وعقله كما من كل الشهوات

الجسدية والنفسية والروحية، وكان جسمه غير معرض لمرض ما أو للموت، وحيث أنه عرف الله وأحبه ورغب في أن يخدمه كان سعيداً وقنوعاً، وكان رئيس كل المخلوقات التي على وجه الأرض، ونعلم من سفر التكوين أن الله أعدّ له مسكناً جميلاً مباركاً هو جنة عدن (تكوين ٢ :٨) وكانت واقعة غالباً على السهل الذي بُنيت عليه بابل فيما بين النهرين ومدن أخرى فيما بعد.

فكل امرئ يعلم بشهادة ضميره ووجدانه أنه فقد تلك الحياة السعيدة، حياة العصمة والهناء، وأصبح مكبلاً في قيود الخطية والتعاسة، ثم أن تاريخ الأمم البائدة التي أهلكها الله عن وجه الأرض بسبب خطاياهم، والشقاء الحاضر المخيّم على الأرض من ألم وموت يحصد الكبار والصغار لأعظم دليل على أن الإنسان لم يبق على الحالة التي خلقه الله عليها، وكان يريد أن يبقى الإنسان ونسله عليها إلى الأبد، ويخبرنا الكتاب المقدس بمقدار ما بلغ إليه الإنسان من الشرور والمعاصي وخصوصاً في حق الله القدوس (تكوين ٨ :٢١ ومزامير ١٤٣ :٢ ورومية ٣ :١٠-٢٠ و٢٣ و١يوحنا ١ :٨).

ومن يتأمل في حالة قلبه أقل تأمل وفكر لبرهة في الأميال

الفاسدة والأهواء المشوشة التي تنبع على الدوام من قلبه كما ينبع الماء من العين، لا يبقى عنده مجال للريب في أنه بالحقيقة خاطئ في نظره تعالى كما هو موصوف في الآيات المشار إليها والتي تشهد عليه ذمته وضميره أنه ليس هو خاطئاً فقط، بل إن الخطية والفساد استحوذا على قلبه حتى لم يبق في مقدرته وسيلة للتخلص من نير الخطية، وشعر أن هذه حالته منذ حداثة سنّه، بل منذ ولادته، وحينئذ يتبين له أن طبيعته الأخلاقية فاسدة، إلا أن للناس مذاهب في ميلهم نحو الرذيلة، فبعضهم ميالون لمحبة المال، وبعضهم للبخل، وبعضهم لمحبة الشهرة، وآخرون ملحدون، وبعضهم زنادقة، وغيرهم منافقون، والبعض ميالون لأكثر من هذه، وعلمنا علم اليقين بالاختبار والمشاهدة أنه لا يوجد إنسان على وجه الأرض خال من الخطية، حتى أن خير الأخيار وأكثر الناس تقوى يعترفون بأنهم طالما عملوا أعمالاً لم يكن يجوز لهم أن يعملوها، ولم يعملوا أعمالاً كان يجب أن يعملوها، وبالجملة فإن حياة العالم كله في العصور الغابرة والحاضرة دليل محسوس على صدق كلام الله المسطور في الكتاب المقدس، وأن كثيرين من الوثنيين لما سمعوا شهادة الكتاب عن الإنسان وقارنوا بينها وبين واقع الحال في أنفسهم وبين

ذواتهم شعروا أن هذه رسالة منه تعالى تصف حالتهم الروحية البائسة قائلين إن صاحب هذا الكتاب إنما هو الذي خلقنا.

وقد اختبر بعضهم تغييراً في حالة قلوبهم بحيث أصبحوا يبغضون الخطية ويحبون الصلاح، إلا أن هذا التغيير يجب أن يُنسب إلى الميلاد الثاني الذي شرحه المسيح في يوحنا ٣ :٣ و٥ الذي لا يمكن أن يحصل عليه أحد إلا بواسطة الإيمان به،

وقد رأينا أن التوراة تفيد أن آدم عندما خلقه الله لم يكن يميل بطبيعته الأولى إلى الخطية، وأنه كان خالصاً من حالة الشقاوة التي تستولي اليوم على ذريته، ثم أن البحث العقلي يؤيد ذلك، لأنه من المعلوم أن الخطية هي مخالفة لمرضاة الله، وأن الخطية هي التعدي على الشريعة الأخلاقية التي توافق ذاته تعالى وتصدر عنها فليس من المعقول أن نقول أن إرادته تعالى هي التعدي على ذاته وحيث أن بني آدم غرقوا في بحار الخطية والشقاوة، وغدوا سبايا النفس الأمّارة بالسوء، فيلائم حالتهم أن يبحثوا حتى يعلموا من أين أتتهم هذه المصيبة الدهماء.

ونجد الجواب على هذا السؤال في أسفار الكتاب المقدس حيث نقرأ أن الخطية ونتائجها المحزنة دخلت إلى العالم بسبب عداوة إبليس وغوايته لجنسنا من الجهة الواحدة، وبسبب حرية إرادة الإنسان

وابتغائه أن يعمل مرضاته دون مرضاة الله من الجهة الأخرى، ولما خدع إبليس حواء التي خدعت آدم، عصى ربه حراً مختاراً، ومن تلك الساعة ارتد آدم عن الله وحاد عن جادة الحق، وانقطعت الصلة بينه وبين من هو ينبوع الحياة والسعادة الحقيقة (تكوين ٣ قارن يوحنا ٨ :٤٤ ورومية ٥ :١٢ و١٩ و١تيموثاوس ٢ :١٣ و١٤).

قيل : لماذا لَمْ يمنع الله دخول الخطية إلى العالم؟ ولماذا سمح لإبليس أن يجرب الإنسان وينتصر عليه؟ ولماذا لا يزال يترك له الحبل على الغارب في تجربة البشر إلى الآن؟ الجواب مفصل في كتاب "طريق الحياة", ونكتفي هنا بالقول أن الله لم يكشف لنا غايته من ذلك تماماً، وليس في طاقة البشر إيجاد جواب شاف من كل وجه لهذا السؤال الصعب، وليس من الضروري أن نضع أعمال الله تحت بحثنا، إنما الضروري أن نعترف بسوء حالتنا ونبحث عن كيفية النجاة، وغاية ما في الأمر أن نعرف ما عرفه إبراهيم، وهو أن ديان الأرض كلها لا بد أن يكون عادلاً في كل أعماله (تكوين ١٨ :٢٥).

غير أن بعض الحكماء أكدوا لنا أن وجود التجارب في الحياة الدنيا والشقاوة والآلام الناتجة عن الخطية هي درس لتدريب النفس

على حياة الفضيلة بواسطة مقاومة التجارب والانتصار عليها بنعمة الله، وبواسطة اختبارنا نتائج الخطية المحزنة، أنعم الله على الإنسان بحرية الإرادة ليختار لنفسه ما شاء من الحق أو الباطل، الطاعة أو المعصية، الحرية أو العبودية لإبليس. وقد أعلن الله إرادته ومحبته لنا وهدانا إلى طريق الحق، إلا أنه تركنا نختار ما نريد، ولم يلزمنا بالرغم من أن نختاره دون سواه، فقصد الله أن نحبه، لكن لا إكراه في المحبة، كما لا إكراه في الدين المسيحي الحق بعد أن تتبين الرشد من الغي.

وعلَّمنا الله في كتابه أنه لم يكن حسب إرادته أن نخضع لسلطان إبليس ونرزح تحت نير الخطية، بل إرادته أن نتحرر ونعتق من هذه العبودية الصارمة، ونتطهر من شوائب الخطايا والعيوب، ونرجع إلى الحالة التي خلقنا عليها : حالة الطهارة والقداسة التي فقدها آدم لكي نصير ورثة السعادة الأبدية. وأن الكتاب بقسميه، واختبار الجنس البشري، يثبتان أن الإنسان لا يقدر أن يحظى بالسعادة الحقيقية ما لم يتب عن أعماله الشريرة ويرجع بإيمان حقيقي إلى الله ويتحرر من سلطان الخطية ويفوز بالغفران، لأنه بدون نقاوة القلب لا يمكن أن نشاهد الله ببصائرنا القلبية (بشارة متى ٥ :٨ وعبرانيين ١٢ :١٤). إن التقي الحقيقي يجب أن يكون قديساً لأن الله قدوس (لاويين ١٩ :٢

وبشارة متى ٥ :٤٨ و٢كورنثوس ٦ :١٤-٧ :١ و١بطرس ٢ :٩ و١٠ و١يوحنا ٣ :١-٨).

هذا هو تعليم الكتاب المقدس، لأن الضمير والعقل يشهدان أن الإنسان خُلق صالحاً على صورة الله وشبهه، ثم سقط، وأن لا وسيلة لإرجاعه إلا بواسطة إعادة خلقه على صورة القداسة التي سقط منها ليكون أهلاً لسكنه مع الإله القدوس ورؤية وجهه ذي الجلال والإكرام.

فإن كنا نقابل بين تعاليم الكتاب المقدس وكتب الأديان الأخرى من حيث المبادئ المذكورة هنا، نجد فرقاً عظيماً، لأن تلك الكتب لا تفيدنا شيئاً بخصوص مقصد الله في خلقه الإنسان، ولا تشير أقل إشارة إلى وجوب تطهير القلب وتقديس الروح، وكل ما جاء فيها بهذا الصدد محصور ضمن أعمال الوضوء والغسل التي لا تصل إلا إلى الجسد، والمغفرة في تلك الكتب تلتمس من باب الإثابة على الحج والأضحية والصدقات. ونحن لا ننكر أن الوضوء والغسل لازمان لتنظيف الأبدان، ولكن أين هي الأبدان من القلوب؟ قال المسيح زاجراً ولائماً فرقةً من اليهود تصوروا أن الغسل يقربهم إلى الله "وَيْلٌ لَكُمْ أَيُّهَا الكَتَبَةُ وَالْفَرِّيسِيُّونَ المُرَاؤُونَ، لِأَنَّكُمْ تُنَقُّونَ خَارِجَ الكَأْسِ وَالصَّحْفَةِ، وَهُمَا مِنْ دَاخِلٍ مَمْلُوآنِ اخْتِطَافاً وَدَعَارَةً! أَيُّهَا الفَرِّيسِيُّ

الأَعْمَى، نَقِّ أَوَّلاً دَاخِلَ الكَأْسِ وَالصَّحْفَةِ لِكَيْ يَكُونَ خَارِجُهُمَا أَيْضاً نَقِيّا" (بشارة متى ٢٣ :٢٥ و٢٦). وكذلك الأعمال الصالحة وفي جملتها الصدقات يجب أن تكون ناتجة عن محبتنا لله وامتثالاً لمشيئته وإظهارا لشكرنا على سابق مغفرته ورحمته، وليس لكي نستعطفه ونحمله على أن يغفر لنا. إن مثل هذه الأحاسيس تقلب العمل الصالح إلى عمل رديء، لأن الديان العادل لا يقبل الرشوة ليغفر للمذنب ذنبه، فقيمة الأعمال الصالحة تُقاس على البواعث التي تبعث إليها، والله عليم بتلك البواعث ولا تخفى عليه خافية.

ولأجل أن نعلم مشيئة الله ونستعين على الانقياد إليها تعلَّمنا أسفار العهد القديم والجديد ما يجب علينا أن نعمله وما يجب أن نجتنبه، وعدا ذلك فإنه لخص الشريعة الأخلاقية في وصايا مختصرة وردت في أجزاء مختلفة من التوراة. ففي أسفار موسى نجد الوصايا العشر (خروج ٢٠ :١-١٧ وتثنية ٥ :٦-٢١) وفي أواخر أسفار العهد القديم نجد خلاصة أخرى للشريعة الأخلاقية.

وردت في سفر ميخا النبي "قَدْ أَخْبَرَكَ أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا هُوَ صَالِحٌ، وَمَاذَا يَطْلُبُهُ مِنْكَ الرَّبُّ، إِلَّا أَنْ تَصْنَعَ الحَقَّ وَتُحِبَّ الرَّحْمَةَ، وَتَسْلُكَ مُتَوَاضِعاً مَعَ إِلَهِك" - ميخا ٦ :٨.

ينتقد بعضهم على المسيحيين أن ليس لهم شريعة مؤلفة من أوامر ومحظورات، وفاتهم أن الشريعة التي أشرنا إليها في أسفار العهد القديم لا تزال نافذة المفعول على المسيحيين، غير أن لنا في الإنجيل شريعة عظيمة نطق بها المسيح في موعظته على الجبل (بشارة متى ٥-٧) وعدا ذلك فإنه جمع واجباتنا في آيتين وجمعهما في واحدة (مرقس ١٢:٢٨-٣١) "فَجَاءَ وَاحِدٌ مِنَ الْكَتَبَةِ وَسَمِعَهُمْ يَتَحَاوَرُونَ، فَلَمَّا رَأَى أَنَّهُ أَجَابَهُمْ حَسَناً، سَأَلَهُ : أَيَّةُ وَصِيَّةٍ هِيَ أَوَّلُ الْكُلِّ؟ فَأَجَابَهُ يَسُوعُ : إِنَّ أَوَّلَ كُلِّ الْوَصَايَا هِيَ : اسْمَعْ يَا إِسْرَائِيلُ، الرَّبُّ إِلهُنَا رَبٌّ وَاحِدٌ، وَتُحِبُّ الرَّبَّ إِلهكَ مِنْ كُلِّ قَلْبِكَ، وَمِنْ كُلِّ نَفْسِكَ، وَمِنْ كُلِّ فِكْرِكَ، وَمِنْ كُلِّ قُدْرَتِكَ، هذِهِ هِيَ الْوَصِيَّةُ الأُولَى، وَثَانِيَةٌ مِثْلُهَا هِيَ : تُحِبُّ قَرِيبَكَ كَنَفْسِكَ، لَيْسَ وَصِيَّةٌ أُخْرَى أَعْظَمَ مِنْ هَاتَيْنِ" (مرقس ١٢ :٢٨-٣١) و "وَكَمَا تُرِيدُونَ أَنْ يَفْعَلَ النَّاسُ بِكُمُ ا فْعَلُوا أَنْتُمْ أَيْضاً بِهِمْ هكَذَا" (لوقا ٦ :٣١). فمما تقدم نرى أن المسيح وضع مبادئ عمومية جامعة للإرشاد إلى ما ينبغي عمله في كل ظروف الحياة، مع أن غيره من واضعي الشرائع عينوا إرشاداً مخصوصاً لكل عارض يحدث لهم. ومن يقرأ رومية ١٢ :١-٢١ و١٤ :١-٨ و١كورنثوس ١٣ :١-١٣ وأفسس ٤ :١-٢١ وكولوسي ٣ :٤ يرى سموّ وقداسة المبادئ المحتمة على المسيحيين أن يسلكوا فيها. لم نؤمر بغسل أيدينا قبل الصلاة، بل أمرنا أن نغسل قلوبنا، ولا أن نحج مرة في العمر بل نكون على الدوام حجاجاً متغربين في الأرض، لأنه ليس لنا فيها مدينة باقية بل نكون قاصدين المدينة السماوية، وكلما قطعنا مرحلة من طريق الحج إلى السماء زدنا تمثلاً واقتداءً بقداسة الله. وعلينا أن لا نصلي خمس مرات أو سبعاً في اليوم بل نصلي في كل حين وبدون انقطاع (١ تسالونيكي

٥ :١٧) أي نصرف حياتنا بجملتها في شركة مستديمة مع الله، ولا أن نقدم ذبائح حيوانية كما كان يقدم اليهود، بل نقدم ذواتنا ذبائح حية مقدسة مرضية عند الله (رومية ١٢ :١ و٢ و١بطرس ٢ :٥).

مما تقدم نرى أن شريعة العهد الجديد أبلغ وأسمى من شريعة العهد القديم، وهي توافق تمام الموافقة صفات الله الجلالية والكمالية لأنها توصي بنقاوة القلب وبالتالي تؤدي إلى قداسة الحياة. وبدون هذه الوصايا الروحية يضيع لب الدين ولا يبقى منه سوى قشور الرسوم الخارجية التي لا تبرّر الإنسان. إن وصايا الإنجيل أعلى في روحانيتها وكمالها من وصايا كل الأديان، لأنها مدبرة بطريقة خصوصية لتغير طبيعة القلب الفاسدة إلى طبيعة مقدسة تفيض أعمالاً صالحة مدى العمر. وعليه يجب أن نقبل وصايا الدين المسيحي، لا كأقوال بشرية مثل بقية الأديان (إلا الدين اليهودي) بل كما هي بالحقيقة وصايا الله نفسه. وإن أردت قولاً جامعاً لوصايا الإنجيل فانظر إلى ما قاله المسيح في هذا المعنى وتأمل فيه بعين مجردة من الغرض، قال : "تُحِبُّ الرَّبَّ إِلهكَ مِنْ كُلِّ قَلْبِكَ، وَمِنْ كُلِّ نَفْسِكَ، وَمِنْ كُلِّ فِكْرِكَ، هذِهِ هِيَ الوَصِيَّةُ الأُولَى وَالْعُظْمَى، وَالثَّانِيَةُ مِثْلُهَا : تُحِبُّ قَرِيبَكَ

كَنَفْسِكَ بِهَاتَيْنِ الوَصِيَّتَيْنِ يَتَعَلَّقُ النَّامُوسُ كُلُّهُ وَالْأَنْبِيَاء" (بشارة متى ٢٢ :٣٧- ٣٩) وهذه الأقوال مقتبسة بتوسع من أسفار العهد القديم (تثنية ٦ :٥ و١٠ :١٢ و٣٠ :٦ و لاويين ١٩:١٨) فترى تعليم أسفار العهد القديم والعهد الجديد واحداً من حيث الواجبات التي يكلفنا بها الله، والطريق الذي ينبغي لنا أن نسير فيه، لأنه في العهدين يريد الله منا أن تمتلئ قلوبنا بمحبته لأنه أحبنا أولاً، حتى نصرف سائر قوانا الجسدية والروحية والنفسية والعقلية كل يوم وكل ساعة في خدمة الله ومرضاته. وكما أننا نبتغي الخير لأنفسنا ونسعى لمصالحنا يجب أن نعمل مثل ذلك لجيراننا، وإن كانوا أعداءنا، لأن الأعداء في اعتبار الله لم يخرجوا عن كونهم جيراننا وأقرباءنا وإخواننا، وإياهم قصد المسيح لما أوصى "تحب قريبك كنفسك" (لوقا ١٠ :٢٥-٣٧) بمثل هذه الفضيلة نطيع قانون المسيح الذهبي القائل : "فَكُلُّ مَا تُرِيدُونَ أَنْ يَفْعَلَ النَّاسُ بِكُمُ ا فْعَلُوا هكَذَا أَنْتُمْ أَيْضاً بِهِمْ، لِأَنَّ هذا هُوَ النَّامُوسُ وَالْأَنْبِيَاءُ" (بشارة متى ٧ :١٢) وعلى قدر ما في هذه الوصايا من توثيق رابطة المحبة بين الإنسان وخالقه، وبينه وبين بني جنسه، يتنقّى القلب من الجنس، وتُعتق النفس من محبة الذات، وتؤدي بطبيعة الحال إلى سعادة الدارين.

وكذلك توافق هذه الوصايا الناموس الطبيعي الذي نقشته يد

الخالق على صحائف القلوب والضمائر، فإن كنت تقارن بين ناموس ضميرك وشريعة قلبك وبين ما نتلوه عليك من وصايا المسيح وموسى، تعلم وتجزم أن تعليم الكتاب المقدس صادر من الخالق عز وجل، وتتحقق أنه موحى به منه، فليكن معلوماً لك أن الذين لا يقبلون تعليم الكتاب المقدس يدانون بموجبه في اليوم الأخير، لأنه منقوش على قلوبهم وضمائرهم، ولهذا السبب كتب الله شريعته الأخلاقية على القلوب حتى لا يكون عذر لمن عصى، حتى أن الوثنيين والملحدين مسؤولون عن حفظ الناموس الأخلاقي حسب طبيعتهم، لأن الناموس مكتوب على قلوبهم، ويعرفون إلى درجة ما أنهم خالفوا هذا الناموس الطبيعي، وأنهم واقعون تحت طائلة العقاب ومحتاجون لمخلص.

ولقائل يقول: إن كان الناموس مكتوباً على القلوب ويكشف لنا احتياجنا إلى مخلّص، فما الداعي إلى الكتاب المقدس؟ وأجيب: إن الداعي إليه هو وجود شهادة ثانية تؤيد شهادة الضمير، وأن في الكتاب المقدس بياناً أوفى ونوراً أعظم وثقة أرسخ لكي نتشجع في جهادنا الروحي طالبين منه تعالى العون في كل أحوال الحياة.

وفي الكتاب شهادة يا حبّذا لو فطن إليها الناس وهي أن معرفة

الحق لا تبررنا، بل بالحري تزيد مسئوليتنا ما لم نكن سالكين بموجب الحق الذي عرفناه (بشارة متى ٧ :٢١-٢٧ ولوقا ١٠ :٢٥-٢٨ ويوحنا ١٣ :١٧ ورومية ٢ :١٣) ويشهد أيضاً أن العدالة الإلهية لا ترتضي أن تمس الطاعة الكاملة شائبة من شوائب النقص، بمعنى أنه لا يرتضي إلا بالكمال في أخلاقنا وأعمالنا (بشارة متى ٥ :٤٨). فإن أطاع الإنسان الوصايا جميعها ما عدا وصية واحدة يعد مجرماً (يعقوب ٢ :١٠ و١١ وغلاطية ٣ :١٠-١٢) وكذلك الحال بالنسبة إلى القوانين المدنية، مثال ذلك أن قانون البلاد يمنع القتل والسرقة، فإن كنت لم تقتل ولكن سرقت ولو مرة واحدة في العمل وضُبطت، لا يشفع لك عند القاضي أنك لم تقتل بل يعاقبك على سرقتك. لم يُذكر عن آدم إلا خطية واحدة، ومع ذلك جلبت الويل والموت. تأمل ما أشنع عواقب الخطية الواحدة! من أجل ذلك لا تأمل أن تفوز بغفران الله عن معصية واحدة مقابل طاعات كثيرة. فمن طلب رضا الله بعمله، عليه أن يحفظ وصاياه جميعها بالضبط والدقة، ومتى تعدى على أقل وصية يُدرج اسمه في قائمة العصاة ويحال إلى الدينونة.

ولكن هل وُجد على سطح كرتنا الأرضية إنسان أطاع الله كل حياته طاعة كاملة؟ ومن ذا الذي أحب الله من كل قلبه وفكره ونفسه

وأحب قريبه كنفسه؟ (بشارة متى ٢٢ :٣٧ و٣٩) ومن ذا الذي قضى عمره ولم يرتكب معصية ولا زلة ما ولا فرطت من فمه كلمة سوء ولا جال على خاطره فكر خبيث ولا شهوة ردية؟ (أيوب ٤ :١٨ و١٩ و٢٥ :٤-٦ ومزمور ١٤٣ :٢ ورو ٣ :٢٠) ولم يوجد إنسان عاش ومات ولم يعمل خطية قط إلا سيدنا يسوع المسيح.

وإذ قد علمنا أن كل الجنس البشري - ما عدا يسوع - مذنب بشهادة ضميرك وشهادة كلمة الله المعلنة في الكتاب المقدس، ألا يجب علينا أن نعترف بخطايانا بقلب منسحق خاشع أمام خالقنا قائلين: يا رب الأرباب البار القدوس، إن الطهارة التي أنت تريدها ليست فينا، ولذا نحن يا رب نستحق غضبك والموت الأبدي، فطهرنا.

أما كون الله يعاقب الخطاة على خطاياهم فقضية مسلّمة (أولا) لأن التجارب والاختبارات تؤيد ذلك (ثانيا) لأن شهادة الضمير تؤيده أيضاً (ثالثا) لأن كلمة الله تصرح بهذه الحقيقة (حزقيال ١٨ :٢٠ وبشارة متى ٢ :٣٦ و٢٥ :٤١ ورومية ١ :١٨ و٢ :٨ و٩ وكولوسي ٣ :٢٥ و٢تسالونيكي ١ :٩) يتصور بعضهم أن الله يغفر للمذنبين ذنوبهم بدون أن يعاقبهم استناداً على كونه رحيماً ورحمته غير متناهية، إلا إن هذا محال إلا بتدبير طريقة لتكريم

شريعته والوفاء بمطالبها، وإلا كان غفر الذنوب بدون قضاء حق شريعته غير عادلاً. حقاً إن رحمته ومحبته غير محدودتين ولكن لا تنس أن عدله وقداسته غير محدودتين كذلك، فيستحيل عليه أن ينظر بعين الرضى إلى فاعل الشر.

وعدا ذلك فإن الخطية بطبيعة الحال لعنة وقصاص لفاعلها، ولا يمكن أن يكون سعيداً لا في هذه الدار ولا في الدار الآتية، لأن الإنسان الشهواني مثلاً لا يعرف للسعادة الحقيقية معنى حتى هنا، لأن الخطية تنزل طبيعة الإنسان إلى الحضيض، فيصير قاسياً جباناً محباً للذات دنيئاً نذلاً متباعداً عن حضرة الله القدوس مصدر السعادة وينبوع السلام والسرور. قال المسيح "إِنَّ كُلَّ مَنْ يَعْمَلُ الخَطِيَّةَ هُوَ عَبْدٌ لِلْخَطِيَّةِ" (يوحنا ٨ :٣٤) وأعظم قصاص يقع على الخاطئ هو بقاؤه في حالة الخطية، وذلك نصيب الذين أصرّوا على تفضيل الظلمة على النور والشر على الخير وإبليس على الله (يوحنا ٣ :١٩ ورؤيا ١٢ :١١).

ولاحظ أيضاً أنه من رحمة الله ومحبته أن لا يترك الإنسان يخطئ بلا عقاب، لأنه إن علم الإنسان أنه إن أخطأ لا يُعاقب يتهور في الخطية ويغوص في بحر الفساد، فتسوء حاله وتبلغ

تعاسته حداً لا يوصف، وتكون حياته ويلاً لنفسه وقومه. فأين هذه النتائج المحزنة المدمرة من رحمة الله ومحبته؟

ويتضح إن التعدي على شريعة الله يوجب العقوبة، وإلا فلماذا أنزل الله الشريعة الأخلاقية ولماذا كتبت في الأسفار الإلهية؟ ولماذا كتبها على قلوب البشر؟ لا يقدر ذو عقل سليم أن يتصور أن عبيد الله العصاة والطائعين متساوون عند الله ويعاملهم معاملة واحدة.

وحيث أن كل الجنس البشري أخطأ ما عدا واحداً، فوجب علينا جميعاً القصاص، ولا قدرة فينا نحن الخطاة أن نرضي الله أو أن نكفر عن خطايانا وننال غفرانه ونحصل على المصالحة معه. ثم أننا لا نحتاج فقط إلى نجاة من القصاص، بل بالأكثر نحتاج أيضاً إلى وسيط نخلص به من قوة الخطية ومحبتها. فالقصاص حسن ونافع للخاطئ وفي الغالب يقوده إلى التوبة، ولهذا تُعد الخطية موجبة للقصاص دائماً. ولكننا نحتاج إلى طريقة بها نخلص من نتائج الخطية الأبدية التي تحول بيننا وبين الله، وتنفينا من حضرته المقدسة، وتسقطنا من محبته وعنايته الأبوية، وتحفظنا من أن نكون على صورة إبليس عقلاً وقلباً، وإذا لم نحصل هذا الخلاص فخيرٌ لنا أن لا نوجد. فكيف إذاً نجد طريقة الخلاص؟ إذا كان الإنسان في حالته الساقطة الحالية لا يمكنه

أن يتمم شريعة الله فمن أين له أن يكفّر عما مضى ويتصالح مع الله تعالى؟ إن أعماله الحسنة لا تستوجب أقل مكافأة، فضلاً عن كونها غير مقبولة بالمرة، كيف يقبل الله شيئاً من يدٍ مدنَّسة ومن قلب فاسد؟ وليس فقط أعمال الإنسان ولكن حتى كلماته وأفكاره مدنسة بالخطية، فكيف نستحق بأعمالنا الحسنة نوال مغفرة خطايانا مع عدم إتمامنا الواجب لله وللقريب؟ وذلك محال. ولو فرضنا أنه وُجد إنسان لم يخطئ قط، فلا يكون إلا أنه قام بالواجب، وليس للقائم بالواجب فضل (لوقا ١٧ :١٠) ولا يمكنه أن يشفع بواجبه لنفسه أو لغيره، ويعلّمنا الكتاب المقدس أن شريعة الله تكلّفنا أن نكرس له حياتنا بجملتها تكريساً تاماً (بشارة متى ٢٢ :٣٦-٤٠) فإن أخطأنا إلى الله يوماً ما، فليس في وسعنا أن نعوّض ما فاتنا في المستقبل.

ويظن بعضهم بحماقة وجهل أنهم عبدوا الله أكثر مما فرض عليهم، وهذا منتهى الغباوة. وبالرغم عن دعوتهم الباطلة، إلا أنهم عندما يخلون إلى أنفسهم لا يقدرون أن يقنعوا ضمائرهم أنهم مبرَّرون في عين الله. وكثيراً ما تبكتهم قلوبهم بآلام مرة وتخيفهم من هول العقاب بعد الموت حتى يقضوا الجانب الأوفر من حياتهم معذبين في خوف الموت ويموتوا في عذاب شديد. ولنضرب لك مثلاً وهو

ما حكاه ابن خلكان في كتابه وفيات الأعيان عن أبي عمر، أن إبراهيم بن يزيد لما حضرته الوفاة جزع جزعاً شديداً، فقال : وأي خطر أعظم مما أنا فيه؟ أنا أتوقع رسولاً يرد علي من ربي، إما بالجنة أو بالنار، والله لوددت أنها تلجلج في حلقي إلى يوم القيامة وبالطبع كان ذلك من خوفه مما بعد الموت.

وكذلك لا تكفي التوبة لمحو خطايانا، نعم إن توبتنا عن خطايانا ضرورية إلا أنها لا تكفر عن ما مضى من آثامنا، فلذلك التوبة ليست كافية لخلاصنا، ويجب أن نلاحظ أن المتعدي على الشريعة البشرية لا تمحو التوبة عنه ما جناه، فهل إذا قال قاتل أو لص للقاضي إنه تاب عن فعلته، يكون القاضي عادلاً إذا أطلقه حراً؟ لا شك أن ذلك مخالف للعدل لدى أفكارنا الطبيعية. وحيث أن هذا الفكر عن العدل هو جزء منه الناموس الأخلاقي الذي نقشه الله على صفحات قلوبنا فلا بد أن يكون صحيحاً، ويوجد كثيرون تقست قلوبهم لدرجة لا يمكنهم معها التوبة إذا أرادوا.

ها قد رأينا أنه لا يمكن خلاص أنفسنا بأعمالنا ولا بعقوبتنا على الخطية ولا من نتائجها الأخرى، وبالأحرى لا يمكننا أن نتخلص من محبة وقوة الخطية ونحصل على المصالحة مع الله بواسطة استحقاق فينا.

فإذا لم يوجد مخلّص يكفر عن خطايانا نبقى إلى الأبد منفيين من حضرة الله، ولا يمكن لنا أبداً أن نحصل على السعادة الأبدية التي يرغب فيها كل البشر.

وقد بيّنا أنه إذا وُجد مخلّص يمكنه أن يكفّر عن الخطايا ويحرر أسرى الخطية ويجعلهم طاهرين في عين الله العادل القدوس، وهكذا يتضح لنا أن المخلّص لا يمكن أن يكون مجرد إنسان مولوداً مثل البشر وارثاً طبيعة آدم الفاسدة خاطئاً كغيره. فلا يمكن لخاطئ أن يخلّص خطاة، وحيث أن كل البشر خطاة فليس منهم من يقدر أن يكفّر عن البقية، وجاء في الزبور أن "الْأَخُ لَنْ يَفْدِيَ الإِنْسَانَ فِدَاءً، وَلَا يُعْطِيَ اللّٰه كَفَّارَةً عَنْهُ" (مز ٤٩ :٧) لا يوجد من يقدر أن يخلّص أخاه من موت الجسد، فكم بالأحرى لا يمكن لشخص أن يفدي الآخر من الموت الأبدي.

ومع ذلك إذا وُجد مخلّص فيجب أن يكون إنساناً، وإلا فلا يصح أن يكون نائباً عنا وواحداً منا ولا رئيساً للبشر، ولا يمكننا أن نقتنع بإخلاصه ونفهم محبته لنا، ويجب أن يكون أرقى من الذين يخلّصهم في طبيعته وقدره وفي الوقت نفسه، يشاركهم في طبيعتهم. كما يجب أن يكون خالياً من الخطية ويتمم شريعة الله تماماً، فإن لم يوجد مثل هذا المخلّص قد هلك كل العالم ولا رجاء لهم، ولا يمكنهم الوصول إلى

السعادة والقداسة التي يشتاق إليها كل مخلوق.

ولكن هل يوجد مثل هذا المخلّص؟ إذا رجعنا إلى الكتاب المقدس نرى أنه موجود، فالعهد القديم يتضمن الوعد بمجيئه، والجديد يخبرنا كيف جاء. فقد شهد الأنبياء والرسل بأنه المخلّص الوحيد الحقيقي من الخطية، وقد قدم لله كفارة كاملة وشفاعة تامة عن خطايا كل العالم (١يوحنا ٢ :١ و٢) ولذلك فهو قادر أن يحصل لنا على غفران خطايانا.

هذا المخلّص هو الرب يسوع المسيح الذي بواسطة قدرته وقداسته وبطاعته حتى الموت حمل خطية العالم وصار شفيع كل الناس، فقد كفر عنا وصالح الإنسان مع الله القدوس البار، ونال الخلاص الأبدي لكل المؤمنين الحقيقيين به، إذاً فهو يقدم لكل العالم مغفرة الخطايا والفرح الأبدي.

فلهذا نشترك مع الرسول بقلوب تمتلئ بالشكر في قوله "وَمَلِكُ الدُّهُورِ الذِي لَا يَفْنَى وَلَا يُرَى، الْإِلهُ الحَكِيمُ وَحْدَهُ، لَهُ الكَرَامَةُ وَالْمَجْدُ إِلَى دَهْرِ الدُّهُورِ" (١تيموثاوس ١ :١٧).

لأن الله المحب المحيي أرحم الراحمين في محبته ورحمته الغير متناهيتين، قدّم لنا نحن الخطاة فداءً عظيماً وخلاصاً مجيداً بالرب يسوع المسيح. آمين.

الفصل الرابع

في الطريق الذي عمله يسوع المسيح لخلاص كل الناس

والآن بالاتكال على هداية وبركة القدير نتقدم لشرح كيفية الخلاص الذي صنعه الرب يسوع لبني البشر وذلك بناءً على ما ورد في أسفار العهد القديم والعهد الجديد، مع العلم بأن كثيراً من طرق الله العجيبة تخفى عن عقولنا المحدودة، حيث أننا لا نقدر أن نعلم شيئاً من المقاصد الإلهية إلا ما شاء أن يعلنه لنا، وبما أنه منحنا عقولاً للفحص والتحري فيجب أن نستعملها في ما يعود بالمجد لذاته العلية، وإذ أنعم علينا بإعلان طريق الخلاص فيسره أن نتأمل في إعلانه باحترام حتى نفهم ما استطعنا فهمه بحسب عقولنا القاصرة (١تس ٥ :٢١) ولا يتوقف خلاصنا على مقدار ذكائنا بل على حقيقة إيماننا بمخلص العالم.

إن الله من فيض محبته وكثرة رحمته تعطف علينا فأعد خلاصاً للخطاة بواسطة ربنا يسوع المسيح، كما هو واضح في أسفار العهد الجديد. ومن أمثلة ذلك ما ورد في (لوقا ١٩ :١٠ ويو ٣ :١٦ و٢كو ٥ :١٩ و٢١ و١تي ١ :١٥ و١بط ٢ :٢١-٢٤ و١يو ٢ :١٢ و٤ :٩ و١٠). أما كون الخلاص قد تهيأ بهذه الكيفية فهو حقيقة راهنة. ويلزمنا

الآن أن نجتهد لنفهم طريقة الوصول إلى الخلاص بالمسيح، وكيف صحَّ أن تُسند إليه تلك الألقاب العالية في هذه الآيات وغيرها، مما يؤكد لنا سمو طبيعته، وتوافر الشروط المذكورة في خاتمة الفصل الثالث.

وتخبرنا الكتب المقدسة أن الله في محبته الغير المحدودة ورحمته الغير المتناهية قصد منذ الأزل أن يصنع هذا الخلاص (أفسس ٣ :٢ و١ بط ١ :١٨-٢١ ورؤ ١٣ :٨) فأنبأ على ألسنة أنبيائه في العهد القديم مبيّناً السبط والبيت الذي يخرج منه المخلّص، وزمان ظهوره، والكيفية التي يباشر بها خدمته بين الناس، كما أنه أنبأ برتبته وطبيعته وجميع متعلقات عمله الفدائي العظيم، حتى أنه منذ العصور الأولى -أي من قبل ظهوره بمئات السنين- عرف بعضهم هذه المواعيد المباركة وآمنوا بها وانتظروا بفرح وأشتياق ذلك المخلّص العظيم، ومنهم آدم أبو الجنس البشري فإنه علم من الله بقدوم المخلص وأنه سيكون قديراً بحيث يستطيع أن يسحق رأس الحية، بمعنى أنه يستطيع أن يظفر بإبليس ويعتق الإنسان من نير عبوديته ومن الخطية (تك ٣ :١٤ و١٥). وقد رأينا في الفصول الماضية أن الله وعد إبراهيم أن بنسله تتبارك جميع قبائل الأرض (تك ٢٢ :١٨) وتشهد

أسفار العهد الجديد أن ذلك النسل إنما هو المسيح (غل ٣ :١٦). ثم أنبأ على لسان موسى أن ذلك المخلّص يكون نبياً عظيماً يقوم من وسط إسرائيل (تك ١٧ :١٩ و٢١ و٢٨ :١٤) وأنه يعلّم الشعب طريق الله وإرادته (تث ١٨ :١٥ و١٨ و١٩) وأما كون هذا النبي العظيم هو المسيح فقد صار أمراً معلوماً بشهادة ذلك الصوت الصادر من السماء يأمر الناس بالاستماع إليه (مت ١٧ :٥ ومر ٩ :٧) وهذا على وفق قول الله لموسى إن الإنسان الذي لا يسمع لما يتكلم به ذلك النبي فهو تحت طائلة قصاص صارم.

ثم جاء داود وتنبأ عن هذا المخلّص، وأنه سيأتي من ذريته ويدوم مُلكه إلى ما لا نهاية (٢ صم ٧ :١٦ ومز ٨٩ :٣ و٤ و٢٧ و٢٨ و٢٩ و٣٥ و٣٦ و٣٧ وأش ٩ :٦ و٧ و١١ :١ وإر ٢٣ :٥ و٦ و٣٣ :١٥ و١٦ و١٧ و٢٠ و٢١ و٢٥ و٢٦ قارن بما ورد في يوحنا ١٢ :٢٤).

وجاء في تك ٤٩ :١٠ أن المملكة لا تزول من سبط يهوذا حتى يأتي شيلون وهذا الاسم من ألقاب المسيح.

وُلد يسوع من نسل داود (مت ١ :١ وأع ٢ :٣٠ و١٣ :٢٢ و٢٣ ورو ١ :٣) قبل التاريخ المسيحي المعروف بنحو أربع سنوات. ويجب الأشارة هنا إلى أن المؤرخين أخطأوا في تعيين الوقت الذي وُلد فيه

المسيح بالضبط، إذ أخذوا ذلك عن راهب يُدعى ديونسيوس الصغير كان معاصراً للملك جوستينيان، وهذ الراهب أخَّر سهواً تاريخ ميلاد المسيح بضع سنوات غير أنه لا بأس من أن نعتمد على هذا التاريخ المتداول، فنقول إن هيرودس الملك العظيم مات قبل تاريخ المسيح بأربع سنوات، وكان يسوع حينئذ لا يتجاوز عمره السنتين كما يظهر من مراجعة بشارة متى ٢ :١٣. وعند ذلك انقسمت مملكة اليهود أربعة أقسام، ملك على أحدها المعروف باليهودية أرخيلاوس بن هيرودس، وفي السنة السادسة للميلاد خلعته الحكومة الرومانية ونفته من البلاد، وأصبحت اليهودية ولاية رومانية بعد أن كانت مملكة مستقلة وإن كانت خاضعة للرومان، ومنذ ذلك الوقت إلى العصر الحاضر لم يكن لليهود ملك خاص، وكان ذلك إتماماً لنبوة يعقوب بزوال قضيب الملك من يهوذا وأن اليهود أنفسهم أول المعترفين بذلك، لأنهم كانوا يصرخون عند صليب المسيح قائلين : "لَيْسَ لَنَا مَلِكٌ إِلَّا قَيْصَرُ" (يوحنا ١٩ :١٥) وهذا دليل صريح على إتيان المسيح في ذلك الزمن.

ثم أن المكان الذي كان ينبغي أن يولد فيه المسيح سبق الإنباء به على لسان النبي ميخا (مي ٥ :٢). وتشير هذه النبوة إلى سمو مقام المسيح عن بني البشر، إذ قيل عنه

"ومَخَارِجُهُ مُنْذُ القَدِيمِ مُنْذُ أَيَّامِ الأَزَلِ" وقد ولد المسيح حيث أنبأ هذا النبي (مت ٢ :١ و٥ و٦). وأما أنه يولد من عذارء فقد دلّ عليه (تك ٣ :١٥) زاده دلالة (أش ٧ :١٤) وتم بالفعل كما في مت ١ :١٨-٢٥ ولو ١ :٢٦-٣٨ وصادق عليه القرآن كما في سورة الأنبياء آية ٩١ وسورة التحريم ١٢. ومن جهة تعليمه واتضاعه وآلامه وموته وأيضاً الكفارة التي كان قاصداً أن يقدمها لفداء بني البشر كل ذلك سبق التخبير به قبل زمنه على ألسنة الأنبياء. ونخص بالذكر منهم أشعياء النبي كما نرى في أش ٤٢ :١-٩ و٦١ :١-٣ - قارن ذلك مع لو ٤ :١٧-٢١ وأش ٥٢ :١٣-١٥ و٣٥ ومز ٢٢. وكذلك الوقت الذي كان مزمعاً أن يموت فيه تنبأ عند دانيال النبي وبيَّنه بوضوح في دا ٩ :٢٤-٢٦. فإنه بحسب من وقت خروج أمر أرتحشستا ملك الفرس بتجديد أورشليم وبنائها إلى المسيح سبعة أسابيع واثنان وستون أسبوعاً، وصدر ذلك الأمر في السنة السابعة من حكم أرتحشستا (عز ٧ :١-٧) أي سنة ٤٥٨ ق، م، فإن حسبنا تلك الأسابيع والأيام والسنين، وأضفنا إليها الأسبوع الأخير الذي قيل إن المسيح يُقطع فيه، وجدنا إتماماً لنبوة دانيال تلك المدة ٤٩٠ سنة وهي توافق سنة ٣٢ م.

وقد مات المسيح في حوالي ذلك الوقت، وعلى الأرجح سنة ٢٩

أو ٣٠ م والخراب المنذر به أن يلحق مدينة أورشليم وهيكلها (دا ٩ :٢٥ و٢٦ و٢٧) وقع عليها بعد موت المسيح بنحو أربعين سنة أي سنة ٧٠ م حيث هدمها تيطس القائد الروماني كما هو مدَّون في تاريخ يوسيفوس وغيره من المؤرخين الذين أصبحت أخبارهم مصدِّقة لما أُنبأ به المسيح (مت ٢٤ :٢١-٢٨ ومر ١٣ :١-٢٣ ولو ٢١ :٥-٢٤) والضيقة التي كابدها اليهود في تلك الأيام (مر ١٣ :٢٤) لا زالوا يكابدونها اليوم، فإنهم متفرقون على وجه الأرض يذوقون أصناف العذاب والمسلمون أنفسهم يشهدون ما يحلّ بهم من النكبات ليس في بلادهم فقط بل وفي غيرها ولم تتم بعد أزمنة الأمم منذ استيلائهم على أورشليم إلى الآن لو ٢١ :٢٤. إذ هم يمتلكون إلى الآن أورشليم.

وفي أسفار الأنبياء شيء كثير من النبوات عن هذه الأمور مثل قيامة المسيح، وصعوده إلى السماء، وجلوسه عن يمين الله، ومن أمثلة ذلك ما ورد في (مز ١٦ :١٠) بالمقارنة مع ما ورد في أع ٢ :٢٢-٣٦ ومز ١١٠ :١ ودا ٧ :١٣ و١٤، وتنبأ دانيال أيضاً بأن مملكة المسيح ستتأسس في أيام سيادة المملكة الرابعة أي المملكة الرومانية (دا ٧ :٢٣) كما زالت المملكة الرومانية وتمت فيها نبوة دانيال (انظر دا ٢ :٣٤ و٣٥ و٤٤ و٤٥ و٧ :٧ و٩ و١٣ و١٤ و٢٣ و٢٧). أما الممالك الأربع المشار

إليها فهي مملكة بابل والفرس واليونان والرومان (دا ٢ :٣٧-٤٥ و٨ :٢٠ و٢١).

ولما بلغ المسيح ثلاثين سنة من عمره (لو ٣ :٢٣) أخذ يكرز بالبشارة كما هو مذكور في الإنجيل، وجال يصنع خيراً، فعمل معجزات باهرة: شفى مرضى وأخرج شياطين ووهب البصر للعميان والسمع للصم، طهر البرص وجعل العرج يمشون. وجاء ذلك موافقاً لما تنبأت به عنه أنبياء العهد القديم (أش ٣٢ :١-٥ و٣٥ :٣-٦ و٤٢ :١-٧ و٦١ :١ و٢ بالمقارنة مع بشارة متى ١١ :٤ و٥ و١٢ :١٧-٢١ و٢١ :١٤). انظر سورة آل عمران ٣ :٤٣ - ومع أنه كان له هذا السلطان العظيم الذي به فعل المعجزات الباهرة لم يعمل معجزة واحدة لفائدته الشخصية، ولا انتقم من أعدائه بل عأش فقيراً متواضعاً (بشارة متى ٨ :٢٠) ولم يسع في طلب المجد والشرف الزائل. ولما أراد الشعب أن يُتوِّجوه ملكاً عليهم (يو ٦ :١٥) لم يقبل منهم ذلك. وبالجملة كانت أعماله بلا لوم وبدت حياته المقدسة تظهر لكل ذي عينين، إلى أن قال مرة لمقاوميه: "مَنْ مِنْكُمْ يُبَكِّتُنِي عَلَى خَطِيَّةٍ؟" (يو ٨ :٤٦) وكل ما قاله عنه الأنبياء القدماء من حيث مجيئه الأول وحياته قد تمَّ.

واختار المسيح من بين اليهود اثني عشر رسولاً هم الذين دربهم

وعلّمهم الحق وأوصاهم أن يعلّموا الآخرين. والأساس الذي بني عليه تعليمه هو أنه ابن الله، وقال ما معناه إن تلك البنوة هي بمثابة الصخرة التي سيبني عليها كنيسته (مت ١٦ :١٣-١٨). ولما عرف الرسل أنه ابن الله وأنه المسيح المنتظر أخذ يعلّمهم درساً آخر عظيم الأهمية، أنه ينبغي له أن يُصلب ويقوم من بين الأموات لخلاص البشر (مت ١٦ :٢١ ومر ٨ :٣١ ولو ٩ :٢٢). وكلّما دنت ساعة آلامه زادهم إيضاحاً بإنبائهم عن موته والكيفية التي يموت بها (لو ١٨ :٣١-٣٤). وقال لهم مرة إنه سيحتمل تلك الآلام ليس مرغماً بل بإرادته حباً في بني البشر حتى يمنحهم حياة أبدية (يو ٦ :٥١ و١٠ :١١-١٨) إن قبلوا هبة الله (رو ٦ :٢٣). أي أن المسيح من أجل محبته الفائقة لبني آدم ورغبته في خلاصهم من خطاياهم سمح لليهود أن يقبضوا عليه ويسخروا به ويلكموه ويسلّموه ليد الحاكم الروماني بيلاطس والي اليهودية للجَلْد والصَّلْب (بشارة متى ٢٦ :٤٧-٢٧ :٥٦ ومر ١٤ :٤٣-١٥ :١-٤١ ولو ٢٢ :٤٧-٢٣ :٤٩ ويو ١٨ :١-١٩ :٣٧). ويوافق ذلك ما تنبأ به داود في مز ٢٢ وأش ٥٢ :١٣-٥٣ :١٢ منذ مئات السنين.

وحكم بيلاطس على المسيح بالموت كمجرم مع أنه شهد له أنه بار (مت ٢٧ :٢٤) وجرت العادة عند اليهود في ذلك الزمان أن

يطرحوا جثث القتلى المجرمين في موضع يُدعى وادي ابن هنوم خارج أسوار أورشليم للحريق أو طعاماً للوحوش، إلا أنهم لما صلبوا المسيح أخذ جسده تلميذ مُتخفٍّ يُدعى يوسف من الرامة، رجل غني بموجب إذن من الوالي، ودفنه في قبره الجديد الذي كان أعدَّه لنفسه (مت ٢٧ :٥٧-٦١ ومر ١٥ :٤٢-٤٧ ولو ٢٣ :٥-٥٦ ويو ١٩ :٣٧-٤٢) وكان ذلك على وفق نبوة أشعياء (أش ٥٣ :٩) حيث يصرح بأنه وإن يكن اليهود قصدوا أن يدفنوه مع الأشرار لأنهم أحصوه من جملتهم، غير أنه عند موته دفنه ذلك الرجل الغني في قبر على حدته، وعلى ذلك قوله "وَجُعِلَ مَعَ الأَشْرَارِ قَبْرُهُ، وَمَعَ غَنِيٍّ عِنْدَ مَوْتِهِ" (أشعياء ٥٣ :٩).

وتنبأ المسيح عن نفسه أنه يقوم من الموت في اليوم الثالث (مت ١٦ :٢١ و١٧ :٢٣ و٢٠ :١٩ ولو ٩ :٢٢ و١٨ :٣٣ و٢٤ :٤٦) وقد كان كما قال (مت ٢٨ :١-١٠ ومر ١٦ :١-٨ ولو ٢٤ :١-٤٣ ويو ٢٠ و١ كو ١٥ :٤) وهذا يوافق نبوة داود في مز ١٦ :٩ و١٠، وظهر بعد قيامته مراراً كثيرة لتلاميذه مدة أربعين يوماً (أعمال ١ :٣) وعلّمهم أن جميع ما حدث له لم يحدث صدفة بل حسب مقاصد الله الأزلية التي أعلنها لأنبيائه القديسين منذ الدهر، وعلَّمهم ما الغرض من آلامه وموته وقيامته (لو ٢٤ :٢٧ و٤٤-٤٩) ثم فوض إليهم أن يتلمذوا

له جميع الأمم (مت ٢٨ :١٨-٢٠ وأع ١ :٨) وبعد هذا صعد إلى السماء بمرأى منهم لو ٢٤ :٥٠ و٥١ وأع ١ :٩ متقلداً الملك إلى ما لا نهاية كما أنبأ دانيال (٧ :١٣ و١٤ و٢٧) وليملأ الأرض من معرفة الرب كما كتب أشعياء (١١ :١-٩) وقد ترك لهم وعداً برجوعه منتصراً (انظر مت ٢٤ :٣٠ و٣١ و٢٥ :١٣-١٦ ومر ١٣ :٢٦ ولو ٢١ :٢٧ ويو ١٤ :١-٣ وأع ١ :٢ و١١ ورؤ ١ :٧ و٢٠ :١١-٢١ :٨).

وحيث أنه قد تم في شخص المسيح جميع ما أنبأت به الأنبياء من قديم الزمان من جهة مجيئه الأول وعمله وموته كفارة عن خطايا العالم إلى غير ذلك، فيكون بالحقيقة مخلص العالم الذي علَّق عليه إبراهيم رجاءه (يو ٨ :٥٦) وشهد له جميع الأنبياء، وإتمام هذه النبوات برهان قاطع على أن أسفار العهد القديم موحى بها من الله. لأنه من ذا الذي يعلم بالحوادث قبل وقوعها بمئات السنين إلا علام الغيوب؟ ولا تدع الشك يخالج صدرك وتقول ربما وفَّقت النصارى بين نبوات التوراة وأخبار إتمامها في الإنجيل، فهذا مستحيل لأن أسفار التوراة محفوظة بأيدي اليهود وبلغتهم إلى اليوم كما هي عند النصارى، واعلم أن اليهود، ولو أنهم رفضوا المسيح، لم يتجاسروا أن يمسّوا جملة أو كلمة واحدة من تلك النبوات

العديدة المشيرة إليه التي تدينهم في اليوم الأخير على قساوتهم وعدم إيمانهم.

ومما تقدم علمنا أن طبيعة المسيح وعظمته ظاهرة بوضوح حتى في أسفار العهد القديم (انظر مز ٢ :٧ ومز٤٥ :٦ ومز ٧٢ ومز ١١٠ :١ وأش ٦ :١-١٠ مع يو ١٢ :٤٠ و٤١ وأش ٩ :٦ و٧ وص ٢٥ :٧-٩ وص ٤٠ :١٠ و١١ وإر ٣٣ :١٦ ومي ٥ :٢ ومل ٣ :١ وص ٤ :٢ الخ). وبناء على ما جاء في سفر ميخا وهو قوله "مَخَارِجُهُ مُنْذُ الْقَدِيمِ مُنْذُ أَيَّامِ الأَزَلِ" (ميخا ٥ :٢) يكون حقاً ما قاله المسيح عن نفسه "قَبْلَ أَنْ يَكُونَ إِبْرَاهِيمُ أَنَا كَائِنٌ" (يو ٨ :٥٨) ولاحظ هنا أنه أسند إلى نفسه هذه الصفة كائن وهي من أخص وأشهر أسماء الله (خر ٣ :١٤) ومن هنا نعلم أنه هو بنفسه الذي دعا إبراهيم من بابل وأنزل التوراة على موسى وبعث الأنبياء والرسل. وعليه فلا تحسب أن الإنجيل يرفع مقام المسيح أكثر مما ترفعه التوراة، بل كلا العهدين يتفقان على عظمة ذاته وسمو صفاته. راجع هذه الشواهد (مت ٣ :١٦ و١٧ و١٦ :١٥-١٧ و١٧ :١-٨ و٢٦ :٦٣ و٦٤ و٢٨ :١٨ ولو ١ :٣٢ و٣٥ ويو ١ :١-٣ و٩-١٨ و٥ :١٧-٢٩ و٨ :٢٣-٢٩ و٤٢ و٥٦-٥٨ و٩ :٣٥-٣٧ و١٠ :٢٧-٣٨ و١٤ :٩-١١ و١٦ :١٢-١٥ و٢٨ و١٧ :٥ و٢١ وكو ١ :١٢-٢٣ وفي ٢ :٥-١١ وعب ١ ورؤ ١ :٥-١٨ و٢١ :٦-٨ و٢٢ :١٣ و١٦).

فإذا رفض إخواننا المسلمون دعوتنا إياهم أن يقبلوا المسيح مخلّصاً لهم (يو ٥ :٤٠) يكون من الأسباب الداعية لهم إلى الرفض عدم تصديقهم ذات كلامه الذي قاله عن نفسه، والذي قاله عنه الأنبياء السالفون.

ثم يجب أن لا ننسى أنه من المحال أن يخلّص المسيح العالم من الخطية ومن بغضهم لله لو كان مجرد خليقة من مخلوقات الله، ولو كان رئيس الملائكة، لأن الخلاص يتوقف على الثقة الكاملة فيه، وقد استحق هو هذه الثقة بما أعلنه عن حقيقة شخصه وبشهادة أسفار العهد القديم والجديد له.

فليس الاعتقاد بلاهوت المسيح إذاً فساداً لحق النصرانية، بل هو جوهر الدين الحق، لأنه لو فرضنا أن المسيح بسموه كان مخلوقاً لا يمكن أن يتخذ صلاحه وآلامه من أجلنا دليلاً على محبة الله لنا، بل بعكس ذلك تخالجنا الشكوك في محبة الله العظيم ونعمته لأنه أسلم أفضل مخلوقاته وأكرمها ليقاسي آلاماً وأحزاناً مثل هذه. ولكن إن قبلنا تعليم الكتاب المقدس واعترفنا "أن اللهَ كَانَ فِي المَسِيحِ مُصَالِحاً العَالَمَ لِنَفْسِهِ" (٢كو ٥ :١٩) واقتنعنا أنه هو والله واحد (يو ١٠ :٣٠)، حينئذ يتيسر لنا أن نفهم إلى حد ما حقيقة تعليم الثالوث ومحبة الله العظيم لنا

واعتنائه بنا(١). فحينئذ نرى أن البشارة وجوهر الكتاب المقدس كله متضمن في هذه الآية "لِأَنَّهُ هكَذَا أَحَبَّ اللّهُ العَالَمَ حَتَّى بَذَلَ ابْنَهُ الوَحِيدَ، لِكَيْ لَا يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ بَلْ تَكُونُ لَهُ الحَيَاةُ الأَبَدِيَّة" (يو٣ :١٦) التي تحتج إلى قلوبنا وضمائرنا احتجاجاً لا يُقاوم، فتجذبنا إلى محبته وتخصيص ذواتنا لخدمته لأنه أحبنا أولاً (١يو ٤ :٩).

غير أن تسمية المسيح في هاتين الآيتين بابن الله كان حجر عثرة في طريق كثير من المسلمين، فانصرفت قلوبهم عن النظر إلى محبة الله المعلنة فيهما، لأنهم ظنوا أن هذه التسمية مخالفة على خط مستقيم لما ورد عندهم في القرآن في سورة الإخلاص. والحقيقة هي أنهم أساءوا فهم ما عناه الإنجيل بهذه التسمية، فإننا نحن المسيحيين ننكر بملء أفواهنا أن الله اتخذ ولداً بالمعنى الذي أنكره القرآن، فهو لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، ومَن من النصارى يتجاسر أن يجدف على الله بهذا المقدار حتى ينسب إليه تعالى التناسل الحيواني كما زعم الوثنيون والجُهال من العرب الذي جعلوا لله بنات، تعالى الله عن زعمهم! ومع ذلك قد تسمى المسيح في الإنجيل ابن الله لا ولده، والفرق بين الابن والولد ظاهر، لأن كلمة ابن كثيراً ما تُستعار لمعنى مجازي، وأما كلمة ولد فلم تُستعمل إلا بحسب وضعها.

---

(١) انظر الفصل الآتي

وقد أنكر الكتبة المسيحيون الذين كانوا قبل الهجرة بمئات السنين كل الإنكار قول الوثنيين المذكور، وبيَّنوا المعنى الحقيقي المتضمن في كون المسيح ابن الله. فإن كاتباً من أوائل القرن الرابع - أي قبل الهجرة بأكثر من ثلاثمائة سنة - اسمه لاكتنتوس قال : إن سمع أحد تعبير ابن الله فلا يخطر على باله هذا التصوّر المتناهي في الفظاعة، أي أن الله أنتج ولداً بزواجه واتحاده بأنثى، فإن فعلاً كهذا لا ينطبق إلا على ذوي الأجساد الحيوانية، ولكن الله روح غير محدود، وهو واحد، فبمن يتحد؟ فهذه البنوة خاصة لا عامة أزلية، لا حادثة تدل على وحدة الجوهر بين الآب والابن.

على أن المسيح لم يتسمَّ بابن الله فقط، بل تسمى بكلمة الله أيضاً كما في يوحنا ١ :١ و١٤ ورؤ ١٩ :١٣ - قارن لقب كلمة الحياة (١يوحنا ١ :١) والاسمان كلاهما يؤديان ذات المعنى، إلا أن الاسم الأول استعمل أكثر لسببين (١) لإفادة البسطاء، وهم الأكثر الذين لا يقدرون أن يفهموا الاسم الثاني كلمة الحياة. (٢) لتنبيه إفهامنا إلى شخصية أو أقنوم ذلك الكائن المسمى بابن الله، وإلى المحبة العظيمة بين أقانيم اللاهوت (قارن يو ١٥ :٩ و١٠ مع ١٧ :٢٣ و٢٦).

ومع ذلك كله فإنه لا الاسم الأول ولا الثاني كافٍ لإيقافنا على

كنه مُسمَّاها باللغة كلها عاجزة عن التعبير عن ذات ذلك الكائن العجيب. إلا أننا لسنا مخطئين إذا استعملنا للدلالة عليه هذين الاسمين اللذين دوَّنهما الكتبة الأطهار بإلهام روح الله القدوس، لأن العلاقة بين أقنوم وآخر من اللاهوت فوق عقولنا، كما أن البحر العظيم لا يمكن أن ينحصر في إناء، ولكن قليل من مائه يطلعنا على طبيعته. ومثل ذلك تسمية المسيح بابن الله وكلمة الله نستدل منها على طبيعته الإلهية ووحدانيته مع الآب (يو ١٠ :٣٠).

وعليه فبالإيمان فقط بما قاله المسيح في هذا الصدد نقدر أن نفهم تعليم الكفارة وطريق الخلاص بالمسيح الذي قال "لَيْسَ أَحَدٌ يَأْتِي إِلَى الآبِ إِلَّا بِي" (يو ١٤ :٦ بالمقارنة مع أع ٤ :١٢).

ثم أن العهدين القديم والجديد لا يتفقان كلاهما على وصف المسيح بالأوصاف الإلهية فقط،، بل يتجاوزان ذلك الحد حتى أنهما يدلان على لاهوته بالقول الجلي الصريح فيسميانه الله ومن أمثلة ذلك ما ورد في (مز ٤٥ :٦ و٧ وأش ٩ :٦ ويو ٢٠ :٢٨ و٢٩ ورو ٩ :٥ وعب ١ :٨ و١يو ٥ :٢٠).

من يقارن في هذه الآيات وأمثالها باهتمام مشفوع بالصلاة يدرك أن تلك الألقاب الرفيعة العظيمة نسبت إلى المسيح لا عن

سبيل المبالغة ولا المجاملة، بل لإظهار حقيقة جوهرية ينبغي لبني البشر معرفتها، ولا يُخفى على المسلم المطلع أن القرآن أيضاً قد يتفق مع التوراة والإنجيل في تسمية المسيح كلمة الله. سنستفيض في شرح الثالوث الأقدس في الفصل التالي.

وهنا نرجو القارئ الكريم أن يطرح التعصب الذي يُعمي عن معرفة الحق فلماذا لا يصدق المسلم شهادة التوراة والإنجيل والقرآن وكلها تتفق على نقط هامة، ومن بينها موضوعنا أن المسيح كلمة الله وأن الله واحد؟

إن كلمة الله اسم لمسمى أو علم لأقنوم إلهي كان من البدء أي من الأزل عند الله، وبه خُلق كل شيء (يو ١ :١-٣) وقد صار إنساناً وظهر بين الناس كواحد منهم (يو ١ :١٤ وفي ٢ :٥-١١) وكان يأكل ويشرب وينام ويستيقظ، وشاطر الناس في أحزانهم وأفراحهم واختبر تجاربهم، لكنه لم يخطئ بل لم يعرف خطية (عب ٤ :١٥ قارن ٧ :٢٦ و١بط ٢ :٢١-٢٥). فهو إنسان تام ذو جسد ونفس وروح، وذلك بإجماع البشائر الأربع، وبشهادته هو عن نفسه مراراً كثيرة أنه ابن الإنسان. وهذا اللقب عدا دلالته على ناسوته يذكّرنا بالنبوات عنه في (تك ٣ :١٥ ودا ٧ :١٣) وفوق ذلك يذكّرنا أنه مخلّص

البشر، والوسيط الوحيد بين الله والناس، والإنسان الكامل المعصوم من الخطية.

كإنسان صلى إلى الله أبيه وصام إلى غير ذلك، مما لا يدع مجالاً للريب في ناسوته، لكنه كما هو إنسان تام هو إله تام أيضاً، وأكد لاهوته إذ دعا الله أباه مخبراً بانقياده له كابن ينقاد لأبيه وأنه مرسل منه كابن مرسل من أبيه قال "لِأَنِّي قَدْ نَزَلْتُ مِنَ السَّمَاءِ، لَيْسَ لِأَعْمَلَ مَشِيئَتِي، بَلْ مَشِيئَةَ الذِي أَرْسَلَنِي" (يو ٦ :٣٨) وقال "الْآبَ الذِي أَرْسَلَنِي هُوَ أَعْطَانِي وَصِيَّةً مَاذَا أَقُولُ وَبِمَاذَا أَتَكَلَّمُ" (يو ١٢ :٤٩) وقال "أَبِي أَعْظَمُ مِنِّي" (يو ١٤ :٢٨) ومع ذلك دفع ما عساه يخطر على بال أحد من أن لله شركاء بأقوال قاطعة جازمة تفيد وحدانية الله (مر ١٢ :٢٩ ويو ١٧ :٣) ووحدانيته هو مع الله (يو ١٠ :٣٠ و١٧ :٢١).

هذا المدعو كلمة الله وابن الله وابن الإنسان والرب يسوع المسيح قيل عنه في التوراة "لَكِنَّ أَحْزَانَنَا حَمَلَهَا وَأَوْجَاعَنَا تَحَمَّلَهَا. وَنَحْنُ حَسِبْنَاهُ مُصَاباً مَضْرُوباً مِنَ اللهِ وَمَذْلُولاً. وَهُوَ مَجْرُوحٌ لِأَجْلِ مَعَاصِينَا، مَسْحُوقٌ لِأَجْلِ آثَامِنَا. تَأْدِيبُ سَلاَمِنَا عَلَيْهِ، وَبِحُبُرِهِ شُفِينَا" (أش ٥٣ :٤ و٥) وإن كان بالطبيعة كلمة الله غير أنه لم يبال بسمو طبيعته الإلهية، فتخلّى عن مجده الأسنى الذي كان له عند أبيه قبل كون العالم (يو ١٧ :٥) "آخِذاً صُورَةَ عَبْدٍ، صَائِراً فِي شِبْهِ

النَّاسِ. وَإِذْ وُجِدَ فِي الهَيْئَةِ كَإِنْسَانٍ، وَضَعَ نَفْسَهُ وَأَطَاعَ حَتَّى المَوْتَ مَوْتَ الصَّلِيبِ. لِذَ لِكَ رَفَّعَهُ اللهُ أَيْضاً، وَأَعْطَاهُ ا سْماً فَوْقَ كُلِّ ا سْمٍ لِكَيْ تَجْثُوَ بِاسْمِ يَسُوعَ كُلُّ رُكْبَةٍ مِمَّنْ فِي السَّمَاءِ وَمَنْ عَلَى الأَرْضِ وَمَنْ تَحْتَ الأَرْضِ، وَيَعْتَرِفَ كُلُّ لِسَانٍ أَنَّ يَسُوعَ المَسِيحَ هُوَ رَبٌّ لِمَجْدِ اللهِ الآبِ" (في ٢ :٧-١١).

وإن سأل سائل : كيف يمكن أن تتحد الطبيعة الإلهية بالطبيعة البشرية؟ نقول كيف يمكن أن تتحد في الإنسان الروح بالجسد والباقي بالفاني. فمهما يريده الله كلي القدرة الخالق العظيم الضابط الكل يكون. ويعلمنا الإنجيل أن العلاقة بين ناسوت المسيح ولاهوته علاقة الاتحاد فقط بحيث لم تتحول الطبيعة الواحدة إلى الأخرى ولا امتزجت أو اختلطت بها، حقاً أن علاقة كهذه تفوق عقولنا المحدودة، ولا نعرفها إلا من وحي الله في كلامه المقدس. وكان هذا الاتحاد في ناسوت ولاهوت المسيح لإتمام مقاصد الله الأزلية بأن يغمر الإنسان بفيض نعمته منقذاً إياه من الهلاك والخطية وعبودية إبليس، ويصالحه مع الله، ويؤهله للتمتع بالسعادة الدائمة في حضرته. وإذ فدانا يسوع بدمه من كل أمة وقبيلة وشعب ولسان (رؤ ٥ :٩) صارت لنا حياته المُضحية التي عاشها على الأرض مثال الكمال والطهارة

والقداسة كي نقتدي به ونتبع آثار خطواته (يو ١٣ :١٥ و١بط ٢ :٢١).

وقد يعترض بعضهم بقوله : ألم يكن مستطاعاً لله أن يخلّص الإنسان من عذاب جهنم بإجراء سلطانه المطلق وإعلان رحمته لمن يرحمهم بدون طريق الخلاص المعلنة في الإنجيل؟ أليس هو الذي يقول لما يشاء كن فيكون؟ للإجابة عن ذلك نقول: إن هذا السؤال ناتج عن سوء فهم حالة الطبيعة البشرية وأعوازها الروحية، ومن عدم معرفة قداسة الله.

إن الخطية فضلاً عن كونها مضادة ومكروهة لطبيعة الله، تتلف طبيعة الإنسان الأصلية الروحية التي كانت على صورة الله (تك ١ :٢٦ و٢٧) والخطية تمنع بتاتاً إمكانية تمتع الإنسان بالسعادة الأبدية إلا إذا نجا منها. من السهل أن يذهب أهل النار إلى الجنة بأمر الله، ولكن كيف يطهر القلب والعقل والضمير من ذلك البرص الخبيث الذي يزداد سريانه يوما بعد يوم؟ حقاً أن الخطية أشر من البرص، لأنها برص الروح، الموت ينقذ الإنسان من برص الجسد، لكنه لا ينقذه من برص الروح، فمن أين تكون سعادة في الدار الأخرى لمن روحه برصاء؟ إن تشوُّه صورته وفساد هيئته يثير فيه عوامل الحزن والحسد حتى يبغض نفسه ويبغضه الآخرون، وبالأحرى جداً

يبغضه الله كلي القداسة الذي يكره ويمقت الخطية.

كانت شريعة موسى تمنع الأبرص بجسده أن يدخل محلة إسرائيل (لا ١٣ :٤٥ و٤٦) أو يعاشر رفقاءه، فكم بالأولى ممنوع من هو أبرص الروح والقلب أن يدخل فردوس النعيم ويتمتع بلقاء الله القدوس رب الأرباب؟ قال الكتاب "وَلَنْ يَدْخُلَهَا شَيْءٌ دَنِسٌ وَلاَ مَا يَصْنَعُ رَجِساً وَكَذِباً، إِلَّا المَكْتُوبِينَ فِي سِفْرِ حَيَاةِ الحَمَلِ" (رؤيا ٢١ :٢٧) وحتى برص الجسد يعجز المريض به أن يشفي نفسه منه، ويعجز الأطباء أيضاً عن ذلك، أما المسيح فشفى كثيرين من المرضى به، وهو قادر أن يطهر برص الروح أيضاً، إلا أنه ما طهر قط أبرص بالرغم عن إرادته، وكذلك لا يطهر أبرص الخطية بالقوة أو رغماً عن إرادته. إن الرجل الذي لم يشبع من الانغماس في حمأة الفجور في هذه الحياة قد فسدت روحه وأظلم ذهنه، حتى لقد يصبح منتهى السعادة في اعتباره أن تكون الأبدية أوقيانوس فجور يسبح فيه إلى ما لا نهاية. مثل هذا الإنسان مضروب بالبرص الروحي، ويسوع المسيح وحده هو القادر أن يطهر هذا البرص، لكنه لا يفعله بغير إرادة المريض، ولا يُشفى منه إلا إذا تاب توبة صادقة وآمن بالمسيح إيماناً صحيحاً، وصرخ مع داود "قَلْباً نَقِيّاً ا خْلُقْ فِيَّ يَا اَللّٰهُ وَرُوحاً مُسْتَقِيماً جَدِّدْ فِي دَاخِلِي" (مز ٥١ :١٠). إن

تطهير البرص الروحي عبارة عن تجديد القلب والروح من محبة الخطية وإعادتها إلى جمال القداسة التي أتلفتها الخطية، وكيف يكون ذلك؟ يتمم الله دائماً عمله بوسائط، وقد أخبرنا الكتاب المقدس عن الواسطة التي اختارها الله لإتمام غرضه بأن شاء أن يعلن ذاته في شخص يسوع المسيح كلمة الله ويظهر محبته للناس بأن يحمل آلامهم ويشاركهم في أحزانهم بواسطة طبيعة المسيح البشرية التي مات بها على الصليب للتكفير عن خطاياهم، حتى يجتذب قلوبهم إليه ويسبيهم بمحبته الفائقة كي يكرهوا الخطية ويثيروا عليها حرباً عواناً حتى يتم لهم النصر الباهر. هذا ما يدعوه الكتاب بالطبيعة الجديدة التي تتولد في كل مؤمن حقيقي بيسوع، هذا هو القلب النقي والروح المستقيم الذي لجَّ داود في طلبه كما ذكرنا، وعلى هذا المنهج يخلق الله الخاطئ من جديد، وعلى ذلك قوله "إِذاً إِنْ كَانَ أَحَدٌ فِي المَسِيحِ فَهُوَ خَلِيقَةٌ جَدِيدَةٌ" (٢كو ٥ :١٧).

لا نقدر نقول أن لا طريقة عند الله غير هذه لخلاص البشر من الخطية، إلا أ نه من المؤكد الذي لا شك فيه أن هذه هي الطريقة الوحيدة التي شاء الله أن يستعملها، وشاء أن يعلنها في كتابه المقدس (مت ١ :٢١ ويو ١٤ :٦) ولا يمكن وجود طريقة تجمع بين عدله ورحمته إلا هذه.

وبما أن البعض لم يفهموا تعليم الكفارة (رو ٥ :١١) فيحسن أن نشرحه بإيضاح. الكفارة هي المصالحة بين الله والإنسان، من المعلوم أنه قد سقط الإنسان من الحالة التي خلقه الله عليها، وإنه بإجرامه في خطية آدم أولاً، وبخطيته الفعلية ثانياً فقد الحياة الأبدية ونُفي من جنة عدن (تك ٣ :٣) والحياة الأبدية متضمنة في معرفة الله بواسطة المسيح (يو ١٧ :٢) فلأجل إعادة تلك الحياة للذين فقدوها عليهم أن يقبلوها من الله واهب الحياة بيسوع. فإنّ "فِيهِ كَانَتِ الحَيَاةُ، وَالْحَيَاةُ كَانَتْ نُورَ النَّاسِ" (يو ١ :٤ و٥ :٢٦ وكو ٣ :٤ و١يو ٥ :١٢) وتعطى الحياة بالمسيح وحده لا سواه (أع ٤ :١٢) وكيفية ذلك كما نعلم من الإنجيل أنه يتحد بالمؤمنين وهم يتحدون به بالإيمان كما تتحد أغصان الشجرة بأصلها والأصل بالأغصان (يو ١٥ :١-٦). وعلى هذا المنوال تجري فيهم طبيعته القدوسة وسجاياه الكاملة، وشُبِّه ذلك الاتحاد بالاشتراك في جسده ودمه (يو ٦ :٤٠ و٤٧ و٤٨ و٥١-٥٨ و٦٣)، وكأنه إذ تسربل طبيعة البشر كإنسان صار رأساً جديداً للجنس البشري. أو بعبارة الكتاب آدم الثاني وروحاً محيياً ونائباً عن البشر (يو ١ :١٤ و١كو ١٥ :٢٢ و٤٥)، فالذين يتحدون به بالإيمان (غل ٢ :٢٠) يأخذون سلطاناً أن

يصيروا أولاد لله (يو ١ :١٢ و١يو ١-٣ و٤ :٩) بفاعلية الميلاد الثاني الصادر من السماء بروح الله القدوس (يو ٣ :٣ و٥) فنموت مع المسيح عن الخطية ونحيا به من جديد للبر (رو ٦ :١-١١).

ولكي يخلص الإنسان من الموت الأبدي الذي تسبَّب عن الخطية كنتيجة طبيعية وعقوبة شرعية (تك ٣ :٣ وحز ١٨ :٢٠ ورو ٦ :٢٣) يجب أنه كما عصى وصية الله عن اختيار (تك ٣) يطيعها تماماً باختياره أيضاً، وإذ صار ذلك المسمى كلمة الله إنساناً كاملاً فقد تمم الوصية، لأنه أطاع حتى الموت موت الصليب (في ٢ :٧ و٨ قارن رو ٥ :١٩) وبموته الثمين عنا وهو لم يعمل خطية قط قدم حياته فدية عن كثيرين (أش ٥٣ :٥ و٦ مت ٢٠ :٢٨ ورو ٣ :١٥ و٤ :١٥ و٥ :٨-١١ و١بط ٢ :٢٤) فيصحُّ أن يُقال إن المسيح حمل قصاص خطايانا (أش ٥٣ :٨) ولكنه لم يكن مذنباً، لأننا نعلم أنه ليس فيه خطية البتة (١يو ٣ :٥) بل يصح أن يُقال أيضاً أن كل ما احتمله من الآلام كان بسبب خطايانا. وبواسطة آلامه كل الذين يؤمنون به إيماناً حقيقياً يخلصون من الخطية ومن نتيجتها النهائية المزعجة التي هي البعد عن حضرة الله أو الموت الأبدي. فإذا كان المسيح مجرد إنسان

كانت طاعته حتى الموت غير كافية لتخليص أحد غير نفسه، وما استطاع أن يمنح حياة روحية للغير.

وأما إذا كان إلهاً كما هو إنسان فيقدر أن يخلّص ويمنح حياة أبدية لجميع الذين يؤمنون به (يو ٥ :٢٦). إن الله لا يموت ويستحيل أن يموت، ولكن كلمة الله إذ صار إنساناً جاز بحسب طبيعته البشرية أن يذوق الموت من أجل كل واحد (عب ٢:٩) وقد مات من أجلنا (رو ٤ :٢٥ و٦ :١٠) وقام ثانياً منتصراً على الموت وكاسراً شوكته (٢تي ١ :١٠) بل واهباً الحياة لكل من يتحد به بالإيمان (يو ٣ :١٦ و١١ :٢٥ و٢٦).

وقد قلنا إن الله يكره الخطية حتماً لأنه قدوس بالطبيعة، لا سبيل لنا أن نغلب الخطية المكروهة منه إلا بإعلان محبته في المسيح الذي نحبه لأنه أحبنا أولاً (يو ٣ :١٦و١يو ٤ :١٩) وبهذه المحبة الحاضرة نستطيع أن نحبه ونعيش طبقاً لإرادته بمساعدة نعمة روحه القدوس، وهكذا نكون صالحين إلى حدٍّ ما في هذه الحياة، وصالحين تماماً بعد الموت (٢كو ٥ :١٤).

فبموت المسيح على الصليب نحصل على فائدتين : الأولى، الخلاص من الموت الأبدي، والثانية، النعمة التي بها نكره الخطية وننتصر عليها

(رو ٦ :٥-١١ وغل ٢ :٢٠ و٦ :١٤ وكو ٣ :١-١٧ و١يو ١ :٧) لأنه قد افتدانا من عبودية الخطية (مت ٢٠ :٢٨ و١كو ١ :٣٠ وأف ١ :٧ و١بط ١ :١٨-٢١) وقدم الكفارة الوافية الحقيقية عن الخطية (عب ٢ :١٧ و١ يو ٢ :٢ و٤ :١٠) وتلك الكفارة هي التي كانت ترمز إليها ذبائح وقرابين العهد القديم.

وإن ضميرنا الذي يبكتنا على خطايانا ويهددنا من حين إلى آخر بغضب الله هو دليل قاطع على عظم حاجتنا إلى المصالحة مع الله، وإذ كنا في حد ذواتنا عاجزين عن تقديم الكفارة المرضية الكاملة قد كفانا الله مؤونة ذلك وقدَّمها على حسابنا في شخص يسوع المسيح الذي هو إنسان كامل كما هو إله كامل. ونعلم من موت المسيح مقدار فظاعة الخطية وسوء عاقبتها، لأنها أدت إلى أعظم جرم تقشعر له الأبدان، إلى قتل ابن الله الوحيد، وأن محبة الذات والإرادة كانت المحرك لآدم إلى المعصية التي أنتجت هذا الجرم العظيم، فيلزم تضحية الذات التي هي أصل الخطية، وهذا ما فعله يسوع بموته على الصليب لأنه ضحى بذاته وضحى بمشيئته لحياة العالم، ولا يتمّ استحقاق موته الموجب للتكفير عن خطايانا بآلامه بالجسد، وإن كان بالغاً الحد، بل على ذبيحة محبته غير المحدودة، تلك المحبة التي جعلت

القدوس يموت بمحض اختياره عن الأثيم الفاجر (يو ١٠ :١٧ و١٨) فهو نائبنا الذي وفى عنا مطالب العدل الإلهي القاضي علينا بحكم الموت (حز ١٨ :٢٠).

فماهية ذبيحة المسيح هي في تسليمه نفسه بإرادته الحرة وتقديمه نفسه في طاعة كاملة حتى الموت أكثر منها في حقيقة الموت ذاته.

وبالجملة تألم المسيح إلى الحد الذي في وسعه أن يحتمله في ناسوته المتحد باللاهوت، فلم يتألم في جسده فقط بل في ذهنه وروحه، لأن حزنه على خطايا الناس كسر قلبه المحب (يو ١٩ :٣٤) وإذ كان واحداً مع أبيه، فقداسته ومحبته للناس قادتاه أن يشعر بفظاعة خطايانا، إذ شاركنا في البشرية وأحسَّ بهول اللعنة التي ينبغي أن تصدر من الله القدوس ضد الخطية، ولهذا ذاق الموت من أجل كل واحد (عب ٢ :٩) بطريقة خاصة لا يمكن أن يعلمها إلا من كان قدوساً (مز ٢٢ :١ ومت ٢٧ :٤٦ ومر ١٥ :٣٤) وبهذه الكيفية أظهر الله محبته وعدله ورحمته مرة واحدة.

الذي مات على الصليب بناسوته كان إلهاً تاماً كما كان إنساناً تاماً، وبما أنه حمل خطايانا ومات عنا نحن الأثمة فالذين يتحدون معه بالإيمان كاتحاد الأغصان بالكرمة (يو ١٥ :٤ و٥) ينالون غفران خطاياهم ويُعتَقون من خوف الموت (عب ٢ :١٤ و١٥) لأن شوكة الموت هي الخطية

(١كو ١٥ :٥٦) التي تلقي في قلوب غير المغفور لهم الرعب العظيم من غضب الله المخيف، وأما كون ذبيحة المسيح حازت القبول عند الله فيدل عليه قيامته من الأموات وصعوده للسموات (رو ١ :٤ ولو ٢٢ :٥١) ليظهر أمامه لأجلنا نيابة عنا (عب ٩ :٢٤) وعودته إلى المجد الذي كان له عند أبيه قبل كون العالم (يو ١٧ :٥).

ولنشرح الآن بعض البركات الناتجة عن الكفارة التي قدمها يسوع أولاً : إن الله إكراماً له يغفر خطايا وتعديات المؤمنين به الحقيقيين (رو ٥ :٥-٢١ وأف ١ :٣-٧ وعب ١٠ :١-١٥ و١ يو ١ :٧) ولأجل المسيح يمنحهم الله نعمته الخصوصية ونور هدايته السماوي حتى يدركوا حالتهم الداخلية ويعرفوا الإله الحق معرفة عميقة، ويملأ قلوبهم بمحبة من أحبهم أولاً، بحيث يقدرون أن يحفظوا وصاياه ويثبتوا في حالة نقاوة القلب ويعرفون الحق (يو ٨ :٣١ ورو ٥ :٥ و٨ :٥ و١ كو ١ :٤ و٥ و٢ كو ٤ :٦ وأف ١ :١٥-٢٣ وفي ٤ :١٣ وكو ٢ :٣ وتي ٢ :١١-١٤ وعب ٩ :١١-١٤). ومن فوائد الفداء أيضاً العتق من عبودية الشيطان ومن محبة الخطية، والفوز بميراث السعادة الدائمة (رو ٨ :١٢-١٧ و٢تي ١ :٩ و١٠ وعب ٢ :١٤ و١٥ و١بط ٢ :٣-٩).

وحيث أن الخلاص مقدم في المسيح للخطاة فهو أمر ثمين وعظيم

يطهر به الناس من نجاسات الخطية، حينئذ يفتح الله لهم خزائن بركاته وإحساناته فينير أذهانهم ويقدس قلوبهم، وفي الختام يأخذهم إلى فردوس نعيمه ليتمتعوا بالحياة الأبدية. لقد ظهر الآن كالشمس في رابعة النهار إن تعليم الإنجيل يشبع أشواق القلب ويغني طلبات النفس كما بينا في المقدمة، وعليه يكون الكتاب المقدس كلام الله الموحى به لسعادة البشر.

فإن سمع أحد بشارة الخلاص ورفضها يكون سبب رفضه عدم رغبته في التوبة عن الخطية، وعدم معرفته حالة قلبه الأثيمة في نظر الله. وإن كان أحد لا يكترث بالخطر الذي يسرع به للهلاك الأبدي فهيهات يسعى في معالجة برصه الروحي بالدواء الذي وضعه طبيبنا العظيم.

أما الإنسان الحريص المحاذر من حالة قلبه الأثيمة، فيعلم بُغض الله القدوس للخطية، ويشعر بهول الخطر الذي ينذره بالهلاك الأبدي بسبب خطاياه. وبما أنه غير قادر أن يكفر عنها بنفسه، يبادر أن يسمع بشارة الخلاص الذي اقتناه المسيح بدمه الكريم من أجله ومن أجل كل الذين يؤمنون به. إن خبراً كهذا يلذ سمعه في أذنيه أكثر من أية بشارة أخرى على وجه الأرض، لأنها بشارة الخلاص المجاني والدواء الذي يشفي القلوب المكسورة من ثقل حمل الخطايا، والمرهم

الذي يعصب جرح النفس المزمنة. أما إذا أحب المرء الخطية وكان متفانياً في حب الشهوات الجسدية سيبغض النور المعلن في الإنجيل، كما يبغض الخفاش نور الشمس، ويهرب من أشعتها الجميلة اللامعة إلى مغائر الظلمة. مثل هذا جدير به أن يطرح في الظلمة الخارجية التي أحبها أكثر من النور (يو ٣ :١٩-٢١).

ويستحيل عليه أن يفهم كثيراً أو قليلاً من الأمور الروحية، حتى أنه يرى الإنجيل كأنه جهالة وحماقة كما رآه هكذا قدماء اليونان (١كو ١ :١٨-٢٥ و٢ :١٤)، في حين أن الراغب في معرفة الحق وعمل إرادة الله، تقع في نفسه بشارة الخلاص وإعلان محبة الله موقع القبول والاستحسان، وتفيض كينبوع حي يروي قلبه الظمآن في سفره عبر صحراء الحياة الدنيا.

في الخلاص، أعلن الله محبة ورحمة مقترنة بعدل وقداسة بكل وضوح، أما محبته الفائقة فقد ظهرت ببذله ابنه الوحيد، بهاء مجده، ورسم جوهره لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية (عب ١ :٣ ويو ٣ :١٦) فهذا التعليم الذي لا يُقدَّر بثمن يكشف لنا الحجاب عن صفات الله الجليلة التي أعظمها المحبة، حتى إذا حملنا بتيار محبته نتجنب الخطية المكروهة لديه، لأنه قدوس، ونحفظ وصاياه سالكين في

طريق الإيمان بالمسيح المؤدي للحياة الأبدية.

ومن يتأمل في أحوال الخليقة يظهر له ما يشبه طريق الخلاص، فإن الله خلق كثيراً من خلقه على تضحية الذات على مذبح المحبة الطبيعية، مما يصح أن يُتَّخذ مثالاً لآلام المسيح لأجلنا. فنرى الآب يخاطر بحياته ويعاني الشدائد ويذوق المرارة لأجل قوت أبنائه وكسوتهم، وترى الطبيب الأمين يعرض نفسه للخطر والموت لخلاص حياة العليل. حتى في الطيور نرى الدجاجة تحضن فراخها، وإن سطا عليها عدو تحاربه وتحمل الأذى عنها، والعصفور يقع في مواضع الخطر ليلتقط الحب لفراخه الصغار، ويقاسي العناء لدفع الشر عنها، فلماذا لا يكون معقولاً أن خالق المحبة الطبيعية هو محب أعظم من كل ذلك حيث أعلن محبته على منهج الضحايا فبذل ابنه الوحيد الذي هو واحد معه ليموت على الصليب في سبيل خلاص الإنسان المسكين ولكن "مَنْ لَا يُحِبُّ لَمْ يَعْرِفِ اللّهَ، لِأَنَّ اللّهَ مَحَبَّة" (١يو ٤ :٨).

وعليه فالإيمان بالمسيح الذي أحبنا وأسلم نفسه لأجلنا هو الدواء الوحيد الذي وصفه الله العليم الحكيم لبرص الخطية، فكل من يثق في حكمة الله وعلمه فليستعمل هذا الدواء، وحينئذ يعلم بالاختبار إن كان المسيح مخلّصاً أم لا، لأن الشفاء من المرض دليل قاطع على حُسن

الدواء وجودة تأثيره، ومتى برئ الخاطئ من مرضه وعلم بالتحقيق أن المسيح مخلّص، يشكر فضله ويعلم أن الكتاب المقدس حق.

الفصل الخامس

في التعليم بإله واحد في ثلاثة أقانيم

ما قيل في الفصل المتقدم عن طريق الخلاص بالمسيح لا يُقبل عند الطالب كل القبول حتى يطلع على عقيدة التثليث التي طالما كانت حجر عثرة في طريق إخواننا المسلمين الراغبين في البحث، لأنهم لا يفهمون معنى التثليث، فحسبوه مناقضاً للتوحيد. والحقيقة خلاف ذلك لأن التعليم بوحدانية الله من الأساسات الجوهرية التي ترجع إليها عقيدة التثليث، فإن جميع المسيحيين لا يؤمنون بثلاثة آلهة بل بإله واحد.

من يطلع على تفسير الجلالين لسورة المائدة ٥ :٧٦ وتفسير البيضاوي لسورة النساء ٤ :١٥٦ يرى أن أولئك المفسرين تصوروا أن النصارى يعتقدون أن الثالوث هو ثلاثة آلهة: الآب والأم والابن، وحسبوا مريم العذراء إلهاً، وأنها أحد الآلهة الثلاثة المذكورين. لا ننكر أن بعضاً من جهلة النصارى في عصر محمد

أكرموا مريم إلى حد العبادة، بل أكرموا كثيراً من القديسين وقدموا لهم العبادة التي لا تجوز إلا لله وحده، كما أن كثيرين من جهلة المسلمين يفعلون مثل هذا الفعل مع أوليائهم ومشايخهم. وكما أن المطلعين من المسلمين لا يجدون ما يؤيد عبادة الأولياء في القرآن كذلك لا يصح أن نؤاخذ النصارى بما كان يعمله الجهلة في العصور المظلمة مما لا ينطبق على الكتاب المقدس بل يخالفه. فلا تحسبن القرآن يحرم عبادة العذراء والكتاب المقدس يجيزها، حاشا وكلا! بل هذا الذي ظنه المسلمون تثليثاً في ذات الله ليس هو من التثليث في شيء، فإن المسيحيين على اختلاف مذاهبهم لم يقل فريق منهم بثلاثة آلهة.

وعلى ما تقدم يظهر أن هؤلاء المفسرين أضلهم التعصب الذميم حتى دونوا في كتبهم عن النصارى ما هم أبرياء منه وكان خليقاً بهم -كما بكل عالم فاضل- أنهم إذا أرادوا أن يكتبوا شيئاً في موضوع هام كهذا أن يبحثوا أو ينقبوا حتى يقفوا على الحقيقة بعينها، لئلا يكونوا عثرة في طريق الباحث الأمين. إننا كما ذكرنا لا نعتقد بثلاثة آلهة، ولا أن

(١) وعلى ذلك نطلب من القارئ مراجعة دستور الإيمان الرسولي والقانون النيقوي والقانون الاثناسيوسي وقانون الكنيسة المصلحة

مريم واحدة منهم، وإننا نشدد إنكار تعدد الآلهة كالمسلمين أنفسهم، وستعلم ذلك عندما نتقدم في شرح الموضوع.

ذكرنا في ما تقدم أننا نؤمن بإله واحد كما في التوراة، حيث يقول "إِسْمَعْ يَا إِسْرَائِيلُ: الرَّبُّ إِلهُنَا رَبٌّ وَاحِدٌ" (تثنية ٦ :٤) وفي العهد الجديد اقتبس المسيح هذه الآية أساساً لتعليمه (مر ١٢ :٢٩) وأما عقيدة التثليث فهي شرح للوحدانية ذُكرت لمناسبة التعليم في مواضيع أخرى. مثال ذلك وصية المسيح لتلاميذه أن يكرزوا بالإنجيل للناس قال "عَمِّدُوهُمْ بِاسْمِ الآبِ وَالِابْنِ وَالرُّوحِ الْقُدُسِ" (بشارة متى ٢٨ :١٩) فيدل هذا القول على حقيقة التوحيد، كما يدل على تثليث الأقانيم، لأنه قال باسم بصيغة المفرد لا بأسماء بصيغة الجمع، مع أنه ذكر الأقانيم الثلاثة كلاً على حدة. ومن هذه العبارة نفهم أنه لا يمكن أن يكون الابن والروح القدس مخلوقَين بدليل أنهما مقرونان باسم الآب كشيء واحد، بخلاف عدم ملاءمة الاسم نفسه لما يكون مخلوقاً. فإن كلمة ابن الله والروح القدس لا يصح أن يسمى بهما الشيء المخلوق، وهذه حقيقة ظاهرة لمن يتأمل.

وعقيدة التثليث يمكن تلخيصها على هذا المنوال :

(١) الآب والابن والروح القدس جوهر واحد وإله واحد فقط.

(٢) كل من هؤلاء الأقانيم الثلاثة له خاصيّة لا يشترك فيها معه أقنوم آخر.

(٣) إن انفصل أقنوم عن الأقنومين الآخرين -وذلك مستحيل- لا يمكن أن يكون هو الله.

(٤) كل أقنوم متحد مع الأقنومين الآخَرين من الأزل، وهذه الوحدة غير القابلة للانفصال هو الله.

(٥) كل أقنوم مساوٍ للأقنومين الآخرين في الذات والمجد،

(٦) العمل الخلاصي لكل أقنوم وُصف أحسن وصف في الكتاب المقدس بهذه الألقاب : الأول الآب والخالق والثاني ابن الله والفادي والثالث المقدس والمعزي،

(٧) كما أن الأقانيم المقدسة واحد في الذات هكذا هم واحد في المشيئة والقصد والسلطان والقِدم وسائر الصفات الإلهية.

أما قول المسيح "أَبِي أَعْظَمُ مِنِّي" في يو ١٤ :٢٨ فهذا بالنسبة إلى ناسوته، لأنه يعبّر عن وحدته مع الآب في الذات بقوله "أَنَا وَالْآبُ وَاحِدٌ" (يو ١٠ :٣٠). وقد يعترض بعضهم بأن هذه العقيدة المسيحية متناقضة، وبما أن اعتراضهم خطأ ظاهر نجيب أن التثليث ليس خطأً بل هو سر عجيب، ويجب أن ننتظر أسراراً كثيرة في الكتب

المقدسة وخصوصاً ما يتعلق بجوهر الله. إذ لو خلت حقيقة الله من الأسرار لأدركتها العقول البشرية كما تدرك سائر الأشياء المحدودة، وهذا محال، لأن السر هو أن لا تعرف كيف ينمو الزرع مع أنك تعرف أنه ينمو، والعالم مملوء بالأسرار، والإنسان سر في نفسه فإنه لا يقدر أن يعرف كيف تسكن روحه في جسده وكيف تدبّره فهل تؤخذ هذه البراهين على بطلان الحقائق؟ لو كان الأمر هكذا لكان كل شيء باطلاً. والكتاب المقدس أحق وأولى بأن يتضمن أسراراً غامضة تحار في معرفة كنهها فطاحل العلماء. فهل من الصواب والحكمة أن نرفض كتاب الله لاشتماله على مسائل تفوق عقولنا ونستبد بآرائنا الخصوصية؟ فاحكموا أنتم!

كل مطلع خبير بالكتاب المقدس يعلم أن عقيدة الثالوث مأخوذة منه بدلالة آيات كثيرة في غاية الصراحة، وهي التي منها صاغ المسيحيون نصَّها مع اختلاف قليل في اللفظ فقالوا -لا يوجد إلا إله واحد حي حقيقي أزلي، ليس له جسد، ولا يتألم، غير متناهٍ في القدرة والحكمة والصلاح، صانع وضابط كل الأشياء ما يُرى وما لا يُرى،

ولذاته القدوس ثلاثة أقانيم في جوهر واحد : الآب والابن والروح القدس.

وعدا موافقة هذه الصيغة للأسفار المقدسة فإنها موافقة لمؤلفات المسيحيين الأولين الذين بقيت كتاباتهم إلى عصرنا الحاضر مما يدل على أنهم فهموا الكتاب من جهة هذه الحيثية كما فهمناه.

ويعلّمنا العقل أن لا نتجاوز في البحث والاستقصاء ما أعلنه الله عن ذاته وقال الحكماء : البحث عن ذات الله كُفر.

يؤكد بعض إخواننا المسلمين أن التوحيد مخالف للتثليث، لكن الحقيقة هي حيث أن العقيدتين معلنتان في كلام الله، فلا يمكن أن يكون بينهما تناقض لأن التوحيد لا ينفي كل نوع من أنواع التعدد. مثال ذلك من المعلوم أن الله متعدد الصفات، يقال رحيم حكيم قدير عادل الخ حتى وصفه علماء المسلمين بأنه مجمع الصفات الحسنة جامع صفات الكمال، لكن تعدد الصفات لا يبطل وحدة الذات. ومثل ذلك تعدد الأقانيم لا يبطل وحدة الجوهر الإلهي وعلى فرض أنه لا يوجد في الخليقة ما يصلح أن يؤخذ مثالاً موافقاً لشرح هذه الحقيقة إلا أنه يوجد بعض الأمثلة التقريبية -ورد في التوراة أن الله خلق الإنسان على صورته (تك ١ :٢٦).

ويوافق ذلك ما قاله علي بن أبي طالب من عرف نفسه فقد عرف ربه. فلنتخذ هذا مثالاً تقريبياً لموضوعنا، فنقول إن كل رجل هو واحد غير أنه يصح أن يتكلم عن روحه ونفسه وجسده قائلاً عن كل منها -أنا- هنا ثلاثة أشياء يكاد يتميز أحدها عن الآخر، لأن الروح ليست النفس، ولا هذه ولا تلك هي الجسد. وعليه فليس من الخطأ أن ندعو كلاً من هذه الثلاثة رجلاً، إلا أنه لا يوجد في الثلاثة إلا رجل واحد. ومما لا شك فيه لا يكون أحد الثلاثة خلواً من الاثنين الآخَرين، كما لا يمكن التفريق بين الواحد والآخر على الأقل في هذه الحياة.

إن هذا سر من الأسرار الكثيرة المودعة في طبيعتنا ولسنا نفهمها، فإن كل امرئ على وجه الأرض يشعر بهذا التمييز في طبيعته بين روحه وعقله ونفسه، في حين أنه لا يرتاب في وحدة ذاته، على أننا لسنا نقيم هذا المثال ولا غيره دليلاً على صحة التثليث، بل الدليل على صحته كما قلنا مراراً الكتاب المقدس وكفى به دليلاً لأنه صادر من الله وهو يعرف نفسه أكثر مما نعرفه. وغاية ما نقصده من سرد الأمثلة أن ندفع الشبهات التي يعترض بها على هذا الموضوع ونبرهن أنها صادرة عن سوء فهم لإزالة ما عساه يكون عثرة أمام طالب الحقيقة المخلص.

ومما لا يصح إغفاله أن القرآن يتفق مع الكتاب المقدس في إسناد الفعل وضمير المتكلم في صيغة الجمع إلى الله في أن أمثلة ذلك أقل بكثير في التوراة عما هي في القرآن ومما ورد في التوراة هذه المواضع (تك ١ :٢٦ و٣ :٢٢ و١١ :٧) وفي القرآن ما ورد في سورة العلق وهي عند المسلمين أول ما نزل من الوحي على محمد، فقد ورد في عدد ٨ لفظ الرب اسماً للجلالة وعدد ١٣ لفظ الله وكل من اللفظين في صيغة المفرد، ولكن في عدد ١٨ ورد ضمير الجلالة بصيغة الجمع حيث يقول "سَنَدْعُ الزَبَانِيَة" (سورة العلق ٩٦ :١٨).

وحيث أن الكتاب المقدس والقرآن يتفقان على هذا الأسلوب من التعبير عن ذات الجلالة بضمير الجمع، فلا يخلو ذلك من قصد. أما اليهود فيعللون عنه بكون الله كان يتكلم مع الملائكة، إلا أن هذا التعليل لا يلائم نصوص التوراة ولا القرآن. ويقول المسلمون إن صيغة الجمع هي للتعظيم وهو تعليل سخيف لا يشفي غليل الباحث النبيه، وليس لنا أن نخوض في شرح القرآن إنما أوردنا ذلك إشعاراً بأننا لا نخطئ إذا اعتبرنا عقيدة التثليث موافقة لإسناد ضمير الجمع إلى الله في القرآن.

وقلنا إنه لا توجد مشابهة وافية بين الله والمخلوقات، إلا أنه توجد بعض الأشياء عدا ما ذكرنا آنفاً تثبت التعدد في الوحدة، مثال ذلك

خيط واحد من أشعة الشمس يتضمن ثلاثة أنواع من الأشعة : ١- النور ٢- الحرارة ٣- العمل الكيماوي. وهذه الثلاثة شعاع واحد بحيث لا يمكن فصل إحداها عن الأخرى لتتكون ثلاثة أشعة بل بالعكس الشعاع الواحد لا يتكون إلا من الثلاثة معاً. وكذلك النار والنور والحرارة ثلاثة أشياء، ولكنها واحد فلا نار من غير نور وحرارة مع أن النور والحرارة من طبيعة النار وأصلها، نقول إن النار تعطي نوراً وحرارة، إذ أن النور والحرارة تنبعثان من النار. ولكن ذلك لا يجعلهما تنفصلان عن النار أبداً، فلا تسبقهما في الوجود، ولا تتأخر عنهما في العدم. وكذلك العقل والفكر والكلام واحد، مع اختلاف كل منها عن الآخر، لا نقدر أن نتصور العقل عارياً عن الفكر ولا الفكر عارياً عن الكلام منطوقاً به أو غير منطوق. ففي هذه الأمثلة جميعها لا يشوش التعدد على الوحدة بل يتفقان تمام الاتفاق، ولنا أن نستنتج من ذلك أن وجود ثلاثة أقانيم في اللاهوت ليس مضاداً للعقل السليم، بل له شبه ونظائر في الطبيعة وسند قوي في الكتاب.

وهنا فكر آخر له علاقة بالتثليث إن من أسماء الله الحسنى عند المسلمين كونه ودوداً أي محباً وهذا يوافق ما جاء في الكتاب في إرميا ٣١ :٣ ويوحنا ٣ :١٦ و١يوحنا ٤ :٧ -١١. وبما أنه غير متغيّر فهو

ودود من الأزل ويلزم عن ذلك أن يكون لـه مـودود أي محبـوب مـن الأزل قبل خلق العـالم، فمن عساه يكون ذلـك المحبـوب الموجـود من الأزل عنـد الله؟ ففي عقيدة التثليث نجد الجواب الصـريح والوحيد لهذا السؤال، فنقول إن أقنوم الآب هو الودود، وأقنوم الابن المودود، ومـا أحسن مـا قـال يسـوع فـي هـذا المعنـى مخاطبـاً أبيـه "أَحْبَبْتَنِـي قَبْـلَ إِنْشَـاءِ العَـالَمِ" (يـو ١٧ :٢٤) وعليه لا يمكن الاعتقاد بوجود صفة المحبة فـي الله مـن الأزل مـا لـم نعتقد بتعدد الأقـانيم مـع وحـدة الجـوهر، وإلا كـان الله متغيـراً ابتـدأ أن يحـب مـن الوقت الذي خلق لـه محبوباً من الملائكة أو البشر، وهذا باطل لأنه قال "أَنَا الرَّبُّ لَا أَتَغَيَّرُ"(مل ٣ :٦).

وربما يسأل سائل : ما فائدة الإيمان بالثالوث المقدس؟ ألا يكفي أننا نؤمن بأن الله واحد بصرف النظر عمـا إذا كـان ذا ثلاثـة أقـانيم أو ذا أقنـوم واحد؟ فأجيب : فائدة الإيمان بالتثليث ليست أقل من الإيمان بالتوحيد لجملة أسباب جديرة بالنظر، منها حل المعضلات الكثيرة التي يُعترَض بهـا علـى الوحدانية المحضة، مثل كيف يكون الله هو الكافي والصمد والمتكلم والغني والودود من قبل أن يكون كائن سواه، لأن كل هذه الصفات ومـا شـاكلها لا يمكن التعليل عنها إلا بتعدد الأقانيم الإلهية مـع توحيـد الـذات كمـا مـر بيانـه في كلامنا عن وصف الله بالودود.

وهذا التعليم أيضاً يمكّننا من فهم بعض تعاليم الكتاب المقدس، كما أنه يبين لنا شرح بعض الآيات القرآنية. وأهم ما ذكر أن الإيمان بالتثليث مفيد لأنه يمهد السبيل لتصديق دعوى المسيح أنه كلمة الله المثبوتة في كل من الإنجيل والقرآن وتسمية المسيح كلمة الله في سورة النساء ٤ :١٦٩ وقول الحق في سورة مريم ١٩ :٣٥ أسلوب حسن للتعبير عن طبيعة المسيح ووظيفته بأنه الوسيلة الوحيدة لإعلان الله للناس. لأن المراد من كلمة أو قول هو ما يعبر به المتكلم عن فكره، والمتكلم هنا الله . وحيث أنه دعى المسيح كلمته فيكون هو المعبر الوحيد الكامل عن فكر الله ومظهره القدوس الذي يظهر به لخليقته المحدودة وبه تكلم الأنبياء مسوقين من الروح القدس (لو ١٠:٢٢ و يو ١:١-٢ و ١٨و ١٤:٦-٩ و ١بط ١٠:١٢) وحيث أن المسيح هو الواسطة الوحيدة لإعلان الله يجب أن يعرفه هو أولاً ويعرف إرادته، وقد عرفه كل المعرفة بدليل قوله أما أنا فأعرفه الآب يعرفني وأنا أعرف الآب (يو ٨ :٥٥ و١٠ :١٥). ومن هذه الحيثية تمتاز معرفة المسيح لله عن معرفة الإنسان. رُوي عن محمد أنه قال في حديث له مخاطباً لله ما عرفناك حق معرفتك، ويعترف علماء الإسلام أن الله عظيم وسام بحيث لا يدرك كنهه عالِم ولا نبي ولا رسول،

فلا يعرف الله حق معرفته إلا كلمته أي المسيح. فإذا كان الأمر كذلك فلا يجوز أن يكون المسيح مجرد مخلوق ولو كان أسمى المخلوقات وإلا لقصرت معرفته دون إدراك الله إدراكاً كاملاً، لأنه لا يعرف الله إلا الله. وعليه يكون المسيح أقنوماً إلهياً، فعقيدة التثليث إذاً تزيل كل صعوبة تخالج العقل في قبول دعوى المسيح بأنه كلمة الله، وبالتالي قبول خلاصه.

وعدا ما ذُكر فإنه في الإيمان بالتثليث حسنة كبيرة تغمر الشرقيين والهنود، الذي ساد عليهم الاعتقاد بالقضاء والقدر حتى أنهم استسلموا للجمود والتهاون فتأخروا عن غيرهم من الأمم في جهاد الحياة، مع أنهم من حيث الذكاء والإقدام يتساوون مع الجميع إن لم يزيدوا عنهم كما هو مثبوت في التاريخ. فما الذي حدا بهم إلى التقهقر في سلّم المدنية غير استحكام عقيدة القضاء والقدر في أذهانهم؟ فلو آمنوا أن الله لم يقدِّر عليهم سوءاً ولا قضاء بخرابهم بل يحبهم حباً فائقاً بحيث أنه أعلن لهم نفسه في شخص كلمته الأزلي وحمل آلامهم وأحزانهم ومات بالجسد لخلاصهم وقام ثانياً لأجلهم، لما بقي عندهم محل للشك في حُسن مراد الله من جهتهم، ولاستنارت أذهانهم وفهموا نصوص الإنجيل الذهبية كقوله "هكَذَا

أَحَبَّ اللّهُ العَالَمَ حَتَّى بَذَلَ ا بْنَهُ الوَحِيدَ . لِكَيْ لَا يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ بَلْ تَكُونُ لَهُ الحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ" (يو ٣ :١٦ و١يو ٤ :٧ -١٦).

إن رفض إخوتنا المسلمين لعقيدة الثالوث هو بالتالي رفض للاهوت المسيح، فكلما اجتهد المسلمون في البحث عن الله زادوا بعداً عن معرفته، وعليه نجد في مصر اليوم حديثاً حل محل مثل شائع هو كل ما خطر ببالك فهو هالك. والله بخلاف ذلك. وهكذانرى الإسلام يؤول إلى عدم معرفة الله، وإن إيماننا نحن المسيحيين بمظهر الله الكامل يمكّننا من معرفة الله ومن محبته، إذ أحبنا أولاً (١يو ٤ :١٩) وإن روح الله القدوس يحل في قلوب المسيحيين الحقيقيين وينيرها بإرشاداته إلى معرفة الله ويقرّبهم إليه (يو ١٤ :١٦ و١٧ و٢٦ و١٥ :٢٦ و١٦ :٧ و١٥ وأعمال ١ :٥ و٢ :١ -٤ و١كو ٣ :١٦ و١٧ و٦ :١٩). وبذلك يتصالح المسيحيون مع الله ويكونون في شركة معه كأبناء مع أبيهم المحب السماوي عوضاً عن أن يكونوا عبيد خائفين في حضرة سيدهم القهار -كما هي حال غيرهم.

إذاً نتعلم من الكتاب المقدس أن الله العلي العظيم أعلن لنا نفسه (١) أنه الآب القدوس المحب الذي وإن كان شديد البغض والمقت للخطية، غير أنه قَصَد منذ الأزل في محبته وكثرة رحمته أن

يدبر طريقة خاصة تيسّر الخلاص لجميع البشر الذين يقبلون نعمة الله، فيتصالحون معه بالقلب والعقل والإراداة والسلوك (٢) وأعطى الله هذا الإعلان للناس على يد كلمته ابن الله الوحيد الذي بواسطته فقط يصل المخلوق أياً كان لمعرفة الآب السماوي، وإذ أخذ ابن الله جسداً ولبس طبيعة البشر حمل أحزاننا وهمومنا، ومات على الصليب من أجل خطايانا، قام من أجل تبريرنا (رو ٤ :٢٥). (٣) ولكي يقبل الناس هذا الخلاص المبارك أرسل روحه القدوس، الأقنوم الثالث من اللاهوت، ليبكتهم على خطاياهم ويحقق لهم عظيم احتياجهم إلى مخلّص يخلّصهم وينير أذهانهم بمعرفة غِنى الإنجيل، حتى يطلبوا وينالوا ويتمتعوا بالحياة الأبدية.

ولا يبرح من ذهنك أن البرهان الذي يُقام على صحة عقيدة الثالوث الأقدس بعينه يُقام على صحة عقيدة الحياة بعد الموت ويوم القيامة، وغير ذلك من العقائد التي يمتاز بها المؤمن عن الكافر وعابد الله عن عابد الصنم، بمعنى أن هذه العقائد جميعها مؤيدة بكلام الله، فإن قبلنا عقيدة منها لأنها مؤيَّدة بكلام الله، فلماذا لا نقبل العقائد الأخرى في حين أنها مؤيدة بكلام الله أيضاً؟

ولنتقدم الآن لإيضاح حقيقة أخرى لعلها تساعد القارئ للتثبُّت

من الموضوع الذي نحن بصدده. نعلم بدليل قلوبنا عن الخلاص الذي يقدمه لنا الرب يسوع وكيف نحصل على الحياة الأبدية إن آمنا به (يو ١٧ :١ - ٣) كما نحصل على سائر البركات العظمى التي يريد الله أن يمنحها لمخلوقاته.

وبناء على إرشاد وتعليم الإنجيل -أي أسفار العهد الجديد- نعلم أنه بواسطة الإيمان الحي بالمسيح والاتكال عليه (أع ٤ :١٢ و١٦ :٣١ و١يو ٣ :٢٣) نصير ورثة الأفراح الفائقة والبركات العظمى التي لا يعبر عنها "مَا لَمْ تَرَ عَيْنٌ، وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى بَالِ إِنْسَانٍ : مَا أَعَدَّهُ اللّهُ لِلَّذِينَ يُحِبُّونَه" (١ كو ٢ :٩). وليس الإيمان بالمسيح مجرد الاعتراف بأن تعليمه حق بل الثقة الكاملة بمخلّص حي حبيب جاء إلى العالم ليخلّص الخطاة (١تي ١ :١٥) من خطاياهم (مت ١ :٢١) وقادر أن يخلّص إلى التمام كل الذين يتقدمون به إلى الله (عب ٧ :٢٥). إيمان حي كهذا يربطنا روحياً بالمسيح ويجعلنا وإياه واحداً (يو ١٥ :٤ -١٠) كما يجعلنا أولاد الله فيه (يو ١ :١٢ و١٣ و١ يو ٣ :١ -١٢) بل يقوينا حتى نعتق من نير الخطية وإبليس (يو ٨ :٣٤ -٣٦) فنخلع أعمال الظلمة (رو ١٣ :١٢ وأف ٥ :١١ وكو ١ :١٣ و١تس ٥ :٤ و٥ و١بط ٢ :١٩ و١يو ١ :٦) ونسلك كما يحق للدعوة التي دعينا بها. أو بعبارة أخرى نسلك كأولاد

نور (يو ٨ :١٢ و١٢ :٣٥ و٣٦).

ولما كان الإنسان من تلقاء نفسه لا يقدر أن يؤمن بالمسيح إيماناً حياً عاملاً، رأى الله من فرط محبته لنا أن يرسل روحه القدوس ليعمل في أرواحنا ويبثّ فينا حياة روحية نستعين بها على الإيمان بالمسيح الإيمان المطلوب، ما لم نغش قلوبنا ونرفض نهائياً احتجاج ذلك الروح الصالح المنعِم.

وقد رأينا في ما تقدم أن المسيح كلمة الله هو مظهر الله الحقيقي، وعليه يتضح جلياً أنه بواسطته فقط يستطيع الإنسان أن يأتي إلى الله (يو١٤ :٦) وبدون إيمان بالمسيح لا يقبل الله الناس ولا يغفر لهم خطاياهم. لهذا جاء الروح القدس ليحث الناس على التوبة ويستميلهم إلى الإيمان بحيث يعتنقون ذلك الخلاص المقدَّم لهم مجاناً في المسيح. كما أن الروح القدس يكشف لنا الستار عن حالة قلوبنا الرديئة ويبكتنا على خطايانا وينذرنا بالدينونة الآتية (يو ١٦ :٨) يحرّضنا على السعي والجد في طلب المصالحة مع الله بقبول الكفارة الوحيدة التي قدمها المسيح عن خطايا العالم (عب ١٠ :١٠ -١٤) والذين ينقادون بإرشاد الروح القدس يتبررون بإيمانهم بالمسيح، ويكون لهم سلام مع الله بربنا يسوع المسيح (رو ٥ :١) يعطيهم السلام الذي لا يقدر أن يعطيه العالم

(يو ١٤ :٢٧) فالخاطئ النادم متى أتى إلى المسيح يُعتق من الخوف والرعب الشديد الناتج عن خطاياه، ويزول عن عنقه ذلك الحمل الثقيل ويُطرح في بحر نسيان رحمة الله (مت ٢١ :٢١ ومر ١١ :٢٣) وتتبدد غياهب ظلمة قلبه ويحل محلها نور السماء وتملك عليه محبة الله ويعلم أن الله أبوه السماوي بيسوع المسيح فيهجر خطاياه ويجدّ في حفظ وصايا الله، ويواظب على معاشرته، فتجري في نفسه أنهار السعادة الحقيقية التي تفوق الوصف حتى تصير الأرض في عينيه سماء بالرغم من تجارب الحياة الكثيرة واضطهاد المضطهدين. ويتحقق صدق الكتاب لا بالبرهان الخارجي فقط بل بالوجدان والاختبار أيضاً.

وهذا التغيير الذي ينتجه عمل الروح القدس في نفس الخاطئ الآتي إلى المسيح لا ينحصر في تحويل القلب عن الخطية إلى البر ومن الظلمة إلى النور ومن عبودية إبليس إلى حرية الله، بل أعظم من ذلك هو ميلاد جديد حقيقي روحي (يو ٣ :٣ و٥) الذي به يصير المؤمن خليقة جديدة روحياً (٢كو ٥ :١٧ وغل ٦ :١٥) وأن الله يريد أن يتوب كل إنسان عن خطاياه وينال الخلاص بالإيمان بالمسيح (حز ٣٣ :١١ و١تي ٢ :٣ -٦ و٢بط ٣ :٩) من أجل ذلك ليس أحد على وجه الأرض مقضياً عليه بالحرمان من رجاء الخلاص، بل كل من يريد

بسلامة قلب أن يُفدى بدم المسيح فإنه يُفدى بكل تأكيد (يو ٦ :٣٧). وأما الذين يعتمدون على ما يتخيلونه من أعمالهم الصالحة ويتوهمون أن لهم خزانة بر ذاتي في السماء ويرفضون المسيح، فهم مقاومون لإرشاد روح الله القدوس ويحكمون على أنفسهم بأنفسهم (يو ٣ :١٦ -٢١ و٥ :٤٠) ومع أنه استطاع في هذه الحياة أن يقاوم محبة المسيح ويعاند رحمة الله، إلا أنه يضطر في النهاية أن يسجد أمام المسيح كما ينبئنا الكتاب (إش ٤٥ :٢٣ ورو ١٤ :١١ وفي ٢ :٩ -١١).

ومما قيل يتبرهن أن التغيير الذي يحدثه الإيمان بالمسيح في القلب لا يدعنا نهمل واجباتنا المسيحية أو نتمادى في ارتكاب الخطية لأنه إيمان حي مُحْيي يدفع صاحبه إلى فعل الخير ويمنعه عن فعل الشر، لذلك إن كان أحد مؤمناً بالمسيح إيماناً حقيقياً ينتصر بمعونة روح الله القدوس على الخطية الداخلية، كما ينتصر على العالم والجسد والشيطان، ويدوس على هوى نفسه، ويكرس ذاته حتى يعيش بحسب إرادة الله من حيث قداسة العمل والطبع لأنه ذاق بحاسته الروحية محبة الله الفائقة ورحمته العظيمة المعلنة في المسيح واختبر الفرح الحقيقي والسعادة الكاملة التي فاض بها الإيمان في نفسه. لهذا أصبح يبتعد عن

كل خطية أو فكر شرير ويجاهد ليله ونهاره على الاحتراس والاحتفاظ بوصايا الله سالكاً في النور كما ينبغي لدعوة الإنجيل.

الفصل السادس

حياة المسيحي وسلوكه

قيل في الإنجيل إن ناموسياً استعلم من الرب يسوع عن الوصية العظمى في الناموس، فأجابه "تُحِبُّ الرَّبَّ إِلهكَ" (تث ٦:٥) "مِنْ كُلِّ قَلْبِكَ، وَمِنْ كُلِّ نَفْسِكَ، وَمِنْ كُلِّ فِكْرِكَ. هذِهِ هِيَ الْوَصِيَّةُ الأُولَى وَالْعُظْمَى وَالثَّانِيَةُ مِثْلُهَا تُحِبُّ قَرِيبَكَ (لا ١٩:١٨) كَنَفْسِكَ. بِهَاتَيْنِ الْوَصِيَّتَيْنِ يَتَعَلَّقُ النَّامُوسُ كُلُّهُ وَالأَنْبِيَاء" (مت ٢٢ :٣٥-٤٠ ومر ١٢ :٢٨-٣١). وقيل في أكثر من موضع ما يوافق ذلك:"لاَ تَكُونُوا مَدْيُونِينَ لأَحَدٍ بِشَيْءٍ إِلَّا بِأَنْ يُحِبَّ بَعْضُكُمْ بَعْضاً، لِأَنَّ مَنْ أَحَبَّ غَيْرَهُ فَقَدْ أَكْمَلَ النَّامُوسَ. لِأَنَّ لاَ تَزْنِ، لاَ تَقْتُلْ، لاَ تَسْرِقْ، لاَ تَشْهَدْ بِالزُّورِ، لاَ تَشْتَهِ وَإِنْ كَانَتْ وَصِيَّةً أُخْرَى، هِيَ مَجْمُوعَةٌ فِي هذِهِ الكَلِمَةِ : أَنْ تُحِبَّ قَرِيبَكَ كَنَفْسِكَ . اَلْمَحَبَّةُ لاَ تَصْنَعُ شَرّاً لِلْقَرِيبِ، فَالْمَحَبَّةُ هِيَ تَكْمِيلُ النَّامُوسِ" (رو ١٣ :٨-١٠). أن محبة الله تؤدي إلى محبة خلائقه خصوصاً الإنسان، ثم أن المسيحي الحقيقي يحب الله لأنه يعلم أن الله

أحبه أولاً (١يو ٤ :٩-١١ و١٩ ورو ٥ :٥-٨) ومحبته لله تفطمه عن الاهتمام بلذات هذا العالم السريع الزوال (١يو ٢ :١٥-١٧) وكلما ازدادت المحبة لله عظم الإقبال على خدمته وازدادت الرغبة في صنع الخير للقريب، ويعلم المسيحي حينئذ أن الله أبوه السماوي وأنه أحد أولاده في المسيح (يو ١ :١٢ و١يو ٣ :١و٢) وتعظم ثقته في الله ويسارع مجاهداً في تمجيده وإكرامه فكراً وقولاً وعملاً (مز ٦٣ :١-٨). وإذا جاءه يوماً إبليس ليجربه فيقول له كما قال يوسف في العصور الأولى: "كَيْفَ أَصْنَعُ هذا الشَّرَّ العَظِيمَ وَأُخْطِئُ إِلَى اللهِ؟" (تك ٣٩ :٩) وكل ما يعمله فلمجد الله ومرضاته لا لمرضاة الناس (كو ٣ :٢٣). وعلى قدر ما ينمو في محبة الله ومعرفته يزداد في تسبيحه وحمده لأجل خيراته الزمنية وبركاته الروحية التي يغمره بها، وإظهار مشاعر الشكر لا بالكلام فقط بل بالسيرة والعمل (مز ٣٤ :١ وكو ٣ :١٧ و١ تس ٥ :١٥-٢٢).

ومن صفات المسيحي الحقيقي أنه إذا وقع في ضيقة لا يتكل على ذراع البشر بل على الله، كما أنه لا يبالي بإنماء ثروته ولا بإعلاء رتبته، ولا يهتم بزيادة دَخْله بل يصلي لأبيه الذي في السموات أن يبارك أشغاله ويمنحه من الرزق الحلال ما فيه

الكفاية لسد أعوازه ويشعر باقتناع في قلبه أن أباه السماوي يهتم بـه (١ بط ٥ :٧). ولهذا يلقي عليه همومه بنفس مطمئنة، لأنه يعلم عن ثقة أن الله فتح له كنوزه الروحية في السموات المذخرة في المسيح يسوع ويتأكد أن إلـه كل رحمة لا يمنع عنه خيراً من ضروريات الحياة (مز ٢٨ :٧ ومت ٦ :٩-٣٤ و ١تي ٦ :٦-١١).

المسيحي الحقيقي حامدٌ شاكر لله على ما منحه من اليُسر والنعم عالماً أن كل عطية صالحة وموهبة تامة نازلة من عنده (يع ١ :١٧) وهو صبور عندما تمسه الشدائد وتتوالى عليه البلايا والاضطهادات مؤكداً أَنَّ "كُلَّ الأَشْيَاءِ تَعْمَلُ مَعاً لِلْخَيْرِ لِلَّذِينَ يُحِبُّونَ اللّٰهَ" (رو ٨ :٢٨) كأنها تلقي على سمعه مناجاة أحد قدماء المسيحيين لنفسه يا نفسي، حياة المسيح كانت بجملتها على الصليب وعلى المذبح، وأنت تسعين وراء الراحة والانشراح؟ حاشا وكلا. ويعلم أن أباه السماوي إذا سمح له بتجربة فلكي يُقرِّبه إليه أكثر من ذي قبل، بحيث يقدر أن يفرح ويتبسم وهو رازح تحت عبء الضيقة (رو ٥ :٣ و٤ و٥ و١٢ :١٢) ويقول مع صموئيل النبي "هُوَ الرَّبُّ. مَا يَحْسُنُ فِي عَيْنَيْهِ يَعْمَلُ" (١ صم ٣ :١٨) ذاكراً أنه وإن كان يعيش في العالم فليس من العالم كإبراهيم الذي "كَانَ يَنْتَظِرُ الْمَدِينَةَ الَّتِي لَهَا الأَسَاسَاتُ، الَّتِي صَانِعُهَا

وَبَارِئُهَا اللّٰهُ" (عب ١١ :١٠ وانظر مز ٣٧ :٥ و٢ كو ٤ :١٧ وعب ٢ :٥ و٦).

المسيحي الحقيقي يعبد الله بإخلاص وحق (يو ٤ :٢٤) ويشتهي أن يبقى على الدوام شاعراً أنه في حضرة الله، ويأتي إليه كل حين كطفل يأتي إلى أبيه الحبيب عالماً مدى عنايته به. فإن طلب طفل من أبيه شيء يطلبه بأسلوب طبيعي عفوي وليس بكلمات رسمية من الأقوال المرتبة، ومثل ذلك المسيحي إذا طلب من أبيه السماوي شيئاً فليس عليه أن يتلو عبارات معينة، ولا أقوالاً بلغة قديمة مقدسة، لأنه يفهم أن الله مستعد أن يسمع الصلاة أكثر من استعداد المصلي للصلاة، وأن هباته أكثر مما نطلب أو نفتكر الله، وأنه يعلم احتياجنا قبل أن نسأله. وما أقل درايتنا بأحسن الأشياء لنا لذا ينبغي للمصلي إذا طلب شيئاً من متاع الدنيا أن يطلبه تحت هذا الشرط إن شاءت إرادتك يا رب وأما إن طلب طلبة روحية فيطلبها بلا شرط ولا قيد، عالماً أن الأشياء الروحية جميعها صالحة لنفسه وأن الله أعدها له، إن كان إنسان قد وُلد الميلاد الجديد الروحي (يو ٣ :٣ و٥) واستنار ذهنه بإرشاد روح الله القدوس، لا يصلي فقط بل يرتل لله في قلبه كل حين ويسبحه على جوده وإحسانه، ويثابر على معاشرته، وكل ما يعمله فلمجد اسمه،

عالماً أنه فاحص القلوب لا تُخفى عليه خافية، ويجاهد في تذليل كل فكر تحت سلطان محبته، مستودعاً نفسه وأعزاءه بين يدي محبته متلذذاً بالسلام والطمأنينة المظللة على قلبه وروحه (مت ٦ :٥-١٥ ولو ١٨ :١-٨ ويو ١٦ :٢٣ وفي ٤ :٦ و٧ و١تس ٥ :١٧ و١٨ و١ يو ٥ :١٤ و١٥ ويع ١ :٥-٨).

وفضلاً عن الصلاة الانفرادية فإن أغلب المسيحيين يصلون صلوات أخرى مثل الصلاة المعروفة بالصلاة العائلية، حيث يجمع الرجل زوجته وأولاده حوله ويقرأ لهم شيئاً من الكتاب المقدس ويصلي معهم طالباً المغفرة والبركة من الله على نفسه وعلى أهل بيته، ومثل الصلاة الجمهورية حيث يذهب المسيحي إلى الاجتماع سواء كان في دار اعتيادية أو كنيسة، وخصوصاً في أيام الآحاد، اليوم الذي قام فيه المسيح من الموت، ويتحد مع جمهور العابدين لسماع الإنجيل والوعظ وللصلاة والتسبيح تحت ملاحظة خدام الدين، وهم رجال يدعوهم الله، وهم مدرَّبون على خدمة الإنجيل بنوع خاص. وقد استحسنت بعض الطوائف أن تصلي في أثناء العبادة الجمهورية بصلوات معينة على أمل مساعدة العامة على العبادة، واستحسن البعض الآخر الصلاة الارتجالية، وحيث أن الله يعرف كل اللغات فهي عنده على

حد سواء، ولا أفضلية للعبرانية ولا اليونانية على سائر اللغات الأخرى، إنما الواجب أن تكون العبادة بالإخلاص والروح والحق. وكذلك لا فرق بين موضع وآخر لتأدية العبادة، لأن المواضع كلها متساوية عند الله، فلا رسم ولا طقس ولا وضع خصوصي للعبادة إلا أن تكون بالروح والحق كما يعلمنا الإنجيل (يو ٤ :٢٤).

المسيحي الحقيقي يعتبر كل الناس إخوانه، ويرغب في مصلحة الغير كما يرغب في مصلحة نفسه، ويصنع الخير حسب طاقته مع الجميع في الروحيات والجسديات (مت ٧ :١٢ و٢٢ :٣٩ و١كو ١٠ :٢٤) لأن المسيح علمه ذلك القانون الذهبي (مت ٧ :١٢) الذي لو سار بموجبه جميع الناس لأصبحت الأرض سماء، فهو يعامل الآخرين لا كما يعاملونه بل كما يحب أن يعاملوه، فإن كانوا مرضى يزورهم وإن جاعوا يطعمهم، وإن ضلوا عن الله يعلمهم ما علمه المسيح (مت ٢٨ :١٩ و٢٠) وبالجملة يحب الجميع ولا سيما أهل الإيمان (غل ٦ :١٠ قارن مت ٢٣ :٨ ويو ١٣ :٣٤ و٣٥) بل يحب أعداءه ومضطهديه (مت ٥ :٤٤ و١تس ٣ :١٢ و٢بط ١ :٥-٧) عالماً أن المسيح مات من أجل هؤلاء الأعداء، وقد حدث أن أحد أعداء المسيح أصبح أحب

أحبائه لأنه كان ضالاً ووجده الراعي الصالح وخلصه من بين أنياب الذئب (يو ١٠ :١١-١٦).

تلميذ المسيح الحقيقي صادق ومستقيم ونقي القلب ولطيف (مت ٥ :٣٧ وأف ٤ :٢٥ ويع ٤ :١١ و١٢) يسعى جهد طاقته في بث روح الوحدة والوفاق بين الناس (رو ١٢ :١٨) يرثي للمتضايقين (رو ١٢ :١٥ وعب ١٣ :١٦) يقابل ما يصيبه من الأذى بالصبر الجميل مفوضاً أمره إلى الله (بشارة متى ١١ :٢٩ وأف ٤ :٢٥-٣٢). أما إذا رأى الأذى يقع على غيره بغياً وعدواناً فإن الغضب الصالح يشتعل في قلبه ويندفع لإنقاذ المظلوم مهما كلفه ذلك من التضحية، وقد روي عن قوم مسيحيين قبلوا أن يُباعوا كالرقيق حتى يتمكنوا من مؤاساة وتعزية الأنفس الواقعة تحت عبودية قاسية.

المسيحي الحقيقي يعلم أنه خُلق لخدمة الله، وأنه اشتُري بثمن عظيم بدم كريم دم المسيح (١كو ٦ :٢٠ و٧ :٢٣) وأن جسده هيكل لروح الله القدوس بسبب إيمانه بالمسيح (١كو ٣ :١٦ و١٧ و٦ :١٩) فيأخذ كل حذره حتى لا يدنس ذاته نفساً وروحاً وجسداً بالاستسلام للشهوات الجسدية، ويجاهد بنعمة الله أن يحفظ نفسه طاهراً بلا عيب ولا دنس حتى يحيا بالقداسة (٢كو ٧ :١ وأف ٥ :٤ ويع ١ :٢١) ولا يرفض أطعمة

قد خلقها الله لتُتناول بالشكر من المؤمنين وعارفي الحق، لأنه منذ تأسيس العهد الجديد أباح الله كل أنواع الأطعمة. وإذ قد استنار ذهنه يحقق وصية سيده : كل ما يدخل الفم لا ينجس الإنسان، بل ينجسه الذي يخرج منه لأنه يصدر عن القلب مثل الأفكار الشريرة والزنى والفسق والقتل (مر ٧ :١٤-٢٣) وإن كان الطعام مباحاً بأصنافه إلا أن الشَّره والتبذير للمسيحي غير مباحان (١كو ١٠ :٣١ قابل رو ١٤ :٢٠ و٢١ و١تي ٤ :٤ و٥) مثل المسكرات والخمور (لو ٢١ :٣٤ ورو ١٣ :١٣ و١كو ٥ :١ و٦ :١٠ وغل ٥ :١ وأف ٥ :١٨) وكذا التنعمات الرديئة.

المسيحي الحقيقي يُعرض عن كل كلمة وعمل غير لائق ويسعى جهده في مرضاة الله (مت ١٦ :٢٤ ورو ٦ :١١-٢٣ و١كو ٦ :١٢-٢٠ و١تس ٤ :٣-٨ و١بط ١ :٢٢) متقدماً في النعمة وفي معرفة الله بيسوع المسيح ربنا (٢بط ٣ :١٨) عالماً أن هذا فقط هو الذخر الباقي والكنز الدائم بخلاف ثروة هذا الدهر ومجده وعظمته التي يطلبها ويجدّ في أثرها أهل الغرور، لأن مصيرها للزوال والتلف (مت ١٦ :٢٦ وأف ١ :١٥ و٢ :٢وفي ٣ :٧-١٦).

ومهما تكن أشغاله أو مصلحته يدأب على عمله بأمانة وإتقان حتى يسرّ قلب خالقه وفاديه ويمجد اسمه القدوس، محاذراً من الإهمال

والكسل آكلاً خبزه بعرق جبينه، وحسب طاقته يجتنب الديون، معتبراً أن كل ما ملكت يده فللرب إلهه، يتصرف فيه على وفق مشيئته في وجوه الخير والإحسان (مت ٢٥ :١٤-٣٠ ولو ١٩ :١٢-٢٧ وكو ٣ :٢٣ و٢٤ و١تس ٤ :١١ و١٢ و٢تس ٣ :١٠) وكل ما ازداد في خدمة المسيح بإخلاص واتسعت مداركه في معرفة شخصه العجيب وعظمت محبته له، بحيث لا يفصله عنه أية شدة واضطهاد (رو ٨ :٣٥-٣٩) وعلى مدى الأيام يكثر تشبهه واقتداؤه بالمسيح غير مكتف بما هو دون صلاحه وقداسته الكاملة (٢كو ٣ :١٨ و١بط ٢ :٩). وإذا تصالح مع الله صارت إرادته على وفق إرادة أبيه السماوي، ويفيض قلبه بفرح مقدس لا يُنطق به ومجيد بالرغم من تجارب الحياة وآلامها التي تكتنفه، وفرحه هنا عربون لفرحه الدائم في السماء. وما ذكرناه قليل من كثير من نتائج الإيمان بالمسيح في قلب المؤمن، به يتقدم بشجاعة لإتمام واجباته في ملء الرجاء قائلاً ما قال بولس الرسول "أَسْتَطِيعُ كُلَّ شَيْءٍ فِي المَسِيحِ الذِي يُقَوِّينِي" (في ٤ :١٣).

ومما يجب التنبيه إليه أن المسيحي في هذه الحياة الدنيا، وإن صلحت أخلاقه إلى الحد الذي ذكرناه، إلا أنه يزال غير كامل وعرضة لتجارب العالم والجسد وإبليس، وعليه أن يحارب هؤلاء الأعداء

ويغلبهم حتى الموت. وأن إبليس مع شدة قوته لا يستطيع أن ينتصر على المؤمن الواثق بالمسيح إلا أن للمؤمن جسداً تحت الآلام كسائر الناس، لكنه يتذكر مرافقة المسيح له ذاك الذي حمل أحزاننا وتحمل أوجاعنا (إش ٥٣ :٣-٥) وأنه يمكث معه كل الأيام (مت ٢٨ :٢٠) فتنمو فيه روح الشجاعة والقوة، ويقابل بالصبر الجميل كل ما يسمح به الله أن يجري عليه من صنوف التجارب والبلايا، منتظراً وطناً أفضل بعد القبر (٢كو ٥ :١-٩ وفي ١ :٢٣) راجياً قيامة ابتهاج ومجد عندما يأتي المسيح ثانياً بالقوة والسلطان وقد خضع أعداؤه تحت قدميه (يو ٥ :٢١-٢٩ و٦ :٤٠ و١كو ١٥ وفي ٣ :٢١).

وفي العالم الآتي يعرف المسيحيون الحقيقيون الله كما هو، ويرون مجده وجهاً لوجه، ويسكنون مع المسيح إلى الأبد (مت ٥ :٨ و١كو ٢ :٩ و١٣ :١٢ ورؤ ٢٢ :٣ و٤) حينئذ يكملون في القداسة وينالون العصمة من الخطية ويرثون من الفرح والسعادة ما لم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على بال إنسان، يسكنون في نور إحسان الله وبركاته. وكلما جال في قلوبهم هذا الخاطر وهم في الحياة الدنيا وتذكروا نعمة الله المخلِّصة لجميع الناس المؤدية إلى طهارة السيرة والحياة الأبدية، سبَّحوا الله مع رسول الأمم قائلين: "يَا لَعُمْقِ غِنَى اللهِ وَحِكْمَتِهِ وَعِلْمِهِ! مَا أَبْعَدَ

أَحْكَامَهُ عَنِ الفَحْصِ وَطُرُقَهُ عَنِ الاسْتِقْصَاءِ! لِأَنْ مَنْ عَرَفَ فِكْرَ الرَّبِّ، أَوْ مَنْ صَارَ لَهُ مُشِيراً؟ أَوْ مَنْ سَبَقَ فَأَعْطَاهُ فَيُكَافَأَ؟ .لِأَنَّ مِنْهُ وَبِهِ وَلَهُ كُلَّ الأَشْيَاءِ. لَهُ المَجْدُ إِلَى الأَبَدِ. آمِين" (رو ١١ :٣٣-٣٦).

إلى هنا شرحنا ووصفنا كيف يجب على المسيحي أن يكون إذا أطاع وصايا الإنجيل، غير أن إخواننا المسلمين كثيراً ما يغمضون عيونهم عن أخلاق المسيحيين الحقيقيين، ويحتجّون علينا بأخلاق من يلاقونهم من كَفرة الإفرنج محاولين أن يقيموا الحجة والبرهان على أن أثمار الديانة المسيحية لا تختلف عن الأديان الأخرى لأن أصحابها أشرار محبون لذواتهم عالميون فجار. ولو أنهم تأملوا بإمعان لتحققوا أنهم مخطئون في تقريرهم، لأن كثيراً من الإفرنج لم يدّعوا قط أنهم مسيحيون، والقول إن كلمة نصراني وغربي مترادفتان هو خطأ محض. عدا ذلك فإن كثيرين يدَّعون أنهم مسيحيون وهم ليسوا من المسيحية في شيء سوى الاسم والصورة الظاهرة، ولكن ليس الظاهر كالباطن، وإلا لم يكن على الأرض مراءون ومنافقون!

يُعرف المسيحي الحقيقي بسلوكه وطاعته لناموس المسيح، فإن رأينا أحداً يدَّعي أنه مسيحي وهو يخالف وصايا المسيح فهو مرائي ومنافق ويحمل وزر نفسه. فإذا دُعي المسلم إلى الجهاد واندفع إلى ميدان القتال

يسفك دماء الأعداء إلى أن مات محاطاً بالقتلى فقد برهن للملأ صحة إسلامه (كما جاء في سورة التوبة ٩ :١١١). كما أنه إذا دُعي الطبيب المسيحي المرسل إلى مقاومة الطاعون والكوليرا يكافح ذلك العدو الفتاك معرضاً نفسه لخطر الموت لافتداء بني جنسه من كل دين، فهو يبرهن نسبته إلى الديانة المسيحية. ولكن إذا اقتدى المسلم بالمسيحي بمعالجة المرضى لم يعتبره إخوانه تابعاً لرسول السيف. وإذا اقتدى المسيحي بالمسلم في سفك الدماء لم يعتبره إخوانه تابعا لرسول السلام. فكما أن الشجرة تُعرف من أثمارها يُعرف المسيحي الحقيقي من أعماله، ونقول كما قلنا إن ادّعى أحدٌ أنه مسيحي وتصرف بالخيانة ضد هذا الدين الصالح، لا يحكم عليه أهل دينه فقط بل نفس الذين يدينون بالإسلام، قائلين : ليس هذا بمسيحي حقيقي، وعليه فقد يشهدون ضمناً بطهارة وقداسة الإيمان المسيحي. قال الرسول يوحنا "مَنْ يَفْعَلُ البرَّ فَهُوَ بَارٌّ، كَمَا أَنَّ ذَاكَ - المسيح - بَارٌّ. مَنْ يَفْعَلُ الخَطِيَّةَ فَهُوَ مِنْ إِبْلِيسَ، لِأَنَّ إِبْلِيسَ مِنَ البَدْءِ يُخْطِئُ. لِأَجْلِ هذا أُظْهِرَ ا بْنُ اللهِ لِكَيْ يَنْقُضَ أَعْمَالَ إِبْلِيسَ" (١يو ٣ :٧ و٨) وعليه فكل احتجاج على المسيحية، بسبب أن بعضاً من المدَّعين بها يسلكون بغير استقامة، !

ثم نقول أخيراً أن ألد أعداء الديانة المسيحية يسلّمون أنه يوجد

مسيحيون حقيقيون متفرقون في أماكن مختلفة لا ينكر أحد تقواهم وتفانيهم في فعل الخير من رجال ونساء، بعضهم مرسلون وبعضهم صناع وتجار وأصحاب أشغال متنوعة من المهن والحرف الشريفة. وشهدت الأعداء أن لا ديانة أخرى على وجه الأرض تُعد مثل هؤلاء الصالحين. نعم أية ديانة ترسل مرسلين إلى كل أجزاء العالم حتى مجاهل أفريقيا والجزائر البعيدة، منهم المرسلون الأطباء والممرضون لكل أنواع الأمراض؟ أية ديانة تغادر سيداتها الأهل والوطن ويقطعن البحر والبر حتى يخدمن في مستشفيات البرص في بلاد الهند؟ وأية ديانة ضحَّت بالمال والرجال في تحرير العبيد وأعتقتهم من رق العبودية؟

واعلم إن تأثير المسيحية لا يقتصر في تحويل الجفاء والخشونة إلى لطف ومحبة على أمة دون أمة مثل التأثير على الأمم المتمدنة أكثر من الهمجية، كلا! بل تؤثر في الكل على السواء، ففي الهند والصين واليابان ومصر والعجم، وفي أية أمة وبلاد يُكرز بإنجيل المسيح، توجد أمثلة كثيرة لأتقياء المسيحيين رجالاً ونساء، حوَّلهم الإنجيل من قساوة القلب وحياة الإثم والرذيلة إلى مثال التقوى والفضيلة والمحبة، وذلك

منذ اعتنقوا المسيحية. وكم منهم احتمل الاضطهاد والتعذيب لأجل خاطر المسيح حتى الموت فأمثال هؤلاء رسائل المسيح الحية المعروفة والمقروءة من جميع الناس (٢كو ٣ :٢ و٣).

وهنا نعترف أنه لسوء الحظ يوجد بين طوائف النصارى من يقدمون العبادة لبعض القديسين وللعذراء مريم، ويسجدون للصور والتماثيل، إلا أن هذه العبادة محرَّمة بموجب نصوص كثيرة من أسفار العهدين أي التوراة والإنجيل (خر ٢٠ :٣-٥ ويو ١٤ :٦ و١تي ٢ :٥). وكم حذرنا الإنجيل من عبادة الأصنام بما لا يدخل تحت حصر (١كو ٥ :١٠ و١١ و٦ :٩ و١٠ :٧ و١٤ وغل ٥ :٢٠ وأف ٥ :٥ وكو ٣ :٥ و١بط ٤ :٣ ورؤ ٩ :٢٠ و٢١ :٨ و٢٢ :١٥) وقد امتلأت صحائف التوراة من العقوبات التي حاقت بالأمة الإسرائيلية بسبب عبادة الأصنام، وحيث أن الكتاب المقدس ينهى عن هذه العبادة فليس من الصواب أن نتخذها دليلاً للاحتجاج به ضدّ الديانة المسيحية، كما ليس من الصواب أن نتخذ عبادة الأولياء وغيرهم عند بعض المسلمين حجة على الإسلام.

المسيحي الحقيقي هو الذي يقتدي بالمسيح في حياته ويشهد له شهادة ملموسة بارزة من خلال أعماله اليومية، إلا أن الكنيسة المنظورة

تشتمل كما قال المسيح على الحنطة والزوان (مت ١٣ :٢٤-٣٠ و٣٦-٤٣) والعاقل يميز بين الحنطة والزوان، وبين الطيب والخبيث، والعملة المزيفة لا تكون حجة على العملة الحقيقية، والتاجر المدرب يميز هذه من تلك.

الفصل السابع

في خلاصة الأدلة على أن أسفار العهد القديم والعهد الجديد تتضمن الوحي الحقيقي

بيّنا في مقدمة الكتاب المقاييس الصحيحة التي نقيس عليها كل كتاب يزعم أصحابه أنه وحي، ونرجو أن يكون قد تحقَّق القارئ النبيل من الفصول المتقدمة أن الكتاب المقدس مستكمل الشروط. ولكن لزيادة الفائدة نتوسع أكثر في هذا البحث ونأتي بالأدلة القاطعة التي لا تدع مجالاً للشك.

(أولا) يُظهر الإنجيل لنا أن المسيح عاش أقدس حياة وكان أكمل مثال ظهر على الأرض وعاش بين البشر. صحيح أن كل أمة أسهبت في مدح بطلها الديني ورفعت درجته إلى ذروة المجد وأقامت له التماثيل، إلا أن أكثر الحكايات في هذا الموضوع ترجع إلى خرافات عجائزية كما

يؤخذ في أساطير الهنود عن أبطالهم مثل رامة وكريشنه، إلا أن بعض القصص ترجع إلى أصل صحيح، ولكنهم غالوا فيها وبالغوا كما حكوا عن بوذا إله الهنود. ومع ذلك إذا قارنا هؤلاء الأقطاب والأبطال في كل أمة تحت السماء - حتى الذين صوَّرهم الوهم - بالمسيح، لظهر فرق عظيم بينهم وبينه في جميع صفات الخير والكمال. فشتان بينهم وبين المسيح في التواضع والصلاح والنقاوة والعدالة واللطف والمحبة والرحمة والقداسة وسائر الفضائل المعترف بها من جميع الناس، بل قد علا صلاحه وفاق مبالغة الشعراء في مدح أبطالهم. على أن حياة المسيح حقيقية لا ريب فيها كما يقر ويعترف الجميع، فالكتاب الذي سجل هذه الحياة التي لا مثيل لها هو كتاب الله، بمعنى أن الذين عرفوا المسيح وعاشروه واتبعوه وكتبوا سيرته وتعليمه كتبوا ما كتبوا بإلهام الروح القدس كما وعدهم يسوع نفسه (يو ١٦ :١٢ و١٣) وعصمهم الروح من الخطأ وأمدَّهم بالنور والمعرفة، فجاءت شهادتهم للمسيح طبق الواقع (أع ١ :٨) سواء كانت شهادتهم قولاً أو كتابة، فالمسيح دليل نفسه.

(ثانيا) إن إعلان الله أو مظهره لا يمكن أن يكون كتاباً، بل يجب أن يكون شخصاً. وحتى تطَّلع الناس على حياته وأعماله وتعليمه يجب أن

تُكتب في كتاب تحت إرشاد وهيمنة من هو معصوم من الخطأ ومنزَّه عن الكذب. ومن يطلع على الكتاب المقدس بروح الإخلاص والصلاة تنجلي له الحقيقة، ويجد المسيح الموعود به في التوراة والمسطورة حياته في الإنجيل بأنه المخلّص وكلمة الله وهو الشخص الوحيد الكفؤ لإعلان الله للناس، وقد أعلنه في صفاته وحياته وسيرته وموته وقيامته وتعليمه ووعوده. وبمقتضى هذا الإعلان الوحيد يحل الإنجيل معضلة الدهور التي لم يستطع كتاب آخر أن يحلها، ألا وهي: كيف يعلن الإله الغير محدود نفسه لمخلوقاته المحدودة؟ هذه معضلة أجهدت الفلاسفة في حلها وأسفر اجتهادهم عن خيبة، حتى أن علماء اليهود الذين لم يؤمنوا بالمسيح عجزوا أيضاً عن الإجابة على هذا السؤال، وكذا عجز علماء الإسلام. ومن أقوالهم في هذا الصدد ما ورد في كتاب ميزان الموازين حيث قال المؤلف: كل مُدرَك لا بد له من وسيلة يُدرَك بها، فيجب أن يكون بين المدرَك والمدرِك صلة توصّله إلى الإدراك. ولما كان الله غيرمحدود وخلائقه محدودة، عُدمت كل علاقة وانقطعت كل صلة بين الطرفين، وعليه لم تكن هناك وسيلة للإنسان أن يدرك الله. ولا يقدر أي مخلوق كائناً ما كان أن يدرك الخالق إلا أن

مؤلف ميزان الموازين زعم أنه يوجد مخلوق يُدعى المخلوق الأول هو الحق الأعظم، خليقة الله الوحيدة، وجمال الأزل المطلق والنور الكلي ومظهر الله الكامل. فلما قصد الله أن يخلق الخلق ويعلن لهم ذاته خلق هذا المخلوق الأول، فصار موضوع محبته ومظهر صفاته. وبما أن الله أحبه فقد أحب الله كذلك وهذا المخلوق - على زعم المؤلف - هو الوسيط الأعظم والنبي المطلق، وكل ما حدث من بدء الخليقة وما يحدث إلى المنتهى حدث بواسطته!

هذا الرأي كيفما كان ليس له أصل في الإسلام، وإنما تطرق إليه أصحاب البدع وفلاسفة الوثنيين، ومنهم آريوس الهرطوقي الذي زعم أنه يوجد مخلوق أول خلق الله به العالم، وهكذا زعم ماني الفارسي. إلا أن ماني قال أن الشيطان بعد ذلك خلق الإنسان على صورة المخلوق الأصلي وصورته هو، أي جمع فيه النور الأعظم والظلمة كما في العالم الصغير. وتوجد طائفة يقال لها النحشية أو عبدة الأفاعي أو العرفاء، هؤلاء اعتادوا أن يحترموا الخنثى ويدعونه غير المغلوب، ويزعمون أن معرفته بداية معرفة الله. ومن أقوالهم إن بداية الكمال هي معرفة الإنسان، ونهايته هي معرفة الله، وعندهم أن آدم خُلق على صورة ذلك الإنسان الذي يدعونه الإنسان الأعظم والأكمل. ويزعم قوم

من فرق اليهود يدعون بالقبالاه أخذوا عن الوثنين أيضاً، كما أخذ عنهم المسلمون، فقالوا إن الله الغير المحدود أراد من الأزل أن يُعرَف، وللوصول لهذا الغرض انبثق منه كائن، ومن ذلك الكائن انبثق كائن آخر وهلم جراً إلى العشرة. ومن هؤلاء العشرة يتألف الإنسان الأصلي ويسمونه بلسانهم اذام قذمون أو الإنسان السماوي، ورأسه مؤلفة من الانبثاقات الثلاثة الأولى، وأن آدم - أو الإنسان الترابي - خُلق على صورته بدون وضوح.

غير أن هذه التخمينات مع كونها من مواليد الأوهام لم تمهد السبيل قط إلى حل المعضلة المتقدمة، لأن المخلوق الأول مهما بلغت عظمته وسمت صفاته لا يزال مخلوقاً وبينه وبين الله ما لا يُقاس، وعليه لا يقدر أ ن يدرك الله لأنه لا توجد صلة بين المحدود والغير المحدود -كما قرر مؤلف ميزان الموازين- فضلاً عن أن بدعة المخلوق الأول تؤدي إلى عبادته دون الله، وهذا هو الشرك الذي يقول القرآن إنه خطية لا تُغتفر.

أما الإنجيل فيجيبنا على السؤال الغامض أفضل إجابة بينما الفلاسفة والعلماء عجزوا عن تصور وجود كلمة الله الذي هو واحد مع أبيه بالذات (يو ١٠ :٣٠) وصار واحداً مع الإنسان بتجسده. فالكتاب الذي

أظهر لنا هذه الحقيقة يجب أن يكون صادراً عن الله. فالفرق إذاً بين تعليم المسيحيين وفلاسفة الإسلام في ما تقدم ذكره هو أن أولئك الفلاسفة استنبطوا من عالم الخيال كائناً لا هو إله ولا إنسان وقالوا إنه هو الوسيط بين الله والناس وشفعوا استنباطهم لهذا الكائن بآراء يهودية ووثنية مبنية على الحدس والتخمين. وأما نحن النصارى فنقول إن الوسيط الوحيد بين الله والناس، هو يسوع المسيح الذي هو إنسان تام وإله تام واستندنا في قولنا لا على رأي الفلاسفة ولا المبتدعين، بل على كتاب الله الأمين. ومن المعلوم أن المسيح كائن حقيقي ليس وهميا افترض وجوده للضرورة بل له وجود حقيقي، كما هو مثبوت في الإنجيل والقرآن. هذا الذي أعلن الله لنا بمثال حياته الكاملة في القداسة كما بأقواله وهو الذي قدم لله كفارة عن خطايانا بذبيحة نفسه على الصليب. فإن قارنت بين آرائهم وآرائنا ظهر لك الحق من الباطل وعرفت أي الفريقين المبتدع وأيهم المتبع لتعليم الله على لسان أنبيائه ورسله الذين أوحى إليهم الكتاب بالروح القدس.

(ثالثا) ومن الأدلة على أن الإنجيل من الله أنه يملأ فراغ النفس من حيث شوقها لمعرفة الله وتبريرها أمامه من تبعة الإثم ومغفرة خطاياها وتطهير القلب والحياة. (١) يخبرنا الإنجيل بقصد

الله الأزلي من جهة الإنسان، ويشرح على التوالي السبب الذي من أجله خُلق وكيفية سقوطه في حمأة الخطية وحاجته العظمى إلى القداسة (٢) يخبرنا كيف نحصل على مغفرة خطايانا بالإيمان بالمسيح وبذلك نتبرر أمام الله (٣) يخبرنا كيف تطهر قلوبنا بالإيمان بالمسيح وتصبح هيكلاً لسكناه وتتنقى أفكارنا ورغباتنا من الخبائث، وكيف تتشدد عزائمنا في الجهاد ضد الخطية وإبليس كلما عظمت محبتنا له (٤) ويرينا كيف أننا بالإيمان بالمسيح نصير أولاد الله المختارين وتفيض قلوبنا سلاماً وفرحاً روحياً متوقعين بالتحقيق واليقين وبفارغ الصبر ذلك اليوم السعيد الذي يقوم فيه الأموات وحينئذ نتمتع بالسعادة الدائمة والقداسة الكاملة في حضرة الله. وبالإجمال ما من رغبة روحية تصبو إليها النفس إلا وتتوافر في الإنجيل، لذا هو رسالة الله إلى ابن آدم المسكين.

ومن المحقق الذي دل عليه الاختبار أن كتب أهل الأديان الأخرى لا تؤدي بأصحابها إلى شيء مما ذكرنا، فأي كتاب منها يسكِّن روع الخاطئ من هول الحساب، وأي منها يستميل القلب لمحبة الله وأي منها يكلّف الإنسان بطهارة القلب والحياة ويعدّه لسماء طاهرة لا تدخلها الشهوات ولا تحوم حولها الأدناس يسكن فيها جماعة المخلَّصين الذين نالوا الحرية الكاملة من كل عيب ودنس ونقص

إلى غير ذلك مما هو مغاير لطبيعة الله الكلي القداسة. فهذه الكتب لا تدل على طريق الخلاص من الخطية، ولا إحراز القبول لدى الله، بل تغادر الإنسان بدون أن تروي له غليلاً. نعم قد تأمره بالحج والصوم ونحر الضحايا مما ليس له أقل مساس بنقاوة القلب ولا بإعلان صفات الله، فيصبح المتعبد بها هائماً لا يستقر على حال من القلق منفياً من بيت الآب السماوي.

(رابعا) ومن الأدلة على أن الإنجيل من الله هو تجديد القلب والحياة الذي يحصل عليه الذين يقبلون تعليمه ويبتدئ هذا التجديد من الداخل ويمتد إلى الخارج وهو من الأهمية بمكان حتى أنه وُصف بالميلاد الثاني الروحي (يو ٣ :٣ و٥) ويتم بواسطة عمل روح الله القدوس.

(خامسا) في الكتاب المقدس صفات الله العظمى التي يتشوق الإنسان إلى معرفتها وهو مؤهل لإدراكها إلى حد معلوم وصفات الله الكمالية هي القداسة والمحبة والرحمة والعدل وصفاته الجلالية كالقِدَم والقدرة والحكمة والخلق وحفظ الكون. هذه الصفات وتلك مبينة بمزيد الوضوح. وجاء في الكتاب أن الله أعلن نفسه في المسيح الذي جال يصنع خيراً ولم يصرف أحداً من أمام وجهه

خائبا من الذين أتوه طالبين منه المغفرة والمعونة. ومع أنه كان منزهاً عن الخطية إلا أنه أظهر التعاطف نحو الخطاة المعترفين بخطاياهم الخائفين من دينونة اليوم الرهيب ورحمهم. وقد كلفه ذلك تضحية حياته حتى يتهيأ له إنقاذ الذين يؤمنون به من سلطان الخطية ونتائجها المريعة، فلم يخبرنا الكتاب بصفات الله بالكلام والأمثال من أساليب التعبير فقط، بل أظهره لنا بالعيان وجهاً لوجه حتى يراه كل من أراد في حياة يسوع المسيح. وعلى ذلك قوله "اَلَّذِي رَآنِي فَقَدْ رَأَى الآبَ" (يو ١٤ :٩) وبهذا الإعلان الوحيد أدركنا أكثر بكثير من غيرنا كم هي مكروهة الخطية في نظر الله القدوس، وأنه بدون قداسة لا يتمتع أحد برؤية الله (عب ١٢ :١٤) وهاكم فلسفة القدماء والمتأخرين بين أيدي طلبة العلم، فهل رأيتم كتاباً من كتبهم يصف الله بما يصفه به الكتاب المقدس من صفات الكمال؟ أظن لا. بل أقول حتى الكتب المقتبسة من الكتاب المقدس ضلت ضلالاً بعيداً لأنها فيما هي تعلّم عن وحدة الله فاتها أن تقرر الطريقة الوحيدة التي بها أعلن الله نفسه للناس وتركت بين الخالق والمخلوق هوّة لا تُعبر مع أن الوصول لله هو بيت القصيد في الدين كله.

(سادسا) إن روحانية الإنجيل أشرف وأنقى وأرفع من أي كتاب

آخر وكل المساعي التي بُذلت لإنكار هذه الحقيقة أسفرت عن خيبة. فاستعار بعضهم أقوالاً ماثورة عن فلاسفة الصين والهند واليونان وأرادوا أن يضاهوها بما يقابلها في الإنجيل. ومن أمثلة ذلك علّم المسيح تلاميذه قانوناً ذهبياً "كُلُّ مَا تُرِيدُونَ أَنْ يَفْعَلَ النَّاسُ بِكُمُ ا فْعَلُوا هكَذَا أَنْتُمْ أَيْضاً بِهِمْ" (مت ٧ :١٢) وعلّم بعض الفلاسفة في الهند واليونان الصيغة السلبية من هذا القانون الذهبي فقالوا : لا تفعلوا بالآخرين ما لا تريدون أن يفعلوه بكم، ومن يتأمل في القولين يجد الفرق كبيراً. وكذلك كونفوشيوس فيلسوف الصين المشهور ذكر ذلك القانون بالصيغة السلبية مراراً ولم يذكره ولا مرة واحدة بالصيغة الإيجابية، إلا أن حفيده كنغ تشي اقترب إلى الصيغة الإيجابية أكثر منه حيث يقول إن أربعة أشياء ترفع قدر الإنسان لم أظفر بواحد منها بعد إلى أن قال عن الشيء الرابع وددتُ أن أعامل صديقي كما أريد أن يعاملني لكني لم أدرك هذه الغاية. ومع ذلك لا يزال بين قوله وقول المسيح فرق عظيم. لأن المسيح أوجب المعاملة بمقتضى ذلك القانون لكل الناس وأما هذا الفيلسوف فقد حصرها بين الصديق وصديقه فضلاً عن كونه أقرَّ بفشله.

وكثيراً ما اجتهد العلماء أن ينقبوا ويبحثوا في جميع ما وصلت

إليه أيديهم من كتب الأديان والحكم والأمثال وجمعوا من الوصايا والشرائع ما قدروا أن يجمعوه، فكانت النتيجة أن وصايا الإنجيل أفضل وأسمى مما استطاعوا أن يجمعوه من كتب العالم كافة. على أن الوصايا التي جمعوها كانت أشبه بكومة زهور ذابلة، أما وصايا الإنجيل فكزهور نضيرة وكجنة فيحاء. أليس هذا وحده دليلاً راهناً أنه موحى به من الله؟ وإلا فكيف استطاع كتبة الإنجيل أن يضمنوه ما أودعته الحكماء والفلاسفة في بطون كتبهم من خالص الوصايا وصميم الشرائع في الهند والصين واليونان ومصر والفرس والرومان في كل زمان ومكان، إلا أن يقال إن الله المحيط بكل شيء أوحى إلى رسله الأطهار بما ليس في استطاعة العلماء أجمع أن ياتوا به؟

وأهم من ذلك لنا في حياة المسيح على الأرض كما دوّنها رسله الأطهار أعظم ناموس وأصلح مثال، فإنه عاش حسبما علّم من الوصايا الذهبية عديمة النظير. وعدا هذا كله فإن الكتب الأخرى وإن تضمنت شيئاً من الوصايا الجيدة لم تخْلُ من التعاليم الخبيثة التي طالما أدت إلى البوار وليس الخالص من الشوائب كالممزوج بها امتزاج السم بالدسم كفخذ الضان الذي قُدِّم لمحمد وأصحابه بعد واقعة خيبر

فهو طعام شهي لكنه موت زؤام. وأما الإنجيل فلا يحمل بين دفتيه إلا الصلاح المحض.

بقي علينا أن نقول إن الإنجيل لا يأمر بالصلاح ويدع الإنسان وشأنه بل يمنحه القوة التي تدفعه إلى العمل. ما هي تلك القوة العجيبة؟ إنها المحبة للمسيح وهي قوة لا توجد إلا في الإنجيل. سأل تلميذ مسيحي أحد علماء الهند البوذيين فقال : إنك قرأت الكتاب المقدس وقرأت كتبكم فماذا وجدت؟ قال: وجدت مشاعر شريفة في كل من كتبكم وكتبنا إلا أن الفرق عظيم وهو أنكم معاشر النصارى تعرفون الواجب ولكم من القوة ما يؤهلكم للعمل. أما نحن فنعرف الواجب ولكننا غير قادرين على القيام به. فمثل الأديان الأخرى مثل قوم مدوا سكة حديد ولكن ليس لهم القوة المحركة وأما الديانة المسيحية ففضلاً عن كونها مدّت سكة أقوم سبيلاً ففيها القوة المحركة التي تحرك الطالب إلى السير وتلك القوة هي المسيح. والفرق جوهري وعظيم. ولا يبرح من ذهن القارئ الكريم أن فيلسوف الصين لم يذكر اسم الله في جميع مؤلفاته إلا مرة واحدة وتلك المرة ليست من كلامه بل مقتبسة، فهو ليس من رجال الدين بالمرة.

(سابعا) ومن الأدلة على أن الكتاب المقدس موحى به إتمام

النبوات المتضمنة فيه مما ليس له نظير في كتب الأديان الأخرى، فإنه عدا النبوات الكثيرة الواردة في أسفار العهد القديم بشأن المسيح وتمت فيه كما هو مقرر في أسفار العهد الجديد، قد وردت نبوات أخرى ليست أقل من الأولى. سأل ملك من ملوك بروسيا مسيحياً : هل تقدر أن تبرهن على وحي الكتاب بكلمتين؟ أجاب : اليهود يا مولاي. إن النبوات التي وردت في الكتاب عما يصيبهم تحققت كما تشاهد أحوالهم اليوم، ومن أمثلة ذلك ما ورد في (تث ٢٨ :١٥-٢٨ ومت ٢٤ :٣-٢٨ ومر ١٣ :١-٢٣ ولو ٢١ :٥-٢٤) وكما تمت النبوات الأخرى المنذرة بخراب نينوى وبابل وكثير من المدن العظيمة، وعدا ذلك تنبأ دانيال النبي قبل ملك الاسكندر بزمن طويل عن انتصاره على مادي وفارس وانقلابهما (دا ٨ :٣-٢٧) وعن انقسام مملكة الإسكندر من بعد موته، وقد حقق التاريخ ذلك. ثم تنبأ الإنجيل عن امتداد الديانة المسيحية وما يلحقها من الاضطهادات، كما تنبأ عن قيام الأنبياء الكذبة والارتداد عن الإيمان وسريان الإلحاد والكفر في الأيام الأخيرة. وكل ذلك تحقق كما هو مشاهد بالعيان، فليس سوى الله علام الغيوب الذي سبق وأنبأ بهذه الأمور على ألسنة كتبة الأسفار المقدسة.

(ثامنا) ومن الأدلة على وحي الكتاب المعجزات التي أتى بها المسيح ورسله، ومن أهمها قيامة المسيح من الموت بعد ثلاثة أيام في القبر مما يؤيد دعواه أنه مخلّص وكلمة الله.

(تاسعا) يظهر حق الإنجيل من انتشار المسيحية في العصور الأولى وغلبتها على وسائل التدمير التي أثارها عليها إبليس والأشرار (مت ١٦ :١٨) ولا تزال رافعة أعلام النصر إلى عصرنا الحاضر. والعجب العجاب أنها انتشرت وغلبت بدون وسائط بشرية لأن الرجال الذين وكلت إليهم الكرازة بالإنجيل كانوا فقراء مالاً وعلماً وكرزوا بما يخالف رغبات الناس وميولهم وعاداتهم وبما هو بعيد عن عقولهم وتصوراتهم واشترطوا على الذين يقبلون كرازتهم أن يقبلوا الاضطهاد من الأعداء مهما اشتدت وطأته حتى الموت الأليم بدون أن ينتقموا لأنفسهم أو يطلبوا النقمة من الله على مضطهديهم، بل الأحرى يباركوهم ويدعوا لهم بالدعوات الصالحات (أع ٧ :٦٠) فمن كان يظن أن ديانة كهذه يروج سوقها في هذا العالم الأثيم ولكن بما أنها من عند الله راجت بالرغم عن سهام الأعداء الملتهبة حتى أنه لم يمض عليها بضعة قرون حتى امتدت إلى كل جهات العالم وقلبت كيان الوثنية رأساً على عقب في سوريا ومصر وآسيا الصغرى واليونان والرومان إلى غير

ذلك من البلدان المشهورة، بدون سيف ولا إكراه، بل بالإيمان واللطف والمحبة والشجاعة الأدبية والأمانة حتى موت الاستشهاد مع الكرازة ببساطة الإنجيل. ألا يدل ذلك على أن روح الله القدوس أيد المسيحيين الحقيقيين ووهبهم صبراً وشجاعة حتى شهدوا لسيدهم واستمالوا قلوب الأعداء وربحوهم للإيمان بالمسيح إلى أن صاروا له جنوداً وأعواناً. نعم إننا لا ننكر أن بعض الأديان الأخرى انتشرت ولكن بالترغيب والتهديد العاجلين والآجلين مثل أن يأتي الداعون البلاد يحملون في اليد الواحدة الكتاب الذي يدعون إليه وفي اليد الأخرى السيف. ولست أخالك تجهل أن السيف عند الكثيرين برهان قاطع حتى قالوا إنه أصدق أنباءً من الكتب. وأما الترغيب مثل أن يرغبوا الناس بتعدد الزوجات وتبديلهن من حين إلى حين بما لذ وطاب في هذه الحياة الدنيا وتعليق رجائهم في الحياة الأخرى بزوجات أكثر وجمال رائع فتان. فإن انتشرت ديانة بمثل هذه الوسائل لا يكون انتشارها دليلاً على أنها من عند الله لأن الله قدوس يبغض الشر ويمقت الفجور والبغي والبهتان فشتان بين المسيحية وبين الأديان الأخرى.

فإن قِسْت الكتاب المقدس على الشروط التي نتوقعها بالبداهة

في الوحي الحقيقي حسبما ذكرنا في المقدمة نجدها متوفرة فيه بحيث لا نتردد في الجزم بأنه موحى به من الله وخصوصاً لأنه يشهد من أوله إلى آخره للمسيح كلمة الله، أي مظهره الكامل الحقيقي.

الفصل الثامن

في الكيفية التي انتصرت بها الديانة المسيحية في القرون الأولى

لما بدأ المسيح يكرز بالإنجيل اختار من بين أتباعه اثني عشر رجلاً علّمهم الحق ودرّبهم على التبشير، وكان هو الحق، فبمجرد وجودهم معه ومعاينتهم أعماله ومعجزاته وسماعهم أقواله وتعاليمه عرفوا الحق بمعنى أنهم عرفوا الله في شخص المسيح بأنه الآب السماوي القدوس الصالح (يو ١٤ :٦-١٠ و١٧ :٣) ودعاهم رسلاً (لو ٦ :١٣) لأنه قصد أن يرسلهم إلى العالم قارن سورة الصف ٦١ :١٤. ثم لما أكمل عمله وقام من بين الأموات وكان على وشك الصعود سلّم إليهم مأمورية الكرازة، ووكل إليهم أن يتلمذوا جميع الأمم (مت ٢٨ :١٩) ويشهدوا له إلى أقصى الأرض (أع ١ :٨). ولما كان الإنسان ضعيفاً ومعرضاً للزلل أمرهم أن يمكثوا في أورشليم حتى يرسل إليهم الروح القدس يقوّيهم ويذكّرهم بالحق ويعصمهم من الخطأ في تبليغ

الرسالة، ويعدّ لهم القلوب، ووعدهم بأنه يرسله بعد أيام قليلة (أع ١ :٥ ويو ١٤ :١٦ و١٧ و٢٦ و١٥ :٢٦ و١٦ :٧-١٥ وأع ١ :٤ و٨). وامتثـــــالاً لأمره (لو ٢٤ :٤٩ وأع ١ :٥) مكثوا في أورشليم منتظرين إتمام الوعد، ففي ختام خمسين يوماً من قيامته أو عشرة أيام من صعوده كانت الرسل مع جماعة من المؤمنين يبلغ عددهم جميعاً مائة وعشرين يصلّون ويسبحون الله، وإذا بصوت كما من هبوب ريح عاصفة ملأ كل البيت حيث كانوا جالسين، وامتلأ الجميع من الروح القدس وابتدءوا يتكلمون بألسنة أخرى كما أعطاهم الروح أن ينطقوا (انظر أع ٢ :١-١٣) ومن ذلك الوقت ملأهم الروح القدس بالمحبة والإيمان والغيرة الصالحة والشجاعة ومعرفة الحق (يو ١٤ :٢٦ و١٦ :١٣) الذي أراد الله أن يعلنه لهم وأن يبلغوه للعالم. ومما يدل على صدق إرسالهم إلى العالم أنه وهب لهم أن يتكلموا بألسنة أخرى (أع ٢ :٤) ومن ذلك الوقت لم نسمع أبداً أنهم بشروا في بلاد أجنبية بعد درس لغاتها، لأن الله تعالى أعطاهم قوة التكلم بالألسنة كعلامة على أن روح الله يعينهم على الكرازة بأية لغة أينما ذهبوا، وأن بعضاً من الرسل إن لم نقُل كلهم أيدهم الله بالمعجزات الباهرة في شفاء المرضى وإقامة الموتى كمعجزات سيدهم

(أع ٢ :٤٣ و٣ :١-١١ و٥ :١٢-١٦ و٨ :١٧ و٩ :٣١-٤٣) إلا أنهم عملوا هذه المعجزات باسم المسيح وليس بقوتهم ولا تقواهم (أع ٣ :٦ و١٦).

وبعد ذلك ببضعة سنوات اهتدى بولس إلى الإيمان بالمسيح بمعجزة عجيبة (أع ص ٨) وبعثه المسيح رسولاً وأيده بالمعجزات كباقي الرسل (أع ١٤ :٨-١٠ و١٩ :٦ و١١ و١٢ و٢٠ :٩ و١٠ و٢٨ :٨ و٩) ومما يجب ملاحظته أن المعجزات أُعطيت في بداءة الديانة المسيحية إلى زمن معين لأجل تأييدها إلى آخر زمان الرسل، ولو كانت استمرت المعجزات كل الزمان إلى العصر الحاضر لأصبحت اعتيادية وفقدت ما لها من السلطان في تأييد جماعة الرسل في ما كتبوه من الأسفار المقدسة وما كرزوا به. ولذا أيد الله بها المؤسسين الأولين لتثبيت الإيمان وتشجيعهم على احتمال عذاب الاضطهاد (عب ٢ :٤) ولم نقرأ قط لا عن المسيح ولا عن رسله أنهم عملوا المعجزات لإقناع غير المؤمنين وحملهم إلى الإيمان.

وساعد الروح القدس الرسل في مناداتهم بالإنجيل وكتاباتهم، وعصمهم من الخطأ، وأرشدهم إلى الحق الذي أراد الله إعلانه للناس، فما كرزوا به وما كتبوه ليس كلامهم بل كلام المسيح (مر ١٣ :١١

ويو ١٤ :٢٦ ورو ١٥ :١٨ و١٩ و١كو ٢ :١٢ و١٣ و١تس ٢ :١٣).
فمن قَبِلهم قَبِل المسيح ومن رفضهم رفض المسيح، وعلى ذلك قوله : "اَلَّذِي يَسْمَعُ مِنْكُمْ يَسْمَعُ مِنِّي، وَالَّذِي يُرْذِلُكُمْ يُرْذِلُنِي، وَالَّذِي يُرْذِلُنِي يُرْذِلُ الذِي أَرْسَلَنِي" (لو ١٠ :١٦) وعليه فجماعة الرسل صادقون في دعواهم بالرسالة من الله (١كو ١ :١ وغل ١ :١ و١بط ١ :١).

ثم أن قوة الله وفاعلية الحياة المقدسة التي عاشها المسيح على الأرض ظهرت تمام الظهور بكرازة الرسل، لأنه لم يمض وقت طويل حتى أن ألوفاً كثيرة من اليهود بل من نفس الكهنة اعتنقوا المسيحية (أع ٢ :٤١ و٤ :٤ و٦ :٧ و٢١ :٢٠) وكذلك آمن من الأمم جماهير كثيرة انتقلوا من الظلمة إلى النور ومن ملكوت الشيطان إلى حرية مجد أولاد الله، ومن عبادة الأوثان إلى عبادة الله الحي (١تس ١ :٩).

ولم تُذكر معجزات العهد الجديد التي أتى بها الرسل في أسفارهم وفي مؤلفات المسيحيين الأولين فقط، بل شهد لها اليهود كما جاء في تلمودهم، إلا أن كتبتهم المتأخرين نسبوا معجزات المسيح إلى السِّحر، وكذلك شهد لسرعة انتشار الديانة المسيحية عدد ليس بقليل من كتبة الوثنيين، منهم بليني وتاسيتوس وسلسوس والأمبراطور

يوليان المرتد، وقد اتخذ الأعداء كل وسيلة لمحو آثار المسيحية عن وجه الأرض ولكنها بالرغم عن ذلك ثبتت أمام الاضطهادات.

ينكر بعض إخواننا المسلمين على تلاميذ المسيح لقب الرسول، ولكن بإنكارهم ذلك يُظهرون عدم اطلاعهم على نفس كتابهم الذي يدعوهم في سورة آل عمران ٣ :٥٢ والمائدة ٥ :١١٤ والصف ١٦ :١٤ الحواريين. وأجمع العلماء أن هذه الكلمة حبشية الأصل ومعناها رسول، وفي نسخة العهد الجديد الحبشية وردت كلمة الحواريين موضع كلمة رسل (انظر لو ٦ :١٣) وهي مشتقة من كلمة تفيد باللغة العربية معنى ارسل ولذلك لا مسلم حريص على كرامة القرآن يتجاسر أن ينكر أن تلاميذ المسيح رسل أو أن المسيح لم يُصِبْ في تسميتهم بهذا الاسم، وأن بولس تعيّن رسولاً أيضاً بعد تعيين الرسل الأولين بمدة وجيزة حينما ظهر له المسيح من السماء وهو مسافر إلى دمشق ودعاه أولاً إلى الإيمان ثم بعثه رسولاً (أع ٩ :١-٣٠ و٢٢ :٢١ ورو ١١ :١٣ و٢كو ١٢ :١٢ و١تي ٢ :٧) وعدا ذلك فإن نجاح الرسل في نشر بشرى الخلاص دليل على صحة رسالتهم، لأنه ظهر ختم الله على أعمالهم.

ومن المعلوم أن المسيح نهى عن الجهاد بالأسلحة الجسدية لنشر الدين، واعتبره جرماً عظيماً، وعلى ذلك قوله لبطرس حالما استل سيفه ليدافع عنه "رُدَّ سَيْفَكَ إِلَى مَكَانِهِ. لِأَنَّ كُلَّ الذِينَ يَأْخُذُونَ السَّيْفَ بِالسَّيْفِ يَهْلِكُونَ" (مت ٢٦ :٥٢). أيضاً يكره المسيح الرّياء، وفي الجهاد بالسلاح يضطر البعض إلى اعتناق الدين خوفاً من الموت أو الاضطهاد، وهذا عين الرياء والنفاق. فإذاً لا يقدر السيف أن يصيّر الإنسان مسيحياً،كما أنه ليس بالسيف انتشرت الديانة المسيحية في القرون الأولى، وحتى في عصرنا الحاضر الذي رجحت فيه قوة النصارى على العالم أجمع لا تجبر المسيحية رعاياها المسلمين أو الوثنيين على اعتناق ديانتها بالسيف ولا بما هو دونه من وسائل الإجبار، بل تتركهم وشأنهم يبتغون الدين الذي يصادف استحسانهم، لأنهم يعلمون أن الإيمان الحقيقي لا يمكن أن يكون بالإلزام والضغط. وعليه فكل دين ينتشر بالإكراه ليس بحق، وبالتالي ليس من عند الله، وفضلاً عن أن السيف لم يستخدم قط لصالح المسيحيين فإنه استخدم لمقاومتهم واضطهادهم أكثر من أي دين آخر على وجه الأرض، فإن أكثر رسل المسيح استُشهدوا في ختام حياتهم بعدما عانوا أتعاباً وضيقات تفوق الوصف في خدمة الإنجيل، وأوصوا أتباعهم بالصبر في احتمال أنواع العذاب حباً بالمسيح وعمل

السيف فيهم وعملت النار مما أدهش مضطهديهم واستمال قلوب أعدائهم فانجذبوا إلى المسيح حتى قال كبريانوس إن دماء الشهداء بذار الكنيسة، وبات قوله مثلاً مضروباً، وليس بالفصاحة والبلاغة جُذب الناس إلى الإيمان، بل بالعكس كانت كرازتهم بسيطة معنى ولفظاً - ١كو ٢ :١-٥ و١٢ و١٣.

ولما كتبوا البشائر والرسائل - التي أطلق عليها الإنجيل - بإلهام الروح القدس، لم يستعملوا لغة عالية لا يفهمها إلا الراسخون في العلم، بل كتبوا ما كتبوه بأبسط العبارات مما يستطيع أن يفهمه الجمهور بغير عناء ليحصلوا من أقرب طريق على رحمة الله ونعمته ومحبته وصلاحه وحكمته، فتُستأثر قلوبُهم إلى الخلاص. والحق يُقال إن كلام الله ينبغي أن يكون من النوع البسيط قريب التناول حتى ينتفع به السواد الأعظم من الناس الذين لا يفهمون إلا قليلاً، وهم عند الله كالعلماء، لأنه ليس عند الله محاباة (مز ١٤٥ :٩). وربما لأجل هذا السبب كتب الفيلسوف العظيم أفلاطون رسائل سقراط بلغة عصره المتداولة حتى يفهمها كل من يطلع عليها.

ثم أن الإنجيل لا يشجع أحداً على إشباع شهواته البهيمية، ولا يوهمه أنه بمجرد اعترافه بالمسيحية ينجو من عقاب الدنيا والآخرة

مع إصراره على خطاياه (مت ١ :٢١ ويو ٨ :٣٤ ورو ٦ :١ و٢ و١١ و١٥-٢٣). ووصف طريق الخلاص بأنها ليست واسعة يعبر فيها الإنسان وخطاياه معه، بل ضيّقة لا تسع إلا الإنسان وحده (مت ٧ :١٣ و١٤) وعلَّم المسيح ورسله جماعة المؤمنين أن ارتكاب الخطية عبودية لإبليس، وأنه مستعد أن يمنح الحرية الحقيقية من نيرها الثقيل ومن نير الأهواء الجسدية والشهوات الرديئة، ومن ذلك قول الرسول بطرس "أَيُّهَا الأَحِبَّاءُ، أَطْلُبُ إِلَيْكُمْ كَغُرَبَاءَ وَنُزَلاَءَ أَنْ تَمْتَنِعُوا عَنِ الشَّهَوَاتِ الجَسَدِيَّةِ التِي تُحَارِبُ النَّفْسَ" (١بط ٢ : ١١) وأن يكونوا جنوداً أمناء للمسيح مستعدين أن يقدموا حياتهم، وذلك أولى من أن يرجعوا إلى عبودية إبليس وعبادة الأصنام.

ولم يشتغل الرسل بين المتمدنين فقط، بل اشتغلوا في كل البلاد المعروفة في عصرهم مثل مصر والشام ومكدونية وإيطاليا وغيرها، وظهرت نعمة الله للعيان في تحويل الأشرار إلى صالحين.

ومن العصر الرسولي ابتدأت المجامع المسيحية تنعقد في كثير من المدن الشهيرة، مثل سوريا ومصر وآسيا الصغرى واليونان ومكدونيا وإيطاليا. ولو أن المسيحية ابتدأت أولاً بين اليهود في أرضهم لكنها لم

تلبث طويلاً حتى انتشرت بين أمم الأرض كافة، وكان اليهود يسافرون ويتاجرون في جهات الأرض المعروفة حينئذ، فكان المهتدون منهم يبثون في الحل والترحال بشرى الخلاص، وأما اليهود الذين لم يؤمنوا فكانوا أول المقاومين والمعذبين للذين آمنوا، ثم نسج على منوالهم بعد ذلك الوثنيون، وأخذوا يضطهدون المسيحيين بقساوة بربرية، ولكن بالرغم من هذا الاضطهاد تقدمت النصرانية إلى أقصى أطراف المسكونة بوسائل صالحة، كالكرازة والصبر والمحبة واللطف وفعل الخير، فخشي أباطرة الرومان من سطوة الإنجيل على الوثنية التي يدينون بها، فأثاروا على المسيحيين اضطهادات عنيفة وابتدأت هذه النكبات في زمن الملك نيرون، الذي يُقال إنه هو الذي أعدم الرسولين بطرس وبولس، وأحرق جماهير من النصارى أحياء وجعل من أبدانهم مصابيح ومشاعل لإنارة بساتين قصره ليلاً، وكان الرومان في ذلك الوقت بلا دين، غير أنهم كانوا يتعبدون لملوكهم وسعوا جهد استطاعتهم أن يستميلوا مواطنيهم المسيحيين إلى تلك العبادة المحرمة فلم يفلحوا، فهجموا عليهم وساقوهم إلى قبورهم بميتات شنيعة كسوقهم إلى الوحوش في ملاعب روما، واستولوا على أملاكهم، وتكررت هذه

الكوارث من حين إلى آخر في كل أنحاء المملكة الرومانية مدة ثلاثة قرون.

وهذه المملكة كانت تمتد من اسكتلندا غرباً إلى خليج العجم شرقاً، رافعة أعلامها على شمال أفريقيا ومصر وفلسطين وسوريا وآسيا الصغرى وتركيا في أوروبا وفرنسا وألمانيا والنمسا وأسبانيا والبرتغال وبريطانيا. ومع أنها بلغت إلى هذا الحد من العظمة وضخامة الملك فما استطاعت بكل سلطانها أن تزعزع أساس الكنيسة المسيحية التي ثبتت أمام هجماتها الرهيبة كالجبل الراسي، لأن ذراع القدير كان يحميها، وحقَّت عليها نبوة المسيح : "عَلَى هذِهِ الصَّخْرَةِ أَبْنِي كَنِيسَتِي ،وَأَبْوَابُ الجَحِيمِ لَنْ تَقْوَى عَلَيْهَا" (مت ١٦ :١٨) وفضلاً عن كونها لم تتزعزع فإنها امتَدت وأزهرت في وسط هذه البلايا، إلى أن تحولت معابد الأوثان في كثير من الجهات إلى كنائس مسيحية. ومع أن النصارى غلبوا بصبرهم ولطفهم حتى عظمت طائفتهم، إلا أنهم لم يقاوموا مضطهديهم ولم يرفعوا في وجوههم سلاحاً لا هجوماً ولا دفاعاً، سوى سلاح الصبر والتسليم لله، حتى يأتيهم الفرج من عنده.

وفي سنة ٣١٤ للميلاد اعتنق الملك قسطنطين المسيحية، ولكنه لم يتعمد إلا بعد سنين كثيرة من ذلك التاريخ، وحينئذ نجا المسيحيون من الاضطهاد، بل علت منزلتهم لدى الهيئة الحاكمة. وقد زَّين هذا لكثير من الناس أن يتنصروا أفواجاً أفواجاً بدون توبة ولا تجديد ولا تعليم، فأدخلوا معهم إلى الكنيسة آراء كثيرة وثنية، ودبَّ في النصارى روح الإهمال في مطالعة الأسفار المقدسة، وانحرفوا إلى إكرام القديسين، وفترت محبتهم بعضهم لبعض، وأخذت العبادة المسيحية تتميز في الطقوس والرسوم الكنائسية، وفقدت الكثير من روحانيتها ونقاوتها الأولى، وراجت سوق الرياء وكثرت البدع، وعوض أن يحب أولئك النصارى بعضهم بعضاً كما أوصاهم الإنجيل أخذوا يتجادلون ويتباحثون في المواضيع التافهة، حتى سوَّلت لهم نفوسهم أن يضطهدوا بعضهم بعضاً. فانحدر جمهور منهم في وهدة الخطية وتعبَّد آخرون لمريم العذراء والقديسين والتماثيل، وهيجت هذه الأعمال عليهم غضب الله، حتى أنه كما سلط على اليهود لأجل تمردهم وعصيانهم ملوك بابل وأشور واليونان والرومان، هكذا سلط على النصارى لأجل تأديبهم العرب خصوصاً في بلاد الشرق (رؤ ٩ :٢٠ و٢١) وأما الآن فكثير من الكنائس

الشرقية استنارت ورفضت عبادة الصور والتماثيل، وأقبلت تطالع الأسفار المقدسة وتسير بموجبها حسب إرشاد الروح القدس، وقامت طائفة منهم تكرز بالإنجيل للمسلمين، وأخيراً نقول إن المسيحيين على اختلاف مذاهبهم يؤمنون بالكتاب المقدس، ويعتقدون بالمسيح كلمة الله، ويتكلون على كفارته التي قدمها على الصليب لأجل خطايا العالم. فليرتض الله إله كل رحمة أن ينير أذهان القراء الكرام حتى يشتركوا معنا في هذا الخلاص المجيد المقدم مجاناً للعالم أجمع بالمسيح يسوع الحي.

لَيْسَ بِأَحَدٍ غَيْرِهِ

الخَلاَصْ

لِأَنْ لَيْسَ اسْمٌ آخَرُ تَحْتَ السَّمَاءْ

قَدْ أُعْطِيَ بَيْنَ النَّاسِ بِهِ يَنْبَغِي أَنْ نَخْلُصَ

ميزانُ الحَق

كيفَ نعرفُ الدّيـــــنَ الحَــــقَّ؟

How can we know the real Religion?

الجزء الثالث

الدكتــور فــاندر
Dr. Carl Pfander

(Arabic)

الباب الثالث

بحث بإخلاص في دعوى أن دين الإسلام دين الله الأبدي

__ * __

الفصل الأول

في إيضاح سبب البحث

اسمح لي أيها القارئ الكريم أن أقص عليك حادثة: منذ سنين كثيرة سافر إلى شيراز (من أمهات مدن الفرس) تاجر مسيحي يحمل بين يديه تجارة لا يقدر ثمنها ألا وهي نسخ من كلام الله أي كتاب أهل الكتاب الذي يشهد له القرآن كما شرحنا في ما تقدم. ومن العجيب أنه حالما اطلع الأهالي على تجارته أثار عليه المشائخ زمرة من الرعاع فأوسعوه ضرباً ومزقوا كتبه وداسوها بالأقدام وأخرجوا الرجل خارج المدينة وتهددوه بالقتل إن عاد بمثل هذه الكتب، لقد عملوا به ما عمله الكرامون في العبيد الذين أوفدهم سيدهم ليأتوا بثمر الكرم (مت ٢١: ٣٣-٤٤) فكيف والحالة هذه يقولون بملء أفواههم قُولُوا "آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ

رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ" (سورة البقرة ٢: ١٣٦) ومن جملة الذين شاهدوا هذه الحادثة صبي من أهل تلك البلاد فأخذه العجب والحيرة من أولئك المشايخ الذين حرضوا على إتلاف كتب يقول القرآن أنها منزلة من عند الله وأنه مصدق لها ومهيمن عليها ولما فكر لحظة قال في نفسه لعلها تشتمل على أمور يخشى منها ساداتنا العلماء على ثبات القرآن وأقلق هذا الفكر باله إذ كان متمسكاً بأذيال دينه واجتهد أن يتخلص من هذا الفكر ويريح قلبه من العناء. وحدث أنه لما شب صمم أن يقف على البينات التي تؤيد الإسلام ليستريح من الشكوك التي أزعجته حيناً من الدهر. وكان على مقربة من شيراز يسكن عالم حاز شهرة كبيرة في حرصه على مناسك دينه مثل إقامة الصلاة وتلاوة القرآن وصيام رمضان الخ فأتى إليه صاحبنا ابتغاء الاستفادة منه والوقوف على جلية الأمر وأخفى ما في نفسه من الشكوك خوفاً منه. وبعد عبارات الإكرام قال له إنني يا مولاي قابلت بالأمس يهودياً واجتهدت أن أبرهن له صحة دين الإسلام لأجتذبه إليه فسمع لي كل ما قلته لإثبات رسالة نبينا ولم يقتنع فهل يتكرم مولاي بسرد البراهين التي يجب أن أقولها له: فالتفت إليه العالم عابساً وقال الأرجح عندي أنك كافر فخاف الغلام وسافر إلى

بومباي ، وحالما تيسر له الأمر استعار نسخة من الإنجيل وقرأها بتأمل رجاء أن يعثر على الشيء الذي أزعج المشائخ حتى حرضوا على إتلافه. يُقال أن أشد التعذيب وقعاً على النفس بعد تبكيت الضمير هو ارتياب المرء في الدين الذي نشأ فيه، فضلاً عن كون الشك يضعف عزيمة الإنسان عن تأدية الواجب ويخيب رجاءه في الحياة الأخرى ويعرضه لتجارب إبليس إلا أن الله سبحانه وتعالى سمح أن تختلف الأديان وتتضاد حتى يتزكى المفكرون طلاب الحقيقة ويظهر الحريص من المتهاون فالواحد لا يبالي والآخر يحصر فكره في الموضوع باحثاً عن الأدلة التي تؤيد دينه ولولا الاهتمام بالسؤال والبحث ما غير أحد دينه سواء أكان حقاً أو باطلاً. ومن هنا تظهر ضرورة فحص أركان الدين والوقوف على صحيحه من فاسده، والضمانة الوحيدة للسلامة من الضلالة في البحث هو أن يبحث طالب الحقيقة بروح التواضع والإخلاص جاداً في طلب مرضاة الله مبتهلاً إليه أن يمده بهدايته بنور من السماء ليعرف الحق من الباطل ويسلك في الحق كبني النور. فإذا كان من بعد البحث بهذه الكيفية يظهر لك أن دينك حق تنتفي من قلبك الشكوك إلى الأبد وتفيض نفسك حمداً لله لأجل توفيقه لك بالهدى ثم تقبل إلى بني جنسك ترشدهم بما فتح الله عليك شارحاً لهم

طريق الخلاص. ولكن إذا اتضح لك بعد التأمل أن دينك باطل والشكوك التي خالجت قلبك مبنية على براهين مثبتة فما أجدى بك أن تطرح من وراء ظهرك هذا الدين الباطل وتجدّ في طلب الحق لتفوز برضوان الله والحياة الأبدية. وعلى كل حال فلا ضرر من البحث بإخلاص وتدقيق في أصول الإيمان وإنما الضرر هو أنه إذا فطن الباحث إلى موضع الخلل في دينه لا يقوى على عواطفه فيخدع نفسه ويتعامى عنه. نعم إن في هذا الطامة الكبرى إذ تتوالى عليه الشكوك ويقع أخيراً في شرك الكفر ويموت بلا إله وبلا رجاء فما أحسن البحث بإخلاص وجد كما في المثل المشهور من طلب شيئاً وجدّ وجد ومن قرع باباً ولجّ ولج.

فهلموا بنا معاشر الإسلام نبحث معاً نابذين التعصب جانباً في الأصول المبني عليها دينكم ونعرضه على القاعدة التي قدمناها في الجزئيين الأولين من كتابنا وعرضنا عليها الديانة المسيحية.

فنقول أن الركن الأول الذي بُني عليه الإسلام هو الشهادتان أما الشهادة الأولى فمقبولة عند اليهود والمسيحيين كما هي مقبولة عند المسلمين أنفسهم وهي لا إله إلا الله وقد شرحنا هذه الكلمة في كتابنا وأن الأدلة على وجود الله ووحدانيته كثيرة ووردت في

كتب متعددة عدا عن إمكانية الاستدلال عليها من الخليقة، وعليه فلا حاجة بنا إلى مزاولة البحث في ما نحن متفقون عليه. الله سبحانه عز وجل قد أقام الدليل على وجوده ووحدته في كل ورقة نبات وزهرة بل في ضمائرنا ووجداننا وفي وحدة نظام الكون والحقيقة أنه توجد ألوف من الأدلة على صحة الشهادة الأولى.

أما الشهادة الثانية ألا وهي أن محمداً رسول الله فعليها مدار بحثنا فما هي الأدلة يا ترى على صحة رسالة محمد؟ أشار إخواننا المسلمون إلى جملة أدلة أهمها ما يأتي:

(١) قالوا أن أسفار العهد القديم والعهد الجديد تنبأت عنه،

(٢) قالوا أن لغة القرآن وتعاليمه ليس له نظير في كل الكتب وعليه فالقرآن بمفرده هو الدليل الأعظم على صدق دعوى محمد،

(٣) آيات محمد ومعجزاته كختم الله على رسالته،

(٤) حياته وأخلاقه برهان على أنه خاتم الأنبياء وسيد المرسلين،

(٥) سرعة انتشار دينه برهان على أن الله أرسله بالكتاب النهائي.

نقول أن هذه البراهين لا شك أنها تستحق الاعتبار وتثبت رسالته فقط إذا كانت حقيقة ولهذا ينبغي للعاقل قبل أن يعتنق هذا الدين أن يفحص البراهين المذكورة فحصاً دقيقاً كما ينقد التاجر الدراهم

التي يبيع بها بضائعه لئلا يقع في شرك محتال ذي دهاء. وصدق من قال أن سعادة المرء في دنياه وأخراه متوقفة على نفاذ عزيمته في ما يختاره لنفسه. والآن اختر شيئاً من شيئين أما أن تؤمن أن المسيح هو مخلص العالم أو المخلص هو محمد. قد أتينا بهذا التخيير لا من باب التحامل على الإسلام ولا التشيع للنصرانية بل من باب مقارنة الشيء بنظيره والبحث بعناية وحذر وصلاة في ما هو أقوم سبيلاً. لكل من المسلمين والنصارى مصلحة في هذا البحث الهام فإن أخلصوا جميعاً لوجه الله كانت النتيجة خيراً لأن الحق لا يظل محتجباً وقتاً طويلاً ولا بد أن يظهر يوماً ما كالشمس عند الظهيرة.

وهذا ما عزمنا على بيانه في الفصول الآتية صادقين في المحبة كما يجب على المسيحيين (أف ٤: ١٥) باذلين الجهد أن نمحص كتاباتنا من كل ما يجرح مشاعر إخواننا الذين يبحثون على الحقيقة بإخلاص وجد بأن نجتنب كل عبارة بل كل كلمة لا تنطبق على ناموس اللطف والمحبة فإذا زل قلمنا وكبتنا شيئاً يشتم منه رائحة التعصب فنرجو المعذرة سلفاً لأن نيتنا حسنة إذ لسنا نريد سوى الفائدة لإخواننا كما نريد لأنفسنا والإنسان مهما احترس لا يسلم من الزلل ومن شيم الكرام الصفح.

الفصل الثاني

هل تنبأ الكتاب المقدس عن محمد؟

لا شك أن مجيء المسيح سبق الإنباء به في أسفار العهد القديم في مواضع كثيرة تفوق الحصر وذلك من المسلم به. فإن فرضنا أن الله قصد أن يبعث إلى العالم رسولاً آخر أعظم بكثير من المسيح لا بد أن يسبق الإنباء عنه لا في أسفار العهد القديم فقط بل وفي الجديد أيضاً، وعليه يلزم بطبيعة الحال أن يبحث إخواننا المسلمون في أسفار العهدين عن النبوات التي تؤيد دعوة مؤسس دينهم. ثم إن كان محمد خاتم الأنبياء وسيد المرسلين ومن أجله خلق الله العالمين فيكون من العجب العجاب أن لا تتقدمه النبوات لتوجيه الأنظار إليه والانقياد لأوامره ولما لم يقدر المسلمون أن ينكروا ضرورة ذلك اضطروا أن ينتحلوا من الكتاب نبوات عن رسولهم وادعوا أنه كان يوجد نبوات أخرى أكثر من هذه حذفها اليهود والنصارى.

وأما دعواهم بوقوع الحذف والتحريف في الكتاب المقدس فقد دحضناها بالدليل الساطع والبرهان القاطع في الباب الأول وأثبتنا أن الكتاب المقدس المتداول اليوم بين أيدينا هو عين الكتاب الذي كان

موجوداً في عصر محمد وقبل عصره بقرون كثيرة ولم تمسسه يد المفسدين لا قبل محمد ولا بعده إذاً لا حاجة بنا إلى بينان تزييف ما ادعوه بهذا الخصوص. وأما إذا كان يوجد في الكتاب حقيقة نبوات تشير إلى محمد فيجب على كل مسيحي أن يلتزم بها ويؤمن بخاتم الأنبياء وهو مطمئن وليس لأحد منا حجة إذا اعتذر عن تلك النبوات بأن المسلمين زادوها على الكتاب يوم كان لهم السلطة على النصارى في كثير من البلدان ولكن إن ثبت أنه لا يوجد في كتابنا أية نبوة عن محمد فلا يكون من الشجاعة وحيرة الفكر أن يعتصموا بالدعوى الأولى وقد تبين فسادها كقولهم أنه كان في كتابهم نبوات عن محمد ونحن أهل الكتاب حذفناها الخ.

على أن مجرد احتجاجهم بكتابنا على رسالة نبيهم دليل على أنهم معترفون أولاً بأنه موحى به من الله وثانياً أنه غير محرف بل باق على أصله وإلا فما الداعي الذي يحملهم على الاحتجاج بكتاب يعلمون أنه تأليف الناس؟ فإذا اعترف المسلمون حقيقية بالمقدمتين المذكورتين يكون البحث حينئذ في الآيات التي زعموا أنها تشير إلى نبيهم بحثاً مثمراً ولذيذاً وإلا كان البحث عقيماً. ولسنا ننكر أن كثيراً منهم ذوو علم واطلاع ولا يسعهم إنكار القضيتين السابقتين أي أن الكتاب

المقدس موحى به وأنه باق على أصله غير إننا نرجو من حضرات القراء الكرام أن يعترفوا بصحة البراهين التي بسطناها في الباب الأول والثاني من هذا الكتاب وأنها تثبت سلامة الكتاب المقدس.

ومن المسلم أن لنا الحق أن نفسر آية في الكتاب بآية أخرى وكل مطلع خبير يعلم أن التفسير بهذه الكيفية قرين الصواب لإزالة ما عساه يرد في الكتاب من المعضلات وما يعترض به عليه من وجوه المناظرة كما هي الحالة في أي كتاب آخر لأن الآيات الغامضة يجب أن تشرح بالآيات الظاهرة حسب موقعها في سياق الكلام، مثال ذلك إن كانت آية متأخرة تشرح آية متقدمة عليها فلا يجوز لعالم فاضل خال من التعصب أن يرفض الشرح الكتابي ويلجأ إلى تفسير غريب لا يتفق مع سياق الكلام ولا من الآيات الصريحة الواردة في المواضع الأخرى. وبهذه الكيفية التي يزكيها كل عالم فاضل نتقدم إلى فحص الآيات التي أوردها إخواننا المسلمون من الكتاب المقدس لإثبات نبوة محمد ونبدأ بآيات العهد القديم.

(١) (تك ٤٩: ١٠) "يهوذا إياك يحمد اخوتك. يدك على قفا أعدائك يسجد لك بنو أبيك. يهوذا جرو أسد. من فريسة صعدت يا ابني. جثا وربض كاسد وكلبوة. من ينهضه. لا يزول قضيب من يهوذا ومشترع من بين رجليه حتى ياتي شيلون وله يكون خضوع شعوب". زعموا أن هذه الآية تشير إلى نبوة محمد وخصوصاً لأن كلمة يهوذا عدد ٨ مشتقة في الأصل العبراني من الفعل حمد كما اشتق اسم محمد وهذا الزعم باطل لأنه ظاهر من القرينة

أن شيلون المقولة في شأنه النبوة يولد من ذرية يهوذا وظاهر أن محمداً لا هو من ذرية يهوذا ولا هو من ذرية إسرائيل بل من قبيلة قريش وشتان بين قريش وبين بني إسرائيل. وعدا ذلك فإن قضيب الملك زال من الأمة اليهودية قبل ولادة محمد بأكثر من خمسمائة وخمسين سنة والآية تقول أنه لا يزول حتى يأتي شيلون الخ وعليه فالآية المذكورة لا تشير إلى محمد وقد اتفق مفسرو اليهود أن كلمة شيلون من ألقاب المسيح وكذلك السامريون فهي تشير إلى المسيح لأنه هو الذي وُلد من سبط يهوذا وإياه أطاعت الشعوب.

(٢) تث ١٨: ١٥ و١٨ قالوا أن النبي الموعود به هنا لا يكون من بني إسرائيل وعبارة "من وسطك" لم ترد في الترجمة السبعينية ولا في أسفار موسى عند السامريين ولا هي وردت في (أع ٣:٢٢) بل قيل "من أخوتك" أي الإسماعليين (قابل تك ٢٥: ٩ مع ١٨) وقالوا لم يقم نبي كموسى في إسرائيل بدليل هذه الآية (تث ٣٤: ١٠) وأن محمداً كموسى في جملة وجوه كلاهما نشئا في بيوت أعدائهما وكلاهما ظهرا بين عبدة الأصنام وكل منهما رفضه قومه أولاً ثم عادوا فقبلوه والاثنان هربا من وجه أعدائهما أما موسى فهرب إلى مديان وأما محمد فهاجر إلى المدينة وأسما الموضوعين بمعنى واحد وكل منهما نزل إلى

ساحة القتال وحارب الأعداء وعمل المعجزات وساعد أتباعه من بعد موته علـى امتلاك فلسطين هذا مـا قالـه المسلمون. ورداً علـيهم نقـول أن الآيـة الواردة في تث ٣٤: ١٠ تفيد أنه لم يقم نبي كموسى في إسرائيل إلى الوقت الذي كتب فيه هذا السفر وكلمة بعد تفيد أن بنـي إسرائيل توقعوا أن يكون النبي منهم لا من الخارج وأما عبارة من وسطك في العدد ١٥ فهي واردة في النسخ العبرية.

ومـع ذلـك فـالمعنى بهـا وبـدونها ظـاهر، لا ننكـر أن إسـماعيل أخ لإسحاق من أبيه إلا أننـا نقول إذا صح بنـاء علـى هذه القرابـة اعتبـار بنـي إسماعيل وبني إسرائيل أخوة فكم بالأولى كثيراً يكون أسباط إسرائيل الاثنا عشـر أخـوة بعضـهم لـبعض وقـد ورد مثـل ذلـك فـي القـرآن انظـر سـورة الأعراف آية ٨٤ حيث يعتبر شعيباً أخاً لمدين وعدا ذلك فقد كثر في سفر التثنية عينه اعتبار البعض من الإسرائيليين أخوة للبعض الآخر (انظر ٣: ١٨) "وأمرتكم في ذلك الوقت قـائلا الـرب إلهكم قد أعطـاكم هذه الأرض لتمتلكوهـا. متجـردين تعبـرون أمـام اخـوتكم بنـي إسـرائيل كـل ذوي بـأس". و١٥: ٧ "إن كان فيك فقير أحد من اخوتك في أحد أبوابك في أرضك التي يعطيك الرب إلهك فلا تقسّ قلبك ولا تقبض يدك عن أخيك الفقير" و١٧: ١٥ "فانك تجعل عليك ملكا الذي يختـاره الـرب إلهك. مـن وسـط اخوتـك تجعل عليك ملكا. لا يحل لك أن تجعل عليك رجلا أجنبيا ليس هو أخـاك". و٢٤: ١٤ "لا تظلم أجيرا مسكينا وفقيرا من اخوتك أو من الغربـاء الـذين في أرضك في أبوابك". وفـي إصـحاح ١٧: ١٥ وردت عبـارة نظيـر الآيـة المطروحـة علـى بسـاط البحـث بخصـوص الرجـل الـذي يجـب أن يتوجـوه عليهم ملكاً حيث يقول خطاباً لإسرائيل "فإنك تجعل عليك ملكاً الذي يختاره الرب إلهك، من وسط أخوتك تجعل عليك ملكاً لا يحل لك أن تجعل عليك رجلاً أجبنياً ليس هو

أخاك" إن أكثر ممالك أوروبا إن لم نقل كلها محكومة بعائلات أجنبية أو كانت أجنبية يوماً ما أما بنو إسرائيل فمن أول تاريخهم إلى نهايته لم يتوجوا رجلاً أجنبياً ملكاً عليهم. ولو كان استدلال المسلمين بآية البحث استدلالاً صحيحاً لوجب على بني إسرائيل كلما احتاجوا إلى ملك أن يذهبوا إلى الإسماعليين ويختاروا منهم إلا أنهم لم يفعلوا مثل هذا الفعل بل كانوا يعينون ملوكهم من بينهم وهم أعلم من غيرهم بلغتهم ويعرفوا التفسير الحقيقي لعبارة من أخوتك.

ومَن مِن المسلمين اليوم إذا قيل له أن يستدعي أحد أخوته ليتقلد منصباً عالياً يفهم من ذلك أن يستثني أعضاء عائلته ويبحث عن رجل غريب تجمعه معي رابطة الجدود الأقدمين؟ وبخلاف ذلك فقد ورد في التوراة نصوص صريحة تحذر بني إسرائيل أن لا يقبلوا أي نبي من ذرية إسماعيل لأن عهد الله كان مع إسحاق لا إسماعيل (تك ١٧: ١٨-٢١ و٢١: ١٠-١٢) ولا يأخذك العجب إذا قلت لك أن القرآن نفسه يؤيد رأي التوراة من هذه الحيثية لأنه يصرح في مواضع كثيرة أن النبوة موكولة إلى بني إسرائيل ومن ذلك قوله في (سورة العنكبوت ٢٩: ٢٧)"وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ الخ وقوله وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ

وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ" (سورة الجاثية ٤٥: ١٦).

ويُقال خلاف ما تقدم أن النبي المنتظر في آية البحث موعود به أن يرسل لبني إسرائيل وأما محمد فأعلن رسالته بين العرب الذين منهم ولد وبينهم نشأ. وأما من جهة وجوه المشابهة المشار إليها في آية البحث بين موسى والنبي المنتظر أن يقوم من بني إسرائيل فمشروحة في تث ٣٤: ١٠-١٢ وتنحصر في نقطتين الأولى معرفة الله وجهاً لوجه عند كل من النبيين والثانية المعجزات العظيمة لكل منهما. أما عن النقطة الأولى فنقول أنها ليست متوفرة في محمد لأنه قال في حديث مشهور ما عرفناك حق معرفتك وأما عن النقطة الثانية فليست متوفرة فيه أيضاً بدليل القرآن نفسه فإنه يشهد في مواضع كثيرة أنه لم يأت بمعجزة واحدة وعلى ذلك قوله "وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلاَّ أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ الخ" (سورة الإسراء ١٧: ٥٩) انظر تفسير البيضاوي وابن عباس وقوله "وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ" (سورة البقرة ٢: ١١٨) وقوله"وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ" (سورة الأنعام ٦: ٣٧ و٥٧ و١٠٩ وسورة الأعراف ٧: ٢٠٢ ويونس ١٠: ٢٠ والرعد ١٣: ٨ و٢٩ والعنكبوت ٢٩: ٥٠) هاتان هما نقطتا الشبه المقصودتان في التوراة وأما وجوه الشبه الكثيرة التي عددها إخواننا

المسلمون بين موسى وبين محمد فكثير منها متوفرة عند مسيلمة الكذاب وعند ماني الفارسي فهل يكونان نبيين؟

ونقول أخيراً أن الله نفسه فسر في الإنجيل ما أنبأ به في التوراة وأظهر أن النبي الموعود به هو المسيح لا محمد (قابل تث ١٨: ١٥ و١٩ له تسمعون مع مت ١٧: ٥ ومر ٩:٧ ولو ٩:٣٥) "يقيم لك الرب إلهك نبيا من وسطك من اخوتك مثلي. له تسمعون" ،"وفيما هو يتكلم إذا سحابة نيرة ظللتهم وصوت من السحابة قائلا هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت. له اسمعوا". ثم أن المسيح ذاته طبق هذه النبوة وغيرها من نبوات التوراة على نفسه (يو ٥: ٤٦ انظر تك ١٢: ٣ و٢٢: ١٨ و٢٦: ٤ و٢٨: ١٤) يوحنا ٥: ٤٦ "لانكم لو كنتم تصدقون موسى لكنتم تصدقونني لأنه هو كتب عني". أولاً لأنه من نسل يهوذا وبالتالي من بني إسرائيل (مت ١: ١-١٦ ولو ٣: ٢٣-٣٨ وعب ٧: ١٤) وصرف معظم حياته بين اليهود وإليهم أرسل رسله أولاً ولم يرسلهم إلى الأمم إلا أخيراً (مت ١٠: ٦ ولو ٢٤: ٤٧ ومت ٢٨: ١٨-٢٠ وفي أع ٣: ٢٥ و٢٦) وهذا تصريح بأن آية البحث تشير إلى المسيح.

(٣) تث ٣٢: ٢١ "هُمْ أَغَارُونِي بِمَا لَيْسَ إِلهاً، أَغَاظُونِي بِأَبَاطِيلِهِمْ. فَأَنَا أُغِيرُهُمْ بِمَا لَيْسَ شَعْباً، بِأُمَّةٍ غَبِيَّةٍ أُغِيظُهُمْ" قالوا أن الأمة الغبية المشار إليها هنا أمة العرب التي أرسل منها محمد حيث لا يمكن أن تكون أمة اليونان التي أرسل إليها بولس وبقية رسل المسيح لأن أمة اليونان لم تكن غبية بل كانت أهل حكمة وعلم.

ورداً على ذلك نقول هذه النبوة لا تشير إلى نبي ولا إلى رسول

بل إلى أن الله سيغير الأمة اليهودية بأن يدعو لعبادته الأمم الأجنبية يونان وعرب ومصريين وغيرهم وينتظمون في سلك الأخوية المسيحية وكانت تلك الأمم في نظر الله أمماً غبية وثنية، وعدا ذلك فإن الإنجيل نفسه يفسر هذه الآية حسبما فسرناه ومن ذلك قوله "وَأَمَّا أَنْتُمْ فَجِنْسٌ مُخْتَارٌ، وَكَهَنُوتٌ مُلُوكِيٌّ إلى أن قال الَّذِينَ قَبْلاً لَمْ تَكُونُوا شَعْباً، وَأَمَّا الآنَ فَأَنْتُمْ شَعْبُ اللهِ. الَّذِينَ كُنْتُمْ غَيْرَ مَرْحُومِينَ، وَأَمَّا الآنَ فَمَرْحُومُونَ" (١ بط ٩و١٠ وأف ٢: ١١-١٣). وأما القول بأن اليونان كانت أمة حكيمة وليست أمة غبية فنجيب عليه لم تكن حكمة اليونان الحكمة الحقيقية لأنهم لم يكونوا يعرفوا الإله الحقيقي وورد في الكتاب "رَأْسُ الْحِكْمَةِ مَخَافَةُ الرَّبِّ بَدْءُ الْحِكْمَةِ مَخَافَةُ الرَّبِّ، وَمَعْرِفَةُ الْقُدُّوسِ فَهْمٌ" (مز ١١١: ١٠ وأم ١: ٧ و٩: ١٠) وورد أيضاً أن حكمة العالم غير مرعية عند الله ومن ذلك قوله "لأَنَّ حِكْمَةَ هذَا الْعَالَمِ هِيَ جَهَالَةٌ عِنْدَ اللهِ". وقوله "الرَّبُّ يَعْلَمُ أَفْكَارَ الْحُكَمَاءِ أَنَّهَا بَاطِلَةٌ" (١ كو ٣: ١٩ و٢٠).

(٤) تث ٣٣: ٢ "جَاءَ الرَّبُّ مِنْ سِينَاءَ وَأَشْرَقَ لَهُمْ مِنْ سَعِيرَ وَتَلأْلأَ مِنْ جَبَلِ فَارَانَ، وَأَتَى مِنْ رِبْوَاتِ الْقُدْسِ، وَعَنْ يَمِينِهِ نَارُ شَرِيعَةٍ

لَهُمْ" قالوا قوله جَاءَ الرَّبُّ مِنْ سِينَاءَ يشير إلى تنزيل الشريعة على موسى وقوله وَأَشْرَقَ لَهُمْ مِنْ سَعِيرَ يشير إلى تنزيل الإنجيل على عيسى وأما قوله وَتَلَأْلَأَ مِنْ جَبَلِ فَارَانَ فيشير إلى تنزيل القرآن على محمد بدليل أنهم زعموا أنه يوجد بقرب مكة جبل يسمى فاران ورداً على ذلك نقول أن القرينة هنا تدل على أن موسى في كلامه على هذه المواضع لم يشر إلى إنجيل ولا إلى قرآن بل أراد أن يذكر بني إسرائيل كيف أشع مجد الله إلى مسافات بعيدة عندما كانوا ضاربين خيامهم عند جبل سيناء ونعلم من خريطة الجغرافية أن سيناء وسعير وفاران ثلاثة جبال متجاورة واقعة في شبه جزيرة طور سيناء وجنوب الأردن على بعد مئات من الأميال من مكة ويظهر صحة ذلك بأكثر وضوح عندما نراجع المواضع التي ذكر فيها فاران في التوراة (تك ١٤: ٦ وعد ١٠: ١٢ و١٢: ١٦ و١٣: ٣ وتث ١: ١ و١ مل ١١: ١٨). فضلاً على أن الكلمة هي الرب وهو اسم الله ولا يطلق على بشر.

(٥) مز ٤٥ قالوا بما أن النبي المشار إليه في هذا المزمور متقلد سيفاً على فخذه عدد ٣-٥ فهو محمد غير أنه عندنا جوابان كل منهما يدحض هذه الدعوة. الأول نجده في عدد ٦ قوله كُرْسِيُّكَ يَا اَللّهُ إِلَى دَهْرِ الدُّهُورِ والخطاب هنا للذي قيل له تَقَلَّدْ سَيْفَكَ عَلَى فَخْذِكَ أَيُّهَا الْجَبَّارُ ولم يدع المسلمون قط أن محمداً إله يصح أن يخاطب بهذا

الخطاب فاستدلوا بصدر الآية وأهملوا عجزها والجواب الثاني ورد في الإنجيل (عب ١: ٨ و٩) أن المزمور المشار إليه خطاب للمسيح وأما ما ورد في ذلك المزمور من حكاية العذارى والحظيات وابنة الملك التي في خدرها وعلاقتهن بالمخاطب فهو إشارة إلى عروس المسيح الروحية التي هي الكنيسة (انظر رؤ ٢١: ٢) والأعداء في قوله نَبْلُكَ الْمَسْنُونَةُ فِي قَلْبِ أَعْدَاءِ الْمَلِكِ إشارة إلى إبليس وجنوده والقوم الذين قاوموا المسيح وإنجيله (انظر رؤ ١٩: ١١-٢١).

وجاءت في المزامير نبوات أخرى عن المسيح تشبه ما تقدم ذكره وهي مز ٢ و٧٢ و١١٠ ومن المحتمل أن المزمور الذي تكلمنا عنه أولاً يشير إلى زواج سليمان الملك من ابنة فرعون (١ مل ٣: ١) ثم جعل هذا الزواج رمزاً إلى الاتحاد الروحي بين المسيح وكنيسته.

(٦) مز ١٤٩ زعموا أن هذا المزمور نبوة عن محمد وقالوا أن الترنيمة الجديدة (عدد ١) هي القرآن والسيف ذو الحدين (عدد ٦) سيف محمد وسيف علي ابن أبي طالب الذي جرده لخدمة الإسلام وقالوا أن الملك (عدد ٢) هو محمد. ورداً عليهم نقول أن القرآن لا يمكن أن يكون الترنيمة الجديدة لأن الترنيم غير مستعمل في العبادة الإسلامية وكذلك السيف ذو الحدين ليس سيف محمد ولا علي بدليل أن الآية

تصرح بأنه ليس في يدي الملك الذي يزعمون أنه محمد بل في يد الإسرائيليين ينتقمون به من أعدائهم و الملك في عدد ٢ قيل عنه في صدر الآية بأنه الخالق ودعي في عدد ٤ الرب وهكذا لا يمكن أن يقال عن محمد أنه ملك إسرائيل ولا فرح إسرائيل بمحمد لأن سوء معاملته لهم أشهر من نار على علم كما سترى معاملته لبني النضير وبني قريظة وغيرهما.

(٧) ادعى بعض المسلمين أن إصحاح ٥: ١٦ من سفر نشيد الإنشاد يشير إلى محمد لأن كلمة محامديم في العبري المترجمة مشتهيات في العربي مشتقة من حمد وهي المادة المشتق منها محمد. ورداً على ذلك نقول أن الكلمة العبرانية محامديم اسم نكرة لا معرفة بدليل أنه جاء في صيغة الجمع ووردت هذه الكلمة في غير موضع من التوراة بصيغة النكرة (انظر هو ٩: ٦ و١٦ و١ مل ٢٠: ٦ ومراثي ١: ١٠ و١١ و٢: ٤ ويوئيل ٣: ٥ وإش ٦٤: ١١ و٢ أي ٣٦: ١٩ وحز٢٤: ١٦ و٢١ و٢٥) وجاءت في النصف الأخير (حز ٢٤: ١٦) شهوة عينيك وكانت الإشارة إلى زوجة حزقيال قابل (حز ٢٤: ١٨) واستعملت أيضاً للإشارة إلى بني وبنات عبدة الأصنام من جماعة إسرائيل (حز ٢٤: ٢٥) فإن صح إسناد كلمة مشتهيات في سفر نشيد الإنشاد إلى محمد لأنها مشتقة

من حمد فيصح أيضاً أن يسند إليه أيضاً كلمة شهوة هنا المشار بها إلى زوجة حزقيال وبني وبنات عبدة الأصنام لأنها مشتقة من حمد كذلك.

ثم نقول أن في اللغة العربية كلمات كثيرة مشتقة من حمد ولكن هذا الانشقاق لا يجعلها خصيصة محمد فإن قال أحد أن محمداً مشار إليه في سورة الفاتحة بكلمة الحمد في قوله الحمد لله رب العالمين لأن الحمد ومحمداً مشتقان من مادة حمد فهل يكون استدلاله صحيحاً؟ وكذلك إن استدل الهندي بأن أحد آلهته المدعو رام قد ذكر في القرآن في سورة الروم في قوله غلبت الروم بدليل أن الاسمين مشتقان من مادة رام كما في القواميس العربية ألا يكون استدلاله مدعاة للسخرية عند أهل العلم والتمييز؟

(٨) إش ٢١: ٧ "فَرَأَى رُكَّاباً أَزْوَاجَ فُرْسَانٍ. رُكَّابَ حَمِيرٍ. رُكَّابَ جِمَالٍ" قالوا أن عبارة ركاب حمير نبوة إلى المسيح الذي دخل أورشليم راكباً حماراً وعبارة ركاب جمال نبوة إلى محمد بدليل أنه كان دائماً يركب الجمال غير أن سياق الكلام يدل أن لا إشارة هنا إلى المسيح ولا إلى محمد إنما هذا الإصحاح نبوة إلى سقوط بابل كما يظهر من عدد ٩ والعبارتان المشار إليهما أي ركاب الحمير وركاب الجمال

تدلان على الكيفية التي يتم بها تبليغ هذا الخبر ثم سقوط بابل على عهد داريوس سنة ٥١٩ و ٥١٣ ق.م.

(٩) إش ٤٢: ١-٤ ظنوا أنهم يجدون إشارة إلى محمد في النصوص المذكورة في هذا الموضع غير أننا إذا اعتبرنا صحة ما رواه عن محمد من أخبار ابن هشام والطبري وابن الأثير والخطيب والواقدي وغيرهم من كتبة المسلمين لا يسعنا أن نصدق أن الموصوف بالسلام والوداعة في الآيات المذكورة هو النبي المتقلد بالسيف ومع ذلك فقد جاء في مت ١٢: ١٥-٢١ أن الموصوف بالسلام هو المسيح وقد تمت فيه كل النبوة المشار إليها ثم أن شريعته التي تنتظرها الجزائر هي المسيحية بدليل أن الجزائر المشار إليها في عصر النبوة جزائر البحر الأبيض المتوسط وسواحله وهي مسيحية وما كان غير مسيحي منها فواقع تحت نفوذ المسيحيين.

(١٠) في الإصحاح المتقدم عدد ١٠ و١١ و١٢ وردت كلمة قيدار اسم قبيلة من قبائل العرب ولما اطلع على ذلك المسلمون ظنوا أن هذه أيضاً نبوة عن محمد وأن الترانيم الجديدة المنوه عنها كناية عن اعتناق قبائل العرب دين الإسلام. ونحن نقول لا يمكن أن الترانيم تشير إلى شيء في الإسلام ولا هي معروفة عند المسلمين كما أن قيدار

ليست من المحتم أن تشير إلى الإسلام وإن كانت من قبائل العرب لأن من المؤكد أن كثيراً من قبائل العرب كانت تدين بالدين المسيحي مثل قبيلة حمير وغسان وربيع ونجران والحيرة ولما قويت شوكة المسلمين أكرهوهم على اعتناق دينهم أو نفيهم من بلادهم ولا شك أنهم يعودون يوماً إلى دينهم الأول. وهذه الآيات تتمة عدد ١-٤ وتشير إلى انتشار الديانة المسيحية حتى في بلاد العرب نفسها كما تنتشر في جزائر البحر (عدد ١٠) أما قوله عبدي (عدد ١) فمشروح في إصحاح (٤٩: ٣) من هذا السفر عينه حيث يظهر أن المراد به هو إسرائيل وهو لا شك إسرائيل الله أي الذين يؤمنون بالمسيح (انظر غل ٦: ١٦) والمسيح رأسهم لأنه قيل عنه أنه رأس الجسد الكنيسة (كو ١: ١٨) لهذا فسر قدماء اليهود (إش ٥٢: ٣) قوله عبدي بالمسيا المنتظر وعلى كل حال فالمسيح من إسرائيل جاء وإياه يمثل أما محمد فلا هذا ولا ذاك.

(١١) إش ٥٣ يقولون أن هذا الإصحاح نبوة إلى محمد بدليل ما يأتي أولاً لأنه وُلد في بلاد العرب وكان كعرق من أرض يابسة ثانياً لأنه دُفن في المدينة فجعل مع الأشرار قبره ثالثاً لأنه رأى ثمرة أتعابه وعليه تمت النبوة القائلة من تعب نفسه يرى ويشبع رابعاً

قيل في هذا الإصحاح مع العظماء يقسم غنيمة وقسم محمد الغنيمة مع أنصاره خامساً تمت في هذه الكلمات سكب للموت نفسه في حين أنهم ينكرون موت المسيح ويقولون أنه ارتفع إلى السماء حياً ورداً على ذلك نقول أولاً أن الأعداد ٥ و٦ و٧ و٨ من هذا الإصحاح بكل تأكيد لا تشير إلى محمد ولا إلى شخص آخر سوى المسيح وهاك نصها "وَهُوَ مَجْرُوحٌ لأَجْلِ مَعَاصِينَا، مَسْحُوقٌ لأَجْلِ آثَامِنَا. تَأْدِيبُ سَلاَمِنَا عَلَيْهِ، وَبِحُبُرِهِ شُفِينَا. كُلُّنَا كَغَنَمٍ ضَلَلْنَا. مِلْنَا كُلُّ وَاحِدٍ إِلَى طَرِيقِهِ، وَالرَّبُّ وَضَعَ عَلَيْهِ إِثْمَ جَمِيعِنَا. ظُلِمَ أَمَّا هُوَ فَتَذَلَّلَ وَلَمْ يَفْتَحْ فَاهُ، كَشَاةٍ تُسَاقُ إِلَى الذَّبْحِ، وَكَنَعْجَةٍ صَامِتَةٍ أَمَامَ جَازِّيهَا فَلَمْ يَفْتَحْ فَاهُ. مِنَ الضُّغْطَةِ وَمِنَ الدَّيْنُونَةِ أُخِذَ. وَفِي جِيلِهِ مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنَّهُ قُطِعَ مِنْ أَرْضِ الأَحْيَاءِ، أَنَّهُ ضُرِبَ مِنْ أَجْلِ ذَنْبِ شَعْبِي" (إشعياء ٥٣: ٥-٨). ثانياً أن نصفي عدد ٩ و١٢ لا يناسبان محمداً كيفما كانت الحالة ثالثاً أما من حيث كونه يقسم غنيمة فالآية تصرح بأن ذلك يتم بعد موته وتم ذلك فعلاً للمسيح بمعنى روحي أكمل وأعظم، لأن بعد موته وصعوده حالاً ابتدأ الناس من كافة الأمم والشعوب أن يؤمنوا به ويحبوه كفاديهم وإلههم وليست غنيمة أعظم من هذه. رابعاً أما كون محمد دُفن في المدينة وليس في مكة ومن أجل ذلك جعل مع الأشرار قبره فلا ندري لأي سبب اعتبروا المدينة شريرة

مع أن أهلها الأنصار الذين دافعوا عنه جهد استطاعتهم في حين أن أهل مكة رفضوه وناصبوه العدوان. خامساً كل جزئيات هذه النبوة تمت في المسيح ما هو حرفي فحرفي وما هو روحي فروحي عدا ما فيها من الإمارات الظاهرة التي لا يمكن إسنادها إلى مقاتل كمحمد وخلاف ذلك فقد أجمع اليهود الأولون أن هذا الإصحاح نبوة عن مسيا المنتظر وكذلك كتبة أسفار العهد الجديد الملهمين اقتبسوا كثيراً من أقوال هذا الإصحاح كنبوات عن المسيح التي عاينوا إتمامها فيه ومثل هذا الإصحاح مزمور ٢٢ الذي قد تم أيضاً في المسيح لا سواه.

(١٢) إش ٥٤: ١ ظن المسلمون هذه الآية نبوة تشير إلى محمد باعتبار كونه من ذرية إسماعيل وأن يزداد أتباعه عن أتباع أنبياء إسرائيل وإليك نص الآية "تَرَنَّمِي أَيَّتُهَا الْعَاقِرُ الَّتِي لَمْ تَلِدْ. أَشِيدِي بِالتَّرَنُّمِ أَيَّتُهَا الَّتِي لَمْ تَتَمَخَضْ، لِأَنَّ بَنِي الْمُسْتَوْحِشَةِ أَكْثَرُ مِنْ بَنِي ذَاتِ الْبَعْلِ قَالَ الرَّبُّ". لهذه الآية معنيان معنى حرفي ومعنى روحي فالحرفي هو أن بني إسرائيل سيعتقون من أسر بابل ويردون إلى أورشليم وتمت هذه النبوة بالمعنى الحرفي المذكور في أيام كورش ملك فارس سنة ٥٣٦ ق م (انظر عز ص ١) والمعنى الروحي شرحه بولس الرسول

(انظر غل ٤: ٢١-٣١) حيث تم عندما رجعت الأمم عن عبادة الأصنام التي عبدوها من قديم الزمان إلى عبادة الله وقبلوا إنجيل المسيح ومن غريب الاتفاق أن بولس قرر في هذا الإصحاح عدم أفضلية بني هاجر على بني سارة الروحيين عدا حرمانهم من الميراث.

(١٣) إش ٦٣: ١-٦يقول المسلمون أن المحارب المشار إليه في هذه الآيات هو محمد بدليل أنه من حملة السيف ويظنون أن بصرة المذكورة هنا هي مدينة بصرة الشهيرة غير أننا نجد في العدد الأول أنها من بلاد أدوم وتُدعى اليوم البصيرة واقعة على مسافة قصيرة من جنوب البحر الميت ثم إذا قابلنا عدد ٥ من هذا الإصحاح مع إش ٥٩: ١٥ و١٦ نجد المحارب المشار إليه هو رب الجنود الذي انتقم من أدوم على خطاياها وورد مثل هذا الوصف في رؤ ١٩: ١١-١٦ حيث يظهر أن ذلك المحارب إنما هو كلمة الله الذي سيعاقب الفجار ويهزمهم نهائياً ويضع كل أعدائه تحت قدميه (١كو ٥: ٢٥).

(١٤) إش ٦٥: ١-٦ قالوا أن هذه الآيات نبوة عن اهتداء العرب إلى الإسلام والآيات التي بعدها تنبئ عن خطايا اليهود والنصارى التي بسببها رفضهم الله والحقيقة هي أن عدد ١ نبوة عن اهتداء كثير من الأمم إلى المسيح ولو أن من عدد ٢-٦ تذكر خطايا

اليهود، ولكن من عدد ٨: ١٠ يصرح أن الله لا يرفض شعبه المحبوب رفضاً نهائياً بل يعود ويقبلهم (انظر رومية ص ١١) ولم يرد هنا شيء بخصوص المسيحيين ولا عن محمد.

(١٥) دا ٢: ٤٥ زعم بعضهم أن هذه الآية تنبئ عن ظهور الإسلام وامتداده وقالوا أن الممالك الأربع المذكورة في هذا الفصل هي الكلدانيون والمديانيون والفرس واليونان وأن اسكندر الكبير هزم الفرس وفرق شملهم إلا أنها عادت على سابق مجدها فيما بعد وأخذت تضعف تارة وتقوى أخرى إلى زمن كسرى أنوشروان.

وبعد موت محمد قصدها جيوش المسلمين وفتحوها وفتحوا ما بين النهرين وفلسطين وعليه فمملكة الإسلام هي المقصودة بالمملكة التي خلفت الممالك الأربع وسادت على كل الأرض (عدد ٤٤: ٤٥).

والحقيقة أن هذا الشرح لا ينطبق على حقائق التاريخ لسبب ظاهر وهو أن لم يكن للمديانيين مملكة بعد البابليين بل هما مملكة واحدة بدليل أن داريوس المادي (دا ٥: ٣١ و٦ و٩: ١) قد ملك على الكلدان وهي الإقليم الواقع حول بابل بضعة شهور ثم صار نائباً للملك كورش العظيم وبهذا ابتدأت المملكة الثانية أي مملكة الفرس (دا ٨: ٣ و٤ و٢٠) ثانياً اليونان خلفت الفرس فكانت المملكة الثالثة

(دا ٨: ٥ و٧ و٢١) وخلفت اليونان الرومان وهي المملكة الرابعة (دا ٢: ٤٠) التي عظمت فوق الكل إلا أن مؤرخي المسلمين أهملوها بالكلية رابعاً. أما مملكة الفرس المتجددة فلا يمكن أن تكون هي المملكة الرابعة بل يجب إما أن تكون المملكة الخامسة أو الثالثة والنبوة تشير إلى ما يحدث في عهد المملكة الرابعة (دا ٢: ٤٠ و٤٤ و٧: ٧ و١٩ و٢٣). أما كون اليونان المملكة الثالثة لا الرابعة كما زعم المسلمون فظاهر مما قيل عنها أنها غلبت الفرس وخلفتهم (دا ٨: ٥ و٧ و٢١). وانقسمت اليونان إلى أربعة أقسام من بعد موت اسكندر الكبير (دا ٨: ٨ و٢٢). وأخذ يتقلص ظلها حتى اندمجت في المملكة الرومانية التي شمل نفوذها العالم المتمدن في ذلك العصر. وفي أثناء حكم الرومانيين وُلد يسوع في اليهودية وكانت خاضعة لهم والمملكة التي أسسها يسوع حينئذ لم تكن من هذا العالم (يو ١٨: ٣٦ ولو ١: ٣١-٣٣ ودا ٧: ١٣ و١٤ و٢٧) بدليل أنها لم تقم بالسيف كممالك العالم وعدا ذلك دعا المسيح نفسه ابن الإنسان. ومن هنا يظهر أنه هو الشخص الذي رآه دانيال في رؤياه جالساً على سحاب السماء سائداً على كل الأرض (دانيال ٧: ١٣) ومملكته هي التي وصفها دانيال بالحجر الذي قطع بغير يدين وملأ كل الأرض (دا ٢: ٤٥) ولما يأتي ثانياً إلى أرضنا تسجد له كل ركبة (في ٢: ٩-١١).

(١٦) حب ٣: ٣ "اَللهُ جَاءَ مِنْ تِيمَانَ، وَالْقُدُّوسُ مِنْ جَبَلِ فَارَانَ". ظن المسلمون قوله والقدوس من جبل فاران إشارة إلى محمد غير أن آخر الآية يقول: "جَلاَلُهُ غَطَّى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضُ امْتَلأَتْ مِنْ تَسْبِيحِهِ" وهذا دليل صريح على أن محمد ليس المراد بالقدوس بل الله الذي يرجع إليه الكلام من أول الآية حيث يقول اَللهُ جَاءَ مِنْ تِيمَانَ الخ. هذا وقد اثبتنا أن جبل فاران واقع في شبه جزيرة سينا لا في مكة كما زعموا وتيمان اسم لإقليم أدوم وفيه مدينة قريبة من بترا وعلى مسيرة أيام قليلة من أريحا نحو الجنوب فجبل فاران وإقليم تيمان متقاربان وهما إلى مدينة أورشليم أقرب بكثير منهما إلى مكة. جاء في سفر التكوين (٣٦: ١١ و١٩) ما يثبت تناسل تيمان من عيسو أصل الأدوميين ويوافق على ذلك المؤرخون وعلماء الجغرافيا كما يوافق عليه الأنبياء الذين كتبوا عن هذه المدينة وهم أرميا (٤٩: ٧ و٢٠) وحزقيال (٢٥: ١٣) وعاموس (١: ١١ و١٢) وعوبديا (٨ و٩ و١٠) فإن كان إخواننا المسلمون لم يقتنعوا بهذه الأدلة على أن تيمان لا علاقة لها بالمرة بمحمد ولا إسلامه وتمسكوا برأيهم فنقول حسناً إذا كانت تيمان لها علاقة بالإسلام فقد تنبأ عنها عوبديا بالويلات والدمار وبالتالي عن الإسلام إلا أننا نحن المسيحيين لا شك عندنا بأن تيمان ليست من الإسلام في شيء.

(١٧) حج ٢: ٧ "وَأُزَلْزِلُ كُلَّ الأُمَم. وَيَأْتِي مُشْتَهَى كُلِّ الأُمَمِ، فَأَمْلأُ هَذَا الْبَيْتَ مَجْداً قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ". قالوا أن المراد بمشتهى الأمم محمد وذلك لأن مشتهى في اللغة العبرانية متصرفة من حمداه المتصرف منها محمد فنقول قد أثبتنا حتى في اللغة العربية نفسها أن ليس كل ما يتصرف من مادة حمد يشير إلى محمد فمن باب أولى اللغة العبرانية ثم أن هذا الكلمة عينها حمداه وردت في نبوة دانيال (١١: ٢٧) بمعنى شهوة النساء وعليه فلا دليل منطقي يترتب على كلمة يشتق منها ألفاظ ذات معاني مختلفة كما أننا لا نقدر أن نصدق أن محمداً كان مشتهى كل الأمم وذلك لأنه فتح البلاد بالسيف وكل فاتح بالسيف مكروه لا مشتهى خصوصاً عند الأمة المغلوبة والمحتمل أن مشتهى الأمم إما أن يكون (١) الذهب والفضة المذكورة في عدد ٨ أو (٢) اختيار كل الأمم الذي يدعوه الرسول بولس اختيار النعمة (رو ١١: ٥) الذي منهم تألفت الكنيسة المسيحية أو (٣) الرب يسوع المسيح نفسه الذي جاء إلى هيكله ومن مدينة المقدس أفاض على كل الأمم سلاماً بواسطة ذبيحة نفسه التي قدمها كفارة عن خطايا العالم (حج ٢: ٩ ومل ٣: ٣ ومت ١٢: ٦ و٤١ و٤٢ ولو ٢٤: ٣٦ ويو ١٤: ٢٧ و١٦: ٣٣ و٢٠: ١٩ و٢١ و٢٦).

ثم أن الشيعة يحتجون أيضاً ببعض آيات من التوراة ظناً منهم أنها نبوات عن محمد وإن كان أهل السنة لا يوافقونهم عليها إلا أنه من المحتمل أن تكون لهم وجهة معقولة في احتجاجهم ولهذا رأينا أن نسرد ما قالوه في هذا الصدد.

(١٨) "وَأَمَّا إِسْمَاعِيلُ فَقَدْ سَمِعْتُ لَكَ فِيهِ. هَا أَنَا أُبَارِكُهُ وَأُثْمِرُهُ وَأُكَثِّرُهُ كَثِيراً جِدّاً. اِثْنَيْ عَشَرَ رَئِيساً يَلِدُ، وَأَجْعَلُهُ أُمَّةً كَبِيرَةً"(تكوين ١٧: ٢٠) قالوا أن قوله اثني عشر رئيساً يلد نبوة عن الاثني عشر إماماً الذين يعتبرونهم خلفاء محمد الشرعيين في الإمامة ورداً على ذلك لا نقول شيئاً سوى أن نستلفت نظرهم إلى هذا السفر عينه الذي اقتبسوا منه هذه الآية (٢٥: ١٣-١٦) حيث نجد الوعد المشار إليه قد تم وولد إسماعيل اثني عشر رئيساً وذكرت أسماؤهم وبعدها قيل هؤُلاَءِ هُمْ بَنُو إِسْمَاعِيلَ، وَهذِهِ أَسْمَاؤُهُمْ بِدِيَارِهِمْ وَحُصُونِهِمْ. اثْنَا عَشَرَ رَئِيساً حَسَبَ قَبَائِلِهِمْ وعليه فقد تمت هذه النبوة بدون احتياج إلى محمد وخلفائه.

(١٩) إر ٤٦: ١٠ "فَهذَا الْيَوْمُ لِلسَّيِّدِ رَبِّ الْجُنُودِ يَوْمُ نَقْمَةٍ لِلانْتِقَامِ مِنْ مُبْغِضِيهِ، فَيَأْكُلُ السَّيْفُ وَيَشْبَعُ وَيَرْتَوِي مِنْ دَمِهِمْ. لأَنَّ لِلسَّيِّدِ رَبِّ الْجُنُودِ ذَبِيحَةً فِي أَرْضِ الشِّمَالِ عِنْدَ نَهْرِ الْفُرَاتِ" قالوا أن قوله لِلسَّيِّدِ رَبِّ الْجُنُودِ ذَبِيحَةً الخ نبوة عن قتل الحسين في واقعة كربلاء زاعمين

أن الحسين مات كفارة عن الخطية ودحضاً لهذه الدعوى نقول إذا تأملنا في العدد الثاني من هذا الإصحاح عينه نجد الإشارة إلى جيش فرعون ملك مصر الذي كان على نهر الفرات في كركميش الذي ضربه نبوخذ نصر ملك بابل في السنة الرابعة ليهوياقيم ملك يهوذا سنة ٦٠٦ ق م ولا أحد من المسلمين يقدر أن يدعي بأن مذبحة المصريين، الذين كانوا من عبدة الأصنام حينئذ، تكون كفارة عن الخطية فضلاً عن أن الكلمة المستعملة للدلالة على ذبيحة استعملت أيضاً للدلالة على مذبحة كما في هذه المواضع (إش ٣٤: ٦-٨ وحز ٣٩: ١٧-٢١ وصف ١: ٧ و٨). ونقول أخيراً لا يمكن أن يكون أرميا النبي عنى كربلا بقوله أرض الشمال.

ولنأت الآن إلى أسفار العهد الجديد ونفحص باعتناء ودقة الفصول التي يوردها المسلمون للاستدلال على نبوة محمد.

(١) مت ٣: ٢ "تُوبُوا، لِأَنَّهُ قَدِ اقْتَرَبَ مَلَكُوتُ السَّماوَاتِ" هذه كلمات يوحنا المعمدان وكررها الرب يسوع (مت ٤: ١٧) زعم المسلمون أن ملكوت السماوات إشارة إلى مملكة الإسلام (انظر مت ١٣: ٣١ و٣٢) وأما القرآن فهو شريعة هذه المملكة الخ ونحن نقول يجب لفهم معنى ملكوت السماوات أو ملكوت الله أن نراجع المواضع التي

وردت فيها هذه العبارة ففي (مت ١٢: ٢٨) قال المسيح "وَلكِنْ إِنْ كُنْتُ أَنَا بِرُوحِ اللهِ أُخْرِجُ الشَّيَاطِينَ، فَقَدْ أَقْبَلَ عَلَيْكُمْ مَلَكُوتُ اللهِ" وفي مر ٩: ١ قال يسوع لتلاميذه "الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ مِنَ الْقِيَامِ ههُنَا قَوْماً لاَ يَذُوقُونَ الْمَوْتَ حَتَّى يَرَوْا مَلَكُوتَ اللهِ قَدْ أَتَى بِقُوَّةٍ" وفي مواضع أخرى يصرح بأن هذا الملكوت يبدأ به إلى حد ما في حياته ثم يمتد بعد موته ويكمل بعد مجيئه ثانياً ليدين المسكونة بالعدل ويحكم بالحق والإنصاف (دا ٧: ١٣ و١٤ ورؤ ١١: ١٥). وأما في الوقت الحاضر فملكوت الله آخذ في الامتداد يومياً بواسطة الكرازة بالإنجيل ودعوة الناس للدخول فيه (مت ٢٨: ٨-٢٠) واعلم أنه ليس ملكوت السموات نظير ممالك العالم (يو ١٨: ٣٦) وأنه لا يأتي بأبهة وزخرفة عالمية (لو ١٧: ٢٠) ويخص المساكين بالروح (مت ٥: ٣) لا المتكبرين ولا عظماء هذا الدهر الذين يبطلون ولا يقدر أحد كائناً من كان أن يتتبع لهذا الملكوت ما لم يولد من جديد ولادة روحية (يو ٣: ٣ و٥) ومن المستحيل أن يدخل إليه الأشرار (١ كو ٦: ٩ و١٠ وغل ٥: ٢٠ و٢١ وأف ٥: ٥). ولهذه البراهين والأدلة لا مناسبة بين المملكة التي أسسها محمد وخلفاؤه وبين ملكوت السماوات.

(٢) مت ١٧: ١١ "فَأَجَابَ يَسُوعُ: إِنَّ إِيلِيَّا يَأْتِي أَوَّلاً

وَيَرُدُّ كُلَّ شَيْ" وظن بعضهم أن قوله إِيلِيَّا يَأْتِي أَوَّلاً نبوة عن مجيء محمد إلا أننا إذا قرأنا العدد التالي نجد أن إيليا قد أتى وعلى ذلك قوله "إِيلِيَّا قَدْ جَاءَ وَلَمْ يَعْرِفُوهُ، بَلْ عَمِلُوا بِهِ كُلَّ مَا أَرَادُوا. كَذلِكَ ابْنُ الإِنْسَانِ أَيْضاً سَوْفَ يَتَأَلَّمُ مِنْهُمْ. حِينَئِذٍ فَهِمَ التَّلاَمِيذُ أَنَّهُ قَالَ لَهُمْ عَنْ يُوحَنَّا الْمَعْمَدَانِ" (مت١٧: ١٢ و١٣) نعم أن يوحنا غير إيليا في شخصه لأن التناسخ ليس من تعاليم الكتاب المقدس لهذا لما سئل يوحنا إن كان هو إيليا أم لا أجاب لست أنا وإنما كان سابقا للمسيح ليعد الطريق أمامه بروح إيليا وقوته (لو ١: ١٧) كما أنبأ جبريل أباه زكريا (لو ١: ١٩). وبهذا المعنى كما تنبأ ملاخي أيضاً (مل ٤: ٥) كان يوحنا المعمدان إيليا النبي لأن كليهما عاشا بكيفية واحدة (قابل مت ٣: ٤ مع ١ مل ١٧: ١-٦).

(٣) مت ٢٠: ١-١٦ فسر المسلمون هذا المثل بكيفية غريبة لإثبات نبوة محمد فقالوا الفعلة الذين اشتغلوا من الصباح هم اليهود والذين اشتغلوا من الظهر هم النصارى والذين اشتغلوا في المساء هم المسلمون (١) ورداً على ذلك نقول أن المساء المشار إليه في عدد ٨ هو عبارة عن الوقت الذي ذكره في مت ١٩: ٢٨ أي وقت التجديد

---

(١) ان الذي فسر هذا المثل بهذه الكيفية هو محمد نفسه كما في البخاري وغيره اهـ مصحح

متى جلس ابن الإنسان على كرسي مجده كأنه عنى بالمساء آخر الدهور الذي فيه يأتي الرب يسوع على سحاب السماء بقوة ومجد كثير لكي يدين الأرض (مت ٢٤: ٣٠ و٣١ ومر ١٣: ٢٦ و٢٧ ولو ٢١: ٢٧ ورؤ ١: ٧ و٢٠: ١١-١٥) يظهر صحة تفسير المساء بما ذكرناه من مقدمة المثل وخاتمته لأنه يبتدئ بتعليل السبب الذي من أجله يكون الأولون آخرين والآخرون أولين وينتهي بهذه النتيجة والآن قد أقبل المساء وكادت تغرب شمس الدهر الحاضر وكل من النصارى والمسلمين ينتظرون رجوع المسيح ثانياً ويتوقعون حدوث ذلك قريباً جداً ومتى جاء يملك على كل الأرض إلى ما شاء الله ويدين الأحياء والأموات عند ظهوره وملكوته (٢ تي ٤: ١). ومما تقدم يظهر أن لا فرصة في وقت المساء للعصر الإسلامي وبالتالي لا نبوة في المثل المذكور عن محمد.

(٤) مت ٢١: ٣٣-٤٤ (انظر مر ١٢: ١-١١ ولو ٢٠: ٩-١٨)

قالوا أن المسيح انبأ في هذا المثل عن مجيء محمد وقوته بطشه وسلموا أن رب البيت هو الله وأن ابنه هو المسيح وأنه تكلم عن نفسه كأن اليهود قتلوه وكان يجب عليهم ما دام المسيح قائل هذه الأقوال أن يسلموا بها ويقروا أن المسيح ابن الله وأنه مات عن خطايا العالم. ولو

أقروا بذلك ما كان أغناهم عن البحث في شؤون محمد ولكن إذا كانوا لا يسلمون أن المسيح هو الضارب لهذا المثل، فمن العبث أن يحتجوا بكلام يعتقدون بطلانه. ومما يجب ملاحظته في هذا المثل أنه من بعد إرسال الابن لم يرسل رسول آخر وحيث أنهم سلموا أن المرسلين الأولين كانوا خداماً وعبيداً لرب البيت كان الرسول الأخير الابن فليس من المعقول أنه من بعد ما أرسل الابن يمشي القهقرى ويرسل العبيد ومن هنا يظهر بطلان دعواهم مرة أخرى. عدا ذلك فإن المسيح اقتبس هنا خبر الحجر الذي رفضه البناءون (مز ١٨: ٢٢) وأن بطرس الرسول صرح بأن صاحب سفر المزامير عنى بالحجر الذي رفضه البناءون المسيح نفسه حيث يقول "فَلْيَكُنْ مَعْلُوماً عِنْدَ جَمِيعِكُمْ وَجَمِيعِ شَعْبِ إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ بِاسْمِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ النَّاصِرِيِّ الَّذِي صَلَبْتُمُوهُ أَنْتُمُ الَّذِي أَقَامَهُ اللهُ مِنَ الأَمْوَاتِ. بِذَاكَ وَقَفَ هذَا أَمَامَكُمْ صَحِيحاً. هذَا هُوَ الْحَجَرُ الَّذِي احْتَقَرْتُمُوهُ أَيُّهَا البناءون الَّذِي صَارَ رَأْسَ الزَّاوِيَةِ" (أع ٤: ١٠ و١١ و١ بط ٢: ٤-٨). وعليه فالبناءون كانوا يهود عصره لا إبراهيم ولا إسماعيل اللذين بنيا الكعبة على زعمهم وقال المثل خطاباً لليهود "إِنَّ مَلَكُوتَ اللهِ يُنْزَعُ مِنْكُمْ وَيُعْطَى لِأُمَّةٍ تَعْمَلُ أَثْمَارَهُ" (مت ٢١: ٤٣) وقالوا معنى هذا الكلام هو أن يؤخذ ملكوت الله من

اليهود ويعطى للإسماعيليين إلا أن العهد الجديد يبين أنه يعطى للذين يؤمنون بالمسيح إيماناً حقيقياً الذين هم "جِنْسٌ مُخْتَارٌ، وَكَهَنُوتٌ مُلُوكِيٌّ، أُمَّةٌ مُقَدَّسَةٌ، شَعْبُ اقْتِنَاءٍ وقال لهم لِكَيْ تُخْبِرُوا بِفَضَائِلِ الَّذِي دَعَاكُمْ مِنَ الظُّلْمَةِ إِلَى نُورِهِ الْعَجِيبِ. الَّذِينَ قَبْلاً لَمْ تَكُونُوا شَعْباً، وَأَمَّا الآنَ فَأَنْتُمْ شَعْبُ اللهِ. الَّذِينَ كُنْتُمْ غَيْرَ مَرْحُومِينَ، وَأَمَّا الآنَ فَمَرْحُومُونَ" (١ بط ٢: ٩ و١٠) وهنا تلميح لطيف إلى الأثمار التي يطلبها رب البيت من الأمة التي تتولى الكرم وورد ذلك بأكثر تصريح في كلام الرسول عن المسيح حيث يقول "ا لَّذِي بَذَلَ نَفْسَهُ لأَجْلِنَا لِكَيْ يَفْدِيَنَا مِنْ كُلِّ إِثْمٍ وَيُطَهِّرَ لِنَفْسِهِ شَعْباً خَاصّاً غَيُوراً فِي أَعْمَالٍ حَسَنَةٍ" (تي ٢: ١٤ وغل ٥: ٢٢-٢٤). وإلى هنا نكون قد انتهينا من إظهار الأمة التي أعطي لها الكرم ألا وهي الكنيسة المسيحية والكرم هو ملكوت الله (مت ٢١: ٤٣ يشرح عدد ٤١). وعليه فلا إشارة في هذا المثل إلى محمد ولا أمته كما أنه قد ثبت أن الحجر الذي رفضه البناءون هو المسيح نفسه لا الحجر الأسود الذي بحائط الكعبة ولا محمد ولا هاجر.

وأما مقاومة المسيح وعدم الرضوخ له فأبان المثل أنه هو الأمر المثير لسخط الله وحلول نقمته على أعدائه وقد تم شيء من ذلك عند خراب أورشليم وتمثيل الرومان باليهود تمثيلاً فظيعاً في سنة ٧٠

للميلاد أو بعد صلب المسيح بنحو أربعين سنة وظن بعض المسلمين أن المراد برب البيت المشار إليه في المثل هو محمد ولكن ذلك ما لا يمكن إثباته لأن المسيح في عدد ٣٧ بحسب ما جاء في المثل كان ابن رب البيت ولا يتصور أحد أن المسيح ابن محمد وعليه فلا يمكن تطبيق هذا المثل على ما زعمه المسلمون وإثبات دعواهم إلا بثلاثة أشياء الأول تحريف المثل والثاني إغفال القرينة وسياق الكلام والثالث إغفال النصوص الكثيرة الواردة في أسفار العهد القديم والعهد الجديد.

(٥) "وَكَانَ يَكْرِزُ قَائِلاً: يَأْتِي بَعْدِي مَنْ هُوَ أَقْوَى مِنِّي، الَّذِي لَسْتُ أَهْلاً أَنْ أَنْحَنِيَ وَأَحُلَّ سُيُورَ حِذَائِهِ" (مر ١: ٧) قالوا أن الإنجيل كلام المسيح وهذه الآية من الإنجيل فهي من كلام المسيح وعليه يكون المسيح أنبأ بمجيء نبي أفضل منه بكثير هو محمد. من يتأمل هذه الأقوال الدالة على إثبات نبوة نبيهم بما في ذلك عدد ٦ أي ما قبل آية الاستدلال نجد أنها تُصرح باسم القائل لها ألا وهو يوحنا المعمدان لا يسوع وصرح يوحنا في (يو ١: ١٦-٣٤) أن الآتي بعده هو المسيح لا محمد ومن ذلك قوله "وَفِي الْغَدِ نَظَرَ يُوحَنَّا يَسُوعَ مُقْبِلاً إِلَيْهِ فَقَالَ: هُوَذَا حَمَلُ اللهِ الَّذِي يَرْفَعُ خَطِيَّةَ الْعَالَمِ. هذَا هُوَ الَّذِي قُلْتُ عَنْهُ يَأْتِي بَعْدِي

رَجُلٌ صَارَ قُدَّامِي لِأَنَّهُ كَانَ قَبْلِي" (يو ١: ٢٩ و٣٠ انظر مت ٣: ١١-١٤ ولو ٣: ١٦ و١٧). فإذا قيل أن يسوع كان معاصراً ليوحنا فلا يصح أن يقول عنه أنه يأتي بعده فنجيب وإن كان معاصراً له إلا أنه لم يبدأ بخدمته كرسول إلا من بعد طرح يوحنا في السجن (مر ١: ١٤ ومت ٤: ١٢ و١٧) وانتهاء خدمته لأن هيرودس ملك اليهود أمر بقطع رأسه.

(٦) يو ١: ٢١ "فَسَأَلُوهُ: إِذاً مَاذَا إِيلِيَّا أَنْتَ؟ فَقَالَ: لَسْتُ أَنَا . أَلنَّبِيُّ أَنْتَ؟ فَأَجَابَ: لاَ" قال المسلمون أن نبيهم قد ذكر في هذه الآية وذلك لأن اليهود سألوا يوحنا المعمدان متحرين عن ثلاثة أنبياء بالتوالي المسيح وإيليا والنبي ولم يخالفهم في ما سألوا عنه فاستنتجوا من ذلك أن النبي المشار إليه هنا لا هو إيليا ولا هو المسيح بل محمد كذلك النبي الذي تنبأ عنه موسى (تث ١٨: ١٨) هو محمد لا المسيح ولا إيليا. ورداً عليهم نقول أنه من حيث النبي الذي كتب عنه موسى (تث ١٨: ١٨) فقد أثبتنا في ما تقدم أنه لا يمكن أن يكون محمداً وإنما هو المسيح راجع ذلك في موضعه، وعليه فالنبي المشار إليه في سؤال اليهود ليوحنا المعمدان هو المسيح بذاته وسأل اليهود عن الثلاثة مبتدئين بالأخير إلى الأول باعتبار ترتيب زمان ظهورهم فقالوا ليوحنا أنت المسيح ظناً منهم ربما يكون إياه فلما أنكر يوحنا كونه المسيح

عادوا فسألوه إن كان هو سابقه إيليا (مل ٤: ٥ ومت ١٧: ١٠ ومر٩: ١١) فأنكر أيضاً كونه إيليا بالذات لأنهم كانوا ينتظرون أن يرجع إيليا بنفسه إلى الأرض في آخر الزمان مع أن يوحنا، وإن لم يكن إيليا بالذات، لكنه جاء بروحه وقوته لإعداد طريق المسيح كما تقدم الكلام (راجع مل ٤: ٥ بالمقابلة مع مت ١١: ١٤) ولما لم يفهم اليهود من هو يوحنا المعمدان إذا لم يكن المسيح ولا إيليا حاروا في أنفسهم والتجئوا إلى رأي آخر. وهو أن النبي الذي كتب عنه موسى هو سابق آخر للمسيح وليس من المعقول ولا المحتمل أن يكون سؤالهم ليوحنا عن نبي يأتي بعد المسيح بمئات من السنين في حين أن المسيح نفسه لم يكن قد ظهر بعد، ولهذا يلزم أن يكون سؤالهم إما عن المسيح أو أحد سابقيه لا عن نبي يأتي بعده.

(٧) يو ٤: ٢١ "قَالَ لَهَا يَسُوعُ: يَا امْرَأَةُ، صَدِّقِينِي أَنَّهُ تَأْتِي سَاعَةٌ لاَ فِي هذَا الْجَبَلِ وَلاَ فِي أُورُشَلِيمَ تَسْجُدُونَ لِلآبِ". بنى بعض المسلمين على هذه الآية أن أورشليم من ذلك الوقت فصاعداً لا تكون قبلة للمصلين ويحل محلها الكعبة إلا أن عدد ٢٣ و٢٤ التاليين لهذه الآية يظهران ما قصده المسيح بقوله لاَ فِي هذَا الْجَبَلِ، وَلاَ فِي أُورُشَلِيمَ تَسْجُدُونَ لِلآبِ لأنه علمنا أن العبادة التي تحوز القبول عند الله

لا تتوقف على المكان التي نقدم فيه بل تتوقف على حالة قلب العابد وقضى قضاء مبرماً على كل ما يقال له قبلة للصلاة بعد ذلك التاريخ.

٨ - يو ١٤: ٣٠ "لَا أَتَكَلَّمُ أَيْضاً مَعَكُمْ كَثِيراً لِأَنَّ رَئِيسَ هذَا الْعَالَمِ يَأْتِي وَلَيْسَ لَهُ فِيَّ شَيْءٌ" قال المسلمون أن رئيس العالم الذي بشر بمجيئه المسيح إنما هو محمد. ورداً عليهم نقول أنه يظهر من سياق الكلام والقرينة أن المسيح لم يعن برئيس العالم هنا نبياً ولا رسولاً بل عنى إبليس بدليل قوله ليس له فيّ شيء فإن هذه العبارة لا تشير إلى حبيب موال كشأن النبي إلى زميله النبي بل تشير إلى عدو مقاوم. وورد في مواضع كثيرة من الكتاب المقدس ذكر إبليس موسوماً بألقاب فخمة من ذلك قوله "اَلْآنَ دَيْنُونَةُ هذَا الْعَالَمِ. اَلْآنَ يُطْرَحُ رَئِيسُ هذَا الْعَالَمِ خَارِجاً" (يو ١٢: ٣١) وقوله "الَّذِينَ فِيهِمْ إِلهُ هذَا الدَّهْرِ قَدْ أَعْمَى أَذْهَانَ غَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ لِئَلَّا تُضِيءَ لَهُمْ إِنَارَةُ إِنْجِيلِ مَجْدِ الْمَسِيحِ الخ"(٢ كو ٤: ٤) ودعي إبليس "رَئِيسِ سُلْطَانِ الْهَوَاءِ، الرُّوحِ الَّذِي يَعْمَلُ الْآنَ فِي أَبْنَاءِ الْمَعْصِيَةِ"(أف ٢: ٢ و٦: ١١ و١٢).

(٩) (يو ١٤: ١٦ و١٧ و٢٦ و١٥: ٢٦ و١٦: ١٣ الخ) يجزم المسلمون أن كلمة الباراكليت المترجمة المعزي يجب أن تترجم محمد وعليه يكون المسيح تنبأ عن محمد في هذه الآيات ويقولون أن القرآن الذي جاء

به هو من عند جبريل وهو عندهم الروح الأمين أي الروح القدس وأنه شهد للمسيح (يو ١٥: ٢٦ ومجده يو ١٦: ١٤) كما مجده القرآن وذلك لأن القرآن رفع مقام المسيح كمولود من عذراء وكنبي ورسول مؤيد بالمعجزات والآيات وقال أنه صعد إلى السماء حياً وأن الله آتاه الإنجيل ونفى عنه البنوة لله التي زعمها النصارى الخ وقالوا أيضاً أن النصارى الأولين فهموا من أقوال المسيح بخصوص إرسال الباراكليت أن نبياً آخر عظيماً سيأتي بعده بدليل أن رجلاً يسمى ماني الفارسي ادعى أنه الروح القدس بعد المسيح ببضعة قرون وراجت دعوته عند بعضهم استناداً على هذه النبوة إلى آخر ما قالوا. أما نحن فنقول ليس أحد خبيراً بالإنجيل يقدر أن يستنتج من كلام المسيح عن إرسال الروح ما استنتجه إخواننا مما ورد في (يو ١٤ و١٥ و١٦) وذلك لما يأتي: أولاً أن كلمة باراكليت لا تعني محمداً بل تعني المعزي أو المؤيد كما في قوله وأيدناه (المسيح) بروح القدس (قرآن) أو الوكيل وهذه لا تناسب محمداً مطلقاً لأن المعنى الأول أي المعزي لا يلائم حامل السيف بل هما ضدان والمعنيين الأخيرين المؤيد والوكيل لا يصح إسنادهما إلى مخلوق كائن ما كان لأنهما من ألقاب الله سبحانه وتعالى كما ورد في القرآن وما أرسلناك عليهم وكيلاً

(سورة الأسرى عدد ٥٥ وسورة النساء عدد ٨٠)؛ ثانياً أن كلمة الباراكليت لم تستعمل في أسفار العهد الجديد إلا للدلالة على الروح القدس (يو ١٤: ١٦ و١٧ و٢٦ و١٥: ٢٦ و١٦: ١٣) وجاءت أيضاً للتلميح إلى المسيح (يو ١٤: ١٦ وانظر ١ يو ٢: ١)؛ ثالثاً أن الباراكليت حسبما ورد في هذه الآيات لا يمكن أن يكون إنساناً ذا روح وجسد بل هو روح محض غير منظور وهو روح الحق الذي عندما تكلم المسيح عنه بأنه يأتي. إنه الروح الذي مكث مع التلاميذ (يو ١٤: ١٧ و١٦: ١٤)؛ رابعاً أن الذي يرسله هو المسيح كما في (يو ١٥: ٢٦ و١٦: ١٧) وإخواننا المسلمون لا يقبلون على محمد أن يكون رسول المسيح؛ خامساً كان محمد رجل حرب وغزو يفتح البلاد بسيفه ويدوخ العباد بجيشه وأما الروح القدس فعمله أن يبكت العالم على الخطية وجوهر الخطية عدم الإيمان بالمسيح (يو ١٦: ٩) فما أعظم الفرق؛ سادساً قيل عن الروح القدس أنه متى جاء يمجد المسيح لا يمجد نفسه لأنه يأخذ مما للمسيح ويخبرنا (يو ١٦: ١٤ و١٥)؛ سابعاً أن محمداً والقرآن ينكران بنوة المسيح لله وقد صرح أنه ابن الله بقسم (في مر ١٤: ٦١) وكذا ينكران لاهوته مع كونه مثبوتاً في كل أسفار العهد القديم (إش ٩: ٦ ومز ٤٥: ٦) والعهد الجديد (يو ١٠: ٣٠ وعب ١) وبناء عليه لا يكون محمد

وقرآنه ممجدين للمسيح بل مضادين له على خط مستقيم وبالتالي لا يكون محمد الروح القدس كما زعموا؛ ثامناً أن محمداً وقرآنه ينكران صلب المسيح الذي به صار التكفير عن خطايا العالم وبهذا قد أنكرا حقيقة جوهرية من أعظم حقائق الكتاب المقدس (انظر مز ٢٢: وإش ٥٢: ١٣-٥٣ كله ومت ٢٠: ١٩ الخ) والتي يترتب عليها خلاص الجنس البشري؛ تاسعاً أن إنكار المسيح يترتب عليه إنكار قيامته التي هي رجاء جميع المسيحيين (١ كو ١٥: ١٧-١٩)، وحيث أن محمداً يخالف الإنجيل في هذه النقط الرئيسية وغيرها ويعارض التعاليم التي أمر رسله أن يكرزوا بها للعالم (مت ٢٨: ٢٠) فلا يصح أن يقال عنه أنه متمم لنبوة إرسال الروح القدس الذي إنما جاء ليذكر التلاميذ بكل ما قاله لهم المسيح (يو ١٤: ٢٦)؛ عاشراً أن احتجاجهم بما ادعاه ماني من أنه الروح القدس وتطبيقهم دعوة محمد على قول ماني دعوة باطلة وشاهد زور وإذا كان أحد منا يضاهي بين محمد وماني وبين قرآن الأول وكتاب الآخر الذي ادعى كما ادعى محمد أنه جاء به من السماء وأنه ليس في طاقة البشر أن يأتوا بمثله ولم يأتوا بمثله لجرحنا مشاعر إخواننا المسلمين وأغضبناهم ولكن ليكن معلوماً أن كاتب هذه السطور يتحاشى على قدر إمكانه أن يبدي مضاهاة كهذه حفاظاً على السلام.

واعلم أن المطلعين من المسيحيين رفضوا دعوة ماني بأنه الروح القدس لجملة أدلة منها أن النبوات المتعلقة بالباراكليت لا تشير إلى إنسان بل إلى روح، ومنها أن هذه النبوات تمت بعد صعود المسيح ببضعة أيام وذلك بحلول الروح القدس على المائة والعشرين مسيحياً الذين كانوا يسبحون الله في العلية في مدينة أورشليم وأخذوا يتكلمون بألسنة أخرى كما أعطاهم الروح القدس أن ينطقوا (راجع أع ٢: ١-٣٦). ومن هنا يظهر أن تعليم العهد الجديد في عصر ماني هو كما في العصر الحاضر وأن المسيح وهو على الأرض أخبر بظهور أنبياء كذبة وذلك في مواضع كثيرة من الإنجيل وحذرنا من الانقياد لأي نبي يأتي بعده (مت ٢٤: ١١ و٢٤ ومر ١٣: ٢٢ قابل مت ٧: ١٥). لهذا عندما ظهر ماني وادعى النبوة رفضه مسيحيو عصره بناء على ما سبق التحذير منه في الإنجيل واعتبروه نبياً كذاباً كما يعتبره إخواننا المسلمون؛ حادي عشر أن الباراكليت قيل عنه أنه سيسكن في قلوب المسيحيين الحقيقيين (يو ١٦: ١٤ قابل ١ كو ٦: ١٩ ورو ٨: ٩) وهذا لا يمكن أن يصدق على محمد؛ ثاني عشر قد وعد المسيح بأن الروح القدس (يو ١٤: ٢٦) يجب أن ينزل من السماء على التلاميذ بعد صعوده بأيام قليلة وأمرهم أن لا يباشروا خدماتهم كرسل (مت ٢٨: ١٩-٢٠) حتى يحل عليهم

الروح القدس (أع ١: ٢٥) وبناء على أمره مكثوا في أورشليم إلى أن تم هذا الوعد (انظر لو ٢٤: ٤٩ وأع ١: ٤ و٨ و٢: ١-٣٦). فهل تظنون أن مراد المسيح أن ينتظر تلاميذه بدون أن يمارسوا عملهم مدة ستمائة سنة إلى أن يأتي محمد؟ هذا محال وعليه فلا تشير النبوة هنا إلى محمد بوجه من الوجوه بل إلى الذي تم يوم الخمسين بعد صعود المسيح بأيام قليلة كما قدمنا ذكره (انظر أع ص ٢)، وبعد ذلك الوقت نالت جماعة الرسل قوة فائقة وحكمة واسعة وجالوا يكرزون بالإنجيل في الأرض كلها.

(١٠) ١ يو ٤: ٢ و٣ "بِهذَا تَعْرِفُونَ رُوحَ اللهِ: كُلُّ رُوحٍ يَعْتَرِفُ بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ أَنَّهُ قَدْ جَاءَ فِي الْجَسَدِ فَهُوَ مِنَ اللهِ، وَكُلُّ رُوحٍ لاَ يَعْتَرِفُ بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ أَنَّهُ قَدْ جَاءَ فِي الْجَسَدِ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ". ظن بعض المسلمين أن قوله روح الله يشير إلى محمد بدليل أنه اعترف بأن المسيح قد جاء في الجسد كما تقول الآية ومعنى ذلك عندهم هو حيث أن محمداً أنكر لاهوت المسيح في الجسد وصرح أنه إنسان كسائر الناس يكون قد اعترف بأن المسيح قد جاء في الجسد مع أن قوله جاء في الجسد يراد به نفي ضلالة ظهرت في ذلك الوقت ألا وهي أن جسد المسيح لم يكن جسداً حقيقياً بل خيالياً لأنه إذ كانوا يعتقدون بأنه إله شق عليهم أن يؤمنوا أيضاً بأنه ذو جسد حقيقي وعللوا أعراضه الجسدية المذكورة

في الإنجيل مثل كونه أكل وشرب وتعب ونام واستيقظ ومات وقام الخ من قبيل التصورات الخيالية التي لا وجود لها في الحقيقة. فإذا قيل لهم كان المسيح يأكل الطعام فكيف لا يكون جاء في الجسد أجابوك لم يأكل المسيح ولم يشرب حقيقة ولكن شبه لهم وإذا قيل لهم كان المسيح ينام وينتبه من النوم قالوا كلا بل شبه لهم. وإذا قيل مات المسيح وقام قالوا لم يمت حقيقة ولم يقم ولكن شبه لهم. ودفعاً لشر هذه الضلالة أنذرنا الوحي على لسان يوحنا الرسول بأن كل من يعترف بأن المسيح جاء في الجسد أي يعترف بأن أعراضه الجسدية التي ذكرت في الإنجيل كانت حقيقية فهو من الله وكل من ينكر كونه جاء في الجسد أي ينكر كون أعراضه الجسدية كانت حقيقية فليس من الله ومحمد أنكر موت المسيح وهو من أعظم أعراضه الجسدية وكانت طريقة إنكاره مثل طريقة أصحاب تلك الضلالة بمعنى أنه حول واقعة الحال إلى واقعة خيال فقال ما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم فتأمل.

(١١) يه ١٤ و١٥"وَتَنَبَّأَ عَنْ هؤُلاَءِ أَيْضاً أَخْنُوخُ السَّابِعُ مِنْ آدَمَ قَائِلاً: هُوَذَا قَدْ جَاءَ الرَّبُّ فِي رَبَوَاتِ قِدِّيسِيهِ لِيَصْنَعَ دَيْنُونَةً عَلَى الْجَمِيعِ وَيُعَاقِبَ جَمِيعَ فُجَّارِهِمْ عَلَى جَمِيعِ أَعْمَالِ فُجُورِهِمُ الَّتِي فَجَرُوا بِهَا الخ". تجرأ بعض المسلمين وقالوا أن الرب في هذه العبارة يراد به محمد وقوله

يصنع دينونة يشير إلى كونه متقلداً بالسيف ومثيراً للحرب على أعدائه ولكن لا مسلم حقيقي يقدر أن يسند لقب الرب إلى مخلوق كائناً من مكان لأنه من ألقاب الله انظر سورة التوبة آية ٢٢. والحقيقة أن أخنوخ تنبأ عن المسيح باعتبار مجيئه الثاني عندما يملك على الأرض (ودا ٧: ١٣ و١٤ ومت ٢٤: ٢٩-٥١ و٢ تس ١: ٦-١٠ ورؤ ١: ٧ و١٩: ١١-٢١) واسم الرب من ألقاب المسيح التي كثر إسنادها إليه في أسفار العهد الجديد وأسندت إليه بحق كما نعلم من في ٢: ٩-١١.

(١٢) رؤ ٢: ٢٦-٢٩ "وَمَنْ يَغْلِبُ وَيَحْفَظُ أَعْمَالِي إِلَى النِّهَايَةِ فَسَأُعْطِيهِ سُلْطَاناً عَلَى الْأُمَمِ فَيَرْعَاهُمْ بِقَضِيبٍ مِنْ حَدِيدٍ كَمَا تُكْسَرُ آنِيَةٌ مِنْ خَزَفٍ كَمَا أَخَذْتُ أَنَا أَيْضاً مِنْ عِنْدِ أَبِي وَأُعْطِيهِ كَوْكَبَ الصُّبْحِ الخ". قالوا أن هذا نبوة عن محمد بدليل أنه حارب الأمم بسيفه وأخضع كثيراً منهم تحت سلطانه فإن صحت دعواهم ينتج أن محمداً استمد هذه القوة والسلطان من المسيح جزاء له على تمسكه بوصاياه وحفظه أعماله إلى النهاية وبالتالي كان مقامه دون مقام المسيح إلا أن إخواننا المسلمين لا يرضيهم ذلك ولا يرضيهم أن يكون مقامه كمقام المسيح بل أعظم منه. وكيف لا وهو عندهم خاتم الأنبياء وسيد المرسلين والحقيقة هي أن من يراجع الإصحاح الثاني والثالث من هذا السفر يجد أن المتكلم هو

المسيح يحث أعضاء الكنائس السبع على الغلبة واعداً من يغلب بأحسن الجزاء وكرر ذلك سبع مرات فلا يشير إلى محمد ولكنه يتكلم كلاماً عمومياً لترغيب شعبه في الغلبة لا غلبة السيف والسهم بل غلبة الخطية والجسد والعالم والشيطان.

إلى هنا انتهينا من النبوات الواردة في أسفار العهد القديم والعهد الجديد التي خالها المسلمون تشير إلى محمد ورأينا أن لا نبوة منها تشير إليه. هذا وقد علمنا من الإنجيل تمام العلم أنه لا يوجد كتاب يلي الإنجيل ولا نبي يأتي بعد المسيح والعصر الوحيد الآتي هو رجوع المسيح من السماء ليملك على الأرض الملك الدائم. وعلى ما تقدم سقطت دعوى محمد بالرسالة من الله سقوطاً ليس من ورائه مجالاً للشك.

حقاً أن بعضاً من المسلمين اندهشوا عندما قرءوا عن الجراد في (رؤ ٩: ٣ و٤) حيث يقول "وَقِيلَ لَهُ أَنْ لاَ يَضُرَّ عُشْبَ الْأَرْضِ وَلاَ شَيْئاً أَخْضَرَ وَلاَ شَجَرَةً مَا إِلَّا النَّاسَ فَقَطِ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ خَتْمُ اللهِ عَلَى جِبَاهِهِمْ" لأنهم يقصون علينا أنه حدث في زمن خلافة أبي بكر الصديق أنه زود جنوده عندما ساروا لفتح الشام بأوامر تمت معها هذه النبوة حرفياً. ومما يستحق الأخذ في الاعتبار أن نجد اثنين من مؤرخي المسلمين لا يعلمان غالباً بهذه النبوة يرويان لنا حديثاً يذكرنا بها قال

جلال الدين السيوطي لما بعث أبو بكر الصديق ابن أبي سفيان لفتح الشام أمره أن لا يقتل امرأة ولا طفلاً ولا شيخاً ولا يقطع أشجاراً منتجة ثماراً ولا يتلف أرضاً مزروعة ولا ينحر شاة ولا دابة إلا ما دعت إليه حاجة الطعام ولا يقلع نخلة منتجة ولا يحرقها قبل قلعها ولا يغدر بأحد ولا يخشى أحداً وروى الواقدي الرواية عينها بأكثر تفصيل قال أمر أبو بكر الصديق ليزيد ابن سفيان أنه إذا ظفر بأعدائه لا يذبح ولداً ولا شيخاً ولا امرأة ولا طفلاً ولا يقرب نخلة ولا يحرق مزرعة ولا يقلع أشجاراً مثمرة ولا ينحر ماشية إلا لضرورة الطعام ولا يغير ما اتفق عليه ولا ينقض محالفة صلح وإذا مر بأديرة الرهبان الذين انقطعوا لعبادة الله يدعهم وما انقطعوا إليه لا يقتلهم ولا يهدم أديرتهم وأما إذا مر بتلك الطائفة التي تعبد الشيطان والصلبان ذوي الرؤوس المحلوقة من الوسط يضربهم بسيفه إلى أن يعتنقوا دين الإسلام أو يدفعوا الجزية وهم صاغرون.

لا شك أن المشابهة عظيمة بين ما ورد في سفر الرؤيا وبين ما أمر به أبو بكر جنوده ولكن لم ترد إشارة إلى نبي ما في ذلك الموضع مما يؤيد دعوة محمد كما أنه لا مسلم خبير يقدر أن يستشهد بالآيات المذكورة ولو سلمنا أنها نبوة تمت بعد موت محمد بجملة سنين.

الفصل الثالث

هل يمكن أن تكون فصاحة القرآن معجزة تدل على أنه موحى به من الله؟

يجزم إخواننا المسلمون أن فصاحة القرآن وطلاوة عباراته بالغة حد الإعجاز حتى أنه يكفي لإثبات رسالة محمد سيما وأنه لم يكن يعرف الكتابة ولا القراءة فمن المحال أن يكون قادراً على الإتيان به ما لم يكن موحى به من الله. ويقولون لكل نبي آية بينة تدل على أن رسالته من عند الله إلا أن الآيات تنوعت حسب أحوال الزمان الذي جاء فيه الأنبياء. ففي زمن موسى مثلاً بلغ السحر والسحرة مكانة عظمى عند المصريين فأوتي موسى من الآيات ما يشبه السحر في ظاهره وهو ليس بسحر في الحقيقة بل معجز للسحرة. وفي زمن المسيح بلغ الطب مبلغاً عظيماً فكانت آيات المسيح مشبهة بالطب ولكنها تفوقه، وفي زمن محمد كانت الفصاحة هي الصناعة الرائجة بين العرب فأوتي القرآن معجزاً لفصحاء عصره وشعرائه. ومن أدلتهم على إعجاز القرآن ما جاء فيه من تحدي العرب على أن يأتوا بكتاب مثله أو سورة منه كما في سورة البقرة آية ٢٣ ومن ذلك قوله "قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ

الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً" (سورة الإسراء ١٧: ٨٨).

ورداً عليهم نقول إذا فحصنا دعواهم بإعجاز القرآن فحصاً دقيقاً خليقاً بأهمية الموضوع لا نجد دليلاً على صحة دعواهم لأنه كم من الكتب الشهيرة في العالم ألفها قوم لا يعرفون القراءة ولا الكتابة وجاءت لا مثيل لها ومن هذه الكتب كتاب وضعه ريج فيدا في بلاد الهند وضعه بين سنة ١٠٠٠ و١٥٠٠ ق م قبل أن تعرف صناعة الكتابة في تلك البلاد بزمن طويل ويزيد حجمه عن القرآن وقد صنفه أكثر من واحد إلا أنهم لم يكن لهم كاتب يملون عليه آيات كتابهم. وفي اللغة اليونانية القديمة قصيدتان في غاية الفصاحة وهما الإلياذة والأودسة (١) منسوبتان في الغالب إلى شاعر أعمى اسمه هوميروس وكان العميان في سالف الزمان لا يعرفون القراءة ولا الكتابة ولا كانت لديهم الوسائل التي لدينا اليوم وليس ثمة وجه للظن أن يكون أملى قصيدته على بعض الكتبة لأنه كان فقير الحال يحصل قوت يومه بالتجوال على البيوت يتلو أشعاره. على أنه لم يقم دليل قاطع على أن محمداً كما زعموا غير عالم بالقراءة والكتابة وغاية ما أوردوه لإثبات

---

(١) Iliad—Odyssey

هذه الدعوى هو ما وصفه به القرآن بأنه النبي الأمي (سورة الأعراف ٧: ١٥٦ و١٥٧). إلا أن هذا الوصف لا يثبت عدم معرفته القراءة والكتابة بل يثبت كونه نبياً من الأمم (١) لا من بني إسرائيل وذلك واضح من سورة آل عمران آية ٢٠ في قوله "وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِينَ الخ" ومن ذلك ترى أن العرب مدعوون هنا بالأميين فقال النبي الأمي كما نقول اليوم النبي العربي وكانت عادة الأنبياء أن يأتوا من أهل الكتاب أي بني إسرائيل.

فلما ادعى محمد النبوة وكان من غير أهل الكتاب دعوه النبي الأمي أي من الأمم كما تقدم تمييزاً له عن بقية الأنبياء الذين كانوا جميعاً من بني إسرائيل. وبخلاف ذلك، علم المطلعون من المسلمين بالروايات المنسوبة إلى البخاري ومسلم التي تنفي عن محمد وصمة الجهل بالقراءة والكتابة من ذلك ما ينسبونه إليه في معاهدة الحديبية من أنه أخذ القلم وضرب على توقيع علي بن أبي طالب بالنيابة عنه تحت إمضاء رسول الله وكتب ابن عبد الله. ومما ينسبونه إليه أنه لما أحتضر طلب أن يأتوه بأدوات الكتاب ليوصي بمن يخلفه وقبل أن يأتوه بها

(١) لقد قال بمثل ذلك بعض محققي المسلمين انظر السيرة النبوية لزيني دحلان اهـ مصحح

خانته قواه كما رواه البخاري ومسلم عن ابن عباس. وبما أن هذه الروايات موضوع نزاع بين أهل السنة والشيعة فلا نجزم بصحتها غير أننا نقول أن مجرد وجودها مسندة إلى أئمة الحديث أمر يستحق الاعتبار وخصوصاً لأن لا شيء فيها بعيد الوقوع.

واعلم أن فن الكتابة كان معلوماً عند العرب في عصر محمد لأنه معلوم بالتأكيد أنه لما وقعت بعض أهالي مكة أسرى عند أهالي المدينة افتدوا أنفسهم منهم بأن يعلموهم الكتابة ثم أن وجود المعلقات السبع (سواء كانت معلقة في الكعبة كما ظن جلال الدين السيوطي أم محفوظة في خزانة عكاظ كما قال أبو جعفر أحمد ابن اسمعيل بن نواس) دليل على أن الكتابة كانت أمراً عادياً بين مؤلفي ذلك العصر والذين قبلهم سواء كانوا يكتبون مؤلفاتهم بأنفسهم أو يكتبها كتبة آخرون على ذمتهم.

وإن قلنا أن محمداً كان يعرف الكتابة ولكنه لم يحسنها بحيث يتهيأ له أن يكتب كتاباً فلا يؤثر ذلك في أهمية القرآن لأننا نعلم من أقوال السالفين أن زيداً بن ثابت كان من جملة الكتبة الذين استخدمهم محمد وكانوا يكتبون كما يملي عليهم على العظام وعلى الخشب

والخزف بالحرف الكوفي (١) خلواً من نقط الوقف وحركات الضبط وعلى مدى الأيام تبين لعلماء التفسير اختلاف القراءات القرآنية الذي نتج عنه نقص الأبجدية الكوفية. ولي هنا سؤال أمكتوبٌ القرآن بالحرف الكوفي في اللوح المحفوظ أم بغيره على أن الحرف الكوفي وإن كان قديماً إلا أنه مستخرج من الأبجدية السريانية وتلك من الفينيقية.

وكان إذا أملا محمد آية على الكاتب يسارع إلى حفظها المتدينون من قومه ولكن ذلك لا يمنع من أن بعض الآيات لم يحفظها أحد أو مات الذين حفظوها. جاء في صحيح مسلم أن عائشة قالت ما معناه مما أنزل في القرآن عشر آيات في الرضاعة نهي عنها ونسخت بخمس آيات أُخر ومما لا شك فيه أن عائشة سمعت هذه الآيات في زمانها من بعض القراء ولا نجدها اليوم في القرآن.

وروى مسلم عن عمر بن الخطاب ما معناه أن الله أرسل محمداً بالحق وأنزل عليه الكتاب وبما أن آية الرجم مما أنزله الله في هذا الكتاب رجم رسول الله ورجمنا من بعده والرجم حد الزاني وكان

---

(١) هذا خلاف المشهور لأن الحرف الكوفي لم يكن يعرف إلا بعد وفاة محمد اهـ مصحح

نص آية الرجم هكذا والشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة.

ولكنا لا نجد هذه الآية في القرآن المتداول اليوم والذي نجده أن الزنى حده الجلد مائة جلدة (انظر سورة النور ٢٤: ٢-٤) وروى ابن ماجة أن عائشة قالت أن آية الرجم والرضاعة نزلتا... وكان القرطاس المكتوبتان فيه تحت فراشي ومات رسول الله حينئذ وفيما أنا منشغلة بموته دخلت بهيمة وأكلت القرطاس. وروى مسلم عن أبي موسى الأشعري أنه قال لخمسمائة من حفظة القرآن في البصرة أنا اعتدنا أن نتلو سورة تضاهي سورة براءة في الطول والشدة وقد نسيتها ولم يبق منها في بالي غير هذه الكلمات توكلت الخ، واعتدنا أن نتلو سورة على المسبحة ونسيتها ما عدا قوله أيها الذين الخ.

ومن المشهور أن أبيا زاد على نسخة قرآنه سورتين قصيرتين تحت اسمين اعتباريين وهما سورة الخلع وسورة الحفظ وتسمى الأخيرة أيضاً سورة القنوت لأنه يؤكد أنهما نزلتا في القرآن وحذفهما عثمان في حين أن ابن مسعود حذف سورة الفاتحة والمعوذتين من مصحفه. وقال قوم من الشيعة أن في القرآن بعض الآيات المشيرة إلى علي بن أبي طالب وحذفت عمداً من القرآن المتداول اليوم منها سورة النساء آية ١٣٦ و١٦٤ وسورة المائدة آية ٧١ وسورة

الشعراء آية ٢٨٨ وقالوا أن في سورة آل عمران آية ١٠٦ أبدلت كلمة أئمة الأصلية بكلمة أمة وفي سورة الفرقان آية ٧٤ أبدلت العبارة الأصلية واجعل لنا من المتقين إماماً بعبارة محدثة واجعلنا للمتقين إماماً وذكروا تغييرات أخرى في سورة يوسف آية ١٢ والمؤمنين آية ٣٩ أحدثوها عمداً. وقد سلم الإمام فخر الدين الرازي أن في سورة هود آية ٢٠ تختلف القراءة عن مصحف علي ففي القرآن المتداول تقرأ هكذا ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة وتقرأ في مصحف علي هكذا "ويتلوه شاهد منه إماما ورحمة ومن قبله كتاب موسى" والفرق بين العبارتين خليق بالاعتبار عند الشيعة لما في العبارة الثانية من الإشارة إلى علي باعتبار كونه هو الشاهد وهو الإمام والرحمة، وليس كتاب موسى الإمام والرحمة كما في العبارة الأولى. وقال آخرون أن سورة برمتها حذفت من القرآن بالقصد وتسمى سورة النورين واقتبسها إلى آخرها مرزا محسن من كشمير ببلاد الهند في كتابه المسمى (دبستان مذاهب).

وليس غرضنا من ذكر شبهات الشيعة في ما أضيف إلى القرآن وما حذف منه إثبات هذه الشبهات أو نفيها ولكن حيث أنهم قالوا أن القرآن معجزة لرسالة محمد صار من الواجب علينا الإشارة إلى

ما قاله نفس علمائهم والثقة منهم في الزيادة والنقصان اللذين اعترياه دفعاً لدعوة الإعجاز.

نتقدم الآن إلى بيان المنهج الذي سلكوه لجمع متفرقات القرآن من سور وآيات إلى كتاب واحد ونعتمد في التحري عن ذلك على المصادر الموثوق بها عند المسلمين أنفسهم.

"عن زيد بن ثابت قال أرسل إليّ أبو بكر بعد مقتل أهل اليمامة فإذا عمر بن الخطاب عنده قال أبو بكر أن عمراً أتاني فقال أن القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن وإني أخشى أن استحر القتل بالقراء بالمواطن فيذهب كثير من القران وأني أرى أن تأمر بجمع القرآن. قلت لعمر كيف نفعل شيئاً لم يفعله رسول الله؟ فقال عمر هذا والله خير فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك ورأيت في ذلك الذي رأى عمر. قال زيد قال أبو بكر أنك رجل شاب عاقل لا نتهمك وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله فتتبع القرآن فاجمعه فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أخبرني به من جمع القرآن. قلت كيف تفعلوا شيئاً لم يفعله رسول الله؟ قال هو والله خير فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر فتتبعت القرآن

أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع أحد غيره لقد جاءكم رسول من أنفسكم حتى خاتمة براءة فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله ثم عند عمر طول حياته ثم عند حفصة بنت عمر. رواه البخاري كما في مشكاة المصابيح في آخر كتاب فضائل القرآن.

وذكر هذه الرواية ما عدا الجملة الأخيرة جلال الدين السيوطي (انظر تاريخ الخلفاء طبعة لاهور سنة ١٣٠٤ للهجرة صحيفة ٥٣).

ومن المحتمل أنه لم تكن وقتئذ نسخة كاملة للقرآن سوى تلك التي جمعها زيد واعتمد كافة المسلمين في قرآنهم على حفظه في الصدور وتلاوته بالشفاه إلا بعض أجزاء منه قد كتبت حسبما تلاها الحفظة في سبع قراءات. ولما أصبح القرآن في خطر الضياع والفساد والسريان والاختلال في جميع متونه أنذر حذيفة ابن اليمان عثمان بن عفان بسوء العاقبة وذلك عندما كان منهمكاً في افتتاح بلاد الأرمن وأذربيجان. وروى البخاري معناه يا أمير المؤمنين تدارك المسلمين قبل أن يقع الاختلاف بينهم في القرآن كما اختلف من قبلهم اليهود والنصارى فأرسل عثمان إلى حفصة يقول لها ابعثي إلينا بالصحف لننسخها في المصاحف ثم نردها إليك فبعثتها إليه وعند ذلك انتدب الخليفة زيد بن

ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الله بن الحارث بن هشام فنسخوها وقال للثلاثة القرشيين إن اختلفتم مع زيد في شيء من القرآن فاكتبوه بلغة قريش لأنه نزل بلسانهم ففعلوا ذلك حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة وأرسل إلى كل إقليم نسخة وأصدر أمراً أن كل قرآن خالف هذه النسخة يحرق فقال شهاب أخبرني خارجة بن زيد بن ثابت أنه سمع زيد بن ثابت يقول لما نسخنا القرآن فقدت آية من سورة الأحزاب كنت أسمعها من رسول الله وبعد التحري عنها وجدناها عند خزيمة ابن ثابت الأنصاري: من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فألحقناها بموضعها. ومن ذلك يتضح وجود تنقيح في النسخ التي أصدرها عثمان لما رأيت من الخلاف بينها وبين الصحف الأصلية التي كانت عند حفصة وعدا ذلك فإن صدور أمر الخليفة بحرق النسخ القديمة المخالفة لما استنسخه وهو دليل آخر على وقوع الاختلاف في نسخ القرآن ومما يزيد ذلك الدليل وضوحاً أن نسخة حفصة نفسها أمر بحرقها مروان عندما كان حاكماً على المدينة لما تحقق من الاختلاف بينها وبين ما استنسخه عنها عثمان. وبالرغم من هذه الوسائط المتناهية في الشدة التي اتخذها حكام المسلمين الأولين لتوحيد نسخة القرآن لم يزل

فيه بعض الاختلافات التي يعبر عنها بالقراءات كما نعلم مما نقله إلينا الأئمة والمفسرون الراسخون في العلم ومنهم البيضاوي وانظر مثلاً تفسيره لسورة آل عمران آية ١٠٠ وسورة الأنعام ٩١ وسورة مريم ٣٥ وسورة القصص ٤٨ وسورة الأحزاب ٦ وسورة سبا ١٨ وسورة ص ٢٢ الخ.

إلا أنه من الوجه الآخر نقول أن السبب الرئيسي الذي نستنتج منه بقاء القرآن على ما كان عليه تقريباً بعد وفاة محمد هو أنه تضمن أقوالاً كشفت الستار عن حياته الأدبية مثل (سورة الأحزاب ٣٧ و٣٨ و٤٩-٥٢) لأنه من المحال أن يجترئ مسلم على أن يلصق بنبيه تلك الوصمة المشار إليها في هذه المواضع ما لم يكن اعترف بها هو نفسه وأمر أن تُدرج في صفحات كتابه الذي نزل عليه من السماء (على حد زعمه). ويا حبذا لو اعترف بأنها خطيئة اعترافاً صريحاً واستغفر ربه لكنه ادعى أنه فعل ما فعله بموجب تنزيل العزيز الحكيم "لِكَيْ لاَ يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ اللَّهُ مَفْعُولاً". لهذا لم يخجلَ أتباعه أن يذكروا له تلك الحادثة في ما دونوه من تاريخه وبالرغم عن الاعتذارات الكثيرة التي شفعوا له بها، إلا أنه لم يتبرر أمام الناقدين المحققين فاجتنبوه واجتنبوا دينه.

وليس بين علماء المسلمين اليوم من يستطيع أن يبرر القرآن ومحمداً من تلك القصة ومهما قالوا مدافعين لا يقدرون أن يسكتوا لسان الضمير الحي عن التصريح بالحق إن لم يصرح الفم. قالوا إن القرآن لمعجزة، بل الآية الواحدة منه معجزة تدل على رسالة محمد الإلهية وأنه لا الملائكة ولا الأنس ولا الجن يقدرون أن يأتوا بسورة منه، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، وإن كل كلمة منه خطت بالقلم في اللوح المحفوظ بجانب عرش الله قبل أن يبرأ البرايا بعصور كثيرة، مع العلم بأن القصة المشار إليها كانت من ضمنه. ثم أن جبريل نزل به من عند العرش إلى سماء الدنيا في ليلة القدر وبعد ذلك بلغه إلى محمد شيئاً فشيئاً حسب مقتضيات الأحوال. قال ابن خلدون تأييداً لهذا اعلم أن القرآن أنزل من السماء باللسان العربي على الأسلوب الذي كان مألوفاً عند العرب للإعراب عن أفكارهم وأنزل عليه باللفظ حسب مقتضيات الأحوال ببيان وحدانية الله وشرح الواجبات المفروضة على الإنسان في هذه الدنيا، وقال مثل هذا في مواضع كثيرة. ويدل هذا كله على أن القرآن من بين الكتب الإلهية إنما تلقاه نبينا صلوات الله وسلامه عليه متلواً كما هو بكلماته وتراكيبه بخلاف التوراة والإنجيل وغيرهما من الكتب السماوية فإن الأنبياء يتلقونها في حال الوحي

معاني ويعبرون عنها بعد رجوعهم إلى الحالة البشرية بكلامهم المعتاد ولذلك لم يكن فيها إعجاز. وبحسب رأي هذا العالم يكون القرآن لفظاً ومعنى من عند الله بخلاف التوراة والإنجيل فإن معانيها من عند الله وأما ألفاظهما فمن عند الأنبياء والرسل الذين كتبوهما. وعليه إذا اتضح لنا من البحث أن عبارة القرآن ليست من الإعجاز في شيء أو على الأقل لا دليل على إعجاز القرآن فلا يصح أن يرد علينا المسلم بقوله كذلك عبارة التوراة والإنجيل خالية من الإعجاز. ولا يمكن أن تدل على كونهما صادرين من الله لأننا لم ندع قط أن عبارة كتابنا تتضمن شيئاً من الإعجاز ولا ادعينا أنها دليل على تنزيله من عند الله بل نقول عن كتابنا ما قاله ابن خلدون أن مسيحي عصره والعصر الحاضر على رأي واحد من جهة أسفار الكتاب المقدس وأن كل كاتب من كتبته استعمل عباراته الخصوصية فمنهم من كتب شعراً فصيحاً بليغاً ومنهم من كتب نثراً بسيطاً فكانت المعاني من عند الله والتعبير من عند ذلك النبي أو الزبوري أو البشير أو المؤرخ، كل حسبما أمره الرب أن يكتب.

ثم أنه من المحقق الآن عند العلماء أن لسان قريش الذي كتب به القرآن إنما هو لسان أهل مكة لا لسان أهل الجنة فإن العربية كما

هو معلوم إحدى اللغات السامية وهي كأخواتها العبرانية والآرامية والحبشية والسريانية والأشورية وغيرها من اللغات التي هي أقل أهمية. ونحن لا ننكر أن اللغة العربية إحدى اللغات القديمة كما أننا نعترف بأن القرآن في بعض فصوله فصيح العبارة وبليغ الأسلوب غير أن علماء اللغة أثبتوا اشتماله على كلمات غير عربية معدلة عن اللغات الأخرى، منها كلمة فرعون مأخوذة من اللسان المصري القديم وكلمتا آدم وعدن مأخوذتان من لغة قديمة تُدعى أكاديان وإبراهيم من لغة الأشوريين وهاروت وماروت والصراط وحور والجن والفردوس مأخوذة من لغة قدماء الفرس وتابوت وطاغوت وزكاة وملكوت من لغة السريان والحواريين من اللغة الأيتوبية وحبر وسكينة وماعون وتوراة وجهنم من ألفاظ اليهود والإنجيل من لغة اليونان. وعليه فكلام القرآن ليس عربياً محضاً وحينئذ لا مانع من أن تكون هذه الكلمات الغير عربية مكتوبة في اللوح المحفوظ أسوة بكلماته العربية ما دام لها الفضل عليها في التعبير عن كثير من معاني القرآن. مع أن هذا يفتقر إلى الإثبات. كما اشتمل القرآن على كلمات غير عربية اشتمل على تراكيب لو وردت في غيره من الكتب لعدها علماء النحو والبيان غلطات لا محالة وهي كثيرة نكتفي ببعضها: ففي سورة

البقرة (١) قوله أولاً تلك عشرة كاملة، والصواب تلك عشر وقال في سورة الأعراف وقطعناهم اثنتي عشر أسباطاً، فأنث العدد وجمع المعدود والصواب التذكير في الأول والإفراد في الثاني وقال في سورة النساء ٤: ١٦٠ "لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ" والصواب والمقيمون الصلاة.

وقال في سورة المائدة ٧٣ "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ"، والصواب والصابئين، وقال في سورة المنافقين ٦٣: ١٠ "وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلاَ أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِين"، والصواب وأكون بالنصب وقال في سورة آل عمران ٥٢ "إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ"، والصواب فكان.

ومما أخطأ فيه مراعاة المروي قوله سلام على الياسين والوجه الياس وقوله وطور سينين والصواب سيناء ومن خطأه في الضمائر

---

(١) قابل منار الحق

قولـه فـي سـورة الحـج ١٩: ٢ "هَـذَانِ خَصْـمَانِ اخْتَصَـمُوا فِـي رَبِّهِـمْ" والصواب اختصما في ربهما وقوله في سورة الأنبياء "وأسروا النجوى الذين ظلموا" والصواب وأسر النجوى وقوله في سورة الحجرات "وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما" والصواب اقتتلتا أو بينهم.

وبخلاف ما تقدم فإن الرأي العام عند العلماء الخالين من الغرض هو أن القرآن ليس بأفصح من كل الكتب العربية فبعضهم لا يفضله من حيث الفصاحة والبلاغة على المعلقات السبع وعلى مقامات الحريري وإن كانوا لا يتجاسرون على التصريح بذلك في البلاد الإسلامية، على أن التاريخ ذكر أن كثيرين من علماء العرب أنكروا إعجازه من حيثية اللغة وقال السلطان إسمعيل في كلامه عن الإسلام إن عيسى ابن صابح المكنى بأبي موسى مؤسس شيعة المزدارية والمعروف بالمزدار كان يقول أن البشر يقدرون أن يكتبوا مثل القرآن في الفصاحة والبلاغة والروي فنشأ عن ذلك نزاع استفحل شره في حكم المأمون استمر من سنة ١٩٨ هجرية إلى سنة ٢١٨. وقال مؤلف كتاب شرح المواقف أن المزدار كان يقول أنه كان من ممكن للعرب أن يأتوا بأفصح من القرآن بكثير. وقال الشهرستاني أن المزدار أبطل دعوى القرآن بالإعجاز من حيث الفصاحة والبلاغة والنظام فقال إن إعجاز القرآن ليس من حيث

جمال عباراته بل من حيث أخباره بحوادث الماضي والمستقبل التي تضمنها وأن الذي صرف العرب عن مباراته، هو عدم الإنصاف في الحكم بمضاهاته وادعائه بإحرازه السبق على غيره بغير حق مما ثنى عزيمته المناظرين عن الاهتمام بدعواه ولو وجدوا حكماً يقضي بينهم وبين صاحب القرآن لأتوا بمثله بدون نزاع.

نعم أن إخواننا المسلمين يعتبرون من قال منهم بعدم إعجاز القرآن مبتدعا ويتضررون من تكرار هذا القول إلا أننا لسنا نريد إساءتهم ولا إهانة كتابهم بل نقصد فقط أن نبين لهم بما لدينا من الأدلة أن مسألة إعجاز القرآن لم تقع موقع القبول والتسليم حتى عند العرب أنفسهم، بل كانت من بدء الإسلام إلى الآن موضوع خلاف ونزاع أدى إلى التحزب والانشقاق. فإن كان العرب ارتابوا في إعجاز القرآن وأنكروه حالة كونهم أرباب اللغة وأهلها فكيف يتعين على الأعاجم أن يسلموا بإعجازه ويتخذونه دليلاً على نبوة صاحبه فاحكموا!

ولنفرض أن القرآن أفصح كتاب عربي على وجه الأرض هل يلزم عن ذلك أنه كتب بالوحي أو هبط على محمد من سماء السموات؟ لا يلزم ذلك أبداً لأنه في كل لغة راقية كتب المؤلفون كُتب عديمة المثال؛ ففي لغتنا الإنكليزية لا يوجد كأشعار شكسبير

وفي لغة الألمان تفردت قصيدة شيلر وغوث عن النظير؛ وفي لغة الفرس فاق حافظ الكل في نوع من القصائد وفاق مولانا الرومي في نوع آخر؛ وفي لغة السكريتية الهندية تجلت عن المثيل قصائد ريج فيدا ولم يدع كتبتها بالإعجاز لفصاحتها وبلاغتها ولا قالوا أنها وحي هبط عليهم من السماء.

وعليه ففصاحة الكتاب ليست دليلاً على كونه منزلاً من السماء لأنه على الأرض فصحاء كثيرون والفصاحة من الصناعات البشرية إنما دليل على سمو تعليمه لا تنسيق ألفاظه كما شرحنا في المقدمة وإلا لكان الهنود محقين في دعواهم عن كتابهم مع أنه قد ذكر فيه نحو ثلاثة وثلاثين إلهاً . يمكن أن يكون الكتاب موحى به من الله باعتبار ما يتضمن من التعاليم الحقة والأفكار الصالحة والمبادئ الروحانية السامية ولا حاجة إلى الألفاظ إلا ما دعت إليه ضرورة البيان. وتسري هذه القاعدة على الكتب المؤلفة أيضاً فإن قيمتها الحقيقية تقاس بصلاح تعليمها وجودة مبادئها لا بزخارف ألفاظها وطلاوة عباراتها. فإن كان المسلم لا يزال يدعي أن القرآن أفصح كتاب في الوجود وفصاحته معجزة تدل على أن محمداً رسول الله فنقول هذه دعوى لا يمكن إقامة الدليل عليها إلا إذا توفرت لدينا شروط هي من وراء مقدرة

البشر لأنه لا يتأتى لأحد أن يحكم بأسبقية القرآن على سائر الكتب في كل اللغات في الفصاحة والبلاغة ما لم يطلع على كافة الكتب واللغات ويقارن بينها وبين القرآن وهذا ما لا سبيل إليه. ولا يتعرض أحد به مسة من العقل لمشروع محال، وعليه فليس من المعقول أن يتمسك المسلم بأهداب هذه الحجة الواهية مؤكداً أن ديانته نور وهدى لكل الناس وأن نبيه خاتم الأنبياء وسيد المرسلين إلى غير ذلك من الدعاوى الطويلة العريضة وليس لديه من البراهين إلا فصاحة القرآن المزعومة التي لا يتهيأ لمخلوق أن يسلم بها لأنها تقتضي، كما قلنا فحصاً ليس بمقدور أحد، ولو أن بمقدور الأعمى أن يميز جميع الألوان التي في قوس قزح، لكان ذلك أيسر من أن يكلف البصير بفحص جميع الكتب التي في العالم في كل اللغات ليعلم عن بينة أي كتابه أفصح الكل وعليه فكل الدعاوي الإسلامية قائمة على هذا الأساس الباطل والبرهان الساقط.

ومع أننا لم نستطع أن نقرأ الكتب جميعها ونعلم كل اللغات للتمييز بينها وبين القرآن فقد قرأنا الكتاب المقدس ولله الحمد وأننا نقول بملء أفواهنا أن كثيراً من أسفاره في لغتها الأصلية أفصح من أي قسم من القرآن ومن بين تلك الأسفار سفر النبي أشعياء والتثنية والمزامير وقد لا ينكر أحد هذه الحقيقة من علماء اللغات إلا إخواننا المسلمون ولو

فتح الله عليهم ودرسوا اللغة العبرانية التي كتبت بها هذه الأسفار لاعترفوا هم أيضاً بهذه الحقيقة.

ونذكر هنا طريقة سهلة مستطاعة لكل قارئ يقابل بها بين الكتاب المقدس والقرآن إذا كان يجهل اللغات الأصلية التي كتب بها الكتاب المقدس بأن يقرأ سفر النبي أشعياء أو غيره من الأسفار التي ذكرناها في أي لغة كاللغة التركية أو الفارسية أو الإنكليزية أو الفرنسية إلى غير ذلك ثم يقرأ أي سورة من القرآن في تلك اللغة فلا يلبث طويلاً حتى يتنازل عن دعواه وهو صاغر.

ولكن لنفرض بعد هذا كله أن القرآن يرجح على سائر الكتب في الفصاحة والبلاغة فلا يصح أن نتخذ رجحانه من هذه الحيثية دليلاً على كونه موحى به من الله لأنه لا مناسبة بين الفصاحة والوحي. كما أنه لا يستدل بجمال المرأة على فضيلتها ولا بقوة الرجل على حكمته وإنما يعلم الوحي من غيره بما اشتمل عليه من صلاح التعليم وملاءمة مبادئه لطبيعة الله القدوس وكفاءته في جبر نقائص البشر وشفاء أشواقهم الروحية كما شرحنا ذلك في موضعه.

قيل عن ماني الذي ادعى النبوة زاعماً أنه هو الروح القدس الذي بشر به المسيح أنه يأتي بعده، أنه جاء بكتاب صور جميلة يدعى

أرتنج وقال أن الله أعطاه الكتاب ليكون معجزة وبينة على أنه رسوله الأمين ونبيه الصادق وحجته على صحة دعواه أن لا أحد من البشر يقدر أن يرسم صورة مثل هذه الصور. فهل لأنه لا أحد عمل كتاباً مثل كتابه تقوم صحته ونؤمن به نبياً ورسولاً؟ كلا بل غاية ما في الأمر نعترف له بإتقان صناعة الرسم والتصوير. وعلى هذا القياس أن سلمنا بأنه لا كتاب في الدنيا يضاهي القرآن فصاحة فحسبنا أن نعترف لصاحبه بإتقان الفصاحة كما اعترفنا لماني بإتقان التصوير. فالاعتماد إذاً لا على زخارف القرآن اللفظية بل على مشتملاته وهذا ما قصدنا أن نبحث فيه في الفصول الآتية.

الفصل الرابع

هل إذا فحصنا مشتملات القرآن تفيدنا أنها من عند الله أوحى بها إلى محمد؟

من أهم طرق الفحص التي بواسطتها نطلع على حقيقة القرآن أن نقرأ محتوياته بتأمل وإمعان نظر لأن مجرد استظهاره بدون تعقل معانيه لا يكفي، ولا يغاير محفوظات الببغاء الذي يكرر ألفاظاً ولا يدري ما يقول. أن الذين يؤمنون أن القرآن كلام الله وأنه نور وهدى للناس، أقل ما يجب عليهم أن يتفقهوا معناه ويقفوا على حقيقته

لإنـارة قلـوبهم وأذهـانهم. واعلـم أن النـور لا يليـق بـه أن يوضـع مـن وراء ستار الباطـل ولا تحـت مكيـال الخرافـات والجهـل بـل يوضـع علـى منـارة التعقل والتروي ليضـيء مـن استضـاء بـه ويهـدي مـن اهتـدى بـه. أن قـراءة القرآن بتأمل وعنايـة وبفهم معنـاه أمـر واجـب علـى كل مسلم ومهمـا يكـن للقرآن من علو المنزلة فلا يظفر أحد بطائـل مـن ورائـه مـا لـم يفهـم أقوالـه ويلزم الطاعة لأوامره ونواهيه، ولكننـا بعكس ذلك نجد جمهـور المسلمين من قراء وسامعين قد اكتفوا بتلاوته وتجويده بلحن مطرب واكتفوا بالسمع ونشوة الطرب والأغرب من ذلك أنهم يتوقعون ثـواب من الله عن تلاوتـه والاستماع إليـه بهذه الكيفيـة فتأمـل! ومـن العجب العجـاب أن لا يتلـى إلا بالعربية مهما يكن لسان الذي يتلوه وألسنة الذين يسمعونه وهذا ما لا يجوز أن يقابل به كتاب يقولون أنه منزل من عند الله. إنهم بهذه المعاملـة لقرآنهم يشبهون ابن سبيل يسير في الدجى مخبئـاً مصـباحه تحت طـي ثيابـه وكـان ينبغي له أن يظهره ويرفعه أمام بصره ليتبين له الطريق.

وحيث أن إخواننا المسلمين يضعون القرآن في مكانة عالية وحيث أنه من المهم أن لا يرفض الإنسان وحياً إلهياً، لذلك وجب علـى المفكرين من المسيحيين أن يدرسوا القرآن درساً دقيقاً ليتعلموا

ما يعلمهم إياه لئلا يرفضون النور والهدى والخلاص برفضهم له. وإذا درس المسلمون والمسيحيون الكتاب باعتناء يكونون قادرين أكثر على معاونة أحدهم الآخر لمعرفة طريق الحق والسير في الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

واعلم أن أهم ما جاء في القرآن هو ما ورد فيه عن ذات الله وأوصافه وتوحيده مثل كونه الإله الأزلي الأبدي القادر الحكيم العليم وأنه هو السميع البصير المتكلم باسط السموات والأرض الرحيم العدل الكريم الصبور القدوس المحيي المميت الموصوف بجميع أوصاف الكمال المنزه عن النقائص والعيوب متعال عن الضعف والجهل والظلم والتغير.

ثم أنه يدعو الناس إلى الإيمان بتوحيده وينهي عن الشرك وعبادة الأصنام وينذر بالنشر والثواب والعقاب على الأعمال التي يعملها العبد في هذه الحياة الدنيا، ويعد الصالحين بجنات تجري من تحتها الأنهار والأشرار بعذاب النار، وإن من أوفى محتوياته مقالاً وأوسعها مجالاً ما شهد به للتوراة والزبور والإنجيل أي أسفار العهد القديم والجديد الذي يجمعها الكتاب المقدس كما ذكرنا ذلك في المقدمة آمراً بالإيمان به وبالأنبياء والرسل الذين جاءوا به والذين لم يأتوا بكتب

وعدم التفريق بينهم، ويحرم الرياء ويحرم بعض الأشياء ويحل البعض الآخر، وينهي عن القتل والسرقة والزنا والحنث ويأمر بإنصاف اليتيم وبالإحسان إلى المسكين.

أما من حيث هذه التعاليم فالكل يسلمون بصوابها سواء كانوا مسلمين أو نصارى لأنها صالحة وكل صالح مصدره الأول الله بصرف النظر عما إذا كان جاء به نبي في كتاب موحى به أو ضمير أو بأي حالة أخرى وعليه فقبل أن نقبل دعوى محمد كنبي أو رسول يجب أن نبحث أولاً في هذه النقط (١) هل كان محمد أول من علم بوحدانية الله وبالحلال والحرام وبشر الخطية وثواب الآخرة وعقابها؟ (٢) هل تعليمه من هذه الحيثية أو غيرها كان أوسع وأرقى مما جاء به الأنبياء الأولون، إذ كان نتيجة وحي جديد يحتاج الحال إلى إرسال رسول آخر بكتاب غير الكتب السابقة ليقرر هذه الحقائق من جديد؟

وعلى هذا السؤال نجيب فنقول: إن جميع هذه الحقائق التي ذكرها القرآن أخيراً جاءت من قبل في الكتاب المقدس مفصلة تفصيلاً ليس من وراءه من مزيد ونودي بها في أنحاء كثيرة من المسكونة حتى أن بلاد العرب نفسها لم تعدم نصيباً من معرفة وحدانية الله وعظمة صفاته من قبل أن يخلق محمد وأجداده الأولون. وهل من يجهل أن

وحدانية الله مثبوتة في فصول العهد القديم والجديد من أولها إلى آخرها؟ الكل يعلمون ذلك ويؤكدون أن هذه العقيدة أساس الإيمان عند النصارى كما هي عند اليهود وكذا العقائد الأخرى مشروحة شرحاً وافياً في الكتاب المقدس مثل كون الله هو خالق السموات والأرض وأنه أمر معروف لدى كل من خالط اليهود والنصارى من الشعوب الآخرين كما دلت آثارهم حيث اكتشفوا كتابات منقوشة على صخور في بلاد الفرس لداريوس الملك يحرض قومه على الإيمان بأن الله هو الخالق عز وجل وذلك من قبل التاريخ المسيحي بخمسمائة سنة وقبل محمد بأكثر من ألف سنة.

فلو كان محمد هو أول من قال بوحدانية الله لوجب علينا بدون نزاع أن نؤمن به، أما وقد سبقه إلى ذلك كثيرون من قديم الزمان فليس له علينا حجة. وأقل ما نقول في هذا الصدد أن العرب من قبل مولده كانوا يؤمنون بإله واحد عظيم يدعونه الله تعالى ويدعون الكعبة بيت الله. واعلم أن كلمة الله متى وردت محلاة بال التعريفية دلت على الإله الحق الواحد وقد ذكرها العرب محلاة بأل التعريفية كما مر بيانه. ونعلم ذلك من اسم أبي محمد عبد الله الذي مات قبل أن يولد ابنه يتضمن اسم الله معرفاً بأل فثبت الإيمان

بوحدانيته تعالى. ولا ننكر أن العرب في الجاهلية كانوا يعبدون آلهة مع الله يعبدونها كوسطاء وشفعاء يقربونهم إليه وبهذا المعنى جعلوها كشركاء له تعالى، ومع هذا كان هناك بين هؤلاء المشركين موحدون. ولو فرضنا أن محمداً لم يسمع قط من وثني العرب عن وحدانية الله لكفاه ما سمعه من العرب المتنصرين والمتهودين ومن النصارى واليهود النازلين في بلاد العرب في ذلك الزمن. ولعلك لست جاهلاً أن محمداً سافر إلى سورية على الأقل مرتين وخالط وعامل أهلها وكانوا حينئذ يدينون بالنصرانية وحدث ذلك من قبل أن يدعي الرسالة. أما سفرته الأول فحدثت وهو ابن تسع سنوات برفقة عمه أبي طالب وأما سفرته الثانية فحدثت وهو ابن خمس وعشرين سنة برفقة مملوك لخديجة يدعى ميسرة ولا ينكر أحد أن كثيراً من أقاربه وأصحابه كانوا يهوداً ونصارى، ناهيك عن زوجته مارية القبطية، ومن هؤلاء ورقة بن نوفل الذي كان تابعاً لمذهب الحنفاء ثم صار مسيحياً واطلع على التوراة والإنجيل (انظر سيرة الرسول مجلد أول)، ومنهم عثمان بن حويرث الذي تنصر في بلاد القيصر بالقسطنطينية وكلا الشخصين، حسب سلسلة الأنساب التي دونها ابن هشام هما أبناء عم خديجة. وكان رجل من الحنفاء يدعى عبيد الله ابن جحش قد أسلم وهاجر

إلـى الحبشـة ولكنـه لـم يلبـث حتـى تنصـر ثـم تـوفي وتـزوج محمـد بأرملتـه المدعوة أم حبيبة. وكان من جملة صحابته سليمان الفارسي الذي يقول عنه البعض أنه من نصارى بين النهرين ولما أخذ في السبي إلى بلاد الفرس اعتنق مذهب زردشت، ويقول آخرون وهو الرأي المعول عليه أنه فارسي وزردشتي مولداً ومنشأ لكنه اعتنق الدين المسيحي فيما بعد في بلاد سورية وبعدها سافر لبلاد العرب ثم أسلم وصاحب محمداً وهو الذي أشار عليه عند هجومه إلى الطائف بإقامة المتاريس لهدم مبانيها وكذا أشار عليه بحفر الخنـادق حـول المدينـة لحمايتهـا مـن هجمـات قـريش وحلفـائهم فـي السـنة الخامسة للهجرة. ومنهم عبد الله بن سلام وكان قبل أتباعه لمحمد عالماً يهودياً وحبراً من أحبار اليهود وروى عنه العباسي (١) والجلالان في تفسيرهما أنه هو الرجل المشار إليه بقوله "وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ" (سورة الأحقاف ٦٤: ١٠) يريد الاتفاق بين الأسفار المقدسة وبين القرآن. وذكر العباسي أن عبداً مسيحياً يسمى يسار أو أبو فكيهة ورجلاً آخر رومياً دعته العرب أبو تقبيحة اتهمهما الناس بأنهما أعانا محمداً على تأليف القرآن وأملياه عليه وأشار القرآن إلى هذه التهمة في سورة الفرقان حيث

---

(١) لعل صوابه ابن عباس اهـ مصحح

يقول "وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْماً وَزُوراً وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً" (سورة الفرقان ٢٥: ٤ و٥). وقال العباسي أيضاً في تعليقه على سورة النحل ١٦: ١٠٣ "وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ" ما معناه أن الرجل الأعجمي الذي زعموا أنه علم محمداً القرآن رجل مسيحي يدعى قاين وذهب الجلالان أن الآية تشير إلى شخصين آخرين وهما يسار وجبرا وقال بعضهم بل تشير إلى سلمان الفارسي وآخرون إلى صهيب وآخرون إلى راهب اسمه عداس ناهيك أن زيداً الذي تبناه محمد كان سوري الجنس مولداً ومنشأ (١) وعليه فقد كان يدين بالمسيحية ولعل إشارة القرآن كانت إليه.

فإذا اعتبرنا هذه الأخبار التي صراحتها لا تحتاج إلى محاورة ولا جدال نجد أنه لا يمكن بالكلية أن تنسب التعاليم التي جاءت في القرآن من حيث وحدانية الله والقيامة والثواب والعقاب إلى غير ذلك مما تقدم ذكره إلى محمد بدليل ورودها في الكتاب المقدس أي التوراة والإنجيل من قبل محمد بقرون كثيرة وعليه نحكم أنه اقتبسها من هذا

(١) كذا في الأصل لكن المصحح يظنه بعيد الاحتمال

الكتاب بمعرفة هؤلاء الصحابة والأعوان ونحن لا نذمه على اقتباسه هذه التعاليم من التوراة والإنجيل بل بالحري نشكره غير أن وجود هذه الحقائق في القرآن لا يثبت إعجازه ولا هو دليل على وحيه.

وكثيراً ما قالوا أن البرهان القاطع على نبوة محمد إنباؤه بأمور كثيرة مستقبلة في القرآن وقد تمت وهذا يدل طبعاً أنه من عند الله لأنه لا يعلم الغيب إلا هو ويؤيدون حجتهم هذه بما ورد في سفر التثنية ١٨: ٢١ و٢٢ "وَإِنْ قُلْتَ فِي قَلْبِكَ: كَيْفَ نَعْرِفُ الْكَلاَمَ الَّذِي لَمْ يَتَكَلَّمْ بِهِ الرَّبُّ؟ فَمَا تَكَلَّمَ بِهِ النَّبِيُّ بِاسْمِ الرَّبِّ وَلَمْ يَحْدُثْ وَلَمْ يَصِرْ، فَهُوَ الْكَلاَمُ الَّذِي لَمْ يَتَكَلَّمْ بِهِ الرَّبُّ، بَلْ بِطُغْيَانٍ تَكَلَّمَ بِهِ النَّبِيُّ، فَلاَ تَخَفْ مِنْهُ". فمن الواجب علينا أن نفحص باعتناء الآيات القرآنية التي يزعمون أنها تتضمن أنباء عن حوادث كانت ستحدث في المستقبل عندما أملاها محمد لكتبته.

لو اتفق المسلمون أن القرآن تأليف محمد وكتب بالوحي وليس كما يقولون أنه أملاه له جبرائيل لكانت حجتهم أقوى.

وقد أحصوا الآيات التي أنبأ فيها عن المستقبل في أثنين وعشرين خبراً وردت في المواضع الآتية (سورة البقرة ٢: ٢١ و٢٢ و٨٨ و٨٩ وسورة آل عمران ٣: ١٠ و١٠٧ و١٠٨ و١٤٤ وسورة المائدة ٥: ٧١ وسورة

الأنفال ٨: ٧ وسورة التوبة ٩: ١٤ وسورة الحجر ١٥: ٩ و٩٥ وسورة النور ٢٤: ٥٤ وسورة القصص ٢٨: ٨٥ وسورة الروم ٣٠: ١-٤ وسورة فصلت ٤١: ٤٢ وسورة الفتح ٤٨: ١٦ و١٨-٢١ و٢٧ و٢٨ وسورة القمر ٥٤: ٤٤ و٤٥ وسورة الصف ٦١: ١٣ وسورة النصر ١١٠: ١ و٢) ولا يخفى على القارئ الفطن أن هذه النبوات المزعومة تنقسم إلى ثلاثة أقسام؛ الأول ما يشير إلى انتصارات محمد؛ والثاني ما يشير إلى القرآن نفسه؛ والثالث وهي نبوة واحدة تشير إلى الروم. ولنتأمل في هذه الأقسام بالتتابع على وجه مختصر.

فنقول أما من جهة النبوات بانتصارات محمد فلا تحتاج إلى بحث كثير لأنه لا يمكن إقامة الدليل على أنها كتبت أو نزلت كما يقولون من قبل وقوع الحوادث التي قال المفسرون أنها تشير إليها. ولكن نسلم جدلاً أن تلك النبوات كتبت قبل الوقائع الدالة عليها، فلا يترتب على ذلك شيء عظيم لأنه ليس بالأمر المستغرب أن يعد محمد قومه بالنصر في مقدمة كل حرب بل هذه خطة القواد العظام يبشرون جيوشهم بالنصر تشجيعاً لهم على خوض غمار الحرب بقلب رابط الجأش ولابد أن تدور الدائرة على أحد القائدين المتحاربين فهل يجوز للقائد المنتصر أن يدعي النبوة بناء على كونه سبق فوعد قومه بالنصر من قبل. كلّا

يعلم أن القائدين جنكيز خان وتيمورلنك مثلاً بشرا عساكرهما بالفتح المبين والغنم العظيم وقد تمت بشراهما وانهزمت الأعداء فهل كانا لأجل هذا من أنبياء الله ورسله؟ على أن أنباء محمد بانتصاراته يرجى تحقيقها عند جنوده أكثر مما يرجى تحقيق أنباء القواد الآخرين عند جنودهم لأن أولئك كانوا يؤمنون بأن قائدهم رسول الله المؤيد بقوته غير المتناهية وهذا يولد في نفوسهم البسالة والإقدام بكيفية عديمة المثال في الحروب الاعتيادية كما جرى في واقعة الوهابيين وفي واقعة المهدي وخليفته في الأقطار السودانية التي كانت سيستفحل شرها لولا أن دهمتها وهي في مهدها ضربة قاضية من الجيوش المنتظمة ذات العدد والعُدة، الأمر الذي لم يلق محمد مثله في زمانه الغابر.

ولزيادة الإيضاح نتأمل في غزوة بدر إحدى غزوات محمد لأن بعضهم يطبق عليها ما ورد في سورة القمر ٥٤: ٤٤ و٤٥ حيث يقول "أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ". قال البيضاوي في تفسيره لسورة الأنفال آية ٥ ما معناه أن أبا سفيان مع تسعة وثلاثين راكباً كانوا يحرسون قافلة آتية من سوريا فأعلم جبريل محمداً بخبرها وقلة حرسها مع وفرة ثروتها. فقام محمد لساعته وحرض رجاله بأن يهجموا على تلك القافلة ويسلبوا ثروتها فلما بلغ الخبر أهل

مكة قادهم أبو جهل إلى بدر، وإذ سمع رجال محمد بذلك خشوا العاقبة ولاموا محمداً على عدم إنذارهم بذلك من قبل ليأخذوا لأنفسهم الأهبة اللازمة وودوا لو يجدون في طلب القافلة فقالوا يا رسول الله عليك بالعير ودع العدو فاعتذر بأن الله وعده بالغلبة على إحدى الطائفتين إما القافلة أو العدو. وقال البيضاوي أيضاً في تفسيره لآية ٦ من السورة عينها ما معناه أن المسلمين أحجموا أولاً عن محاربة قريش في هذه الواقعة لأنهم يزيدون عنهم عدداً وسلاحاً ولم يكونوا مستعدين للحرب حينئذ. وقال في تفسيره لسورة القمر آية ٤٤ و٤٥ ما معناه أن عمر لم يكن يعلم معنى هذه الآية حتى الساعة التي لبس فيها محمد درعه وخرج للقتال في ذلك اليوم. أما كون المسلمين خشوا بأس قريش في بادئ الأمر فظاهر من سورة الأنفال ٨: ٦ "يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ".

وقال ابن هشام عن واقعة بدر ما معناه لما علم رسول الله بقدوم جماعة أبي سفيان من سورية فحرض رجاله ليوقعوا بهم وقال لهم هاكم قافلة قريش تحمل أمتعتهم فاحملوا عليهم عسى الله أن يدفعهم إلى يدكم فتحمس بعضهم وأحجم البعض الآخر إذ لم يخطر في خلدهم أن رسول الله يتقدمهم في المعركة. ولما دنا أبو سفيان من الحجاز أخذ

يسأل في طريقه كل من مر به عن قوم محمد لأنه أوجس خيفة على قافلته من شرهم إلى أن بلغه خبرهم بالتفصيل فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري وأوفده إلى مكة بحشد قريش لحماية أموالهم من هجمة محمد. فأقبل جند عديد منهم للغاية المذكورة. وورد في كتاب حياة القلوب تعليقاً على الروايتين السابقتين ما معناه أن محمداً أظهر لقومه أن القافلة لا يمكن إلحاقها إذ قد بعدت عنهم وأن قريشاً قادمون نحوهم ويأمرهم الله بالجهاد في سبيله ضد هؤلاء القوم الكافرين فما بلغهم ذلك حتى هلعت قلوبهم من شدة الخوف. وقال في غير موضع لما سمع قوم محمد بكثرة عدد قريش وقع الرعب في قلوبهم وصاحوا مولولين فأخذ محمد يشجعهم ويبث فيهم روح البسالة والإقدام مكرراً عليهم سورة القمر ٥٤: ٤٠ و٤٥ حيث يقول "أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ". وهذه على نحو ما يقول كل قائد لجنوده يوم يلتئم الجمعان وتحتدم نار الحرب إلا أن محمداً زاد عن القواد بأن عزا قوله إلى مصدر سماوي ليقوي رجاءهم فحاربوا بشجاعة ونالوا النصر وليس ذلك من النبوة في شيء كما رأيت.

ثم نتقدم إلى القسم الثاني من نبوات القرآن المزعومة وهي التي تتعلق بالقرآن نفسه. ظن قوم أن بقاء القرآن سالماً من التحريف

بالزيادة والنقصان كان تتميماً لقوله في سورة الحجر ١٥: ٩ "إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ". قال صاحب كتاب إظهار الحق أي حافظون له من الزيادة والحذف الخ بواسطة القراء. وقد تم ذلك، فإنه منذ تنزيله إلى عصرنا الحاضر لم يجترئ كافر من الكفرة الملحدين ولا مترف من القرامطة أن يمسه أقل مساس في المعنى أو اللفظ أو حركات الضبط. غير أن الذين فطنوا إلى ما قدمناه في الفصل الثالث من الجزء الثاني من هذا المؤلف يذكرون حكاية ما فعله عثمان ثالث الخلفاء الراشدين بالقرآن وكيف أنه أحرق جميع النسخ القديمة مما يدل بلا نزاع على وقوع اختلاف بين نسخ القرآن الأمر الذي لم يمكن إخفاؤه إلا بحرق القديم منها فكيف نضرب عن ذلك صفحاً ونقول أن القرآن باق على ما نزل؟ وعدا حادثة الحرق نقول إن كان القرآن باقياً على ما كان عليه حقيقة فماذا يكون ظنك حينئذ بالأحاديث الصحيحة الشاهدة بوقوع التغيير في نسخه من ذلك قول محمد رحمه الله أن فلاناً قد أذكرني كذا وكذا آية كنت أسقطتهن. ويروى "أنسيتهن". ومن الآيات الساقطة التي لم يتفق له من يذكره إياها، آية المتعة أسقطها علي وهذا ما حدا بعائشة أن تلومه وتقرعه على هذا الفعل الذميم فقالت أنه يجلد على القرآن وينهي عنه وقد بدله وحرفه، ومنها آية الرجم

وما كان يقرأه أبي بن كعب وفقد من القرآن المتداول اليوم وهو قوله اللهم إنا نستعينك ونستغفرك ونؤمن بك ونتوكل عليك الخ وعليه نقول إن كانت آية "إِنَّا نَحْنُ نَزَلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ" نبوة كما يزعمون، فهي نبوة لم يتبين صدقها فإذا القسم الأول والثاني من نبوات القرآن المدعى بها مما يختص بانتصارات محمد وببقاء القرآن على أصله دون تحريف لا ينطبق عليها حكم النبوات الصحيحة.

بقي علينا أن نتكلم عن القسم الثالث من النبوات المحكي عنها وهي التي تشير إلى انهزام الروم ثم غلبتهم وهي واقعة في أربع آيات وننقل لفظها هنا للتفكير "غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ" (سورة الروم ٣٠: ١-٥). زعم قوم من المفسرين أن هذه الآيات نبوة صريحة بالمستقبل دالة على صحة رسالة محمد وقالوا أن الآية الأولى منها تدل على انكسار الروم في سورية أمام الفرس في ملك خسروبرويز ولما بلغ خبر انتصار الفرس على الروم فرح المشركون وقالوا أنتم والنصارى أهل كتاب ونحن وفارس أميون، فقد ظهر إخواننا على إخوانكم فلنظهرن عليكم فعند ذلك نزلت الآية التالية وهم من بعد غلبهم

سيغلبون في بضع سنين وروي أن أبا بكر عقد مراهنة بينه وبين أبي بن خلف أن هذه الآية ستتم في ظرف ثلاث سنين لكنه لما علم من محمد أن كلمة بضع المشار إليها في الآية هي كناية عن عدد قليل يتراوح بين الثلاثة والتسعة بدّل الشروط المتفق عليها من حيث المدة وقالوا أن الروم غلبت بعد سبع سنين وربح أبو بكر المراهنة وقبض قيمتها من ورثة أبي الذي كانت أدركته الوفاة وقتئذ. هذا ما حكوه لتأييد نبوة القرآن المتعلقة بالروم وفارس والآن اسمح لي أيها القارئ العزيز أن نتبين صحة هذه الحكاية مع التسليم بأن الآية المشار إليها كتبت قبل واقعة الحرب وظهور النتيجة وأنها باقية على ما كانت عليه.

نعلم من التاريخ أن فارس هزمت الروم في أرض سورية في السنة السادسة قبل الهجرة الموافقة لسنة ٦١٥ ميلادية وإذ تمت هذه الحادثة وغلبت الروم في أدنى الأرض بلغ هذا الخبر إلى مكة في أيام قليلة. قال البيضاوي في تفسيره ما معناه أن تلك النبوة تمت يوم انتصر الروم على فارس وكان ذلك في يوم الحديبية. ونعلم أن معاهدة الحديبية تمت في ذي القعدة من السنة السادسة بعد الهجرة الموافقة لشهر مارس سنة ٦٢٨ ميلادية فإن صح تفسير البيضاوي وكانت غلبة الروم في السنة الثانية عشرة بعد انهزامهم خلافاً لما جاء في القرآن من

أن بين الحادثتين بضع سنين والبضع لا يزيد عن تسع وعليه فلم تتم النبوة، على أنه ليس من النوادر البالغة حد الإعجاز أن يخبر أحد أية الدولتين تحرز الغلبة فإن هذا يمكن معرفته بدون تكليف جبريل بأن يأتي بوحي من السماء بل يعرف ذلك بمضاهاة الدولة الواحدة بالأخرى. فمن كانت أكثر رجالاً وأوفى عدة وأعلى همة فهي الغالبة لا محالة حتى وإن غلبت في بادئ الأمر. لهذا لنا الحق أن ندعي بأن محمداً أنبأ بانتصار الروم أخيراً من تلقاء نفسه بمجرد رأيه الثاقب وذكاء فكره إسوة بكثيرين من ذوي الآراء الصائبة وقيل في الأمثال أن ظن العاقل أصح من يقين الجاهل. عدا ذلك نقول أنه من المحتمل أن يكون أبو بكر راهن صاحبه على انتصار الروم من قبل أن يشاور محمداً فإن صح هذا الاحتمال كان أبو بكر نبياً أيضاً كمحمد لأنه تأكد أن الروم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين حتى أنه عقد مراهنة على هذه النتيجة فتأمل! أما الحقيقة الناصعة فهي أنه لا قول أبي بكر ولا قول محمد من النبوة في شيء بل إنهما كرجلين مدربين بمرور السنين ومحنكين بمشاهدة الوقائع لاحظا أن دولة الفرس كثر فيها الاضطراب والهرج وأخذ منها الضعف والاختلال كل مأخذ بدليل تولية الملوك عليها وسقوطهم في زمن قصير. فإنه ما بين موت

أنوشروان سنة ٥٨٧ ميلادية وبين سقوط يزدجرد الثالث سنة ٦٤٢ ميلادية ملك على الفرس لا أقل من أربعة عشر ملكاً ومات أكثرهم قتلاً بعد تمليكهم بزمن قصير وحدث في السنين الخمس التي ما بين ملك خسروفرويز (سنة ٢٢٧ ميلادية) وبين تولية يزدجرد أنه قد ملك نحو أحد عشر ملكاً فكل من له مسة من العقل يحكم لأول وهلة أن دولة كهذه لا تقوى على الروم. فليس بعظيم على محمد أن يعرف هذه النتيجة الضرورية، على أن محمد لم يعين بالضبط عدد السنين التي تكون الغلبة من بعدها بل أتى بعدد مرن يتمدد وينكمش فقال بضع سنين محتاطاً لنفسه لئلا تمسك عليه غلطة ومع ذلك فأخطأ الحقيقة بالرغم عن احتياطه، ولو مددنا بضعاً إلى أقصى حدودها لأن الروم لم يغلبوا فارس قبل مرور عشرة سنين لا تسع بعد انهزامهم على أقل تقدير.

ومما يؤكد لنا أن محمداً كان عالماً بضعف الفرس من قبل أن يطلع على آية الروم بسنين كثيرة ما رواه ابن هشام في سيرة الرسول قال ما معناه عقد محمد ورؤساء قريش مؤتمراً في مكة قبل الهجرة واجتهد في أن يستميلهم إلى الإقرار بالكلمة الأولى من الشهادتين وترك الشرك واعداً إياهم بعلو المنزلة على العجم والعرب إلى أن قال

"يا عم كلمة واحدة تعظونيها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم".

ومع هذا كله فإن البيضاوي كفانا مؤونة هذا البحث وأراحنا من المناظرة فيما إذا كانت آية الروم نبوة كما زعموا أم لا، وذلك لأنه يروي لنا خبر اختلاف قراءة تلك الآية إذ يقرأها بعضهم هكذا غَلبت (مبنياً للمعلوم) عوض غُلبت (مبنياً للمجهول) وسيُغلبون (مبنياً للمجهول) عوض سيَغلبون (مبنياً للمعلوم). فتكون جملة الآية هكذا غَلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غَلبتهم سيُغلبون في بضع سنين. فإن صحت هذه القراءة بطلت دعوة الذين يدعون باشتمال هذه الآية على معجزة الإنباء بالمستقبل وكانت حكاية المراهنة التي زعموا أن أبا بكر عقدها مع أبي حديث خرافة لأن أبيا كان قد مات قبل انتصار المسلمين على الروم بل قبل انتصار الروم على الفرس بسنين كثيرة ومن هنا نعلم شطط الحديث ووهنه وهو عندهم مصادر الثقة. وقال البيضاوي في تفسيره آية الروم بحسب القراءة الثانية ما معناه أن الروم انتصروا على ريف الشام ثم أن بقية الآية تبشر بانتصار المسلمين عليهم في بضع سنين وبموجب هذا التفسير يلزم أن يكون الحديث الذي اثبتوا به نزول الآية المذكورة قبل تاريخ الهجرة بست سنين غير صحيح لأنها تكون قد نزلت بعد ذلك باثنتي عشرة سنة على الأقل

والحاصل أن الاستدلال على كون محمد رسول الله بإنبائه عن حادثة مستقبلة كما يزعمون استدلال باطل. أولاً لأن تاريخ نزول الآية المتضمنة الإنباء بالمستقبل غير معلوم بالضبط، ثانياً لأن قراءتها الصحيحة غير معلومة أيضاً، ثالثاً لا يمكن أن يتبين من معنى الآية المذكورة أن شيئاً من النبوة قد تم.

مما تقدم يظهر أن ما بناه المسلمون من إثبات رسالة نبيهم على براهين النبوات المزعومة في القرآن قد سقط من أصوله لدى الامتحان الدقيق ولما كانت الأشياء تعرف بأضدادها علينا أن نقارن بين نبوات القرآن المذكورة وبين نبوات الكتاب المقدس وما كان منها بخصوص المسيح في العهد القديم وما كان بخصوص اليهود في كلا العهدين أو تلك النبوات التي في سفر الرؤيا مثل ٩ و١٤: ٦.

ومن البراهين التي يقدمونها على كون القرآن موحى به من الله ما يدعونه من اشتماله على أخبار الأمم البائدة منذ قرون كثيرة. أما هذه الدعوى فلو صحت لكانت ذات أهمية عظمى في إثبات ما أرادوا أن يثبتوه فعلينا أن نعرضها على بساط البحث والتنقيب كتاجر حريص ينقد الدراهم التي يتعامل بها خشية من أن تكون مزيفة فيندم حيث لا ينفع الندم، أما الذهب النقي فيدفع به صاحبه إلى يد

الناقد غير هياب ولا وجل لأنه كيفما يمتحن يتزكى ويحمد حتى وإن طُرح في نار حامية. فهل يا ترى تحتمل أخبار القرآن التاريخية نار الامتحان كذهب خالص أو تحرق من قليل الشرر كهشيم العشب؟

ولنبدأ بحكاية عاد وثمود قبيلتين من العرب ذكرهما القرآن فنقول أننا نعلم بوجودهما من كاتبين من قدماء اليونان وهما بطليموس وديودورس سيسلوس وزاد القرآن عما ذكراه شيئاً يسيراً في قصة هاتين القبيلتين، وأن كثيرين من المكتشفين المحققين الذين نبغوا في العصر الحاضر أثبتوا باكتشافاتهم ما رواه الكتاب المقدس عن قدماء المصريين وبابل وأشور، أما عاد وثمود فلم يثبت أحد ما حكاه القرآن عنهما حتى ظن كثير من العلماء الباحثين أن محمداً نقل خبرهما من كتب الصابئين (١) التي دعاها في قرآنه صحف إبرهيم (سورة الأعلى ٨٧: ١٩). ويظهر أنه فيما بعد علم أن هذه الصحف مزورة فلم يعد يذكرها مدة أربع سنين بعد ادعائه الرسالة. أما من جهة هود وصالح وشعيب فمن المحتمل أن يكونوا مبشرين مسيحيين جاءوا بلاد العرب يكرزون لها بالإنجيل ومن المحتمل أن يكونوا غير ذلك حيث أنه لم يذكرهم أحد من المؤرخين ولا غيرهم سوى القرآن أما تاريخ الزمن الذي وجدوا

(١) انظر ملاحظة الكندي عن عاد وثمود في رسالته من طبعة لندن

فيه إن كانوا وجدوا حقيقة فغير معلوم. وقال بعض العلماء إذا كان القرآن لم يصب كبد الحقيقية في ما رواه عن الأشخاص المعلوم وجودهم من التاريخ قبل الإسلام بقرون فلنا حق أن نزعم أيضاً بأن ما رواه عن عاد وثمود وطسم وجديس وهود وصالح وشعيب الخ ليس بصحيح إلا إذا كان يُقام عليه الدليل. ومن أمثلة ما اخطأ القرآن في سرد أخباره إبراهيم فإنه يروى عنه كثيراً مما لا يوافق ما جاءت به التوراة التي يشهد لها أنها نزلت من عند الله مثل حكاية طرحه في النار وخروجه منها سالماً التي إنما هي خرافة يهودية أخذها عنهم بغير تحقق عن أصلها. قال صاحب مصادر الإسلام ما معناه منشأ أن هذه القصة هو اشتباه بعض المفسرين الجهلة بين لفظة أور بلغة البابليين القديمة التي معناها مدينة والتي في قوله تعالى خطاباً لإبراهيم "أَنَا الرَّبُّ الَّذِي أَخْرَجَكَ مِنْ أُورِ الْكِلْدَانِيِّينَ" (تك ١٥: ٧) وبين كلمة أور التي معناها نار في اللغة الكلدانية، فظن ذلك المفسر أن الرب أخرج إبراهيم من نار الكلدانيين لا من مدينتهم فاضطر حينئذ إلى تمهيد الخبر بتلك القصة السخيفة ووردت كلمة أور بمعنى مدينة في قوله أورشليم أي مدينة شليم وأخطأ القرآن في تسمية أبي إبراهيم آزر (سورة الأنعام ٦: ٧٤) وهو تارح (تك ١١: ٢٦) ثم قال في سورة الأعراف ما معناه أن الله

أرسل الطوفان على المصريين في عصر موسى وذكر الطوفان محلى بال التعريف في هذا الموضع يحملنا على الظن بأنه عنى طوفان نوح الذي ذكر في السورة عينها (انظر آية ١٣٢ و٦٣). ومن خطئه الفاضح أن التبست عليه مريم ابنة عمران (سورة آل عمران ٣: ٣٣-٤٤) وأخت هارون (سورة مريم ١٩: ٢٩ مع خر ١٥: ٢٠ وعد ٢٦: ٥٩) بمريم أم المسيح (انظر سورة التحريم ٦٦: ١٢) وبين الأولى والثانية زهاء ألف وأربعمائة سنة. قال الإمام مسلم في صحيحه ما معناه أن نصارى نجران انتقدوا على القرآن هذه الغلطة التاريخية أمام المغيرة فتشاور مع محمد بهذا الصدد ولكنه لم يقف منه على جواب شاف ومن وقتها إلى الآن انقضت ألف وثلاثمائة سنة على القرآن وهو يدرس ويشرح إلا أن أحداً من العلماء لم يوفق أن يزكيه بإزاء هذا الشطط التاريخي الصريح.

وجاء في سورة الكهف ١٨: ٦٤-٩٩ سيرة ذي القرنين. قال البيضاوي وابن هشام أنه اسكندر الكبير المكدوني وهذه عبارة البيضاوي حرفياً وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ (يعني اسكندر الرومي ملك فارس والروم وقيل المشرق والمغرب ولذلك سمي ذا القرنين أو لأنه طاف قرني الدنيا شرقها وغربها وقيل لأنه انقرض في أيامه قرنان من الناس وقيل كان له قرنان أي ضفيرتين وقيل كان لتاجه قرنان ويحتمل أنه

لقب بذلك لشجاعته كما يقال الكبش للشجاع كأنه ينطح أقرانه واختلف في نبوته مع الاتفاق على إيمانه وصلاحه).

إن كان اسكندر عمر جيلين كما زعم البيضاوي فما كان أقصر أعمار أهل زمانه إذ أنه توفي ابن ثلاث وثلاثين سنة على أثر ارتكابه فسقاً بسكر في مدينة بابل سنة ٣٢٣ ميلادية ولم يكن نبياً كما زعم القرآن ولا مؤمناً من عامة المؤمنين، إنما كان من عباد الأصنام وادعى أنه ابن إله المصريين أمون. وأما حكاية أنه بلغ مغرب الشمس ووجدها تغرب في عين حمئة أو حامية حسب قراءة بعضهم فمن مختلق الحديث (سورة الكهف ١٨: ٨٧) لأن الشمس لا تدور حول الأرض بل الأرض تدور حولها كما هو معلوم وكذلك لا صحة لما رواه القرآن عن السد الذي بناه من زبر الحديد والقطر (النحاس) بين جبلين مأهول أحدهما بأمة صالحة والآخر بأمة متوحشة (سورة الكهف ١٨: ٩٥). ومع ذلك يجزم البيضاوي مع رفقائه المفسرين إن ذا القرنين ما هو إلا اسكندر المكدوني المعروف ولعل الذي حملهم على ذلك التأكيد ما ورد في نبوة دانيال ٨: ٣ و٤ من سيرة الكبش ذي القرنين الذي كان ينطح غرباً وشمالاً وجنوباً ولم يقف أمامه أحد فظنوا أنه رمز إلى اسكندر وسموه ذا القرنين، والحقيقة بخلاف ذلك لأن

الإصحاح نفسه يبين أن ذلك الكبش يرمز به لا إلى اسكندر بل إلى اتحاد مملكتي مادي وفارس وعلى ذلك قوله "أَمَّا الْكَبْشُ الَّذِي رَأَيْتَهُ ذَا الْقَرْنَيْنِ فَهُوَ مُلُوكُ مَادِي وَفَارِسَ" (دا ٨: ٢٠). وأما اسكندر فمرموز إليه في الإصحاح عينه بتيس ذي قرن واحد بين عينيه وصرح بأنه غلب الكبش أي مملكة مادي وفارس وعلى ذلك قوله: "رَأَيْتُ الْكَبْشَ يَنْطَحُ غَرْباً وَشِمَالاً وَجَنُوباً فَلَمْ يَقِفْ حَيَوَانٌ قُدَّامَهُ وَلاَ مُنْقِذٌ مِنْ يَدِهِ، وَفَعَلَ كَمَرْضَاتِهِ وَعَظُمَ. وَبَيْنَمَا كُنْتُ مُتَأَمِّلاً إِذَا بِتَيْسٍ مِنَ الْمَعْزِ جَاءَ مِنَ الْمَغْرِبِ عَلَى وَجْهِ كُلِّ الأَرْضِ وَلَمْ يَمَسَّ الأَرْضَ، وَلِلتَّيْسِ قَرْنٌ مُعْتَبَرٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ. وَجَاءَ إِلَى الْكَبْشِ صَاحِبِ الْقَرْنَيْنِ الَّذِي رَأَيْتُهُ وَاقِفاً عِنْدَ النَّهْرِ وَرَكَضَ إِلَيْهِ بِشِدَّةِ قُوَّتِهِ. وَرَأَيْتُهُ قَدْ وَصَلَ إِلَى جَانِبِ الْكَبْشِ فَاسْتَشَاطَ عَلَيْهِ وَضَرَبَ الْكَبْشَ وَكَسَرَ قَرْنَيْهِ. وَالتَّيْسُ الثاني مَلِكُ الْيُونَانِ، وَالْقَرْنُ الْعَظِيمُ الَّذِي بَيْنَ عَيْنَيْهِ هُوَ الْمَلِكُ الأَوَّلُ (دا ٨: ٤-٧ و٢١). ومما مهد الأسباب لعلماء المسلمين أن يعتبروا ذلك الكبش رمزاً إلى اسكندر هو أن كلمة الكبش تطلق في العربية على سيد القوم والحاصل أن كل ما قاله القرآن عن ذي القرنين الذي يعني به اسكندر المكدوني لا أثر له في تاريخ الملك العظيم الذي دونه كثير من

مشاهير المؤرخين وهذا ما حدا بالعلماء أن لا يثقوا بالأخبار التاريخية المنقولة عن القرآن.

ومن خطإه في التاريخ أنه أخبر بأن المرأة التي تبنت موسى هي امرأة فرعون (سورة القصص ٢٨: ٩) بينما موسى نفسه وهو أعلم بمن ربّته من محمد قال أنها ابنة فرعون لا امرأته (انظر خر ٢: ٥-١٠). وجاء ذكر هامان مقترناً بفرعون في مواضع جمة من القرآن كخادمه ووزيره والحقيقة لم يكن لأحدهما أقل علاقة بالآخر فإننا نعلم من سفر أستير أن هامان كان حبيباً وخليلاً لأحشويرش ملك فارس الذي يدعوه اليونان زركسيس وعاش في بلاد فارس لا في مصر بعد فرعون موسى بمئات من السنين. ومن غلطاته أنه قال أن فرعون أمر هامان أن يبني له صرحاً يمس السموات كما في سورة غافر وهذا خطأ وصوابه أن هذا البرج أو الصرح لم يبن في مصر بل في بابل من قبل فرعون بقرون كثيرة (انظر تك ١١: ١-٩).

وجاء في سورة (طه ٢٠: ٧٨ و٩٦) أن العجل الذي عبده بنو إسرائيل في البرية في وقت موسى قد عمله لهم السامري وهذا خطأ فاضح لأن مدينة السامرة المنسوب إليها هذا الرجل لم تكن بعد في الوجود وقد بنيت بعد موسى بمئات من السنين (انظر ١ مل ١٦: ٢٤)

ولعله التبس على كاتب هذه السورة العجل الذي عبده بنو إسرائيل في البرية بالعجلين الآخرين اللذين عبدوهما بعد زمن داود وسليمان (١ مل ١٢: ٢٨) حتى أن هذين العجلين كانا قبل أن تبنى مدينة السامرة ولما بنيت السامرة كانت عاصمة للمملكة السامرة وهذه الحقيقة هي التي بنيت عليها هذه القصة.

وجاء في سورة البقرة ٢: ٢٥٠-٢٥٢ حكاية داود مع جليات الجبار مشوشة بحكاية فرقة جدعون التي امتحنها بالشرب من النهر عندما حارب المديانيين وبين الحكايتين زمن مديد. وفي سورة الكهف ١٨: ٨-٢٦ وردت قصة أهل الكهف وهي حكاية مكذوبة صنفها أصحاب البدع من طوائف النصارى وخلاصتها أن سبعة شبان مسيحيين هربوا من اضطهاد أحد قياصرة الروم المدعو دقيانوس واختبئوا في مغارة فرقدوا نحو ٣٠٠ سنة ولما استيقظوا وجدوا كل شيء قد تغير وكان الإمبراطور حينئذ ثيودوسيوس وهو رجل مسيحي فاندهشوا غاية الاندهاش إذ بين ليلة وضحاها انقلبت الأحوال رأساً على عقب. وقد وردت هذه القصة في كتاب لاتيني اسمه مجد الشهداء تأليف غريغوريوس، كما أثبت ذلك صاحب كتاب مصادر الإسلام وظن بعضهم أن كاتب هذه القصة لم يكتبها كواقعة حال بل تخيلها كرواية

ليعظ بها قومه ويريهم قدرة الله عل كل شيء، وأما اليوم فلا يصدقها أحد من النصارى وتستعمل في أوروبا لتسلية الأولاد الصغار.

وأظن أنه لا حاجة بنا إلى المزيد من سرد الغلطات التاريخية الواردة في القرآن اكتفاء بما سردناه ولعل في هذا القدر كفاية لصرف إخواننا المسلمين عن الاحتجاج بمضامين القرآن التاريخية على صحة نسبته إلى الله وصدق رسالة محمد.

وزعم بعضهم أن من البراهين الدالة على كون القرآن كتاب الله خلوه كما يتراءى لهم من التناقض والاختلاف كأنهم يقولون أن كتاباً كبير الحجم كهذا لا يمكن أن يكون من عند الله إن وجدوا فيه اختلافاً كثيراً. وهذه أيضاً دعوى باطلة لأننا نرى فيه اختلافاً كثيراً بعضه قليل الأهمية وبعضه جوهري فالأول كالاختلاف الواقع بين عددي ١٣ و ١٤ وبين عددي ٣٩ و ٤٠ من سورة الواقعة وما قاله البيضاوي ونقله الزمخشري من الحديث لتسوية الاختلاف المذكور لم يكن قولاً سديداً ولكننا نسلم أن هذا شيء زهيد بجانب ما سنذكره لك من المسائل الخطيرة.

جاء في سورة النساء ٤: ٤٧ أن الله لا يغفر خطية الشرك ويغفر ما دون ذلك والشرك هو اتخاذ آلهة مع الله أو دونه إلا أنه

ورد في سورة الأنعام ٦: ٧٦-٧٨ أن إبراهيم اتخذ الشمس والقمر والنجوم آلهة دون الله وهذا شرك بين في حين أن إخواننا المسلمين يعتبرونه نبياً عظيماً من أولي العزم ويعتبرون أن جماعة الأنبياء معصومون.

ويحرم القرآن النفاق في جملة مواضع منها (سورة البقرة ٢: ٧٦ والسناء ٤: ١٣٨ والتوبة ٩: ٦٥-٦٩ والمجادلة ٥٨: ١٤) ويجعل مثواهم في الدرك الأسفل من النار (سورة النساء ٤: ١٤٤) ومما لا ينكره أحد من ذوي العقول السليمة أنه إذا أسلم أحد مكرهاً بقوة السيف لا يكون إسلامه من قلبه بل من شفتيه ومتى خالف ظاهر الإنسان باطنه كان منافقاً ولا يخفى ما فرضه القرآن على المسلمين من نشر دينهم بقوة السيف إلى أن يدين بالإسلام كل العالم ولا تكون في الأرض فتنة ويكون الدين كله لله. ففي مثل هذه الظروف يتخير الرجل الملزم بالإسلام كرهاً خصلة من خصلتين أما الموت الزؤام أو كلمة يقولها وينجو بحياته فيقولها نفاقاً ورياء وهذا من أردأ أنواع الاختلاف، يحرم الشيء لقبحه فإذا كان فيه مغنم حلله وحث عليه. نعم قد أضاف القرآن خصلة ثالثة لأهل الكتاب وهي دفع الجزية وهم صاغرون إن لم يرغبوا في الإسلام ولا في القتال (سورة التوبة ٩: ٣٠ وسورة المائدة ٥: ٤٤ وسورة الصف ٦١: ١١ وسورة الحج ٢٢: ٧٨) إلا أن دفع الجزية ضرب

من الإكراه وقد أسلم من أهل الكتاب خلق كثير تخلصاً من الجزية وما بلغت إليه من المغارم الفادحة في عهد الحكام الظالمين رافعين شكواهم إلى رب العالمين.

يحرم القرآن إلى حد معلوم خطيئة الهوى وعلى ذلك قول "وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى" (سورة النازعات ٧٩: ٤٠ و٤١) فنقض ذلك بإباحة تعدد الزوجات بالإضافة إلى ما كان مملوكاً من السراري (سورة النساء ٤: ٢٣) وأباح لمحمد من هذه الحيثية أكثر من سائر المسلمين بل أباح له ما هو محظور عليهم فمن ذلك قوله "وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لاَ يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً" وقوله "مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً وقوله يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاَتِكِ اللاَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً

مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْ لاَ يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ ولاَ يَحْزَنَّ" (سورة الأحزاب ٣٣: ٣٧ و٣٨ و٥٠ و٥١).

ونعلم من الحديث الصحيح أن محمداً منح له أن يتمتع بالنساء أكثر من سائر المسلمين لرجحانه عليهم في الهوى والصبابة إليهن وزد على ذلك أن الجنة التي وعد بها في دار البقاء والخلود هي تلذذ غير محدود بحور عين حتى وإن كان أحد غير مستعبد للهوى فما دام مسلماً لا مناص له من هذه الجنة (سورة الرحمن ٥٥: ٤٦-٧٨ وسورة الواقعة ٥٦: ١١-٣٩ وانظر كتاب مشكاة المصابيح في صفة الجنة). فالقرآن من هذه الحيثية أردأ من أن يخالف بعضه بعضاً على أنه من الاختلاف أيضاً غير معصوم فكيف يكون هوى النفس محرماً في الدنيا وهو في الجنة مباح؟

والخمر محرم على المسلم هنا على الأرض كما جاء في سورة المائدة ٥: ٩٣ "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَا لْمَيْسِرُ وَا لْأَنْصَابُ وَا لْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" (قابل أيضاً سورة

البقرة ٢: ٢١٦) ولكن في الجنة للمؤمنين أنهار من خمر كما ورد في سورة محمد ٤٧: ١٦ "مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ" (قابل سورة الدهر ٧٦: ٥ وسورة المطففين ٨٣: ٢٥).

وأقوال القرآن عن المسيح يسوع لا تخلو من التناقض، فبعض الآيات تتكلم عنه كمجرد إنسان ونبي كسائر الأنبياء وتنكر لاهوته بتاتاً كما ورد في سورة المائدة ٥: ١٩ "لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً" وراجع آية ١١٣ و١١٤ من السورة وكذلك آل عمران ٣: ٤٩ وقيل أيضاً في سورة الزخرف ٤٣: ٥٩ "إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ". ثم توجد بعض الآيات الأخرى التي تعطي له أعظم الألقاب التي لم تعط فيه لغيره البتة منها كلمة الله سورة النساء ٤: ١٦٩ وهذا اللقب لا يصح أن يُسمى به أي مخلوق كان، ويذكر له وحده معجزة الولادة من العذراء (سورة الأنبياء ٢١: ٩١) وإنه وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ (سورة آل عمران ٣: ٤٥) ويقول البيضاوي الوجاهة في الدنيا النبوة وفي الآخرة الشفاعة. وفي سورة المائدة ٣: ٣٦

قيل "وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ". وجاء في الحديث تفسيراً لهذه الآية كما أخرجه مسلم والبخاري والغزالي وغيرهم كل ابن آدم عند ولادته ينخسه الشيطان بإصبعيه في جنبيه إلا عيسى بن مريم ذهب ليطعن فطعن في الحجاب (راجع مشكاة المصابيح الكتاب الأول الباب الثالث) ويشهد القرآن لمعجزات المسيح (سورة البقرة ٢: ٢٥٤) وأنه خلق طيراً من الطين مع أن قوة الخلق هي من صفات الله وحده وهو الفريد من بين الأنبياء أولي العزم الذي لا يذكر له القرآن خطية. ولا نجد فيه عن أي نبي آخر أن ولادته كانت بقوة الروح القدس "وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ" (سورة الأنبياء ٢١: ٩١) وأنه آية للعالمين (كما مر) وأنه روح من الله (سورة النساء ٤: ١٦٩) وكل الأنبياء أموات ما عدا يسوع كما يقول القرآن إن الله رفعه إليه (سورة النساء ٤: ١٦٩) وهو حي في السماء. ويوافق المسلمون المسيحيين في الاعتقاد أن المسيح سيرجع في انتهاء العالم لم يكن يلزم للمسيح أن يشرح صدره ويوضع عنه وزره كما قيل عن محمد في سورة الانشراح والقول بمغفرة خطاياه يناقض ما جاء في سورة محمد ٤٧: ١٩ "وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ" ولا تصل عليه أمته ولا تسلم كما أمر محمد (مشكاة المصابيح وجه ٨٦)

من المعلوم أن لا نبي يحتاج لشفاعة أمته وصلواتها إلا هو.

ففي كل هذه النقط يتفق المسلمون مع المسيحيين على الفرق الموجود بين المسيح وأي نبي أو إنسان آخر. والقرآن لا يعطي محمداً المقام الذي يعطيه ليسوع ولا شك أن غرض القرآن هو استبدال المسيح بمحمد كرأس الجنس البشري. وهذا الأمر عجيب جداً ومتناقض حيث أن القرآن لا يسند لمحمد ولادة بمعجزة ولا يقول بعصمته ولا ينسب له القدرة على المعجزات ولا حتى صفات حميدة شريفة كما سنظهره في آخر هذا الفصل وما يليه.

ومن أهم تعاليم القرآن أن القدر هو سبب سعادة أو شقاء الإنسان في الآخرة، كما جاء في سورة الإسراء ١٧: ١٣ و١٤ "وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبا" وفي سورة إبراهيم ١٤: ٤ "فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ" وورد نفس القول في سورة المدثر آية ٣٤ ثم معناه في سورة البقرة آية ٥ و٦ والنساء آية ٩ والأنعام ١٢٥ والأعراف ١٧٧ و١٧٨ الخ. ثم نجد في سورة الأعراف ٧: ١٧٨ "وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ" وفي سورة هود ١١: ١٢٠ "ولَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ" (راجع

سورة السجدة ٣٢: ١٣) وإن ذلك كان غرض الله تعالى من الخلق مع أنه في أماكن أخرى نجد أن الناس سيجزون حسناً في العالم الآتي إذا كانوا مسلمين ويعاقبون إذا لم يكونوا كذلك. فإذا كان كل عمل قد قدر على الإنسان من قبل والإنسان ليس له حرية إرادة فينتج أن الإنسان لا يكون له استحقاق أو عدم استحقاق ولا يكون صالحاً أو طالحاً وليس له ثواب أو عقاب فإن الثواب والعقاب عبارة عن جزاء خير أو شر. ولا تكون للأوامر والنواهي الإلهية فائدة حيث أن لا توجد في الإنسان مقدرة على الطاعة أو عدمها لأن القدر سجل كل شيء من ذي قبل. ولكن القرآن يحتوي على أوامر ونواهي ويصرح أنها أنزلت من العليم ففي بعض الأماكن يخبر القرآن محمداً أن مساعيه لإهداء الناس عبث لأن الله نفسه جعل من المستحيل عليهم الإيمان كما ورد مثلاً في سورة البقرة ٢: ٥ و٦ "إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ" . ثم نراه مأموراً أن يسعى في هديهم لا بالعنف بل باللطف كما جاء في سورة البقرة ٢: ٢٥٧"لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ" وفي سورة النور ٢٤: ٥٤"قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ

وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ" وفي سورة الغاشية ٨٨: ٢١ و٢٢ "فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمسَيْطِرٍ".

ولكن في مكان آخر نجد تعليماً مناقضاً تماماً لهذا التعليم فكل واحد يعرف أن المسمى نبي السيف ادعى أن الله أمره أن ينشر الإسلام بالقوة كما ورد في سورة البقرة ٢: ٨٦-٨٩ و٢١٢ وسورة النساء ٤: ٧٦ و٩١ وسورة الأنفال ٨: ٤٠ وسورة الفتح ٤٨: ١٦ وسورة التحريم ٦٦: ٩ فنجد من المناقضات شيئاً كثيراً. ولا فائدة من القول أن الآيات المتأخرة نسخت الآيات الأولى كما ورد في سورة البقرة ٢: ١٠٠ "مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا" وأيضاً سورة النحل ١٦: ١٠١ "وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ". إن هذه إنما أتى بها لكي تبعد عن الأذهان تناقض القرآن لذاته، ولنا مثال حسن عن ذلك إذا قابلنا البقرة ٢: ٦٢ مع سورة آل عمران ٣: ٨٥ ففي الأول نرى أن المسلمين واليهود والمسيحيين والصابئين خالصون في قوله "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ" وفي الثانية

نرى أن المسلمين وحدهم لهم الخلاص إذ قال "وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ". ومن السهل علينا أن نظهر مناقضات أخرى في القرآن حيث أن علماء المسلمين أنفسهم يصرحون أن في القرآن لا أقل من مائتين وخمسة وعشرين آية منسوخة. وكثير من هذه الآيات المنسوخة هي خاصة بالعدل والأمور المباحة في الدين ونرى الله الغير المتغير يأمر بعد ذلك المسلمين بالجهاد والحرب واضطهاد الناس رغماً عن إرادتهم (البقرة ٢: ٢١٧ و٢١٨ وسورة التوبة ٩: ٦ و٢٩).

ويوجد نوع مهم آخر من التناقض في القرآن يجب على المسلمين ملاحظته وهو يختص بما في القرآن عن التوراة والإنجيل. رأينا آنفاً أن القرآن يصرح أنه انزل مصدقاً لسائر الكتب وليحفظها من التغيير والتبديل ولكنه في أمور كثيرة يناقضهما معاً. ومن هذه المناقضات التامة تعاليم جوهرية في الإنجيل مثلاً موت المسيح على الصليب إتماماً للنبوات وكفارته عن خطايا العالم كله ولاهوته وقيامته وأنه وحده القادر على تخليص أنفس العالم. وواضح أنه لا يمكن للغير المتغير أن ينزل وحياً يخالف قصده الأزلي وطريقه المعين للخلاص ومواعيده وشريعته الأدبية وتعاليمه الإلهية. وعدا ذلك فإن دعوى

القرآن إنه وحي جديد ودعوى محمد أنه نبي برسالة جديدة تخالفان تعاليم العهد الجديد كما يتضح ذلك من قول الرب يسوع المسيح "اَلسَّمَاءُ وَالْأَرْضُ تَزُولاَنِ وَل كِنَّ كَلاَمِي لاَ يَزُولُ" (مت ٢٤: ٣٥) وقابل (مرقس ٨: ٣١ ولوقا ٢١: ٣٣ ويوحنا ١٢: ٤٨) ويقول بولس الرسول"وَلكِنْ إِنْ بَشَّرْنَاكُمْ نَحْنُ أَوْ مَلاَكٌ مِنَ السَّمَاءِ بِغَيْرِ مَا بَشَّرْنَاكُمْ، فَلْيَكُنْ أَنَاثِيمَا . كَمَا سَبَقْنَا فَقُلْنَا أَقُولُ الآنَ أَيْضاً: إِنْ كَانَ أَحَدٌ يُبَشِّرُكُمْ بِغَيْرِ مَا قَبِلْتُمْ، فَلْيَكُنْ أَنَاثِيمَا" (غل ١: ٨ و٩) إذاً فلا محل لأي وحي جديد ينزله جبرائيل أو غيره سواء كان إنساناً أو ملاكاً. ففي هذا الأمر يناقض القرآن نفسه فهو أولاً يشهد بصحة الكتاب وتصديقه له ثم يعلم تعاليم تخالف تعاليمه الجوهرية.

وفي أمور ثانوية أخرى كثيرة يناقض القرآن أيضاً نفسه باختلافه عن الكتاب المقدس الذي جاء مصدقاً له، ففي سورة مريم ١٩: ٢٣ يقول أن المسيح وُلد تحت نخلة مع أن الكتاب المقدس يقول أنه وُلد في خان ووُضع في مذود (لوقا ٢). ويقول القرآن أنه تكلم وهو في المهد (سورة آل عمران ٣: ٤١ وسورة المائدة ٥: ١٠٩ وسورة مريم ١٩: ٣١) وإنه لما كان صبياً خلق من الطين طيراً (سورة آل عمران ٣: ٤٣ وسورة المائدة ٥: ١١٠). لا ننكر أن هذه معجزات ولكن

الإنجيل يصرح أن أول معجزة صنعها كانت في بدء خدمته العلنية في الثلاثين من عمره (لوقا ٣: ٢٣ ويوحنا ٢: ١١). وكذلك في الواجبات الأدبية يخالف القرآن الإنجيل فإن المسيح علم أن يحب الناس أعداءهم ومحمد علمهم أن يجاهدوا في سبيل الله، قال المسيح في القيامة لا يزوجون ولا يتزوجون (بشارة متى ٢٢: ٣٠ ومرقس ١٢: ٢٥ ولوقا ٢٠: ٣٥) غير أن القرآن يعلم أنه سيكون في الجنة للمسلمين ما لا يحد من الملاهي والملذات الشهوانية.

ومن المحال رفض هذه الحجج بدعوى أن الكتب المقدسة التي بأيدي اليهود والنصارى محرفة إذ قد فندنا هذا الزعم تماماً في أول هذا الكتاب. كان الأمر سهلاً لو كانت هذه الدعوى من كتاب لا يزعم أنه منزل من الله كما يقول القرآن وكل واحد يصادق على أن ذلك مؤلف لكتاب متأخر يمكن أن ينخدع سيما متى كان ملقنوه جهلة اعتمدوا على خرافات شائعة وليس على الكتاب المتقدم نفسه. ولكنا لا نرغب أن نستنتج مثل هذا الاستنتاج عن القرآن نفسه بل نفضل أن نترك الأمر لإخواننا المسلمين ليحكموا لأنفسهم، ولا شك أن القارئ العزيز قد رأى أن القرآن ليس فيه حجة وافية على وحيه.

إذا كان القرآن من الله تعالى فلا بد أن تعاليمه تكون في كل

شيء أرقى وأشرف وارفع عن ما جاء في الإنجيل، كما أن الإنجيل في أمور خاصة أرفع وأرقى من التوراة ولكن ليس الحال كذلك لأن الإنجيل لا يعد المؤمنين في الدار الأخرى بأكل وشرب وأمور عالمية بل بأفراح روحية كسلام القلب والطهارة ومحبة الله وخدمته. فالإنجيل يعلمنا أن المؤمنين الحقيقيين بالمسيح الذين يثبتون في محبتهم وطاعتهم لله ويكونون أمناء حتى الموت يدخلون إلى المنازل المقدسة التي أعدها لهم يسوع المسيح ويسكنون دائماً وأبداً في الحضرة الإلهية "وَعَبِيدُهُ يَخْدِمُونَهُ. وَهُمْ سَيَنْظُرُونَ وَجْهَهُ وَاسْمُهُ عَلَى جِبَاهِهِمْ" (رؤيا ٢٢: ٣ و٤). وينهي الإنجيل عن استعمال القوة في الأمور الدينية ويترك للإنسان حرية تامة لقبول أو رفض الحق. إذا أراد أحد أن يؤمن بالمسيح فالروح القدس يساعده ويمكنه من قبول ولادة روحية جديدة ويهبه الهدى والخلاص. والذين يرفضون المسيح ليسوا بملزمين بالإيمان به ولكنهم يحكمون على أنفسهم بالدينونة (يوحنا ٣: ١٨-٢١). وعلاوة على ذلك فالإنجيل خلافاً للقرآن يمنح راحة القلب والثقة بنوال السلام مع الله للذين يأتون إليه بواسطة يسوع المسيح، وكل مسيحي حقيقي يعرف ذلك من اختباره ولكن بحسب القرآن يبقى الإنسان طول حياته بين الشك واليقين فيما إذا كان من السيئ

لحظ الذين حكم الله عليهم بالهلاك وخلقهم للهلاك.

البشارة (الإنجيل) معناها أخبار مفرحة وهذا هو القصد منها إذ يعلن أن الله لم يخلق نفساً للهلاك بل بالعكس "يُرِيدُ أَنَّ جَمِيعَ النَّاسِ يَخْلُصُونَ وَإِلَى مَعْرِفَةِ الْحَقِّ يُقْبِلُونَ" (١ تي ٢: ٤) ولكي تنال الناس هذه النعمة أرسل ابنه الوحيد إلى العالم كي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية (انظر يوحنا ٣: ١٦) فالإنجيل يعلم بوضوح أن لا يهلك أحد إلا الذين يرفضون محبة الله ورحمته المقدمة في شخص يسوع ولا يؤمنون به ولا يعترفون بدعواه ولا يقبلونه مخلصهم وشفيعهم الوحيد عند الله فيفضلون الظلام على النور لأن أعمالهم شريرة ولا يقبلون محبة الحق كي ينالوا الخلاص.

وإذا كان القرآن هو آخر وأتم وحي للإنسان فلا بد أن يبين لنا أكثر من الإنجيل وأحسن منه عن قداسة الله وعدله ورحمته وعن طاعة تامة لشرائع الله ويظهر نجاسة الخطية روحياً وطريق الخلاص والحاجة إلى قداسة روحية وعن محبة الله لنا وعن ضرورة محبتنا له وواجبنا نحو الله ونحو الإنسان ولزوم طهارة القلب ويصور لنا الجنة صورة أشرف وأطهر مما جاء بها العهد الجديد. فالذين قرأوا

القرآن والكتاب المقدس يحكمون لأنفسهم إذا كان القرآن حقاً فاق على الإنجيل في ذلك أم لا.

إذا فحصنا محتويات القرآن لنعرف إذا كان من الله أم لا، يعترضنا هذا السؤال كيف نعرف ماهية القرآن وحقيقته إذا لم يكن من الله؟ يوجد جواب تام لهذا في مصادر الإسلام. يؤكد العلماء أن كثيراً من الحكايات القرآنية ومن الفروض والطقوس الإسلامية مأخوذة من الأديان الأخرى والكتاب المذكور يقدم البراهين على ذلك، فالقارئ العالم يجد فيه أجزاء من الكتب الفارسية والهندية وقدماء المصريين وغيرهم من الأمم السالفة وأن مؤلف مصادر الإسلام يؤكد أن هذه الأجزاء المدرجة بالقرآن هي في أغلب الأحيان مأخوذة منها ويقدم البراهين أيضاً على أنه توجد غير تلك أشياء أخرى كثيرة هي خرافات كانت شائعة بين جهلاء اليهود والنصارى في وقت محمد لا أثر لها في الكتاب المقدس.

وعلاوة على كل ذلك فمن يفحص كتاب سيرة ابن هشام يرى أن زيداً بن عمرو بن نوفل قبل محمد علم بما يأتي (١) التوحيد (٢) رفض عبادة اللات والعزي وبقية الأصنام التي يعبدها العرب (٣) السعادة في الجنة (٤) تحذير الأشرار بعقاب النار (٥) إعلان غضب الله على

الكافرين (٦) ذكر هذه الأسماء لله: رب والرحمن والغفور (٧) منع دفن البنات أحياء. وقال أيضاً مع الحنفاء أننا نبحث عن ملة إبراهيم ومحمد نفسه صرح أنه يدعو الناس إلى ملة إبراهيم. والقرآن في مواضع كثيرة يدعو إبراهيم حنيفاً (سورة آل عمران ٣: ٨٩ وسورة النساء ٤: ١٢٤ وسورة الأنعام ٦: ١٦٢) وفي الجزء الثالث من كتاب الأغاني وجه ١٥ أن محمداً قابل زيداً بن عمرو وتحادث معه قبل ادعائه النبوة.

ومؤلف مصادر الإسلام يؤيد قوله بأن قصة المعراج الواردة في سورة الإسراء وفي الأحاديث هي على نفس حكاية الشاب الزردشتي التقي الوارد في كتاب فارسي يُسمى ارتأي ثيراف نامك وفيه أن ذلك الشاب صعد إلى النجوم وعند رجوعه قال ما زعم أنه رآه، وأن المؤرخ العربي أبا الفدا في كتابه التواريخ القديمة من المختصر - في أخبار البشر يذكر فروضاً أدخلت إلى الإسلام وأمر بها القرآن والحديث فيقول كان العرب في الجاهلية يفعلون أموراً قد اتخذها الإسلام ودونها في شريعته ويذكر أبو الفداء عوائد قد أدخلت إلى الإسلام من وثني العرب في الجاهلية منها منع التزوج بالأمهات والبنات والجمع بين الأختين والحج للكعبة ولبس الإحرام

والطواف والسعي ورمي الجمار كالوضوء والغسل وفرق الشعر وتقليم الأظافر الخ. وقال أن وثني العرب كانوا يختتنون ويقطعون يد السارق، لا شك أن البعض يقولون مع ابن إسحاق (جزء ١ وجه ٢٧) إن هذه العوائد كانت من أيام إبراهيم. هذا صحيح عن الختان ولكن ليس صحيحاً عن العوائد الأخرى المشار إليها سابقاً ولا يعقل أن الله بإعطائه وحياً جديداً لأمة يأمرهم باستعمال الفرائض التي يقيمونها قبلاً وأيضاً هذا لا يوافق المعتقد أن القرآن كان مكتوباً على اللوح المحفوظ في السماء منذ أجيال قبل أن تكون العرب.

يقول المسلمون أن القرآن يعلم شيئاً كثيراً عن علم الله وعن الآداب وعن الحكم بالعدل وعن الحياة الآتية فلذا هو من الله. نقول لا شك أنه كذلك ولكن هذه الحجة تكون قوية إذا كان القرآن يفوق الكتاب المقدس في سمو تعاليمه عن هذه الأمور ولكن حيث قد رأينا أن صفات الله وذاته في القرآن ليست بأتم منها في الإنجيل، بل والحق يقال أن قول القرآن عن عزم الله ليملأ جهنم بالأنس والجن (سورة هود ١١: ١٢٠ وسورة السجدة ٣٢: ١٣) وسماحه تعالى لمحمد بالتلذذ بالنساء أكثر من سائر المسلمين وأمره بالجهاد لانتشار الإسلام وغير ذلك من أمور مهمة تبرهن أن تعاليم القرآن أدنى بكثير من

شريعة موسى. فالعهد القديم لم يصرح بتعدد الزوجات عموماً (مع أنه سمح لليهود به ضمناً وقتاً من الزمن) فوحدة الزوجة هي شريعة الله للإنسان كما هو ظاهر في (تك ٢: ١٨-٢٤) وأوضحه المسيح في (مت ١٩: ٣-٩ ومر ١٠: ٢-١٢) وشدد عليه رسله كما في (١ تي ٣: ٢ (١٢ و١ كو ٧: ٢) بل حرم المسيح شهوة العين على هذه الأرض كما جاء في (مت ٥: ٢٨). ولكن القرآن يجعل المسلم يؤمل بشهوات جسدية لا حد لها في الجنة أمام وجه الله سبحانه وتعالى وهذا التعليم لا ينتج طهارة قلبية هنا على الأرض. أما عن الحكم بالعدل فيحسن بنا أن نسأل هل وجد حاكم عادل في البلاد الإسلامية في أي زمن في التاريخ الماضي والحاضر؟

لا ننكر أن القرآن يخبرنا شيئاً كثيراً عن العالم الآتي وخصوصاً عن عذاب الجحيم وملذات النعيم وليس لنا أن نبحث في الأول منها هنا فقط نذكر إخواننا المسلمين بشيئين عن الجحيم الأول في سورة مريم ١٩: ٧١ قوله "وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيّاً" وقد سعى المفسرون جهدهم في تأويل هذه الآية . الأمر الثاني هو الحديث القائل أن أمة واحدة من الطوائف الإسلامية هي التي ستخلص. من هذين الدليلين نرى خوف المسلمين

من الموت ومن يوم الدينونة يظلل حياتهم كلها. أما المسيحي الحقيقي فينتظر بفرح يوم القيامة والمسلم يخاف منه.

ولا يجمل بنا أن نمر على أمر الملذات الموعود بها المؤمن في الجنة بدون أن نقدم بعض الملاحظات. فنجد لها وصفاً كاملاً في (سورة البقرة ٢: ٢٣ وسورة النساء ٤: ٦٠ وسورة الرعد ١٣: ٣٥ وسورة يس ٣٦: ٥٥: ٥٨ وسورة الصافات ٣٧: ٣٩-٤٧ وسورة محمد ٤٧: ١٦ و١٧ وسورة الرحمن٥٥: ٤٦-٧٨ وسورة الواقعة ٥٦: ١١-٣٧ وسورة الدهر ٧٦: ٥ و١١-٢٢ وسورة المرسلات ٧٧: ٣١-٣٦ وسورة المطففين ٨٣: ٢٢-٢٨) وحباً في الاختصار أوردنا هنا بعضها:

"مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفّىً وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ"(سورة محمد ٤٧: ١٦ و١٧).

"وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ يَطُوفُ عَلَيْهِمَ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ لاَ يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلاَ يُنْزَفُونَ وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ وَحُورٌ عِينٌ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ.

لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلاَ تَأْثِيماً إِلاَّ قِيلَ سَلاَماً سَلاَماً وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ وَظِلٍّ مَمْدُودٍ وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ لاَ مَقْطُوعَةٍ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً عُرُباً أَتْرَابا" (سورة الواقعة ٥٦: ١٠-٣٩).

وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لاَ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلاَ زَمْهَرِيراً وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلاَلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا قَوَارِيرَا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلاً عَيْناً فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً" (سورة الإنسان ٧٦: ١٢-٢١).

"وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ فَبِأَيِّ آلاَءِ

رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَانٌّ فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلاَّ الْإِحْسَانُ فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ مُدْهَامَّتَانِ فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَانٌّ فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلاَلِ وَالْإِكْرَامِ" (سورة الرحمن ٥٥: ٤٦-٧٨).

وفي الحديث كثير جداً من ذلك في البخاري ومشكاة المصابيح وعين الحياة بعنوان وصف الجنة وأهلها ولكنا نكتفي بإيراد جزء قليل مما جاء في أحياء العلوم للغزالي.

"سئل رسول الله عن قوله ومساكن طيبة في جنات عدن قال قصور من لؤلؤ في كل قصر سبعون داراً من ياقوت أحمر في كل دار سبعون بيتاً من زمرد أخضر في كل بيت سرير، على السرير سبعون فراشاً من كل لون على كل فراش زوجة من الحور العين

في كل بيت سبعون مائدة على كل مائدة سبعون لوناً من الطعام في كل بيت سبعون وصيفة ويعطى المؤمن في كل غداة يعني من القوة على جميع ذلك" ثم قال أن الرجل من أهل الجنة ليتزوج خمسمائة حوراء وأربعة آلاف بكر وثمانية آلاف ثيب الخ الخ (الأحياء).

وعندما تدرس كل ذلك ترى أنه بحسب القرآن والحديث سعادة المسلم الآتية هي لبس الحرير والاتكاء على أرائك من استبرق والأكل من كل فاكهة زوجان وارتشاف خمر لذة للشاربين والتلذذ بحور العين وقاصرات الطرف. مثل تلك الجنة مأدبة ملأنه بكل ما تريده نفس الإنسان الشهوانية ولا محل فيها للقدسين والطاهرين من الرجال والنساء، يهرب منها الطاهرون كما هربوا على الأرض من النهم والخمور والفجور. مثل هذه الجنة لا يصح أن الله القدوس الذي تبغض ذاته كل خطية وإثم يعدها للمؤمنين. كيف أن الروح البشرية التي خلقت لمعرفة وخدمة الله التي تطلب سعادة روحية في محبة خالقها والقرب منه تفرح وتسر بمثل هذه الأمور الدنيوية؟ وحتى هنا على الأرض يرى المتهتكون أن هذه الملذات الشهوانية تنتج شقاء لا سعادة، فوصف الجنة في القرآن يدل على أنه لا يمكن أن يكون من الله. إن للمفسر محيي الدين لما رأى ذلك سعى أن يؤوله إلى معنى روحي

فقال تفسيراً لسورة الواقعة ٥٦: ١٨ أكواب وأباريق - من خمور الإرادة والمعرفة والمحبة والعشق والذوق ومياه الحلم والعلوم الخ ولكن معظم المسلمين إن لم يكون كلهم اعتبروه هرطوقياً وقالوا بحق أن القرآن والحديث معناهما حرفي.

وفي بحثنا في محتويات القرآن يجب أن لا نغفل عن لفت نظر القارئ إلى أنه لا يسد عوز واشتياق البشر روحياً الذي هو من أهم أمور الوحي للإنسان، فإن الله وضع في قلب الإنسان ذلك الاشتياق حتى لا يجد راحة إلا مع الله. يقول بعض كتبة المسلمين أن القرآن يخيف الناس ويجعلهم يبكون كما جاء في حديث النجاشي ملك الحبشة (مع العلم أنه يجهل العربية) أنه بكى عند سماعه بعض القرآن. وبفرض صحة ذلك لا يمكنهم البتة القول بأن القرآن يمنح سلاماً للقلب كما منح المسيح المؤمنين به في كل الأجيال ولا يزال يمنح (يو ١٤: ٢٧)، بل بالعكس توجد فيه آيات مثل قوله وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيّاً مع الاعتقاد بالقدر تجعل كل مسلم عاقل يقضي حياته في فزع دائم من الموت، ولا يعلن القرآن الله تعالى للإنسان كي يعرفه وهذا واضح من كتابة المسلمين بعدم إمكانية معرفة الله حتى في الكتب المقصود بها التعليم والإرشاد فواضح أنه حيث لم يرشد

القرآن إلى معرفة تامة عن الله وأن محمداً نفسه صرح بأن معرفته عن الله ليست كما يجب فالإسلام في هذا الأمر المهم جداً لا يسد احتياج الإنسان.

والقرآن لا يعلم أن طهارة القلب ضرورية قبل الاقتراب من الله، بل بالعكس كما رأينا يحتوي القرآن على عبارات مضادة لإمكانية طهارة قلب الإنسان ويظهر منها أن الله لا يعمل بحسب قداسته وعدله ورحمته ومحبته. ولا يظهر القرآن كيف ينال الإنسان مغفرة خطاياه ويحسب باراً أمام الله. صحيح أنه توجد فيه فروض لها جزاء ولكن لا مفر من القدر في القرآن والقدر هو الحكم في مستقبل الإنسان هناء أو شقاء، ولا توجد كفارة فيه ولا يعين كيف يكسر الإنسان قيود الخطية وهو عبدها.

يقول بعض المسلمين أن محمداً سيشفع لشعبه في يوم الدين ويقول آخرون أنه الآن وهو ميت له نفوذ عند الله، ولكن كل ذلك مخالف تماماً للكتاب المقدس الذي يدعي القرآن بتصديقه. فمن (يو ١٤: ٦ وأع ٤: ١٢ و١ تي ٢: ٥ و٦) يتضح أنه لا يوجد شفيع أو وسيط غير يسوع، بل ولا يوجد في القرآن نفسه عبارة تثبت وساطة محمد بين الله والإنسان، لا حاجة لنا للحديث في هذا

الموضوع فإن المأمور في القرآن بالاستغفار لذنوبه لا يمكنه أن يكون وسيطاً لدى الله. نعم إن الإنسان الذي أخطأ وتاب يمكنه الصلاة لله لمغفرة ذنوب الآخرين كما لذنوب نفسه ولكن هذا أمر آخر. القرآن والحديث يصرحان أن نبي العرب يستغفر لذنوبه وذنوب أمته ففي سورة غافر ٤٠: ٥٥ "فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ". وفي سورة النساء ٤: ١٠٦ "وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيما". وهاتان الآيتان تشابهان الآيات الواردة في القرآن أن الله وعده أن يغفر ذنوبه كما في سورة الفتح ٤٨: ١ و٢ "إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبيناً لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ". ويقول ابن عباس ما معناه ذنوبه قبل النبوة وذنوبه إلى يوم موته وقال الزمخشري في كشافه يريد جميع ما فرط منك ما تقدم في الجاهلية وما بعدها وقيل ما تقدم من حديث مارية وما تأخر من امرأة زيد. وعلى الفرض أن القرآن قد نزل من الله تعالى نرى هنا أمراً مهماً عن محمد فإن كلمة ذنب المستعملة لمحمد في القرآن ليست أقل من خطية ففي سورة الرحمن ٥٥: ٣٩ كلمة ذنب مستعملة للأنس والجان وفي سورة القصص ٢٨: ٧٨ نرى كلمة ذنب مساوية لكلمة جرم ونرى كلمة ذنب مستعملة أيضاً للكذب والافتراء والشهوة وعدم الإيمان ولأمور

أخرى كثيرة من أكبر الخطايا كما في سورة يوسف ١٢: ٢٩ وسورة الملك ٦٧: ١١ وسورة الشمس ٩١: ١٤ وغير ذلك. وفي سورة محمد ٤٧: ١٩ نراه يخاطب محمداً قائلاً "وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ". فهنا نرى كلمة ذنب خاصة به دون تابعيه من المؤمنين والمؤمنات كما فسرها بعضهم اعتسافاً. وفي سورة الشرح ٩٤: ١-٣ "أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ". فهل يمكن أن يخطئ جميع هذه الآيات الواضحة؟ حقاً إن الكمال لله وحده.

والحديث يوافق القرآن في هذا الأمر سواء كان في كتب السنة أو الشيعة ولنأخذ قليلاً من الأمثال المؤيدة ذلك. روى أحمد والترمذي وابن ماجة كما في مشكاة المصابيح عن فاطمة أن محمداً كان يقول عند دخوله المسجد رب اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك وعند خروجه رب اغفر لي ذنبي وافتح لي أبواب نعمتك وعن عائشة اللهم اغفر لي وارحمني والحقني بالرفيق الأعلى الجامع الصغير وعنها اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك. وعن أبي موسى اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري وما أنت أعلم به مني. اللهم اغفر لي خطأي وعمدي وهزلي وجدي وكل ذلك

عندي اللهم اغفر لي ما أسررت وما أعلنت أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت عل كل شيء قدير. وروى البيهقي عن عائشة في كتاب الدعوة الكبرى إنها سألت النبي قائلة ألا يدخل أحد الجنة إلا برحمة الله فقال لا يدخلها أحد إلا برحمته تعالى. وقالت ولا أنت قال ولا أنا إلا إن تغمدني الله برحمته وكرر ذلك ثلاثا. وروى الإمام جعفر أن محمداً بات ليلة عند أم سلمة وبينما كان يصلي بكى وقال اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين ولا تنزع مني صالح ما أعطيتني قالت أم سلمة لقد غفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر فسألته لماذا تقول هذا فقال لها يا أم سلمة كيف أكون آمناً من نفسي وقد ترك الله يونس لنفسه طرفة عين ففعل ما فعل. وقال محمد الباقر أن محمداً بات ليلة عند عائشة وصرف وقتاً طويلاً في الصلاة فقالت له لماذا تتعب نفسك وقد غفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال يا عائشة ألا أكون عبداً شكوراً وروى أنه في نهاية خطابه يوماً لتابعيه قال اللهم اغفر لي ولأمتي وخاطبهم إني أسأل الله المغفرة لنفسي ولكم. ويوجد غير ما تقدم أحاديث كثيرة سنية وشيعية ولكن ما ذكر فيه الكفاية.

وهذه الأحاديث تبين لنا في بحثنا عن محمد وتؤكد أنه كان كبقية أبناء البشر يشعر بضرورة رحمة الله ومغفرته والقرآن يشير إلى

خطايا أنبياء العهد القديم فلآدم (البقرة ٢: ٣٣ و٣٤ وطه ٢٠: ١١٩) ولنوح (نوح ٧١: ١٩) ولإبراهيم (الأنعام والبقرة) وموسى (الأعراف والشعراء والقصص) وهارون ويوسف (يوسف) ويونس (يونس) ولا شك أنهم تابوا كما يذكر الكتاب المقدس. فنرى في المزمور الحادي والخمسين صلاة داود التي قدمها في توبته. وكل خاطئ يحتاج للتوبة ويطلب المغفرة من الله وطلب المغفرة إقرار بالذنب. كل إنسان بشري يمكنه استعمال الصلوات التي قدمها محمد وذكرها آنفاً، وعليه فلا يمكن لمن يحتاج إلى التوبة أو لمن احتاجها ولو مرة واحدة أن يكفر عن خطايا غيره. والقرآن يقول أنه لا ينفع إنسان آخر في يوم القيامة ورد في سورة البقرة ٢: ٤٨ "وَاتَّقُوا يَوْماً لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ" ومكررة في آية ١٢٣. وأيضاً في سورة الانفطار ٨٢: ١٩ "يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ". وحيث تبرهن أن محمداً لا يمكنه تخليص أمته فلذلك هم يحتاجون لمخلص. والقرآن لا يعلن مخلصاً ولا شفاعة فلذلك هو لا يسد احتياجات الإنسان. فالقرآن لا يتمم الشروط التي رأيناها في المقدمة لصحة الوحي الحقيقي، فهو في ذلك على عكس الإنجيل تماماً كما بينا

في القسم الثاني من هذا الكتاب، المسيح حي ومحمد ميت(١) والمسيح ليس إنساناً كاملاً بدون خطية فقط بل كلمة الله "يَقْدِرُ أَنْ يُخَلِّصَ أَيْضاً إِلَى التَّمَامِ الَّذِينَ يَتَقَدَّمُونَ بِهِ إِلَى اللّهِ، إِذْ هُوَ حَيٌّ فِي كُلِّ حِينٍ لِيَشْفَعَ فِيهِمْ" (عب ٧: ٢٥).

ولا تنس أن الغرض هنا ليس الجدل بل طلب الحق، ولا ينفعنا التعصب فلننبذه بنعمة الله وقد أجهد المؤلف نفسه في كلامه عن محتويات القرآن أن لا يحيد عن قانون الأدب والأمانة واللطف وسوف يسير على مبدئه هذا في ما يلي من الفصول أيضاً.

الفصل الخامس

بحث في المعجزات المنسوبة لمحمد وهل هي برهان على نبوته

ليس من الضروري لإثبات نبوة شخص أن يعمل معجزات، فأنبياء كثيرون لم تكن لهم معجزات وأناس آخرون لم تكن لهم الرسالة الإلهية وأتوا بما يشبه المعجزات. ففي عصر موسى مثلاً فعل سحرة مصر أعمالاً ظهرت كأنها عجائب مثل أعمال موسى (خر ٧: ١٠-١٣ و٢٢ و٨: ٧ و١٨) وعلاوة على ذلك أخبرنا الكتاب عن أنبياء كذبة

سـيفعلون معجـزات (مـر ١٣: ٢٢ ومـت ٢٤: ٢٤ ورؤ ١٦: ١٣ و١٤ و١٩: ٢٠) وخصوصاً عن الذي سيأتي المسمى عند المسلمين بالدجال. قليل من الأنبياء الحقيقيين من صنع المعجزات، وفي العهد القديم لم يعمل أحد معجزات حتى أيام موسى وحيث لم يكن موسى نبياً عظيماً فقط بل مشترعاً ومرسلاً بوحي جديد لذلك أعطيت له قوة على عمل المعجزات المذكورة في التوراة، وكان ذلك ضرورياً له ليثبت دعواه أنه أتى برسالة من الله وإنه يتكلم بسلطان من الله وإنه يعلن وحياً إلهياً. وهذه القوة على عمل المعجزات أعطيت لإيليا وأليشع أيضاً لأنهما عاشا في وقت كاد الدين يمحى فيه وكان عليهم أن يردوا الشعب إلى الله ولكن لم يخبرنا الكتاب إن داود أو إرميا أو غيرهما من الأنبياء الكبار كانت لهم قوة المعجزات. فيوحنا المعمدان الذي كان أعظم نبي إلى وقته (مت ١١: ١١ ولوقا ٧: ٢٨) قال عنه اليهود بحق "يُوحَنَّا لَمْ يَفْعَلْ آيَةً وَاحِدَةً" (يو ١٠: ٤١). يتضح أنه في وقت الاحتياج الشديد أو عند إعلان وحي جديد كان الله يعطي قوة المعجزات دليلاً على الرسالة.

فإذا كانت دعوى محمد صحيحة ثابتة بأنه خاتم الأنبياء وآخر وأعظم المرسلين الذي أرسل للعرب الذين لم يقم منهم قبلاً نبي الخ، والذي

قال إنه أتى بأعظم رسالة إلهية وبوحي أعظم من سابقيه وأن القرآن أملاه عليه جبريل الذي أنزله في ليلة القدر من السماء السابعة حيث كان مكتوباً على اللوح المحفوظ وأعلن أيضاً أن رسالته عامة لجميع الناس ولا تخلفها رسالة أخرى لأنه خاتم المرسلين كان من الضروري أن يعمل معجزات ليبرهن هذه الدعوى وإلا لم تثبت دعواه. وحيث أنه لم يتنبأ كما بينا سابقاً فيجب علينا البحث في معجزاته.

أما القرآن فيجيبنا جواباً صريحاً حاسماً أنه لم يعمل معجزة البتة. وهذا وارد في كثير من الآيات منها "وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِا لْآيَاتِ إِلاَّ أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَلُونَ" (سورة الإسراء ١٧: ٥٩)، وقد فسرها البيضاوي بقوله وما صرفناه عن إرسال الآيات التي اقترحها قريش (إلا أن كذب بها الأولون) إلا تكذيب الأولين الذين هم أمثالهم في الطبع كعاد وثمود وأنها لو أرسلت لكذبوها تكذيب أولئك واستوجبوا الاستئصال على ما قضت به سنتنا وقد قضينا أن لا نستأصلهم لأن فيهم من يؤمن أو يلد من يؤمن. ويذكر ابن عباس مثل ذلك المعنى. ولا شك في معناها فهي واضحة بأن الله لم يعط محمداً قوة المعجزات التي طلبها منه قريش لأنه علم أنهم سيرفضونه حتى ولو صحت دعواه.

وتوجد آيات أخرى غير هذه فيها هذا المعنى في سورة البقرة

٢: ١١٢ و١١٣ "وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِم مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً" . ويقول البيضاوي أن قريشاً هم الذين طلبوا منه الآيات، فبدلاً من الآيات (المعجزات) التي طلبوها قدم لهم آيات (أعداد) من القرآن كدليل على رسالته. ومما يُظهر أن الآيات هنا معناها أعداد من القرآن ما جاء في سورة البقرة ٢: ١٤٦ "كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا" فهذه الآيات ليست معجزات كما يدعي البعض بل هي أعداد من القرآن وإلا فما هو معنى الفعل يتلو؟ وفي سورة البقرة ٢: ٢٥٣ "تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ" وفي سورة البقرة ٢: ٩٣ "وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ". فالفعل أنزلنا يبين أن الآيات إنما هي أعداد قرآنية وهي التي يتكلم عنها القرآن دائماً بقوله أنزلنا كما في سورة الأعراف ٧: ٢٠٢). ومن معنى الآية" وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ" (سورة الأنعام ٦: ١٢٤) نرى أن قريشاً طلبت بدلاً من الآيات القرآنية معجزات كالتي عملها رسل الله وقد طلبوا منه ذلك في سورة الأنعام ٦: ٣٧ وسورة يونس ١٠: ٢١ وسورة الرعد ١٣: ٢٩ وأيضاً في سورة

الأنعام ٦: ١٠٩ "وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّها إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ". وهذا يصرح أن محمداً لم يعط قوة المعجزات، ونوع الآية التي طلبتها قريش واضحة في سورة الرعد ١٣: ٣٣ "وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً". والبيضاوي في تفسيره لهذه الآية يظهر طلب قريش الذي لأجله نزلت هذه الآية وفي سورة الإسراء ١٧: ٩٢-٩٥ نرى ما يشابه ذلك "وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلاَلَهَا تَفْجِيراً أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلاَئِكَةِ قَبِيلاً أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَراً رَسُولاً".

ومن هذه العبارة يتضح أن قريشاً لم ترض بالقرآن كدليل على إرسالية محمد فطلبوا منه عمل المعجزات المذكورة، فجاوبهم محمد بأنه بشر ولا يمكنه عمل مثل هذه المعجزات. وعليه لا يمكن التعويل على قصة المعراج وتدفق المياه من الأرض أو من بين أصابعه (ما سنرويه بعد) لأنها لو كانت حقيقة تاريخية لما جاوبهم بمثل ذلك بل كان بالحري

يثبت لهم قدرته على فعل المعجزات. وفي سورة العنكبوت نراهم أيضاً يطلبون نفس الطلب وكان الجواب الرفض كالأول، "وَقَالُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ" (سورة العنكبوت ٢٩: ٥٠ و٥١).

فيتضح من هذه العبارات أن القرآن يصرح بعدم إتيان محمد بالمعجزات بل قال إن الآيات القرآنية هي دليل كاف على إرساليته ونبوته (كما في سورة الإسراء) وقد رأينا في الباب الثالث والفصل الثالث من هذا الكتاب أن البلاغة والفصاحة لا تكفيان لأن تكونا حجة على إنزال كتاب من الله.

غير أن بعض المسلمين يقولون أن في القرآن نفسه توجد معجزتان لمحمد أولهما انشقاق القمر في سورة القمر ٥٤: ١ يقول "اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ" ولكن هذا القول لا يثبت أنها معجزة أتاها محمد لأسباب عديدة منها:

(١) إذا كان المقصود منها معجزة فهي تناقض ما جاء في سورة الإسراء والمسلمون يقولون بعدم تناقض القرآن لنفسه،

(٢) إن محمداً لم يذكر هنا أو في أي محل آخر من القرآن أن له

علاقة بهذه المسألة، ولا يدعوها القرآن معجزة ولا يقول أن انشقاق القمر دليل على إرسالية محمد، ولو كان القرآن قصد أن محمداً عمل مثل هذه المعجزة الباهرة لصرح بذلك كما صرح العهد القديم والعهد الجديد عن معجزات موسى والمسيح وتلامذته بكل وضوح،

(٣) إذا كان محمد أتى بهذه المعجزة شق القمر لكان يجيب بها طلبات قريش الواردة في سورة الرعد والإسراء وغيرهما مع العلم أن جميع المفسرين متفقون على أن سورة القمر نزلت قبل هاتين السورتين،

(٤) إن تلفاً أو ضرراً يعمل بإحدى مخلوقات الله كالقمر يكون علامة على قوة عظيمة ولكنه لا يثبت إن عاملها مرسل من الله،

(٥) لو كان قد حصل أمراً مثل ذلك يختص بالطبيعة لكان قد علم في جميع الأرض وسجل في تواريخ أمم كثيرة كحادثة خارقة للعادة ومدهشة، والذين لهم معرفة ببعض علم الفلك ومقدار حجم القمر وماذا ينتج لو انشق إلى اثنين وانفلتا على الأرض لا يصدقون ذلك،

(٦) ولا يوجد تاريخ يذكر مثل هذه الحادثة ولا حتى ظهور انشقاقه بل وبعض أكابر المفسرين ينكرون الزعم بأن سورة القمر تشير إلى مثل ذلك فمنها قول البيضاوي والزمخشري قيل معناه

سينشق يوم القيامة فلو كان الأمر صحيحاً لما كان للشك مجال ولا قيل ولا قال أو لو كانت الأحاديث القائلة أن محمداً ظهر لأهل مكة انشقاق القمر إلى قسمين أو إلى فلقتين فلقة ذهبت وفلقة بقيت كما قال ابن عباس أو كما قال ابن مسعود رأيت حراء بين فلقتي القمر (الزمخشري) أو كما قال آخرون فلقة صارت دون الجبل والأخرى فوقه وعلى هامش المشكاة اجتهد الشارح على الهامش في أن يبين كيف لم ير الناس الحادثة فقال كان بالليل وقت نيام الناس في لحظة فلا يلزم شعور الناس في جميع الآفاق بذلك حتى يجب اشتهاره بين جميع الأمم التي كان القمر طالعاً عليهم في ذلك الوقت،

(٧) كلمة الساعة معرفة بال لها معنى خاص في القرآن كما في سورة طه وسورة الحج وسورة الشورى وفي مشكاة المصابيح باب إشراط الساعة وهو يوم القيامة كما يقول البيضاوي فواضح أن يوم القيامة لم يكن قريباً عندما كتبت سورة القمر لأنها كتبت قبل الهجرة بزمن طويل وحيث أنهم يقولون أن انشقاق القمر علامة من علامات الساعة وقريب منها فيكون المعنى عندما تقوم الساعة ينشق القمر. ومعلوم أنه يمكن في العربية استعمال الأفعال الماضية بمعنى المستقبل, وقد رأينا أنه حتى في وقت البيضاوي فسر بعضهم الآية

بهذا المعنى وها نحن اليوم بعد ذلك بمئات من السنين ولم تأت الساعة فلا شك إذا أن المقصود بانشقاق القمر أنه سيكون حين قيام الساعة وابن عباس يقول أن انشقاق القمر وظهور الدجال علامات أخر تحصل قبل يوم القيامة.

ومن كل ما مضى نرى أن القرآن لم ينسب لمحمد عمل هذه المعجزة فلا يصح إذاً أن نقتبس هذه الآية دليلاً على ذلك وكذلك لا يمكن التمسك بمعجزة لم تحدث إلى الآن دليلاً على نبوة محمد.

وقد جاء في المعلقات السبع لامرء القيس قصيدة فيها ست فقرات واردة في القرآن في سورة القمر إحداها دنت الساعة وانشق القمر وقد مات هذا سنة ٥٤٠ م أي قبل ولادة محمد فتأمل!

والمعجزة الثانية التي ينسبها البعض لمحمد هي حادثة غزوة بدر مع أن البعض يقولون بل كانت في غزوة حنين وآخرون أحد وآخرون خيبر وقد جاءت في سورة الأنفال ٨: ١٧"وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى".

وقال البيضاوي لما طلعت قريش أتاه جبرائيل وقال خذ قبضة من تراب فارمهم بها فلما التقى الجمعان تناول كفاً من الحصاء فرمى بها وجوههم وقال شاهت الوجوه فلم يبق مشرك إلا شغل بعينيه فانهزموا

وردفهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم ثم لما انصرفوا أقبلوا على التفاخر فيقول الرجل قتلت وأسرت فنزلت (وما رميت) يا محمد رمياً توصلها إلى أعينهم ولم تقدر عليه (إذ رميت) أي أتيت بصورة الرمي (ولكن الله رمى)، أتى بما هو غاية الرمي فأوصلها إلى أعينهم جميعاً حتى انهزموا. وقيل ما معناه ما رميت بالرعب إذ رميت بالحصباء ولكن الله رمى بالرعب في قلوبهم وقيل إنه نزل في طعنة طعن (محمد) بها أبي بن خلف يوم أحد ولم يخرج منه دم فجعل يخور حتى مات أو رمية سهم رماه (محمد) يوم خيبر نحو الحصن فأصاب لبابة بن أبي الحقيق على فراشه (وهو زوج صفية التي تزوجها محمد بعد مقتل زوجها بقليل) والجمهور على الأول.

ومن هذا الشرح يتضح أنه لا يعرف يقينا عما إذا كانت هذه العبارة تشير إلى بدر أو أحد أو خيبر أو إلى الحصباء التي رماها محمد بل ربما إلى طعنة طعنها أو سهم رماه. وعلى كل حال لا تثبت أنها معجزة عملها محمد، بل بالعكس تظهر الآية أن محمداً لم يقدر على رمي الحصباء في أعين أعدائه أو على قتل أحد فإن الفاعل بالحقيقة لم يكن محمد بل الله. فإذا سلمنا أن الآية تشير إلى بدر فليس من الغريب أن يفعل مثل ذلك قائد لكي يشجع جنوده ويثبط أعداءه فإذا كانت

النتيجة الفوز لا يتصور أحد بشيء خارق في المسألة، ولا يمكن أن تكون طعنة إنسان معجزة إذا كانت هي المشار إليها.

وعدا هاتين الآيتين يزعم بعض المسلمين وجود آيات بينات في أماكن أخرى من القرآن تنسب لمحمد عمل المعجزات. فإذا كان ذلك صحيح نستغرب جداً كيف لم يصف القرآن معجزة واحدة منها مع أنه يخبر نوعاً من المعجزات التي فعلها يسوع (سورة آل عمران ٣: ٤٣) فلنفحص تلك العبارات ونرى إذا كانت تشير إلى آيات بينات أتى بها محمد.

ففي سورة (الصف ٦١: ٦) "فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ" وهذا أما يشير إلى الوعد بمجيء شخص يُدعى أحمد ولا وعد مثل ذلك في الإنجيل وأما أن يشير إلى المسيح المذكور في الآية نفسها والبيضاوي يؤيد هذا الرأي الأخير بقوله فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ الإشارة إلى ما جاء به أو إليه وتسميته سحراً للمبالغة ويؤيده قراءة حمزة والكسائي هذا ساحر على أن الإشارة إلى عيسى عليه السلام. فإذا صح تفسير البيضاوي فلا دليل في العبارة لإتيان محمد بمعجزة، أو بعبارة أخرى نرى أن آيات بينات الواردة هنا أو في أي مكان آخر تشير إلى آيات قرآنية كما بينا سالفاً ليس إلا.

وإذا قال أحد أن قوله سحر مبين أو ساحر يؤيد علم أشياء خارقة للطبيعة ولا يمكن أن تشير إلى الفصاحة نجيبه من القرآن نفسه ففي سورة ص ٣٨: ٤ "وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ" وفي سورة الزخرف ٤٣: ٣٠" وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ". قال البيضاوي سموا القرآن سحراً وفي سورة الأحقاف ٤٦: ٦ "وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ". فنرى في هذه الآية نفس ما رأينا في سابقتها والبيضاوي يقول أن المراد بالحق الآيات (الأعداد).

ويحتج كثير من المسلمين بأن في الأحاديث معجزات كثيرة منسوبة لمحمد وإننا لا ننكر ذلك كما سترى ولكن علينا أن نفحص صحة الأحاديث الدالة على هذا الأمر قبل أن نقبلها كبرهان أو دليل فنلاحظ أولاً أن القرآن لم يذكر معجزة لمحمد بل وبين سبب عدم إعطائه قوة المعجزات. فكل مفكر سواء من المسلمين أو المسيحيين يرى أن الآية القرآنية أهم بكثير من عدة أحاديث ثم أنه من السهل جداً أن نفهم لماذا في الأزمنة المتأخرة وضعت أحاديث تنسب المعجزات لمحمد ومحال أن نتصور أن الآيات القرآنية غيرت أو بدلت

لإنكار معجزاته إن كان عمل معجزات. ثانياً نرى الذين جمعوا الأحاديث لم تكن لهم معرفة ذاتية عن الحوادث التي جمعوها فكلهم عاشوا بعد محمد بكثير من السنين فكان تعويلهم على أقوال متداولة وقالوا أنها مسندة بأسانيد موثوق بها. ويرى القارئ في كشف الظنون الجزء الثاني وجه ٣٤-٣٧ أن جامعي كتب الصحاح الستة ماتوا بحسب ما يأتي:

البخاري سنة ٢٥٦ هـ ومسلم ٢٦١ هـ والترمذي ٢٧٩ هـ وأبو داود ٢٧٥ هـ والنسائي ٣٠٣ هـ وابن ماجة ٢٧٣ هـ أما كتب الشيعة فبعد ذلك أيضاً الكافي سنة ٣٢٩ هـ وما لا يستحضره الفقيه ٣٨١ هـ والتهذيب ٤٦٦ هـ والاستبصار ٤٠٦هـ ونهج البلاغة ٤٠٦ هـ. وأن اختلاف أهل الشيعة وأهل السنة في الأحاديث مع اتفاقهم في القرآن يدل على عدم الثقة بالأحاديث سيما ما خالف منها نص القرآن. وأكثر الأحاديث ثقة هو حديث البخاري في صحيحه ويليه مسلم والترمذي، ولكي يظهر للقارئ الكريم كثرة الأحاديث المكذوبة في أيام البخاري نفسه وكم من الموضوعات كانت شائعة إذ ذاك يكفي أن نذكر أن البخاري نفسه يقول أنه جمع ١٠٠٠٠٠ حديث ظنه صحيح و ٢٠٠٠٠٠ لم يثق بصحته وبعد الفحص والتنقيب حكم بصحة ٧٢٧٥ حديثاً ولما

حذف منها المكرر بقي ٤٠٠٠ فقط، وحتى ما بقي ليس كله صحيحاً فكثير منها ما يناقض الواحد الآخر كما في هذه المسألة عن معجزات محمد. وجمع أبو داود ٥٠٠٠٠٠ حديثاً وقبل منها ٤٠٠٠ فقط.

فعلينا أن نقدم من تلك المعجزات المزعومة لتعرف طبيعتها:

(١) بعث النبي رهطاً إلى أبي رافع فدخل عليه عبد الله بن عتيك بيته ليلاً وهو نائم فقتله فقال عبد الله بن عتيك فوضعت السيف في بطنه حتى أخذ في ظهره فعرفت أني قتلته فجعلت أفتح الأبواب حتى انتهيت إلى درجة فوضعت رجلي فوقعت في ليلة مقمرة (١) فانكسرت ساقي فعصبتها بعمامة فانطلقت إلى أصحابي فانتهيت إلى النبي فحدثته فقال ابسط رجلك فمسحها فكأن لم أشتكيها قط (رواه البخاري). وسنرى في الفصل التالي ماذا تبين لنا هذه القصة عن أخلاق محمد. ولكننا نكتفي هنا بملاحظة أن حكاية قتل أبي رافع حكاها ابن هشام في سيرة الرسول وابن الأثير وكاتب روضة الصفا وفي كل مخالفة للأخرى فالواحد يقول أن ساقه الذي كسر والآخر ذراعه وغيره بل صدره رض فقط. وبعضها كما في

(١) يقول في مشكاة المصابيح في هامشها سبب الوقوع اشتباه الدرج لضوء القمر

ابن هشام وابن الأثير لا يذكر أن شفاؤه معجزة ينسبها لمحمد ولكن كلهم يتفقون أن قتل الرجل وهو نائم كان بأمر محمد. فلو كان محمد عمل معجزة في هذه الظروف لكنا وقعنا في مشكلة أدبية أشد وأصعب إذ هل يصح أن نقول أن معجزة إلهية تصنع لخير قاتل مثل عبد الله بن عتيك؟

(٢) توجد أخبار متناقضة مختلفة عن الماء الذي أنبعه محمد لتابعيه العطشى ونجد في مشكاة المصابيح عدداً وافياً منها وسنقدم لك نوعاً عن جابر قال عطش الناس في يوم الحديبية ورسول الله بين يديه ركوة فتوضأ منها ثم أقبل الناس نحوه قالوا ليس عندنا ما نتوضأ به ونشرب إلا ما في ركوتك فوضع النبي يده في الركوة فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون قال فشربنا وتوضأنا قال لجابر كم كنتم قال لو كنا مائة ألف لكفانا. كنا خمس عشر مائة وعن رواية أخرى ١٤٠٠ وأخرى بين ١٤٠٠ و١٥٠٠ وأخرى ١٣٠٠ وغيرها ١٦٠٠ وغيرها ١٧٠٠ وابن عباس ١٥٢٥. وروى البخاري نفس هذه الحكاية باختلاف قال عن البراء بن عازب قال كنا مع رسول الله أربعة عشر مائة يوم الحديبية والحديبية بئر فنزحناها فلم نترك فيها قطرة فبلغ النبي فأتاها فجلس على شفيرها ثم دعا بإناء

من ماء فتوضأ ثم تمضمض ودعا ثم صبه فيها ثم قال دعوها ساعة فارووا أنفسهم وركابهم حتى ارتحلوا. رواه البخاري وقد كررت هذه الحكاية في المشكاة وكل مرة تختلف عن الأخرى.

فيرى القارئ أنها ليست معجزة إذ تتجمع المياه في البئر بعد تركها مدة وهذا يخالف تماماً ما قيل عن كفاية ١٠٠٠٠٠ رجل من نبع أصابعه.

(٣) وتوجد عدة قصص عن أشجار وأحجار حيّت محمداً كرسول الله وكيف أن الأشجار تبعته أو أطاعت أوامره واخترنا للقارئ واحدة كعينة عن جابر قال سرنا مع رسول الله حتى نزلنا وادياً أفيح فذهب رسول الله يقضي حاجته فلم ير شيئاً يستتر به وإذا شجرتين بشاطئ الوادي فانطلق رسول الله إلى إحداها فأخذ بغصن من أغصانها فقال انقادي عليّ بإذن الله فانقادت معه كالبعير المحشوش الذي يطيع قائده حتى أتى الشجرة الأخرى فأخذ بغصن من أغصانها فقال انقادي عليّ بإذن الله فانقادت معه كذلك حتى إذا كان بالنصف مما بينهما قال التئما عليّ بإذن الله فالتأمتا فجلست أحدث نفسي فحانت مني لفتة فإذا أنا برسول الله مقبلاً وإذا الشجرتين قد افترقتا قامت كل واحدة منهما على ساق رواه مسلم ,

(٤) وتروى أيضاً عينة من نوع آخر من المعجزات عن أنس قال

أن رجلاً كان يكتب للنبي فارتد عن الإسلام ولحق بالمشركين فقال النبي إن الأرض لا تقبله فأخبرني أبو طلحة أنه أتى الأرض التي مات فيها فوجده منبوذاً فقال ما شأن هذا فقالوا دفناه مراراً فلم تقبله الأرض وعلماء المسلمين لم يتفقوا مطلقاً على من هو هذا الرجل السيء الحظ.

(٥) وعن جابر قال كان النبي إذا خطب استند إلى جذع نخلة من سواري المسجد فلما صنع له المنبر فاستوى عليه صاحت النخلة التي كان يخطب عندها حتى كادت أن تنشق. فنزل النبي حتى أخذها فضمها إليه فجعلت تئن أنين الصبي الذي يسكت حتى استقرت قال بكت على ما كانت تسمع من الذكر رواه البخاري.

(٦) عن علي بن أبي طالب قال كنت مع النبي بمكة فخرجنا في بعض نواحيها فما استقبله جبل ولا شجر إلا وهو يقول السلام عليك يا رسول الله رواه الترمذي والدارمي.

(٧) عن ابن عباس قال أن امرأة جاءت بابن لها إلى رسول الله فقالت يا رسول الله أن ابني به جنون وأنه ليأخذه عند غدائنا وعشائنا فمسح رسول الله صدره ودعا فثعّ ثعة وخرج من جوفه مثل الحجر الأسود يسعى رواه الدارمي.

(٨) عن ابن عمر قال كنا مع النبي في سفر فأقبل أعرابي فلما دنى قال له رسول الله تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله قال ومن يشهد على ماتقول قال هذه السلمة. فدعاها رسول الله وهو بشاطئ الوادي فأقبلت تخد الأرض حتى قامت بين يديه فاستشهدها ثلاثا فشهدت ثلاثا كما قال ثم رجعت إلى منبتها رواه الدارمي.

(٩) وعن ابن عباس قال جاء أعرابي إلى رسول الله قال بم أعرف أنك نبي؟ قال: إن دعوت هذا العذق من هذه النخلة يشهد أني رسول الله فدعاه رسول الله فجعل ينزل من النخلة حتى سقط إلى النبي ثم قال ارجع فعاد فأسلم الأعرابي رواه الترمذي وصححه.

(١٠) وفي كتاب تركي اسمه مرآة الكائنات القصة التالية :[١]ــ

لما خرج محمد إلى الطائف قال فإذا أنا بسحابة قد أظلتني فنظرت إليها فإذا فيها جبريل فقال أن الله قد سمع قول قومك وما ردوا عليك وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت قال فناداني ملك الجبال فسلم علي ثم قال يا محمد أن الله قد سمع قول قومك وما ردوا عليك وأنا ملك الجبال وقد بعثني إليك ربك لتأمرني

---

(١) وجدناها حرفيا في السيرة النبوية فنقلناها منه

بأمرك إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين. قال النبي لا بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبده وحده لا شريك له الخ.

ولا ضرورة أن نزيد من هذه الحكايات فمن يرغب الزيادة فعليه أن يرجع إلى روضة الصفا أو روضة الأحباب وجامع المعجزات في الفارسية أو مرآة الكائنات في التركية وفي كثير من الكتب العربية ذكرنا أنفاً بعضها.

ونجد في الكتب الهندية والوثنية كثيراً جداً من معجزات الأصنام كهذه يصدقها كثيرون من جهلاء الوثنيين في بلاد عديدة، ولكن جميعها تختلف في الأسلوب والماهية عن المعجزات الصحيحة الواردة في الإنجيل والتي يشهد القرآن بصحتها. وتلك الحكايات (الوثنية وغيرها) تذكرنا بحكايات ألف ليلة وليلة وتثبت أن العرب في الجاهلية كانت لهم قوة التصور وتأليف الحكايات.

ولنلاحظ أن بعض تلك المعجزات التي قد رويناها هي نفس ما طلبته قريش من محمد، فلو كان قد أتاها فعلاً لكان قد ذكر القرآن بعضها ولكن بدلاً عن ذلك نراه يقول أن محمداً ليس بوكيل بل نذير وبشير ويبين سبب عدم إتيانه بالمعجزات مطلقاً.

إذا تفضل قراؤنا بالاطلاع على المعجزات التي صنعها يسوع

وتلاميذه كما هي مدونة في العهد الجديد قالوا ما أعظم الفرق في نوعها عن تلك التي ينسبها الحديث لمحمد مناقضاً القرآن.

ليست معجزات العهد الجديد مجرد حوادث مدهشة خارقة للطبيعة كشجرة تشير وتتكلم وعمود يصرخ ويئن كالطفل أو كمسح ساق أو ذراع قاتل فتشفى الخ، بل هي أمثال فعلية ملآنة بالتعاليم الروحية وظاهر بها الرحمة والقوة الإلهية مثل إبراء الأبرص وفتح أعين الأعمى وإقامة الموتى الخ (مت ١١: ٤ و٥ ولو ٧: ٢٢). ومعجزات المسيح لم تعمل لنجاة قاتل من إحدى نتائج فعلته ولم يكرس القوى الإلهية في جعل الأشجار تتكلم والأحجار تصرخ.

وعلاوة على ذلك فمعجزات العهد الجديد كتبت بعد صعود المسيح بقليل في حياة أكثر تلاميذه تحت الإرشاد الإلهي بعضها كتبها نفس تلاميذ المسيح كمتى ويوحنا وبعضها تحت ملاحظتهم كمرقس ولوقا. ويوجد سبب آخر على صحة ما دوّن عن معجزات المسيح وهي كتابتها عند حدوثها، ولكن من الوجهة الأخرى يرى المعجزات التي نسبها الحديث لمحمد لم تَُكتب إلا بعد موته بمئات من السنين. وجاء في الإنجيل أن المسيح يشير إلى أعماله باعتبار أنها دليل على رسالته الإلهية "اَلأَعْمَالُ الَّتِي أَنَا أَعْمَلُهَا بِاسْمِ أَبِي هِيَ تَشْهَدُ لِي"

(يو ١٠: ٢٥) (راجع أيضاً عدد ٣٢ و٣٧ و٣٨ و١٤: ١١ و١٢ و١٥: ٢٤) أما في القرآن فبالعكس فإنه أنكر معجزات محمد. أنظر سورة الإسراء وشهد بمعجزات المسيح انظر سورة آل عمران.

ونبين باختصار بعض الفروق العظيمة التي بين معجزات المسيح ومعجزات محمد التي في الأحاديث.

توجد شهادة كافية أن كثيرين ممن صرحوا أنهم أول شهود المعجزات المسيحية صرفوا حياتهم في أتعاب وأخطار وآلام تحملوها طوعاً في تقرير الحوادث التي سلموها لنا ولسبب اعتقادهم بها فقط خضعوا لقوانين جديدة غيرت سلوكهم.

ولا توجد شهادة أن الذين صرحوا بأنهم شهود المعجزات المحمدية فعلوا مثل ذلك في تقرير الحوادث التي دونوها أو غيروا سلوكهم بسبب اعتقادهم بها.

جمع الأحاديث الإسلامية كان متأخراً جداً وحوادثها غريبة حتى لا يمكن لعالم أن يثق بصحتها كمعجزات غير أنها ربما كانت تستحق ثقة أكثر بخصوص أمور أخرى متعلقة بمحمد، وما جاء عن ذلك في المشكاة أو حياة اليقين أو عين الحياة وغيرها من الكتب الشائعة الاستعمال بين علماء السنة والشيعة غريبة جداً حتى أنها تلقي الشك

والريب على جميع الأحاديث الأخرى. فمثلاً يوجد حديث معناه أن الحور العين تنمو من الأرض كالورد على شاطئ نهر في الجنة فيجمعهن المسلمون لملذاتهم وأيضاً يوجد في الجنة طيور مطبوخة وتطير ثانية بعد أن يشبع منها المسلمون. وأن الله تعالى لما أراد خلق آدم بعث إلى الأرض جبرائيل ليأتيه بقبضة من ترابها فلما أتاها جبرائيل ليقبض منها القبضة قالت إني أعوذ بعزة الله الذي أرسلك أن تأخذ مني شيئاً يكون فيه غداً للنار نصيب فرجع جبرائيل إلى ربه ولم يأخذ منها شيئاً وقال يا رب استعاذت بك فكرهت أن أقدم عليها (ثم أرسل ميكائيل فكذلك ثم بعث الله تعالى ملك الموت فأتى الأرض فاستعاذ بالله أن يأخذ منها شيئاً فقال وأني أعوذ بالله أن أعصي له أمراً فقبض قبضة من زواياها الأربعة. وفي حديث آخر أن الله تعالى أذن لي (محمد) أن أحدث عن ديك قد مرقت رجلاه الأرض وعنقه منثنية تحت العرش وهو يقول سبحانك ما أعظمك فيرد عليه لا يعلم ذلك من حلف بي كاذباً. وفي حديث آخر لما أرادت حواء أن تأكل من الحبة نمت الشجرة علو ٥٠٠ سنة لتنجو منها وحديث آخر أن المسافة ما بين أكتاف وآذان حملة العرش مسيرة ٧٠ سنة.

ويصرح علماء الشيعة أنه توجد مناقضات في الحديث فورد

في الكافي أن علياً بن إبراهيم سأل علياً بن أبي طالب عن تناقض بعض الأحاديث ومخالفة بعضها للقرآن وطريقة تمييز الصحيح منها عن غيره فذكر له بعض شروط لتمييز ذلك فقال له فإن وافق الخبران جميعاً قال ينظر إلى ما ليس إليه حكامهم وقضاتهم أميل فيترك ويؤخذ بالآخر. قال فإن مال حكامهم إلى الخبرين جميعاً قال إن كان فارجه حتى تلقى أمامك فإن الوقوف عند الشبهات خير من الاقتحام في الهلكات.

فينتج من كل ذلك أن دعوة محمد النبوة لم تؤيدها معجزة كما بينه القرآن أما المعجزات في الحديث فغير معقولة البتة ومتناقضة تماماً وبعضها مناقض للقرآن وليس لها أدلة تثبت حدوثها.

الفصل السادس

بحث في بعض أخلاق محمد بحسب ما ورد عنه في القرآن والتواريخ
الإسلامية والتفاسير لنعلم دعواه النبوة

علينا الآن أن نتأمل في بعض أعمال محمد والأخبار عن صفاته لنرى هل تثبت هذه دعواه كرسول من الله ونبي وإننا في بحثنا هذا نرى وجوب سلوك اللياقة التامة إكراماً لخاطر إخواننا المسلمين. وعليه فلسنا نريد أن نقتبس أقوال كتبة المسيحيين في ذلك بل نقتبس من مشاهير المسلمين وكذلك أردنا أن لا نحكم بأنفسنا على أي أمر كان

متذكرين قول بولس الرسول "مَنْ أَنْتَ الَّذِي تَدِينُ عَبْدَ غَيْرِكَ. هُوَ لِمَوْلاَهُ يَثْبُتُ أَوْ يَسْقُطُ" (رو ١٤: ٤). ونحن جميعاً عبيد الله وهو وحده الديان العادل ولكن يحسن لكل منا أن يرى رأياً خاصاً في الموضوع ولو لم يصرح به. ولكي يعرف القراء المحترمون حقائق هذه المسألة المهمة ليحكموا بأنفسهم إذا كان محمد حسبما يعتقد فيه المسلمون أم لا نرى وجوب اقتباس آيات قرآنية مع تفسيرها من أكابر المفسرين لئلا نخطئ في معناها ثم نأتي ببعض عبارات من حياة وسيرة محمد التي كتبها المسلمون وبعض الأحاديث المتفق عليها ليتضح ما فعل بعد ما نال قوة باتحاده مع قبيلتي الأوس والخزرج (الأنصار) واعتناقهم للإسلام. وليلاحظ أننا لا نأتي هنا بآرائنا بل نقتبس فقط عبارات إسلامية في الموضوع.

والمواضيع التي نريد أن نتكلم عنها هي (١) حوادث محمد الزوجية (٢) طريقة معاملته لأعدائه. والعلماء من القراء سيرون إنه كان يمكننا اقتباس أقوال أدنى من التي اقتبسناها في كل موضوع ولكننا تحاشينا ذكر ما نظنه مبالغاً فيه أو تساهلوا في نقله كالمتأخرين من الكتاب الذين لم يفكروا بأن ما كتبوه مبالغ فيه فيصور ذلك للقراء المنصفين صورة غير ملائمة لمحمد. فتحاشينا الاقتباس من أمثال هؤلاء واكتفينا

بالمؤلفات الأولى المقبولة لدى الجميع. وتوجد بعض الاقتباسات من كتب فارسية أو تركية تثبت أن العالم الإسلامي بأجمعه يوافق على ما سنذكره.

(١) مسألة زواجه - في سورة النساء ٤: ٣ قاعدة لكل مسلم أن يتزوج مثنى وثلاث ورباع أو ما ملكت يمينه ويفسر البيضاوي هذا الجزء الأخير بالسراري وهذه الآية تجيز تعدد الأزواج واتخاذ السراري لكل المسلمين في كل الأوقات وقد سبب ذلك أضراراً عظيمة شائعة في البلاد الإسلامية ولكن لم يكن لمحمد حد (١) لزواجه لأنه يقول في سورة الأحزاب ٣٣: ٥٠ "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاَتِكَ اللاَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَا مْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْ لاَ يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ" وقال البيضاوي خالصة لك من دون المؤمنين إيذان بأنه مما خص به لشرف نبوته وتقرير لاستحقاقه الكرامة لأجله وقال أيضاً خالصة أي خلوصاً لك أو

(١) انظر روضة الأحباب حيث نرى كل شئ عن محمد كزوج

هبة خالصة ولكي نعرف مقدار استعمال محمد هذا الترخيص نجد أنه عند وفاته كانت له تسع نسوة أحياء فضلاً عن سريتين على الأقل مارية وريحانة ويقول ابن هشام أن محمداً تزوج ثلاث عشر ة امرأة منهن عائشة التي كانت بنت ست لما عقد عليها وبنت سبع لما بنى بها (ابن هشام وابن الأثير والمشكاة والبخاري) .

أما مارية القبطية التي أرسلها المقوقس حاكم مصر الخ، فقد جاء في سورة التحريم ٦٦: ١ و٢ "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلاَكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ" . وقد ذكر البيضاوي تفسيرين لهذه العبارة أحدهما أثبته سائر المفسرين وهو روي أنه خلا بمارية في فراش عائشة أو حفصة فاطلعت على ذلك حفصة فعاتبته فيه فحرم مارية فنزلت. والحكايات بحذافيرها واردة في روضة الصفا وغيره ولكنا اخترنا هذا التفسير المختصر كي نتحاشى ذكر ما لا يجب ذكره ههنا وما تنيره لنا هذه الحكاية عن محمد ليس حسناً. وليلاحظ هنا أن وحياً نزل لحل الإيمان.

أما عن زواج محمد بزينب بنت جحش امرأة ابنه الذي تبناه زيد بن حارثة فإننا نقرأ في سورة الأحزاب ٣٣: ٣٧ و٣٨ "وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ

اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لاَ يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ اللَّهُ مَفْعُولاً مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً" يقول الجلالان في تفسيرهما ما ملخصه نزلت في زينب فزوجها النبي لزيد ثم وقع بصره عليها بعد حين فوقع في نفسه حبها وفي نفس زيد كراهيتها. فقال هذا للنبي أريد فراقها فقال أمسك عليك زوجك ثم طلقها زيد وانقضت عدتها فدخل عليها النبي بغير إذن واشبع المسلمين خبزاً ولحماً. وقال البيضاوي أمسك عليك زوجك زينب وذلك أنه أبصرها بعدما أنكحها إياه فوقعت في نفسه فقال سبحان الله مقلب القلوب وسمعت زينب بالتسبيحة فذكرت لزيد ففطن لذلك ووقع في نفسه كراهية صحبتها فأتي النبي وقال أريد أن أفارق صاحبتي فقال مالك أرابك منها شيء فقال لا والله ما رأيت منها إلا خيراً ولكنها لشرفها تتعظم علي فقال له أمسك عليك زوجك فلما قضى زيد منها وطراً حاجة بحيث ملها ولم يبق له فيها حاجة وطلقها وانقضت عدتها زوجناكها. والمعنى أنه أمر بتزويجها منه أو جعلها زوجته بلا واسطة

عقد ويؤيده أنها كانت تقول لسائر نساء النبي أن الله تولى إنكاحي وأنتم زوجكن أولياؤكن وقيل كان السفير في خطبتها وذلك ابتلاء عظيم وشاهد بين على قوة إيمانه (١). ويتضح من هذا القول الأخير أن البيضاوي شعر أن هذا العمل أوجد الشك في قلوب الناس من عمله.

وتاريخ محمد مع صفية وريحانة ونسائه وسراريه موجود في ابن هشام وابن الأثير وروضة الصفا وروضة الأحباب الخ. ولا يحسن أن نورد شيئاً زيادة لعدم نفعه ولعدم لياقته إلا أنه ينير لنا أخلاق محمد. ولكننا نكفي أنفسنا بما أوردناه عن هذا الأمر.

(٢) والآن لنتأمل في طرق معاملته لأعدائه وهنا أيضاً نذكر قليلاً من كثير فقط.

فقد ذكر ابن هشام كيف سلمت قبيلة بني قريظة نفسها لمحمد بعد حرب طويلة والنبي حكم فيهم عدوهم المجروح من حربهم سعد بن معاذ قال سعد إني أحكم فيهم أن نقتل الرجال وتقسم الأموال وتسبى الذراري والنساء قال ابن اسحق قال لسعد لقد حكمت فيهم

---

(١) الضمير عائد على زيد لأنه بعد أن سمح الوحي بطلاقها منه وتزويجها للنبي قال له النبي: إني لا أجد ثقة تسمع لقوله سواك فاذهب إليها واخطبها لي فذهب وأتم ما أمر به ولو كرهت طبيعته هذا العمل (المصحح)

بحكم الله من فوق سبعة أرقعة. قال ابن اسحاق ثم استنزلوا فحبسهم بالمدينة في دار بنت الحرث امرأة من بين النجار ثم خرج رسول الله إلى سوق المدينة الي هي سوقها اليوم فخندق بها خنادق ثم بعث إليهم فضرب أعنقاهم في تلك الخنادق يخرج بهم إليه إرسالاً وفيهم عدو الله حيي بن أخطب وكعب بن أسد رأس القوم وهم ستمائة أو سبعمائة والمكثر لهم يقول كانوا بين الثمانمائة والتسعمائة وقد قالوا لكعب بن أسد وهم يذهب بهم إلى رسول الله إرسالا يا كعب ما تراه يصنع بنا قال أفي كل المواطن لا تعقلون ألا ترون الداعي لا ينزع وأنه من ذهب به منكم لا يرجع هو والله القتل فلم يظل ذلك الدأب حتى فرغ منهم رسول الله وأتى يحي بن أخطب عدو الله وعليه حلة نقاحية. فلما نظر إلى رسول الله قال أما والله ما لمت نفسي في عدوانك ولكنه من يخذل من الله يخذل ثم أقبل على الناس فقال أيها الناس انه لا بأس بأمر الله كتاب وقدر وملحمة كتبها الله على بني إسرائيل ثم جلس فضربت عنقه.

قالت عائشة لم يقتل من نسائهم إلا امرأة واحدة قالت والله أنها لعندي تحدث معي وتضحك ظهراً وبطناً ورسول الله يقتل رجالها في السوق إذ هتف هاتف باسمها أين فلانة قالت أنا والله قلت لها ويلك

مالك قالت أقتل قلت ولم قالت لحدث أحدثته قالت فانطلق بها فضرب عنقها فكانت عائشة تقول فوالله ما أنسى عجباً منها طيب نفسه أوكثرة ضحكها وقد عرفت أنها تقتل. وهي التي طرحت الرحى على خلاد بن سويد فقتلته... قال ابن اسحاق وكان رسول الله قد أمر بقتل كل من أنبت منهم قال ابن اسحاق ثم أن رسول الله قسم أموال بني قريظة ونساءهم وأبناءهم على المسلمين. ثم بعث سعد بن زيد الأنصاري أخا بني عبد الأشهل بسبايا من سبايا بني قريظة إلى نجد فابتاع لهم بها خيلاً وسلاحاً وكان رسول الله قد اصطفى لنفسه من نسائهم ريحانة بنت عمرو بن خشافة فكانت عند رسول الله حتى توفي عنها وهي في ملكه وقد كان عرض عليها أن يتزوجها ويضرب عليها الحجاب فقالت يا رسول الله بل تتركني في ملكك فهو أخف عليّ وعليك (ابن هشام).

وبعد غزوة بدر بعد أن طرح المسلمون قتلى أعدائهم في القليب ورجعوا إلى المدينة بالأسرى قتل بعض الأسرى كما يقول ابن هشام قال ابن أسحاق حتى إذا كان رسول الله بالصفراء قتل النضر بن الحريث قتله على بن ابي طالب كما اخبرني بعض اهل العلم من أهل مكة. ثم خرج حتى إذا كان بعرق الظبية قتل عقبة بن أبي معيط

قال عقبة حين أمر بقتله فمن للصبية يا محمد قال النار (ابن هشام باب ذكر الفيء ببدر والأساري) وحكاية قتل كعب بن الأشرف حكاها ابن هشام قال: ثم رجع كعب بن الأشرف إلى المدينة فشبب بنساء المسلمين حتى آذاهم فقال رسول الله من لي بابن الأشرف فقال له محمد بن مسلمة أنا لك به يا رسول الله أنا أقتله. قال له فافعل إن قدرت على ذلك. فرجع محمد بن مسلمة فمكث ثلاثاً لا يأكل ولا يشرب إلا ما يعلق به نفسه فذكر ذلك لرسول الله فدعاه فقال له لم تركت الطعام والشراب قال يا رسول الله قلت لك قولاً لا أدري هل أفي لك به أم لا فقال إنما عليك الجهد فاجتمع في قتله محمد بن مسلمة وسلكان بن سلامة بن وقش وهو أبو نائلة أحد بني عبد الأشهل وكان أخا كعب بن الأشرف من الرضاعة وعباد بن بشر أحد بني عبد الأشهل وأبو عبس بن جبرا أحد بني حارثة ثم قدموا إلى عدو الله كعب بن الأشرف فجاءه أبو نائلة فتحدث معه ساعة فتناشدا شعراً وكان أبو نائلة يقول الشعر ثم قال ويحك يا ابن الأشرف إني قد جئتك لحاجة أريد ذكرها لك فاكتم عني قال افعل قال كان قدوم هذا الرجل (محمد) علينا بلاء من البلاء عادتنا به العرب ورمتنا عن قوس واحدة وقطعت عنا السبل حتى ضاع العيال وجهدت الأنفس وأصبحنا قد جهدنا وجهد

عيالنا فقال كعب أنا ابن الأشرف أما والله لقد كنت أخبرك يا ابن سلامة أن الأمر سيصير إلى ما أقول فقال له سلكان إني قد اردت أن تبيعنا طعاماً ونرهنك ونوثق لك وتحسن في ذلك فقال اترهنوني أبناءكم قال لقد أردت أن تفضحنا أن معي أصحاباً لي على مثل رأيي وقد أردت أن آتيك بهم فتبيعهم وتحسن في ذلك ونرهنك من الحلقة ما فيه وفاء وأراد سلكان أن لا ينكر السلاح إذا جاءوا بها قال إن في الحلقة لوفاء قال فرجع سلكان إلى أصحابه فأخبرهم خبره وأمرهم أن يأخذوا السلاح ثم ينطلقوا فيجتمعوا إليه فاجتمعوا عنده قال مشى معهم إلى بقيع الفرقد ثم وجههم فقال انطلقوا على اسم الله اللهم أعنهم ثم رجع إلى بيته وهو في ليلة مقمرة وأقبلوا حتى انتهوا إلى حصنه فهتف به أبو نائلة وكان حديث عهد بعرس فوثب في ملحفته فأخذت امرأته بناحيتها وقالت انك امرء محارب وأن أصحاب الحرب لا ينزلون في هذه الساعة قال انه أبو نائلة لو وجدني نائماً ما أيقظني فقالت والله إني لأعرف في صوته الشر قال لها كعب لو يدعى الفتى لطعنه لأجاب فنزل فتحدث معهم ساعة وتحدثوا معه ثم قال هل لك يا ابن الأشرف أن نتماشى إلى شعب العجوز فنتحدث به بقية ليلتنا هذه فقال إن شئتم فخرجوا يتماشون فمشوا ساعة ثم أن أبا نائلة شام يده في

فود رأسه ثم شم يده فقال ما رأيت كالليلة طيباً أعطر قط ثم مشى ساعة ثم عاد لمثلها حتى اطمأن ثم مشى ساعة ثم عاد لمثلها فأخذ بفود رأسه ثم قال اضربوا عدو الله فضربوه فاختلفت عليه أسيافهم فلم تغن شيئاً قال محمد بن مسلمة فذكرت نصلاً لي حين رأيت أسيافنا لا تغني شيئاً فأخذته وقد صاح عدو الله صيحة لم يبق حولنا حصن إلا أوقدت عليه نار فوضعته في معدته ثم تحاملت عليه حتى بلغت عانته فوقع عدو الله وقد أصيب الحرث بن أوس بن معاذ فجرح في رأسه أو في رجله أصابه بعض أسيافنا قال فخرجنا حتى سلكنا على بني أمية بن زيد ثم على بني قريظة ثم على بعاث حتى أسفرنا في حرة العريض وقد أبطأ علينا صاحبنا الحرث بن أوس ونزفه الدم فوقفنا له ساعة ثم أتانا يتبع آثارنا قال فاحتملناه فجئنا به رسول الله آخر الليل وهو يصلي فسلمنا عليه فخرج إلينا فأخبرناه بقتل عدو الله وتفل على جرح صاحبنا فرجع ورجعنا إلى أهلنا (سيرة ابن هشام باب قتل كعب ابن الأشرف).

ولنا حكاية أخرى عن محيصة وحويصة وقتل أحد رجال اليهود بأمر محمد والوسيلة التي اعتنق بها بعض أهل المدينة الإسلام قال ابن إسحاق قال من ظفرتم به من رجال اليهود فاقتلوه فوثب محيصة بن مسعود على ابن شينيه رجل من تجار اليهود كان يلابسهم ويبايعهم

فقتله وكان حويصة بن مسعود إذ ذاك لم يسلم وكان أسن من مخيصة فلما قتله جعل حويصة يضربه ويقول أي عدو الله اقتله أما والله لرب شحم في بطنك من ماله. قال محيصة فقلت والله لقد أمرني بقتله من لو أمرني بقتلك لضربت عنقك قال فوالله إن كان لأول إسلام حويصة قال الله لو أمرك محمد بقتلي لتقتلني قال نعم والله لو أمرني بضرب عنقك لضربتها قال والله ألا ديناً بلغ بك هذا لعجيب فأسلم حويصة قال ابن إسحاق حدثني هذا الحديث مولى لبني حارثة عن ابنة محيصة عن أبيها محيصة (ابن هشام باب أمر محيصة وحويصة) ويذكر ابن هشام هذه الحكاية نفسها عن اعتناق حويصة الإسلام باختلاف عن هذا اختلافاً طفيفاً وكان السبب الخوف لأن محيصة قتل إنساناً بأمر محمد.

وذكر ابن إسحاق حكاية مقتل سلام بن أبي الحقيق بأمر محمد أيضاً فذكر أولاً أن بني الأوس وبني الخزرج كانا يتصاولان في غيرتهم على الإسلام فذكرت الأوس أنهم قتلوا كعب ابن الأشرف فقالت الخزرج والله لا يذهبون بها فضلاً علينا أبداً قال فتذاكروا من رجل لرسول الله في العداوة كابن الأشرف فذكروا بن أبي الحقيق وهو بخيبر فاستأذنوا رسول الله في مقتله فأذن لهم فخرج إليه من الخزرج من بني سلمة خمسة نفر عبد الله بن عتيك ومسعود بن سنان

وعبد الله بن أنيس وأبو قتادة الحرث بن ربعي وخزاعة بن أسود حليف لهم من أسلم فخرجوا وأمر عليهم رسول الله عبد الله بن عتيك ونهاهم عن أن يقتلوا وليداً أو امرأة فخرجوا حتى إذا قدموا خيبر أتوا دار ابن أبي الحقيقي ليلاً فلم يدعو بيتاً في الدار إلا أغلقوه على أهله قال وكان في علّية له لها سلم قال فصعدوا فيها حتى أقاموا على بابه فاستأذنوا إليه فخرجت إليهم امرأته فقالت من أنتم قالوا أناس من العرب نلتمس الميرة قالت ذاكم صاحبكم فادخلوا عليه فلما دخلنا عليه أغلقنا علينا وعليها الحجرة تخوفاً أن تكون دونه محاولة تحول بيننا وبينه قال فصاحت امرأته فنوهت بنا وابتدرناه وهو على فراشه بأسيافنا فوالله ما يدلنا عليه في سواد الليل إلا بياضه كأنه قطنية ملقاة قال ولما صاحت بنا امرأته جعل الرجل منا يرفع عليها سيفه ثم يذكر نهي رسول الله فيكف يده ولولا ذلك لفرغنا منها بليل قال فلما ضربناه بأسيافنا تحامل عليه عبد الله بن أنيس بسيفه في بطنه حتى أنفذه وهو يقول قطني أي حسبي حسبي قال وخرجنا وكان عبد الله بن عتيك رجلاً سيئ البصر قال فوقع من الدرجة فوثبت يده وثئاً شديداً ويقال رجله (١) وحملناه حتى نأتي منهراً من عيونهم

---

(١) راجع ما قلناه في معجزات محمد عن هذه الحكاية

فندخل فيه قال فأوقدوا النيران واشتدوا في كل وجه يطلبوننا حتى إذا يئسوا رجعوا إلى صاحبهم فاكتنفوه وهو يقضي بينهم... فاحتملنا صاحبنا فقدمنا على رسول الله فأخبرناه بقتل عدو الله واختلفنا عنده في قتله كلنا يدعيه فقال هاتوا أسيافكم قال فجئنا بها فنظر إليها فقال لسيف عبد الله بن أنيس هذا قتله أرى فيه أثر الطعام (سيرة ابن هشام باب مقتل سلام بن أبي الحقيق) وفي هذه القصة رأينا أن محمداً أمر بعدم قتل امرأة ولكن ليس هذا الحال دائماً لما نرى من قصة قتل عصماء وقتل رجل شيخ عجوز كما يظهر من ابن إسحاق. أن رجلاً يدعى أبو عفك بلغ من العمر نحو المائة كتب أشعاراً ضد محمد فقال من لي بهذا الخبيث فخرج سالم بن عمير أخو بني عمرو بن عوف وهو أحد البكائين فقتله وعصماء بنت مروان كانت شاعرة هجت محمداً ببعض أشعارها قال ابن إسحاق فلما قتل أبوعفك نافقت وكانت تحت رجل من بين خطمة يقال له يزيد بن زيد فقالت شعراً تعيب الإسلام فقال حين بلغه ذلك ألا آخذ لي من ابنة مروان فسمع ذلك من رسول الله عمير ابن عدي الخطمي وهو عنده فلما أمسى من تلك الليلة سرى إليها في بيتها فقتلها ثم أصبح مع رسول الله فقال يا رسول الله إني قد قتلتها فقال نصرت الله

ورسوله يا عمير فقال هل عليّ شيء من شأنها يا رسول الله فقال لا ينتطح فيها عنزان فرجع عمير إلى قومه وبنو خطمة يومئذ كثير موجهم في شأن بنت مروان ولها يومئذ بنون خمسة رجال فلما جاءهم عمير بن عدي من عند رسول الله قال يا بني خطمة أنا قتلت ابنة مروان فليدوني جميعاً ثم لا تنظرون فذلك اليوم أول ما عز الإسلام في دار بني خطمة وكان يستخفي بإسلامه فيهم من أسلم وكان أول من أسلم عمير بن عدي.. واسلم يوم قتلت ابنة مروان رجل من بني خطمة فلما رأوا من عز الأسلام (ابن هشام الجزء الثالث باب قتل أبي عفك وباب قتل عصماء بنت مروان) وفي رواية أخرى أن عميراً كان أعمى وكان سابقاً زوج عصماء وقد سرى إليها ليلاً في حجرتها وفي حضنها طفل فأزاح الطفل عنها وتحامل عليها بسيفه شيئاً فشيئاً حتى نفذ فيها ولما سمع محمد في اليوم التالي أشار إلى عمير في المسجد وقال قد نصر هذا الله ورسوله.

وقبل قتل ابن أبي الحقيق بقليل قتلت أم قرفة بأمر زيد وذلك بأن ربط القوم رجليها إلى جملين وألزموا الجملين بالسير إلى طريقين متعاكسين فانشقت المسكينة وتقطعت فهنأ محمد زيداً بعمله ولم يوبخه على هذا التوحش. وذكر ابن هشام أيضاً أن محمداً أرسل عمرو بن أمية وجبار ابن صخر من المدينة إلى مكة لقتل أبي سفيان بن حرب ولم

يمكنهما قتله إذ عرفهما البعض ففرا ولكنهما قتلا ثلاثة رجال في طريقهما الواحد بعد الآخر. (ابن هشام الجزء الثالث باب بعث عمرو بن أمية لقتل أبي سفيان بن حرب وما صنع في طريقه) وكل ذي علم يعرف أنه من السهل علينا أن نقتبس من كتبة مشاهير المسلمين روايات عن أخلاق محمد أشد مما كتبنا مثل حكاية قتل مخيريق ولكن كفى بما ذكرناه في هذا الموضوع (١) ولا نريد أن نقول كلمة واحدة من أنفسنا عن هذه الروايات فقط نسأل إخواننا المسلمون سؤالاً واحداً.

لو لم يدع محمد النبوة بل كان عربياً وثنياً كالعرب في الجاهلية ولم يتعلم عن الله تعالى الرحمن الرحيم القدوس بل كان فقط محارباً عظيما مثل تيمورلنك وكانت رغبته الوحيدة أن يكون قوياً ويلذذ نفسه بالطيب والنساء.

ففي أي شيء كان يختلف (بغض النظر عن القرآن والفرائض الدينية) عن تيمور فرغماً عن ادعائه النبوة والرسالة الإلهية أو بعبارة أخرى في أي شيء اختلفت أخلاقه الأبدية عن الفاتحين الذين جل قصدهم النجاح العالمي والتلذذ بالشهوات؟

هل أخلاق محمد في ما ذكرناه من جهة العفة ومسامحة الأعداء

---

(١) راجع رسالة الكندي عن ذلك

والتواضع والشفقة والورع تبرهن على أن رسالته من الله وإنه خاتم الأنبياء وآخر المرسلين وأكمل الخلائق؟ وهل من الضروري أن نؤمن بدعواه رغماً عن أخلاقه التي ظهرت بعد ادعائه النبوة؟

(٣) أما طريقة الوحي لمحمد فعندنا أقوال كثيرة لمؤرخي الإسلام وكتبة الحديث متفق عليها بين أهل السنة والشيعة ففي ابن اسحاق وابن هشام وابن الأثير وحسين بن محمد وفي علي جلبي (تركي) وفي كثير غير ذلك وتجد أحسن مجموعة للأحاديث في هذا الموضوع كتاب مشكاة المصابيح في كتاب الفتن وباب البعث وبدء الوحي.

قيل بعث في الأربعين سنة من عمره وكان بغار حراء بقرب مكة وزعم محمد أن الملاك جبرائيل جاءه وأمره أن يقرأ باسم ربه فرجع يرجف فؤاده إلى خديجة.

وقال زملوني زملوني فغطوه ويظهر أنه اغمي عليه لأنه رشوا عليه الماء حتى صحا لنفسه كما في ابن الأثير وقيل أن خديجة امتحنته لتعرف إن كان الشيطان هو الذي ظهر له فاقتنعت بأنه الملاك جبرائيل ولكن محمداً نفسه كان في شكوك كثيرة وخصوصاً لما فتر الوحي فترة فحزن النبي حزناً شديداً غدا منه مراراً حتى يتردى من رؤوس شواهق الجبال فكلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي نفسه منه تبدى له

جبريل عليه السلام. رواه البخاري وغيره.

وبعد ذلك كان كل ما جاءه الوحي تظهر عليه علامات تجعل الحاضرين ينتظرون منه آيات قرآنية فعن عائشة سئل رسول الله كيف يأتيك الوحي فقال أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده عليّ فيفصم عني وقد وعيت عنه قال وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول. قالت عائشة ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وأن جبينه ليتفصد عرقاً (مشكاة المصابيح باب المبعث وبدء الوحي) وروى مسلم كان النبي إذا نزل عليه الوحي كرب لذلك وتربد وجهه (المشكاة).

وقال ابن اسحاق إن محمداً كان يرقى من العين وهو بمكة قبل أن ينزل عليه القرآن فلما نزل عليه القرآن أصابه نحو ما كان يصيبه قبل ذلك واشتهر على بعض الألسنة كما ذكر صاحب كتاب إنسان العيون إن آمنة أم محمد رقته من العين وجاء أن رسول الله قال لخديجة إذا خلوت سمعت نداءان يا محمد يا محمد وفي رواية أرى نوراً أي يقظة لا مناماً وأسمع صوتاً وقد خشيت أن يكون والله لهذا أمر. وفي رواية أخرى أخشى أن أكون كاهنا فيكون الذي يناديني تابعا من الجن. وفي رواية أخشى أن يكون بي جنون فإنه كان يصيبه ما يشبه

الإغماء بعد حصول الرعدة وتغمض عينيه وتربد وجهه ويغط كغطيط البكر. وروى عن أبي هريرة أن رسول الله كان اذا نزل عليه الوحي لم يستطع أحد أن يرفع طرفه إليه حتى ينقضي الوحي وفي لفظ كان إذا نزل عليه الوحي استقبلته الرعدة وفي رواية كرب لذلك وتربد وجهه وغمض عينيه وربما غط كغطيط البكر محمرة عيناه وعن عمر بن الخطاب إنه كان إذا نزل على رسول الله الوحي يسمع عند وجهه كدوي النحل. وأيضاً عن أبي هريرة إنهم كانوا يضعون على رأسه الحناء بسبب ألم الرأس الذي كان يصيبه كتاب مرآة الكائنات وفي إنسان العيون عن زيد بن ثابت أنه لما كان ينزل عليه الوحي كان يثقل جداً فجاءت ساقه مرة على ساقي فوالله لم أر أثقل من ساق رسول الله . وكان يأتي الوحي أحياناً وهو على الجمل فكانت تنوء تحته وتجثو وكلما كان الوحي ينزل على النبي كان كأن نفسه تؤخذ منه لأنه كان يحصل له إغماء ويظهر كالثمل.

ولم تبدأ هذه الحوادث مع محمد قبل النبوة بقليل بل من صغره منها أنه لما كان ولداً صغيراً وهو في الصحراء عند مرضعته حصل له نوع من ذلك ورويت هذه القصة في أشكال شتى ورواها مسلم عن أنس قال أتاه جبرائيل وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه فشق

عن قلبه فاستخرج منه علقة فقال هذا حظ الشيطان منك ثم غسله في طشت من ذهب بماء زمزم ثم لأمه وأعاده في مكانه وجاء الغلمان يسعون إلى أمه يعني ظئره فقالوا أن محمداً قد قتل فاستقبلوه وهو منتقع اللون قال أنس فكنت أرى أثر المخيط في صدره وعلى هامش هذا القول قال صاحب مشكاة المصابيح قد وقع الشق له مراراً فعند حليمة وهو ابن عشر سنين ثم عند مناجاة جبرائيل له بغار حراء ثم في المعراج ليلة الإسراء فنرى أن ما حصل له في حداثته حدث له ثانية في غار حراء وهو ما يقال له مبعث الوحي.

ويقول ابن هشام أن زوج حليمة (ظئرة) قال لقد خشيت أن يكون هذا الغلام قد أصيب فالحقيه بأهله قبل أن يظهر ذلك به ولما أرجعته إلى أمه آمنة قالت هذه لها أفتخوفت عليه الشيطان قالت قلت نعم .

وهنا يعترضنا السؤال كيف يثبت أن هذا العارض كان إشارة إلى نزول جبرائيل ونزول الوحي؟ يخبرنا المؤرخون أن يوليوس قيصر الإمبراطور الروماني وبطرس الأكبر قيصر روسيا ونابليون بونابرت إمبراطور فرنسا الأول وغيرهم من العظماء والمحاربين حدث لهم مثل

تلك العوارض. ولكنهم ليسوا أنبياء ولا رسلاً. بل أكد الذين كانوا معهم أنـه مرض أصابهم.

لا شك أن بعض المسلمين من القراء درسوا علم الطب والبعض الآخر لهم أصدقاء أطباء فليبحثوا إذا ان يوجد مرض يظهر غالباً في سن الحداثة من أعراضه أن يصرخ العليل صرخة غريبة غير واضحة ويصرع إلى الأرض ويصفر لونه ثم أحياناً يصير بلون الأرجوان ويرتعد الجسد ويزبد الفم وتغلق العينان ويظهر المريض كأنه على وشك الموت وغالباً يرى أنواراً وأضواءً ويسمع صلصلة في أذنيه ثم يعتريه ألم شديد في رأسه. وغالباً يشعر بالنوبة قبل مجيئها.

أكدوا أن هذا المرض موجود وأنه ليس بنادر وحيث أن كاتب هذه الأسطر ليس بطبيب فلذلك لم يبث رأياً في هذه المسألة.

وأنا نترك للقراء أن يحكموا بهداية الله إذا كانت الحقائق التي رويناها عن محمد وعن أخلاقه تثبت أنه نبي مرسل من الله. ولنلاحظ أن ما أوردناه ليس كلام أعدائه بل أقوال أصحابه وأقربائه والمؤمنين به كخاتم الأنبياء والمرسلين.

الفصل السابع

بحث في كيفية انتشار الإسلام أولاً في بلاد العرب ثم في البلاد المجاورة

من ابن هشام وسير نبي العرب الأخرى نعلم أنه لما ادعى النبوة في مكة في الأربعين من عمره استعمل أولاً الوسائل الودية لانتشار دينه الذي دعاه دين إبراهيم وثبت تعاليمه بتعاليم زيد الحنيف واستعمل نفوذه الشخصي وشدد وحاج العرب ليرجعوا عن عبادة الأصنام إلى عبادة الله تعالى. وكانت امرأته خديجة أول تابعة له ثم تبعها سبعة وهم عبده زيد بن حارثة (ففك عبوديته) وأبو بكر وعثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة. ويذكر ابن هشام أسماء آخرين اعتنقوا الإسلام أولاً منهم الفتاة عائشة وهؤلاء اعتنقوا الإسلام سراً في السنوات الثلاث الأول لنبوة محمد ثم بدأ يذيع تعليمه جهراً تحت حماية عمه أبي طالب الذي لم يكن قد أسلم بعد. ولا نعلم إن كان قد اعتنق الإسلام بعد ذلك أم لا. وقد ذكر ابن هشام في الجزء الأول باب الهجرة الأولى إلى الحبشة أن ستة عشر مسلماً فقط هم الذين هاجروا في السنة الخامسة ولكن لحقهم من وقت لآخر آخرون إلى بلاد النجاشي حتى بلغ عددهم ثلاثة وثمانين

رجلاً عدا بعض النساء والأولاد ولا دليل على قول بعضهم أن النجاشي أسلم إذ أن بلاد الحبشة لا تزال إلى اليوم تدين بالديانة المسيحية. وبعد ذلك بقليل أسلم قريب من أربعين من رجال ونساء بمكة ويقول أيضاً أن عشرين من نصارى نجران سمعوا القرآن وآمنوا. ولكن ذلك غالباً ليس بصحيح فإنه أولاً لا يمكن للمسيحيين أن يدخلوا مكة التي كانت وقتئذ تملأها الأصنام وثانياً لأنهم بالطبع لم يجدوا في كتابهم عنه شيئاً كما قال ابن هشام وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره.

وقد اجتمع أشراف قريش فأراد محمد ربحهم إلى جانبه بأن أكد لهم أنهم يملكون العرب وتدين لهم العجم لو عبدوا الله وتركوا عبادة الأصنام (ابن هشام).

وبعد هجرة كثيرين من أتباعه إلى الحبشة سعى نفس هذا المسعى لربح قريش بقوله أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهم لترتجى ففرح به المشركون حتى شايعوه بالسجود لما سجد في آخرها (راجع سورة الحج ٢٢: ٥٢) وتفسيرها فانتشرت الأخبار إبالحبشة بأن أهل مكة قد أسلموا فرجع أكثرهم فوجدوا ما كانوا يخبرون به من إسلام أهل مكة باطلاً لأن محمداً غير

الجزء الأخير من الآية حالاً كما تراها الآن في سورة النجم ٥٣: ٢١-٢٣).

وقد زار بعض رجال الأوس والخزرج الساكنين بيثرب أو المدينة مكة وهناك سمعوا محمداً فأسلم أحدهم ولكنه مات حالاً بعد وصوله لبيته وانتشر الإسلام رويداً ثم جاءه ستة نفر واعتنقوا الإسلام فلم تبق دار من دور الأنصار إلا فيها ذكر رسول الله . وفي بيعة العقبة الأولى جاءه اثنا عشر رجلاً وأرادوا مساعدته قال ابن هشام فاشترط علينا أن لا نشرك بالله شيئاً ولا نسرق ولا نزني ولا نقتل أولادنا ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا ولا أرجلنا ولا نعصيه في معروف فإن وفينا نلنا الجنة . وسميت هذه البيعة بيعة النساء لأنها لم يفترض عليهم فيها حرباً. وقد بعث النبي مصعب بن عمير إلى المدينة ليعلمهم الإسلام ويفقههم في الدين.

ثم ربح آخرين منهم رئيسين قويين هما سعد بن معاذ وأسيد بن حضير وفي السنة التالية رجع مصعب إلى مكة مع ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين من المدينة مسلمين. وفي بيعة العقبة الثانية أرادوا أن يساعدوه بسيوفهم كي ينصروا الإسلام على الشرك فقال لهم لم نؤمر بذلك ولكنه بعد مدة وجيزة صرح لهم أن الله أذن له بالحرب حتى

يكون الدين كله لله. ووعد المؤمنين بالجنة. وبعد الهجرة ذهب كل مسلمي مكة تقريباً إلى المدينة وبقي في مكة محمد وأبو بكر وعلي مدة ثم هربوا من الخطر. ولا نعلم عدد المسلمين الذين تركوا وطنهم لأجل دينهم. وبعد سنة ونصف من الزمان خرج معه في غزوة بدر (الأولى) نحو ثلاثة وثمانين مهاجراً فنستنتج من هذا ان عدد الذين أسلموا في الثلاث عشرة سنة الأولى بواسطة تعليمه أكثر من المائة بقليل. ولنلاحظ أنه قد مات منهم نفر قليل. أما الذين اعتنقوا الإسلام في المدينة فكانوا يقلون عن مسلمي مكة بقليل وهؤلاء ربحهم بترغيبه لهم في الملذات الجسدية.

وقد ذكر أبو بكر في خطبته في جامع المدينة بعد موت محمد بقليل كيف أن مساعي محمد الودية لم تفلح في مكة فقال ما معناه مكث محمد أكثر من عشر سنوات بين قومه يدعوهم إلى الإسلام فلم يؤمن منهم إلا القليل وأخيراً بمشيئة الله تعالى بعث إليكم نور محياه واتخذ مدينتكم مأوى هجرته (عن روضة الصفا).

وقد مكث محمد ثلاث عشرة سنة يعمل بالوسائط الودية لنشر دينه وهذه هي الطريقة التي يجب على كل نبي حقيقي أن يتبعها ولكنه غالباً عرف كما صرح أبو بكر أن هذه المساعي لم تفلح إذ طرد

من مكة مع أتباعه وسكنوا بين قبائل معادية لقريش. وقد أبقى في ديانته كثيراً من العوائد الوثنية كالطواف والحج واستلام الحجر الأسود فكان يستحيل عليه وعلى أتباعه أن يتمموا هذه الفرائض إلا إذا حاربوا أهل مكة (سورة الحج ٢٢: ٤١ و٤٢ وسورة البقرة ٢: ٢١٦) ولم يرجع الأنصار عن رغبتهم في الحرب بل أخبرهم أن الله أمر بالجهاد لأجل الدين فصار نبي السيف وصار السيف حجة الإسلام الوحيدة من ذلك اليوم.

وإذا حكمنا على أخلاق محمد وتابعيه في ذلك الحين فيظهر أنهم ظنوا عدم لزوم اتباع القوانين الأدبية التي تعهدوا بها في بيعة العقبة إنما الأمر الوحيد المطلوب منهم هو الجهاد في سبيل الله بالسيف والحربة والقوس والسهم والخنجر الخ. وكانت هذه الأسلحة الواسطة في ارتكاب محيصة وأبي نائلة جريمة القتل كما ذكرناه قبلاً.

وإننا لا نود أن نشير إلى حالة محمد في العفة بل نشير إلى صاحبه عبد الرحمن الذي ولد له من ستة عشر امرأة عدا السراري. ولما هاجر عبد الرحمن إلى المدينة خيره سعد في أن يطلق له ما يختاره من نسائه ليزوجه بها فتزوج عبد الرحمن إحداهن. ولم يعارض محمد بذلك

(١) سورة الحج ٤١ و٤٢ وسورة البقرة ٢١٦

مع أن هذا زنى بحسب شريعة الله (١) ونرى خالد بن الوليد في فتوحه للشام أن سيرته كانت غير محمودة ومع ذلك لم يسقط اسمه وصيته بين المسلمين حتى أن القرآن أباح للمسلمين تعدد الزوجات واتخاذ السراري كما أن محمداً تزوج بقدر ما شاء وكذلك وعد المؤمنين بلذات شهوانية وخصوصاً للذين جاهدوا في سبيل الله. والذين ماتوا في غزواتهم فإنه شهداء عند ربهم وسترحب بهم الحور العين في الجنة حتى ولو قتلوا في غزوة لنهب الآخرين وللحصول على ما لهم بالقوة.

وما أعلن محمد الإذن بالحرب والجهاد والغزو حتى كثر انضمام العرب إليه وبعد وصوله للمدينة بقليل لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها مسلم كما ذكر ابن هشام. ثم عاهد وآخى بين المهاجرين والأنصار وأمر ببناء جامع.

وقد رأينا قلة الذين أسلموا في غضون الثلاث عشرة سنة الأولى قبل الهجرة أما الآن فكانوا يكثرون جداً حتى أنه لما هاجم مكة بعد ثماني سنوات كان معه عشرة آلاف مسلم وفي السنة التاسعة للهجرة في غزوة تبوك كان معه نحو ثلاثين ألفاً من الرجال وبعد حين لما أرسلهم أبو بكر لفتح الشام قال الواقدي فنظر إليهم وقد ملئوا

(١) (مت ٥: ٣٢ و١٩: ٩ ومر ١٠: ١١ ولو ١٦: ١٨)

الأرض ولا شك أن أغلب هؤلاء التابعين قد انتموا إليه حباً في ما كانوا ينالونه من الغزوات وليس رغبة في ملذات الجنة وكان هذا فكر الخليفة المأمون. والبعض اعتنقه جبراً خوفاً على حياته. فكثيرون من اليهود الساكنين في المدينة أو بقربها اعتنقوا الإسلام قال ابن هشام فتظاهروا بالإسلام واتخذوه جنة من القتل ونافقوا في السر ويذكر أسماء كثيرين من الذين أسلموا ولهم عذر واضح في ذلك وهو ما جرى لإخوانهم بني النضير وبين قينقاع وبني قريظة.

ولكن ليس اليهود فقط الذين خيروا بين الإسلام أو الموت الشنيع بل كانت تلك المعاملة عامة حتى أنها عوملت بها قريش فبعد فتح مكة سنة ٨ هـ قالت قريش قتلنا فأسلمنا .

ويذكر ابن هشام حكاية إسلام أبي سفيان الذي لما جيء به من السجن إلى النبي قال ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله. والله لقد ظننت أنه لو كان مع الله إله غيره لكان قد أغني عني شيئاً بعد قال ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله قال أما هذه فإن في النفس منها حتى الآن شيئاً فقال له العباس ويحك أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن تضرب عنقك قال فشهد شهادة الحق إذ اقتنع بقوة تلك الحجة

الدامغة وبهذه الحجة نفسها أسلم رفيقاه في سوء الحظ حكيم بن حزام وبديل بن ورقة.

ويخبرنا ابن الأثير ما معناه أن رجلاً يدعى بجير هجا محمداً في كلامه ثم رجع إليه واعتنق الإسلام وأن أخاه المدعو كعب لما سمع بذلك كتب شعراً يعيب محمداً فغضب النبي وأمر بقتله فكتب بجير إلى أخيه وطلب إليه أن يسرع باعتناق الإسلام قبل أن ينفذ فيه الأمر بقتله فانتصح كعب بنصح أخيه وبذلك أنقذ حياته.

وقد رغّب محمد تابعيه بوسائل أدنى من ذلك منها ترغيبه لهم الجهاد حباً في النساء فأمر الناس بالتهيوء لغزو الروم في غزوة تبوك وأخبرهم أنه يريد الروم بخلاف عادته فإنه قلما يخرج في غزوة إلا كنى عنها وأخبر انه يريد غيرها إلا ما كان من هذه الغزوة فقال ذات يوم وهو في جهازه لذلك للجد بن قيس يا جد هل لك العام في جلاد بني الأصفر فقال يا رسول الله أو تأذن لي ولا تفتني فوالله لقد عرف قومي أنه ما من رجل بأشد عجباً بالنساء مني وإني اخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر فاعرض عنه وقال قد أذنت لك ففي جد بن قيس نزلت هذه الآية ومنهم من يقول أئذن لي ولا تفتني إلا في الفتنة سقطوا وأن جهنم لمحيطة بالكافرين أي أنه كان إنما خشي

الفتنة من نساء بني الأصفر وليس ذلك به فما سقط فيه من الفتنة أكبر بتخلفه عن رسول الله والرغبة بنفسه عن نفسه (انتهى ملخصاً من سيرة ابن هشام غزوة تبوك) ومما يدل على أخلاقه ما قاله عبد الله الهاشمي لعبد المسيح الكندي في ترغيبه له باعتناق الإسلام ما معناه الترغيب في الملذات الجسدية في الدنيا والآخرة كقوله بسماح الدين الإسلامي له بأن يجمع بين أربع نسوة عدا السراري وختم قوله له وأقبل داخلاً في الدين القيم السهل.

ومن البواعث الأخرى التي كان يحرضهم بها محمد للجهاد هو النهب والسلب وهذا واضح لكننا سنقدم قليلاً من ذلك منها إن عبد الرحمن ابن عوف الذي ذكرناه من المهاجرين جاء إلى المدينة فقيراً ولما مات ترك كومة من الذهب كانت تكال بالفؤوس حتى أدمت أيدي الناس في تفريقها وعدا ذلك ترك ألف جمل وكثيراً من قطعان الغنم والبهائم. ثم بعد غزوة نهاوند كانت الغنيمة فائقة الوصف حتى أنه بعد رفع الأخماس قسم ما بقي من الغنائم فكان سهم الفارس ستة آلاف درهم وكان سهم الراجل ألفين (راجع غزوة نهاوند في روضة الصفا).

وقد صرف محمد وقتاً طويلاً بين الهجرة وموته في وضع طرق

الغزوات لإغناء تابعيه قال الواقدي أن محمداً حضر تسع عشرة غزوة من ست أو سبع وعشرين غزوة ويقول ابن الأثير أن الغزوات كانت خمساً وثلاثين ولكن ابن هشام يقول وكان جميع ما غزا رسول الله بنفسه سبعاً وعشرين غزوة.. قاتل منها في تسع غزوات هذا عدا السرايا والبعوث والنهاب الليلية الخ وإننا لا نعلق على أخلاق محمد هذه بل نكتفي بأن نشير إلى ما ذكره الكندي في رسالته عن ذلك فراجعه.

ولكي تظهر بعض البواعث التي سببت انتشار الإسلام في بدء ظهوره وبعده نكتفي باقتباس قول الخليفة المأمون (١) والله إني لا أعلم أن فلاناً وفلاناً حتى عدد جملة من خواص أصحابه ليظهرون الإسلام وهم أبرياء منه وبراء مني واعلم أن باطنهم ليخالف ما يظهرونه وذلك أنهم قوم دخلوا في الإسلام لا رغبة في ديانتنا هذه بل أرادوا القرب منا والتعزز بسلطان دولتنا لا بصيرة لهم ولا رغبة في صحة ما دخلوا فيه وإني أعلم أن قصتهم كقصة ما يضرب من مثل العامة أن اليهودي إنما تصح يهوديته ويحفظ شرائع توراته إذا أظهر الإسلام وما قصة هؤلاء في مجوسيتهم إلا كقصة اليهودي وإني لا أعلم إن

(١) انظر رسالة الكندي طبعة سنة ١٩١٢ وجه ٧٣-٧٥ (من مطبعتنا)

فلاناً وفلاناً (حتى عدد جماعة من أصحابه) كانوا نصارى فأسلموا كرهاً فما هم بمسلمين ولا نصارى ولكنهم مختالون فما حيلتي وكيف أصنع فعليهم جميعاً لعنة الله... ولكن لي قدوة برسول الله وأسوة به لقد كان أكثر أصحابه وأخصهم به وأقربهم إليه نسباً يظهرون أنهم أتباعه وأنصاره وكان يعلم أنهم منافقون وعلى خلاف ما كانوا يظهرون له وصح ذلك عنده وأنهم لم يزالوا يبتغون له الغوائل ويريدون به السوء ويطلبون له العثرات ويعينون المشركين عليه... ثم ارتدوا جميعاً بعد موته فلم يبق منهم أحد كان يظن به رشداً إلا رجع وارتد وحرص على تشتيت هذا الأمر وإبطاله ظاهرا أو باطنا وعلانية وسراً إلى أن أيده الله وجمع تفرقهم وألقى في قلوب بعضهم شهوة الخلافة ومحبة الدنيا الخ .

وليس الارتداد عبارة عن الامتناع عن دفع الزكاة فقط وإن يكن مخالفاً للقرآن بل أن عموم العرب قد ارتدت عن الإسلام. حقيقة قال ابن الأثير ما معناه ارتدت العرب شرفاء ووضعاء من كل قبيلة وأعلن الشقاق ورفض اليهود والنصارى الخضوع وبقي المسلمون كالغنم في الليلة الماطرة لفقد نبيهم ولقلتهم وكثرة أعدائهم وكانت الظروف حرجة جداً حتى أنهم طلبوا من أبي بكر بشدة أن يبقى الجيش

النازل قرب المدينة تحت أمرة أسامة بن زيد الذين أعده محمد قبل وفاته لغزو الشام ولكنه رفض أن يعصي أمر محمد الآخر فأخضع أبو بكر القبائل وردها للإسلام بالوعد والوعيدة بقوة السيف وهذا قد صرح به السيوطي وغيره في قوله لما ارتدت العرب جاهدهم أبو بكر وأصحابه حتى ردهم إلى الإسلام.

وهنا ابتدأ انتشار الإسلام خارج حدود بلاد العرب. فيجب أن نبحث أولاً كيف تم ذلك بأمر من وما هي الطرق التي استعملت في إقناع الناس بأن محمداً رسول الله وخاتم الأنبياء وبأي روح تم ذلك العمل وبأية حجة قبل أهل الشام ومصر وفارس اعتناق الإسلام.

لما سير أبو بكر الجيوش للشام بعد موت محمد قال ما معناه اعلموا أن رسول الله كان عزم على غزو سورية فأخذه الله إليه... وإني والله عازم على توجيه أبطال المسلمين إلى الشام وقد قال لي رسول الله قبل وفاته: وأعطيت مشارق الأرض ومغاربها وما أعطي لي فهو لأمتي (الواقدي فتوح الشام) ثم كتب أبو بكر كتباً للمسلمين ولمكة يأمرهم بالجهاد والجهاد اسم أطلقه كتبة المسلمين على الحرب وقد أوصى أبو بكر يزيد بن أبي سفيان حين خروجه مع الجيش إلى الشام بما ذكرناه في الفصل الثالث من الباب الثاني من هذا الكتاب

ومحمد نفسه أوصى زيد بن حارثة ابنه بالتبني بمثل ذلك اقتلوا أعدائكم وأعداء الله الذين في الشام. وهناك تجدون أناساً في صوامع فلا تزعجوهم ولا تقتلوا امراة أو وليداً ولا تقطعوا نخلاً ولا تخربوا بيتاً (١) ولكن ذلك لا يدل على رحمة للنساء فإنهم كانوا يبقين لشيء أردأ هو التسرّي بهنّ. مع ما رأينا من محمد وقتله نساء في المدينة ومكة لسبب هجوه ولم يكن المسلمون أرحم منه على النساء بعد موته. أخبرنا السيوطي في كتابه تاريخ الخلفاء عن امرأتين أولاهما ذمت محمداً والثانية عابت الإسلام فإنهم قطعوا يداً من كل منهما وكسروا أسنانهما الأمامية. ولما سمع أبو بكر بذلك كتب قائلاً لو استشاروا في ذلك لكان أمر أن تقتل الأولى. أما الروح التي بها اعتنقت الأمم المجاورة الإسلام فتظهر في شعر علي بن أبي طالب:

السيف والخنجر ريحاننا   أف على النرجس والآس
شرابنا دم دائنا   كأسنا جمجمة الرأس

وذلك بحسب تعليم القرآن فإن في سورة المائدة ٥: ٣٦ "إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ

(١) قابل رؤيا يوحنا ٩: ٤

الْأَرْضِ" ثم في سورة التوبة أمرهم بعد الأربعة أشهر الحرم بالبراءة من المعاهدة مع المشركين فقال "فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ" (سورة التوبة ٩: ٦). ولا يخلو سبيلهم إلا على شرط إيتاء الزكاة وإقامة الصلاة والتوبة أو بلفظ آخر اعتناق الإسلام. ونجد الحكم على أهل الكتاب في نفس السورة آية ٣٠ "قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ".

ولا يزال هذا الأمر محتماً على المسلم الذي يجب عليه أن يلزم اليهود والنصارى أن يعتنقوا الإسلام أو تكون حالتهم أذل من حالة العبيد وكما سنرى قام المسلمون بهذا الواجب وبهذا غلبوا الشام وفلسطين ومصر وفارس. لا شك أن الدافع القوي لكثير منهم إلى الرغبة في الحرب هو حب النهب واتخاذ السراري. ولكن لا يفوتنا أن الدين شجعهم على ذلك. فكانوا يصرحون بأن سبب كل حروبهم هو لانتشار الإسلام أو بعبارة أخرى الجهاد وقد رأينا أن أبا بكر دعا غزوة الشام بهذا الاسم. وأن الخليفة عمر في كتابه لعياض بن غانم في فتح ديار بكر وبقية فارس يدعوها الجهاد. والمؤرخون من المسلمين

يدعون كل الحروب بهذا الاسم. وكان يقدم لأهالي تلك الأمم القاعدة الموضوعة في سورة التوبة التي قام بحفظها المسلمون خير قيام وسنقدم بعض أمثلة من ذلك كتب أبو عبيدة لأهالي مدينة القدس لما حاصرها المسلمون إذا قبلتم ديننا أو رضيتم بدفع الجزية لا نتداخل في أمركم وإلا فأرسل لكم أقواماً الموت لأجل دينهم أحب إليهم من حبكم في أكل الخنزير وشرب الخمور وكذلك يزيد أرسل بمثل هذه الرسالة إلى مدينة القدس أيضاً. ماذا تجيبون عن دعوتكم الإسلام والحق والشهادة التي هي لا إله إلا الله ومحمد رسول الله حتى يغفر لكم الله ذنوبكم الماضية وبذلك تمنعون سفك دمائكم وإذا رفضتم فاعملوا معنا معاهدات مثل ما عمل من هم أعظم منكم وأقوى وإذا رفضتم هذين الشرطين فالويل والهلاك لكم . وقد ضمن كل ذلك المترجم في قوله إن الرئيس يخيركم بين الإسلام أو الجزية أو السيف فأجابه المسيحيون إننا لا نرتد عن دين المجد وإذا قتلنا فذاك أسهل لنا. وفي بدئ فتح أرمينيا كتب إلى يوستيوس حاكم بلدز يقول أرسلنا لكم كي تشهدوا أن لا إله إلا الله لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله أو تدخلوا في ما دخل فيه الناس أو تدفعوا الجزية صاغرين.

لما أرسل سعد بن أبي وقاص المغيرة بن شيبة إلى يزدجرد في

مديان كانت معه رسالة من الخليفة هذا معناها ندعوك إلى قبول الشريعة السمحة فإذا قبلتها لا تدخل قدم في ملكك بدون أذنك ولا يطلب منك سوى الزكاة والخمس وإذا لم تقبلها تلزم بدفع الجزية وإلا فاستعد للحرب. وقال الكاتب أيضاً إذا رفضتم الإسلام ودفع الزكاة والخمس فادفعوا الجزية وأنتم من الصاغرين فسأله يزدجرد عن معنى كلمة صاغر فقال معناها أن تدفع الجزية وأنت واقف على قدميك والسوط يعمل فوق رأسك ويقول الواقدي أن أبا موسى أرسله سعد بن أبي وقاص إلى القائد رستم قبل معركة القادسية يقول جئنا لنطلب منكم أن تقبلوا الشهادة والإسلام وإلا فالسيف خير شاهد بيننا فيتضح أن المسيحيين والمجوس كانوا مجبورين على دخول الإسلام أو مخيرين بين إحدى ثلاث (١) أما الإسلام رغماً عن إرادتهم (٢) أو دفع الجزية وهم من الصاغرين (٣) أو الموت. وكله ناتج من قوانين القرآن الواردة في سورة التوبة كما أوردناها قبلاً ولا ننكر أن معاملة المجوس والمشركين كانت أشد من معاملة المسيحيين كما في آية ٦ من نفس السورة فإن لقب أهل الكتاب هو لليهود والنصارى فقط.

وعليه فالذين أجبروا على اعتناق الإسلام خوفاً من السيف رفضوه لما رأوا في أنفسهم قوة على ذلك ففي سنة ٣٠ هـ أرسل الخليفة

عثمان بن أبي العاص أو كما يقال سعد أخاه ضد يزدجرد الذي كان يساعد أهل استخر الذين كانوا خضعوا للإسلام ثم ارتدوا عن الصراط المستقيم ولكن التصريح بأن الإسلام ليس من الله فهو خطر أعظم جداً. إذ أن شريعة القرآن في ذلك القتل فقد جاء في سورة البقرة ٢: ٢١٤ "وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ".

وفي ابن هشام في باب فتح مكة يذكر أن محمداً قتل رجلاً لارتداده عن الإسلام.

وإذا اعتنق الإنسان الإسلام ظاهراً ولم يؤمن به باطناً فهو منافق ومصيره بحسب القرآن أنه في الدرك الأسفل من النار. ومع ذلك فكان الواجب الأول على المسلمين في أيام الإسلام الأولى أن يلزموا الناس باعتناق الإسلام أو بعبارة أخرى يلزموهم بالنفاق وكذلك الشهوات والتجارب العالمية كانوا يقدمونها لمن يقبل الإسلام ولو ظاهراً وبهاتين الطريقتين انتشر الإسلام. وكانوا يتخذون الجهل في تلك الأيام وسيلة لحفظ الناس في هذا الإيمان وذلك واضح من امر الخليفة عمر في المكاتب التي كانت توجد في البلاد التي يفتحونها.

فقد كتب أبو الفرج عن مكتبة الاسكندرية ما معناه.

إن عمرو بن العاص لما فتح مصر سنة ٦٤٠ م سأل عمر ماذا

يعمل بالمكتبة فأجاب إذا وافقت الكتب القرآن فلا لزوم لبقائها وإذا لم توافقه فيجب إتلافها. وفي كشف الظنون سأل سعد بن أبي وقاص لما فتح الفرس عما يعمل بمكاتبها. فكان جوابه ما معناه اطرحها في الأنهار فإن كان فيها هدى فنحن عندنا أحسن هدى في كتاب الله وإذ كان فيها ضلال فليقينا الله شرها وقد أطاعوا أمره في مصر وفارس. إلا أنه في عصر المعتزلة سادت الحرية نوعاً ما في البلاد الإسلامية في البحث والاستقصاء.

والاضطهادات التي وقعت على المجوس الذين رفضوا اعتناق الإسلام جعلت كثيرين منهم يهربون إلى الهند حيث سلالتهم الآن وفي بومباي جمعية صناعية نشيطة منهم إذ وجدوا أنه أسهل بكثير أن يعيشوا في وسط الهنود الوثنيين من أن يعيشوا في بلادهم تحت ذل واضطهاد المسلمين. وكل من عاش أو سافر إلى البلاد الإسلامية يعرف مقدار الذل الواقع على الذميين سواء نصارى أو يهود أو مجوس فلا تقبل لهم شهادة في المحاكم ولا يمكنهم الدفاع عن أنفسهم من الشر والحيف بل هم معرضون في كل آن للمذابح الإسلامية. كما حصل في أطنة وأرمينيا وفي بلغاريا منذ سنوات قليلة. ولمدة أجيال كانت تؤخذ أبناء المسيحيين خطفاً ويلزموا باعتناق الإسلام قسراً ويخدموا

كيسقجية وهم جماعة الانكشارية التي أفناها أحد السلاطين قريباً.
ولماكان مصحح هذا الكتاب في فارس بقرب أصفهان كان يعرف شخصاً مسلماً ساكناً بقرية قريبة منه فقال له هذا المسلم منذ خمسين سنة لما كنت ولداً صغيراً كنت أنا ووالدي وكل أهلي من المجوس فأصدر المجتهد (العالم) يوماً ما أمراً بأن يعتنق جميعنا الإسلام. فذهبنا إلى الوالي وترحمنا منه ورفضنا أن نغير ديننا وقدمنا رشوة للعلماء وأشراف المسلمين. فأخذوا مالنا ولم يساعدونا. وصرح المجتهد أنه يقدم لنا فرصة حتى ينتصف يوم الجمعة المقبل فإن لم نعتنق الإسلام في تلك المدة فنقتل كلنا. وفي ذلك الصباح تجمهر حول قريتنا رعاع المسلمين وبأيديهم أسحلة مميتة منتظرين الميعاد المضروب ليبتدأ بالنهب والقتل وانتظرنا عبثاً أن يلين قلب عدونا حتى انتصف النهار ولكن عند الظهر تماماً التزمنا أن نعتنق الإسلام وبذلك أنقذنا حياتنا .

وفي تلك المدينة إلى عهد قريب كان يوجد قانون مؤداه إذا اعتنق فرد من عائلة مسيحية الإسلام ولو كان أصغرهم فكل ممتلكات العائلة تسلم إليه ويطردوا أباه وأمه وإخوته وأخواته من بيتهم ويتركوا في ذل. وإذا تأملنا في التوحش والاضطهاد الذي حل بالذميين في مدة ١٣٠٠ سنة الماضية في كل البلاد الإسلامية نتعجب كيف أمكن

لبعضهم أن يقاوم الاضطهادات التي حلت بهم كي يكونوا منافقين.

وها قد انتهينا من بحثنا في دعوى الإسلام أنه آخر وحي من الله. وإذا تأملنا في المقياس الذي وضعناه في المقدمة وتأملنا في مقدار ما يوافق الإسلام هذا المقياس نجد الجواب سهلاً. وإننا نرى أن الإسلام ليس فيه إلا البند الرابع الذي يتفق مع المقياس ولكن من الوجه الآخر نرى في المسيحية جميع هذه الشروط تامة.

الفصل الثامن

وهو الخاتمة

والآن أيها القارئ العزيز ها قد فحصنا معاً الأدلة التي تقام على صحة الإسلام وبحثنا دعوى محمد بأنه سيد المرسلين وخاتم الأنبياء، وبقي عليك أن تحكم لنفسك تحت نظر الله العارف بقلوب البشر إذا كانت هذه الدعوى حقيقية أم كاذبة والله أرحم الراحمين نسأل أن يهديك إلى سواء السبيل.

فعليك أن تختار أما الرب يسوع المسيح كلمة الله أو محمد بن عبد الله - تختار ذلك الذي جال يعمل الخير أو المدعو نبي السيف - تختار الذي قال احبوا أعداءكم (١) أو القائل اقتلوا أعداءكم وأعداء الله - الذي

(١) (بشارة متى ٥:٤٤)

صلى لأجل قاتليه(١) أو الذي أمر بقتل من عاب عليه. لا شك أنك عارف بأخلاق وحياة المسيح التي هي من أعظم الأدلة وأقوى البراهين على صحة دعواه جاءت الشمس دليلاً على الشمس - إذا أردت أن تعرفه (الله) فلا تحول وجهك عنه ومن الوجهة الأخرى قد رأيت ما كتبه كتبة المسلمين عن حياة وأخلاق محمد. فاحكم لنفسك إذا كانت أخلاقه افضل من أخلاق المسيح فأنت مبرر في رفض المسيح وقبول محمد مخلصاً بدلاً عن المخلص. أنت عارف أن الكتاب المقدس هو كلام الله وهو يعلمنا أنه إتماماً للنبوات قد وضع حياته الثمينة لأجل الخطاة وكفر عن خطايانا أما محمد فمات موتاً طبيعياً ولم يدع أنه مات عن خطايا الناس، وقد قام المسيح حسب وعده وبحسب شهادة تلاميذه فأثبت بذلك أنه غلب الموت(٢) أما محمد فلا يزال في القبر.

يوجد في المدينة بين قبري محمد وأبي بكر محل قبر يقول المسلمون أنه سيكون قبر سيدنا يسوع المسيح ابن مريم لم يدفن به أحد البتة، وفراغه يذكر الحجاج أنه حي (٣) ومحمداً ميت فأي الاثنين أقدر على مساعدتك؟ أنت تؤمن أن المسيح سيأتي ثانية بل تنتظر الآن مجيئه بخوف وكذلك نحن المسيحيين ننتظر مجيئه الثاني برجاء وفرح

---

(١) لوقا ٢٣:٢٤ (٢) ٢ تيموثاوس ١:١٠ (٣) رؤيا ١:١٨

عالمين أن وعده (١) ووعد ملائكته(٢) سيتم. أننا ننتظر الوقت الذي فيه يتم قال الرسول "هُوَذَا يَأْتِي مَعَ السَّحَابِ وَسَتَنْظُرُهُ كُلُّ عَيْنٍ وَالَّذِينَ طَعَنُوهُ وَيَنُوحُ عَلَيْهِ جَمِيعُ قَبَائِلِ الأَرْضِ"(٣) فكلما اقترب يوم مجيئه زدنا غيرة في طاعة أمره الوداعي (٤) وداومنا الكرازة بالإنجيل لجميع العالم. وحياتنا على الأرض ليست طويلة وكذلك حياتك فكأموات نطلب من أموات أن يؤمنوا بالله الحي القدوس العادل الرحيم. نسألك أن تقبل في داخل قلبك ذاك الذي هو نور العالم(٥) حتى تسير في هذه الحياة في نور حق الله وتنجو من فخاخ الشيطان ومن سلاسل وعبودية الخطية ولا تخجل أخيراً من المسيح عند مجيئه ليدين العالم(٦) بالبر "لأَنَّهُ لاَ بُدَّ أَنَّنَا جَمِيعاً نُظْهَرُ أَمَامَ كُرْسِيِّ الْمَسِيحِ"، "وَأَعْطَاهُ اسْماً فَوْقَ كُلِّ اسْمٍ لِكَيْ تَجْثُوَ بِاسْمِ يَسُوعَ كُلُّ رُكْبَةٍ مِمَّنْ فِي السَّمَاءِ وَمَنْ عَلَى الأَرْضِ وَمَنْ تَحْتَ الأَرْضِ وَيَعْتَرِفَ كُلُّ لِسَانٍ أَنَّ يَسُوعَ الْمَسِيحَ هُوَ رَبٌّ لِمَجْدِ اللهِ الآبِ"(٨) ستجثو يوماً ما أمامه فلماذا لا تجثو الآن.

إننا نقدم لك البشارة المفرحة عن محبته التي جعلته يضع نفسه

---

(١) يوحنا ١٤:٣ (٢) اعمال ١١:١ (٣) رؤيا يوحنا ٧:١ (٤) مت ١٨:٢٨-٢٠
(٥) يوحنا ١٢:٨ (٦) مت ٣١:٢٥-٤٦ (٧) ٢ كورنثوس ١٠:٥ (٨) فيلبي ٩:٢-١١

لأجلك أنت الذي لم تؤمن به كما آمن (١) تلاميذه. وهو الآن يقدم لك مجانا هبة(٢) الخلاص والثقة بمغفرة الله لخطايانا والنعمة لتخدمه تعالى بحياة جديدة وأخيراً يعطي لك مكاناً في المنازل السماوية(٣) في حضرة الله في السماويات التي لا يدخلها نجس(٤).

صل أيها الأخ أن يهديك الله وأن يرشدك إلى حكم عادل في هذا الأمر المهم قبل أن يفوت الوقت. وبذلك تكون في جانب الله في الحرب بين الحق والباطل. وتجد الحق في ذاك الذي هو الطريق والحق والحياة(٥). وإن سرت هنا يومياً مع الله وقبلت في قلبك ذلك السلام الذي لا يمكن للعالم أن يعطيه لأحد وأعتقت من خوف الموت وجهنم يمكنك أن تنظر بفرح إلى قيامة مجيدة وعندما يأتي ثانية ليدين العالم بالبر تنال من يده القوية إكليل الحياة الأبدية.

---

(١) ١ كورنثوس ٣:١٥ (٢) رومية ٢٣:٦ (٣) يوحنا ٣:١٤ (٤) رؤيا ٢٧:٢١
(٥) يوحنا ٦:١٤